



موسوعة

# وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب

الجزء الثاني



## وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

---

اسم العمل الفني: خيمة بدوى

التقنية: رسم بالحبر الأسود

المقاس: ٥٠ × ٧٠ سم

خاض معظم علماء بعثة الحملة الفرنسية فى تصوير العادات والتقاليد والمناسبات والأعياد، فرسموا كل ذلك فى لوحات تحمل التفاصيل المتسمة بالإثارة. وكانت مصر فى أذهان الغرب وطن غامض الملامح يفص بالجان والأقزام والوحوش الخرافية... ولم تر الصورة الواقعية لمصر النور إلا بعد رسائل من مصر لإتبيين سافارى، ورحلة إلى سوريا ومصر للكونت شاسبيف دى فولنى. وهنا أحس الغرب بقدر هذين الكتابين ورحبوا بهما أيما ترحيب، وترجما إلى الألمانية والإنجليزية وما إلى ذلك من اللغات.

يقول سافارى: (بين احتشاد الأشجار الظليلة تتناثر أحواض الزهور التى يعبق بها الجو، أريجها العطر رغم لفح الظهيرة جعل منها الفردوس الموعد للظامئ العطشان).

ويقول فولنى: (بيوت القرى تشبه الأطلال المتداعية، والدلتا سهل لا نهاية له، يتبدل شكله حسب المواسم....)

محمود الهندى

---

# وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب





## مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك  
موسوعة وصف مصر

### الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

### وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهنـدى

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

---

## على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير صرحان

---



## مقدمة الطبعة الأولى

صدر منذ نحو عامين المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر — وتعنى الترجمة الكاملة هنا أننا ننشر النص الكامل دون تصرف من أى نوع ، أما تقديم ترجمة كاملة لكل وصف مصر فسيظل مطمحاً نرجو أن تساعدنا الأيام فى تحقيقه — مشتملاً على احدى دراسات هذا السفر الضخم ، وكان موضوعها « دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر الحديثين » ، وهى من وضع المهندس الشاب ، ج. دى شابرول ، الذى يشار اليه باسم شابرول دى فولفيك ، والذى شارك فى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولقد كانت النية تتجه الى مواصلة نشر أجزاء من وصف مصر تبعاً لسن الظروف لم تكن مواتية ، فتأخر نشر المجلد الثانى منه الى اليوم ، ولا بد ان القراء سوف يلتمسون العذر حين يعلمون ان نشر هذه الترجمة ، فضلاً عن الترجمة ذاتها ، يتم بجهود ذاتية .

● وفى مقدمة المجلد الاول ذكرت انه على الرغم من اية دوافع ذاتية ، قد تكون وراء نشر مؤلف كهذا ، الا اننى احب ان اربط الجهد كله بتلك الحركة التى دبت فى مصر ، منذ يونيو ١٩٦٧ ، والتى زادت بعد اكتوبر ١٩٧٣ . الذى اعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثقته بالنفس ، فاستمرت فيما بدأت فيه فى محاولتها التفتيش والبحث عن الذات ، ساعية الى استقرار كافة تاريخها ، لاسيما تاريخها الحديث الذى بدا فى بعض فترات حياتها المعاصرة وكأنه لا يلقى الاهتمام الكافى . وحين أحاول ان أجد ما أقدم به هذا المجلد الثانى ، فاننى أجدنى أكاد أكرر نفس ماقلته آنذاك . ان التاريخ حلقات متصلة ، كل حقبة منه تحمل ظل سابقتها ، كما انها تشكل على نحو ما ملامح الحقبة القادمة حتى ولو قامت ثورات شاملة ، تسعى لتغيير كل شئ ، فمعطيات الواقع وعناصره ، التى يتشكل منها الحاضر . الذى يصبح بعد ذلك «تاريخاً» قادراً على التحور: لتوجد فى أشكال جديدة ، بتسميات جديدة . وأكثر من ذلك فان ما « مضى » — أى ماحدث وأصبح تاريخاً — هو أكثر أبعاد الزمن صدقاً،

لأنه تشكل بصفة نهائية ، فى حين يظل الحاضر افتراضا زئبقيا ، يقفز دوما الى الامام ، أو يتشبث بمعطيات الماضى ، أو يفعل الاثنين فى وقت معا فى اغلب الأحيان . نعم ، قد تضطربنا الظروف لاستقراء الماضى على نحو ما ، كما أن من المشروع — من الناحية الأكاديمية البحتة وليست السياسية العارضة فقط — أن نختلف فى تفسير دروس التاريخ ، ومغزى معطياته ، لكن الوقائع مع ذلك لا بد لها أن تحترم هذا الوازع الأخلاقى ، ليس فقط لأن الصدق مع النفس يقتضى ذلك ، وانما لاننا — أيضا — اذا ماسلكنا هذا الدرب — درب عدم احترام الوقائع التى تمت أو تجاهلها — لن نستطيع مطلقا أن نفهم الحاضر الذى نعيشه ، وسيصبح هذا الحاضر مجرد محاولات تتنصل متخبطة ، فى حين يصبح المستقبل نفسه مغامرة غير مأمونة الى أن يأتى اليوم الذى يصبح فيه المستقبل واقعا مريرا ، أو حاضرا لم نكن نتوقع أننا نسير اليه .

لكن هذا الذى نقر به لا يعنى مطلقا أننا نحبز الجبود أو ندعو اليه ، فالتطور حتى شئنا أم أبينا ، والماضى لا يعود مطلقا ، كما انه ليس خيرا كله ، وفى نفس الوقت ، فلا بد أن تكون لنا أحلامنا وطموحاتنا فى مستقبل أفضل ، نصنعه ، ولا ندع الأيام تصوغنا كما تهوى . ولكن يبقى هناك على الدوام الفرق بين الطموح المشروع وبين الخيال المضى ، وبين الاعتراف بالواقع وبين الجمود ، وفى كلمة ، بين أن نبني فوق أساس متين ، وبين أن نشيد قصور الوهم العالية فوق الرمال الفاعمة ، المتحركة .

لا بد أن هذا كله ، أو بعضا منه ، أو أكثر من ذلك ، هو الذى حدا بالحركة المصرية فى مصر أن تنقب فى تاريخها الحديث ، وأن تتصدى له ، وأن تحاول إعادة النظر فى أمور كادت تعد من المسلمات . ومن اللافت للنظر أن الذين تصدوا لهذه الحركة الفكرية التى ارتبطت بالتاريخ لم يكونوا كلهم من أساتذة التاريخ ، مما يعنى أن التاريخ كعلم قد أصبح « ثقافة » يحرص المثقفون جميعا ليس فقط على الإلمام بها واستيعابها ، وانما كذلك على الاسهام فيها ، دون أن يعنى ذلك مطلقا أى مساس بقدر وانجاز أساتذة التاريخ الاجلاء ، الذين ستظل منوطة بهم بطبيعة الحال الانجازات الرئيسية فى هذا المجال .

ومن جهة أخرى فأننى لا أريد أن اتهم رأى هنا ، ولست أريد بالذات أن يكون تقديم هذه الدراسات هو المناسبة التى يقال فيها رأى خاص أو يدور جدل لا ينبغى أن يتحمل هذا العمل وزر خطئه ان كان مخطئا ، أو يقال دعما بسببه قد لا يستحقه ان كان هذا الرأى صائبا . فليسنا هنا على الأقل ازاء مؤلف نضعه فى الوقت الحاضر ، نساهم به فى جدل قائم ، لكنه « ترجمة » لدراسات كتبها « اجانب » عن ظروف بعينها عاشتها مصر فى بعض مراحل حياتها ، كما انها قد كتبت من وجهة نظر هى ليست وجهة نظرنا . وقد حملت وجهة النظر هذه بالطبع بصمات الظروف التى كتبها فيها أصحابها ، كما عبرت اكثر من ذلك عن رغباتهم وطموحاتهم ومتاعبهم هم . . وان كان ذلك لايعنى انكار الوقائع، كما لا يعنى كذلك أن تصدر حكما قاطعا بموجبها ، فليست هى الحثيات الوحيدة ، او التى لا يأتياها الباطل من بين يديها او من خلفها ، واكثر من ذلك فاننا لاينبغى أن ننظر الى الحاضر من معطيات ماضى ولى ، بل وتمثلنه مصر واصبح جزءا منها . بل اننا قد نرى فى هذه اللوحة القاتمة التى تقدمها هذه الدراسات التسع فى مجلداتها - بخصوص علاقة مصر بالقبائل العربية التى كادت تحيط بها وتنغذ الى اعماق واديها ووللتها وعلى الرغم من كل التحفظات الضرورية التى سبق ابرازها - امرا ايجابيا ينبغى ابرازه، الا هو تلك القدرة العبقريّة الغذة التى لمصر ، والتى تمكنها من استيعاب كل المتناقضات ، واحتواء كافة نواحي السلب ، ثم تمثل ذلك كله بخطو وثيد ولكنه واثق ، ثم افرازه فى النهاية كيانا سويا ، متناغما ، وفوق ذلك كله ، مصريا . . كانها كانت هذه الحركة العنيفة من الشد والجنب بوتقة ينصهر فى اتونها شعب مصر ، ليصبح واحدا من اكثر شعوب العروبة امتزاجا وتوحدا . . وليس صدفة ان مصر وحدها دون كل شعوب المنطقة ، هى التى لاتشكو من وجود اقلية عنصرية فى داخلها ، على الرغم من كثرة من وفدوا اليها . . وبخلاف شعوب أخرى من حولنا .

بل اننا نكاد نقف فى هذا المثال الفذ على درس حضارى ، بل انسانى عظيم فى هذه القدرة على التمثل والهضم ، فحين تمثلت مصر العناصر المملوكية والتركية مثلا ، فقد جعلتهم ابناءها ، لايكاد يميزهم أحد عن سواهم ، وبغض النظر عن بعض التفاصيل الوقتية او المرحلية ، فقد أصبحوا محض مصريين ! وهكذا ذاب الغالب فى المظلوب ، وأصبح قدره قدره ، وهو نفس قدر مصر ، يجوز عليهم مايجوز عليها .

واذا ماتركنا كل هذا لنقترب من العمل الذى بين يدينا فإنا نجد  
كما سبق القول ، يشتمل على تسع دراسات لثمانية مؤلفين من الذين  
شاركوا فى الحملة الفرنسية على مصر ، وبالتالى فى وضع وتأليف  
كتاب وصف مصر .

واذا كان من المقبول والممكن أن نقدم الدراسات الكبيرة من هذا  
المؤلف الكبير فى كتب مستقلة كما هو الحال بشأن المجلد الأول ، وبشأن  
دراسات أخرى كثيرة : كدراسة جومار عن مدينة القاهرة ، ودراسة  
ديجينيت ولارى عن الأمراض ، ودراسة جيرار عن الزراعة والصناعة  
والتجارة ، ودراسة فيوتو عن الحالة الحالية لفن الموسيقى والغناء عند  
المصريين ، فإنه من غير الممكن أو المتصور كذلك أن نقدم الدراسات القصيرة  
على نفس النحو ، أى فى كتب مستقلة ، كما لا يحسن تقديمها مجمعة كيفما  
اتفق . ولكى يكون القارئ فى الصورة معنا ، فإننى أوضح له دون أن  
يعنى ذلك أى مأخذ — أن الدراسات فى كتاب وصف مصر تتجاوز فى نفس  
المجلد ، قصيرة وطويلة ، دون نسق منهجى واضح . هى إذن أشبه  
بكتب وكتيبات مستقلة تتجاوز أو تتلاحق دون رابطة منهجية ، وإن كانت  
تدخل كلها بالطبع ضمن إطار « وصف » مصر .

ولقد حاولنا أن نضفى هنا طابعا منهجيا على هذه الدراسات ،  
فحاولنا تجميعها حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله . فجاء هذا  
المجلد بدراساته التسع التى تدور كلها حول القبائل العربية ودورها  
فى مصر .

ومثل هذا المنهج — مع أنه فى تقديرنا أفضل مما يمكن اتباعه —  
لا يمكن أن يكون مبررا من الميوب ، أن لكل دراسة من هذه الدراسات  
التسع ظروفها التى كتبت فيها ، كما أنها تختلف باختلاف نظرة كل من  
مؤلفيها الثمانية الى الأمور ، ما بين منصف ومتحامل ومجامل أيضا ..  
وما بين نظرة استعمارية تنشد الإصلاح لغرض بعينه ، وما بين فهم  
إنسانى شامل وعميق للأمر .

ومن جهة أخرى فإن معطيات هذه الدراسات تتجاوز فى الحقيقة  
الإطار الذى وضعت داخله فى ترجمتنا العربية ، فليسوف تقابلنا فى  
نهاياتها :

- أمور تختص بجغرافية مصر وطبوغرافيتها

- وأمور أخرى تتعلق بمسيرة الحملة الفرنسية ذاتها على مصر والمتاعب والصعوبات التي كانت تواجهها .

- وأمور ثالثة قد تدخل في نطاق تاريخ العلم، فالأحداث والاكتشافات اليوم قد تجاوزتها .

- وهناك أمور رابعة تعد من قبيل جغرافية التاريخ . أي تناول التاريخ في مرحلة بعينها بشكل سكوني .

وهذه بالتأكيد عيوب ليست من صنع واضعي هذه الدراسات ، الذين لم يقصدوا وقتها أن يضموا دراساتهم في نفس السياق الذي نضعها نحن فيه اليوم ، وإنما هي ناتجة بالتأكيد من محاولة إضفاء منهج لأمناص من اتباعه في واقع الأمر - لكنه بالتأكيد يأتي من خارجها . وعلى كل فإن مثل هذه العيوب تخفى كلية لو أننا حذفنا العنوان الذي اقترحناه على هذه الدراسات التسع ، واكتفينا بالإشارة إلى هذا المجلد باعتباره المجلد الثاني في الترجمة العربية الكاملة ، وإن كان هذا بدوره غير متصور ، إلا بعد أن تتم ترجمة ونشر هذا السفر كاملا ، أو على الأقل المجلدات الثلاثة الخاصة بالدولة الحديثة .

ولقد شارك في تأليف هذه الدراسات كما سبق القول ثمانية من علماء الحملة الفرنسية ، وبرز هؤلاء بالتأكيد الرياضي الشهير العلامة مونيخ ، رئيس المجمع العلمي الذي أنشأه بونابرت في القاهرة . وتوضح الدراسة التي « يشارك » بها هنا - الدراسة الرابعة « دراسة موجزة عن عيون موسى » - أسلوبه المركز والمليء ، والصارم في دقته وموضوعيته ، وإن كنا نأسف حقا لأننا لم نجد له في هذا الإطار الذي اخترناه دراسات أكبر وأطول ،

وأول دراسات هذا المجلد الذي بين يدينا من وضع أميديه إميليان جوبير وهو مستشرق فرنسي ، وعضو مجمع العلوم في فرنسا ، وقد شارك في حملة مصر بوظيفة سكرتير أول مترجم للقائد العام بونابرت ، وتولى تدريس اللغة التركية عقب عودته إلى فرنسا ، ثم قام ببعض المهام الدبلوماسية في مارس وتركيا خدمة للنايلبون . وقد عين بعد عودة الملكية



الى فرنسا سكرتيراً مترجماً عام ١٨١٩ ، وفى عام ١٨٣٠ عين مدرسا للغة الفارسية فى الكوليج دى فرانس ، وله مؤلفات عن رحلاته الى ارمينيا وفارس ، وعن قواعد اللغة التركية . كما ترجم عن العربية جغرافية الادريسي . وله بالاضافة الى ذلك مقالات كثيرة .

اما الدراسة الثانية فهى لآحد شبان مهندسى وضباط الحملة الفرنسية الذين تصمت كثير من المراجع عن ذكرهم للأسف ، جراتيان لوبر وهو الشقيق الأصغر للمهندس لوبر كبير مهندسى الحملة الفرنسية ، الذى اشرف على الدراسات الهندسية الخاصة بقباء السويس . ومن دراساته فى وصف مصر ، يتضح انه كان من معاونى الجنرال مينو ، وقد أصيب كما ذكر بالطاعون مرتين ونجا من الموت بأعجوبة وتوضح دراساته تشبعه بتخصصه كمهندس اذ يكاد يكون العالم فى نظره اطوالا ومقاييس . وفضلا عن ذلك فان نظريته للأمور يشوبها — فى بعض الدراسات — نوع من التعالى والتعصب .

اما الدراسة الثالثة فهى من وضع الجنرال اندريوسى ( انطوان — فرانسوا اندريوسى ) ، وهو جنرال ( عسكرى ) وديپلوماسى ، وهو الحفيد الأصغر لاندريوسى المهندس والعالم الرياضى ، كان عضوا فى مجمع القاهرة وبعد عودته الى فرنسا عين سفيرا لبلاده فى لندن ثم فيينا ثم استانبول على التوالى . وخلال المائة يوم عاد الى الخدمة تحت قيادة نابليون ، وبعد وائرلو شارك فى المفاوضات لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وله دراسات هامة ابرزها دراسة عن تناقص مساحة كوكب الأرض .

اما ج. كوتل مؤلف الدراسة الخامسة فهو مهندس ، ولد فى مائس ١٧٤٨ ومات بها عام ١٨٣٥ ، أى انه جاء مصر وعمره نحو خمسين عاما ، وقد درس منذ طفولته الفيزياء والكهرباء ، وكان رئيس اركان لجنة السلم العام ، وقد ادت معركة أبى قير الى ضياع كثير من المادة التى جمعها عن مصر .

والدرستان السادسة والسابعة من وضع مؤلف واحد هو دى بوا — ايميه ، ومن المعلومات القليلة التى تذكرها المصادر عنه نعرف انه طالب مهندس ، وانه قدم الى مصر وعمره نحو تسعة عشر عاما . لكننا حين نقرأ دراستيه ، وكذا الأعمال الأخرى التى ساهم بها فى وصف

مصر ، سوف نظن انفسنا بلزاء شيخ كبير عركته الأيلام وباحت له بمكونات سرها وتجاربها . وتجمع اعماله الشامخة بحق بين غزارة المعلومات ، وسلاستها ، وبين عذوبة الأسلوب ورقته وشاعريته . وهو لا يصدر فقط من روح منصفه وانما يتجاوز ذلك بكثير فيصدر بحق عن روح انسانية عظيمة ، لا تكتف عند حدود الأجناس والحضارات بل تتداح عندها الحدود وتتداخل الحضارات ، وتلمس في كتاباته حبه العظيم لمصر وانبهاره الشديد بها . ومن عجب انفسا لم نسمع به واحدا من كبار ادباء فرنسا وعظمائها ، وقد يعود ذلك لأن عمره العبرى كان قصيرا ، فقد مات وعمره لما يتجاوز ٣٦ عاما .

واذا كانت نتقصنا المعلومات الوفيرة كذلك عن ب.م. مارتان مؤلف الدراسة الثامنة ، وان كنا نعرف عليه من خلال دراسته ، ونلاحظ انه كان منتميا الى حد ما بأفكار مينو الاستعمارية بخصوص مصر ، مع اننا نحس فيه حقا رغبته الجامعة في معرفة مصر والوقوف حتى على مجموعة احجارها ، فاننا ولاشك نعرف الكثير عن جومار او ادم — فرانسوا جومار مؤلف الدراسة التاسعة عن عرب مصر الوسطى ، وهو مهندس وجغرافى واركيبولوجى. وقد ولد في فرساي عام ١٧٧٧ ومات عام ١٨٦٢ — اى انه قد قدم الى مصر وعمره لما يتجاوز ٢١ عاما ، وعلى الرغم من ذلك جاءت دراساته الكثيرة لتشهد له بالدقة وسعة الأفق واتساع المعارف ، وسلاسة الأسلوب لذلك فقد حل محل مונج عندما غادر الأخير مصر في صحبة بونابرت . وقد ساهم بجهود كبيرة في نشر وصف مصر ، وقد كانت له مكانة كبيرة عند كل من محمد على وسعيد باشا ، وانعم عليه بلقب بك ، ولما اعيد انشاء المجمع العلمى المصرى اسندت اليه رئاسته الفخرية عام ١٨٦١ ، وكان معدودا من بين كبار علماء الجغرافيا والاثار القديمة في فرنسا .

ولقد ترددت كثيرا في اختيار بعض هذه الدراسات كي أدخلها في هذا الإطار ، وتكاد الدراسات الثمانية والثامنة تحطيان بأكثر قدر من هذا التردد ، خاصة واننى قد أعددت مجلدا آخر من هذه الدراسات القصيرة يدور حول « وصف بعض المدن والأقاليم المصرية » ، لكننى فضلت بعد تفكير طويل وضع هاتين الدراستين على الرغم من انتمائهما أكثر الى هذا النسق ، بسبب كبر حجم المجلد الخاص بالمدن من ناحية ، وبسبب وجود

اشارات هامة ومساهمة حول القبائل العربية فى الدراساتين ، وكذلك بسبب وجود قائمة بالقبائل العربية فى بنى سويف والفيوم ، وهو أمر تتضح جدواه حين تربط هذه الدراسة بالدراسة الأخيرة التى تدور حول العرب فى مصر الوسطى .

ويحتم واجب الأمانة أن أقر بالمصاعب التى واجهتنى فى تحقيق أسماء القرى والأماكن والقبائل ، بسبب الأخطاء الإملائية ، وأخطاء النطق من جهة وتشابه هذه الأسماء نفسها من جهة أخرى، مع غيبة الإرشادات التى تستخدمها اللغات الأجنبية اليوم حين تكتب الأسماء العربية. وقد اقتضى ذلك منى بذل الكثير من الجهد والوقت والاستعانة بالأصدقاء والمراجع وكافة المظان المقيمة .. ومع ذلك فأننى أرجو الممطرة أن كانت قد تسربت رغم ذلك كله بعض الأخطاء فى هذا الخصوص . وهذا قصور لاشك فيه فى حالة حدوثه لا يمكن تبريره وأننى فى هذا الصدد أقتبل بصدر رحب كل توجيه أو حتى تصويب .

كما يدفعنى واجب الأمانة أن أقر أيضا أننى قد تصرفت فى موطن أو اثنين فى ترجمة عبارتين وجدت من اللائق أن أتصرف فى ترجمتهما . وقد أشرت الى ذلك فى موضعه .

كما أن الأمانة تقتضى كذلك أن أشير الى تلك المساعدات القيمة التى لقبتها فى سخاء وروح علمية عالية من الأساتذة والأصدقاء ، استاذنا الدكتور عبد الرحمن زكى والأخوين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ بكلية البنات الإسلامية والأستاذ ريفيه خورى .

كما لا يفوتنى أن أوجه شكرا خاصا للدكتور عبد العزيز الدسوقي رئيس تحرير مجلة الثقافة الذى أفسح لهذا الجهد صفحات مطولات من مجلته القيمة ، بشكل يستحق عليه من جانبى كل الشكر ، كما كان لتشجيعه بالكتابة عنه بقلمه أو بأقلام آخرين أفضل الأثر فى نفسى .

وحين أختتم ذلك بإسداء الشكر الى السيدة زوجتى على ماتقدمه من عون وتشجيع من أجل انجاز هذا العمل فائتى لا افعل ذلك لياقة او مجاملة وانما اقرارا لحق واعترافا بواقع ملموس ومشكور .

كما اقدم الشكر لكل من ساهم فى تشجيعى على هذا العمل ولو بمجرد التشجيع الشفهى — واقدم الشكر سلفا لكل من يتطوع بالنصح والتوجيه .

وكل ما أرجوه أن يكون هذا الجهد نافعا لوطنى مصر ولوطني المصريين وسيكون هذا — لو تحقق — هو افضل الجزاء .

والله تعالى هو الموفق ،،،

**زهير الشليب**

مارس ١٩٧٨



الدراسة الأولى :

# جولة في إقليم المريوطية برائتيان نويرة

العنوان الأصلي للدراسة هو :

دراسة موجزة عن الجزء الغربي من  
ولاية البحيرة والذي كان يعرف قديما باسم  
اقليم المريوطية .



حين نتذكر وجود منطقة قديمة لم تتغير طبيعتها (\*) .. لكنها مع ذلك لم تعد كما كانت في الماضي أهلة بالسكان أو مزرعة ، بمعنى ذلك أننا نحاول النظر في امكانية استجلاب سكان جدد إليها ، وبخاصة عندما لا تكون هذه الأراضي قد فقدت العوامل الطبيعية الخصوبتها . ونحن نقصد هنا بهذا الحديث ذلك الاقليم الذى يقع في أقصى الغرب من شمال مصر والذي كان يعرف في زمن الامبراطورية الرومانية باسم اقليم المريوطية ، والذي لا يحمل اسم مريوط الحالى الا مجرد ذكرى باهتة لوجوده . وهذا الاسم — مريوط — تد اطلقه العرب على مدينة قديمة في هذا الاقليم .

وعلى الرغم من ان هذه المنطقة تقع على مشارف الاسكندرية ، فإنها في أيامنا هذه مهجورة وخالية من السكان حتى أننا لا نكاد نعرف — مجرد معرفة — عدد المدن الخربة الموجودة فيها والتي لا يتردد عليها سوى العربان الرعاة أو الرحل ، الذين يأتون ليقيموا فيها خيامهم في اوقات معينة من السنة . وسوف يساهم الوصف السريع الذى نقدمه هنا عن حالة هذه المنطقة في الماضي وكذلك بعض المعلومات التى نقدمها عن

---

(\*) في الرابع من جرمينال من العام التاسع بالتقويم الثورى الفرنسى ، الموافق ٤ ابريل ١٨٠١ ، قطع الجيش الانجليزى — التركى جسور ترعة الاسكندرية ، عند الطرف الغربى لبحيرة المعية ، على بعد ٧ كيلومترات من باب رشيد ، الواقع الى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة ، وكذا مياه البحر الذى يتصل بها .. وبعد سبعة يوما أى في نهاية شهر بريريل ( ١٥ يونية ١٨٠١ ) املا الحوض القديم لبحيرة مريوط .

ولكى تتبين فرق الجيش العسكرية بالاسكندرية حقيقة حالها ، وطبيعة الموقف الذى اصبحت فيه ، قامت فوراً استطلاع من الجيش لساح هذه المنطقة ، فكانت هذه الدراسة

( المترجم )



حالتها الراهنة في رسم خريطة مصر الجديدة وفي اعطاء افكار دقيقة الى حد ما عن هذا الجزء من ارض مصر (١) .

وقد اطلق الرومان اسم اقليم الميوطية على كل البلاد الواقعة بين بحيرة ماريوتيس « مريوط » والبحر في الشمال . ويحدد هذا الاقليم من جهة الغرب : البحر بلا ماء ، ومن جهة الجنوب وادي اقليم نثريوتيس ، ومن الشرق الفرعة التي كانت تحمل مياه النهر الى البحيرة التي اعطت الاقليم اسمها . وكانت بحيرة ماريوتيس تمتد حسبما يقول سترابون حتى مدينة نابوزيريس على الخليج البلتيني ، وكانت محاطة بالمساكن الغضة والقرى والمدن وكانت مدينة ماريا عاصمة لهذا الاقليم . وقد عاشت هذه المدينة قبل مجيء قمبرز بوقت طويل في العام ٢٢٩ من تأسيس روما أي قبل الميلاد بـ ٥٢٥ سنة . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : « وعندما شعر سكان ماريا بالنفور من الحفلات الدينية التي كانت للمصريين ، ارسلوا يستلهمون الوحي من جوبتير آمون كي يعرفوا ما ان كان ينبغي عليهم ان يخضعوا لهذه القوانين ، لانهم كانوا يظنون انفسهم من شعوب ليبيا لكن الوحي اجاب بان كل البلاد التي يغطيها النيل بمياهه تابعة لمصر ، وان الاقوام الذين يشربون من مياهه انما هم مصريون » . وهذا الاقليم الذي يقع على تخوم الصحراء الليبية هو في الواقع اقليم مصرى ، وكان على الدوام خاضعا لحكم الامراء المصريين ، وفضلا عن ذلك ، فهو يدين بكل مبانیه وزراعاته لمياه النيل . وعلى هذا ، فان اجابة وحي آمون تبدو صحيحة وطبيعية .

وترجع اسماء اهم المدن والقرى في هذا الاقليم — كما نورد هنا — الى المعالم الجغرافية بطليموس الذي يحدد مواقعها الجغرافية على النحو التالي :

(١) مريوط . واسمها القديم ماريوتيس . يقول عنها عبد الرشيد في معجمه : انها مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ، واشتهر عن سكانها انهم يعمرون طويلا .

اسم المدينة	خط الطول	خط العرض
شيموفيكس	٢٠° ٥٩'	٦° ٣١'
بلنتين	٤٥° ٥٩'	٠° ٣١'
جزيرة شرسونيسيس ومدينة بورتس	٠° ٦٠'	٦° ٣١'
مونوكامينيم	١٠° ٥٩'	٣٠° ٣٠'
هالميرا	٤٠° ٥٩'	٥٠° ٣٠'
تابوردريس	٥٠° ٥٩'	١٥° ٣٠'
كوبى	١٠° ٥٩'	٢٠° ٣٠'
أنيفيل	٣٠° ٥٩'	٢٠° ٣٠'
هيراكس	٤٠° ٥٩'	٤٠° ٣٠'
فومونيس	٠° ٦٠'	٤٠° ٣٠'
بالى ماريا فيكس	٠° ٦٠'	١٠° ٣٠'
ماريا بالوس	١٥° ٦٠'	٥٠° ٣٠'
الإسكندرية وراكوتيس	٣٠° ٦٠'	٠° ٣١'
كانوبوس ، ميلادى ، متروبوليس	٤٥° ٦٠'	٦° ٣١'

ويمكن بواسطة هذا الجدول ، أن نستدل بسهولة على الموقع الخاص بأهم الأماكن فى هذا الإقليم القديم ، وأن نرسم خريطة له : ولكننا سرعان ما نلاحظ عند تجميع هذا الجدول ، بعض الأخطاء التى تعود بلا ريب ، الى معطيات خطوط العرض ، اذ كيف نجد جزيرة شرسونيسيس ، التى لا جدال فى انها هى الموقع الحالى لمربوت ( العجمى ) ، وهو راس صغير به حصن ، ويقع على بعد فرسخين صغيرين ، على الشاطئ الذى ينحدر الى الجنوب الغربى من الاسكندرية — كيف يمكن لنا ان نجدها مبنية على ارض الى الشمال من خط عرض هذه المدينة .

ويمكننا أن نقول المزيد بخصوص موقع بلنتين ، التى تبين على نفس خط الاسكندرية ، على الرغم من انها أكثر ابتعادا ، نحو الجنوب الغربى .

ومع ذلك فإن من العسير أن نتقبل أن يكون بطليموس - وهو العالم الجغرافى والفلكى الذى ينتمى الى مدرسة الاسكندرية ، والذى كان يقيم بهذه المدينة من عام ١١٧ الى ١٦١ من العصر الحديث - هو الذى يمكن أن يقع فى اخطاء كهذه حول مواقع أماكن شديدة القرب من عاصمتهم ، كانت تربطها بها علاقات قوية بسبب روابط السياسة والتجارة والدين . . ولمل من الأقرب للصواب أن ننسب هذه الأخطاء الى النساخين والى مترجمى هذا العالم الجغرافى كما يمكن أن ننسبها كذلك الى شراحه كما يرى جوسلان Gosselin (٢) فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق Géographie des Grecs

ويحدد سترابون مواقع المدن الساحلية لهذا الاقليم بشكل مخالف فيتحدث عن كينوسيا وعن تابوزيريس التى يقول عنها بأنها لاتقع مباشرة على شاطئ البحر وأنه كان يحتفل فيها بأعياد كبرى ، ثم يتحدث عن تابوزيريس أخرى تبعد عن الاولى بمسافة كافية ، وكان يجرى فيها كل عام فى فصل الربيع - مسابقة للشعب وبخاصة بين الشبان الذين كانوا يساهمون فى الاحتفالات بالنصيب الأكبر . ونفهم من كلام سترابون أنه كانت تحدث هناك كما كان يحدث أيضا فى كانوبى ومنديس Mendis مشاهد شهوانية خليعة كان يغطيها الكهنة بأقنعة من أسرارهم (٣) .

(٢) يقول جوسلان Gosselin فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق ، الذى شرح فيه ملاحاة القدماء ان بوزيدونيوس Posidonius قد اقترح على مدرسة الاسكندرية مقياسا جديدا للدرجة الأرضية ، وينقص هذا المقياس الذى اخذ به ، قيمة الدرجة الى ٥٠٠ غلوة ، فكانت الدرجة تقاس من قبل بـ ٧٠٠ غلوة للمسافات التى تؤخذ باتجاه خطوط العرض ، وفى الاسكندرية تغيرت المسارات القديمة ، لكن بعضها قد نسي بلا جدال: وينسب جوسلان الأخطاء التى تسربت الى جداول بطليموس الى هذا التغيير .

(٣) فى كتابه عن تاريخ المصريين ، لا يتحدث هيرودت عن الأعياد السنوية التى كانوا يحتفلون بها فى منديس Mendis الا فى تكتم غامض عادة كالأسرار المصرية نفسها ، على الرغم من أنه قد شارك فى هذه الأعياد وتمثلها ، ومع ذلك ، فاذا كان هذا المؤرخ قد استطاع أن يحتفظ بالسر الذى أقسم على الحفاظ عليه للكهنة المصريين ، وبخاصة فيما يتصل بديانتهم ، فان بطاركة الاسكندرية ، وآباء الكنيسة الاول ، لم يترجوا من أن يكشفوا عن خسة وبذاءة هذه الأعياد فى كتاباتهم ، ويمكن الرجوع فى هذا الصدد الى لارشيه Larchet ، الترجمة الفرنسية لهيرودت ، الكتاب الثانى ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، باريس ، ١٨٠٢ ، ( الملاحظات أرقام ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ) .

وبعد هاتين المدينتين اللتين تحملان اسم تلوزيريس تأتي مدن :  
بلنتين ، نيسيبي ، باجوس ، شرسونيسييس ، والآخرى عبارة عن رأس  
صغيرة بها حصن وحامية ، ولم تكن تبعد عن الاسكندرية الا بمسافة ٧٠ غلوة  
« الغلوة الاغريقية = ٧٦ر٥٠ قامة وتساوى الغلوة الاولى ٩٥ قامة » .

وكانت هذه المنطقة تشتهر بجودة نبيذها — وكان من خاصيته انه  
يعيش لوقت طويل — وكانت الاسكندرية تصدر منه كميات كبيرة الى روما  
والى بلدان اجنبية اخرى . كما كانت هذه المنطقة ايضا تغطى بأشجار  
الزيتون وان كان نوعه هناك اقل جودة من نوع الزيتون الذى كان  
يزرع باقليم ارسينويت Arsinoite حيث يعطى الزيتون هناك كميات  
وفيرة من الزيت .

وكان يسكن الجزء الاكبر من هذا الاقليم فى القرون الاولى للمسيحية،  
فى عصر اباطرة القسطنطينية ، المسيحيون الذين كانوا يفرون هربا من  
اضطهاد وملاحقة الاربوسيين والدوناتيين واتباع المذاهب الاخرى  
ليجدوا ملاذا فى صحراوات مصر الغربية وفى الصعيد . وكان وادى  
مربوط مزدحما بالسكان ، وبلغ عدد الأديرة التى بنيت هناك حدا  
دعا الامبراطور فالون Valens فى القرن الرابع أن يكلف الكونت دوريان  
d'Orient حاكم الاسكندرية أن يجرّد حملة على الرهبان الذين يجدهم  
هناك قادرين على حمل السلاح (٤) .

---

(٤) يقول فلورى Fleury فى كتابه ، موجز التاريخ الكنسى  
Abrégé de l'Histoire ecclésiastique ان الامبراطور فالون Valens  
قد امر عام ٣٧٦ بأن يجند الرهبان وأن يرغموا على حمل السلاح  
كجنود . وعلى الرغم من أنه قد ينظر الى هذا الأمر على أنه صادر عن  
حاكم يضطهد الكنيسة ، الا انه يمكن القول بأن هذه الآلاف الهائلة من  
الرهبان قد جعلت مثل هذا الأمر ضروريا ، فلو بلغ عدد الأديرة فى مصر  
العليا وحدها خمسة آلاف دير وكانت مدينة أوكسيرينشيس oxycrynchus  
الواقعة فى الصعيد الأدنى تضم عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهبة  
كما كان دير التبين Tabenne الذى أنشأه القديس باخوم فى الصعيد الأعلى  
يضم خمسة عشر ألف راهب ، اما الدير الذى أنشأته أخته والذى يتبع فى  
مواجهة دبره فكان يضم أربع مائة فتاة ، وكان عدد الذين يحضرون  
الاجتماعات العامة السنوية التى تعقد تحت رياسته يصل الى خمسين

وقد بلغ عدد الذين جندوا تسرا في اقليم الجنوب حوالى خمسة آلاف رحلوا جميعا الى القسطنطينية ، حيث الحقوا بجيش الامبراطور . اما الاديرة التى نجدها حتى اليوم في وادى بحيرات النطرون وفي المناطق الأخرى من مصر ، فليست سوى بقايا هذه الالوف من الاديرة التى كانت تغص بها فيما مضى هذه الصحراوات ، كما أن الخرائب التى عثر عليها الفرسيون في كل مكان في جولاتهم الاستكشافية العسكرية التى قاموا بها في هذا الجزء الغربى من مصر ، تشهد بصحة مايقول به التاريخ عن ازدهار هذه المنطقة المهجورة اليوم بالسكان في الزمن القديم . وسنقدم هنا بعض التفاصيل باعتبارها ذات نفع .

قام اللواء ديستان Desteing قائد منطقة الرحمانية بعد عودة الجيش من الحملة على سوريا ببعض حملات ضد العربان في شهر ترميدور من

---

الف راهب . وكان عدد الرهبان المقيمين في الاديرة الكبيرة وحدها في مصر يبلغ ٧٦ الف راهب ، أما عدد الراهبات فقد بلغ حوالى العشرين الفا . ولا يتضمن هذا الرقم أعداد الرهبان والراهبات في الاديرة الصغيرة التى لا يحصيها عد ، وكان يخضع لسلطة الاب سيراپيون Sérapion بالقرب من ارسينويه Arsinoé عشرة آلاف راهب .

ويمكن ان نرجع سبب هذا الحماس لحياة الاديرة في ذلك الوقت الى تفشى روح الحزبية التى مزقت الكنيسة في القرون الاولى من انشائها ، اكثر مما يمكن أن نرجعها الى الاضطهادات التى تعرضت لها الكنيسة : فقد كانت الاسكندرية مسرحا داميا لانشقاقات الدونانيين والاريوسيين ، ذلك ان المسيحية التى انتشرت بعد المسيح في صمت وسلام ، بدأت في عهد قسطنطين ( حوالى عام ٣٣٠ م ) تنتشر بالاغراء والارهاب وقوة السلاح ، وهنا بدأ الصليب يخضب الأرض بالدماء ، وتسبب آريوس ، الليلى المولد وزعيم الطائفة التى تحمل اسمه ، واثناس بطريرك الاسكندرية ، بانقسامهما ، في قيلم حروب أهلية عديدة في هذه المدينة ، وقد استطاع آريوس ، الذى أدانته مجمع نيس عام ٣٢٥ ، والذى أعاده قسطنطين من المنفى ، ان يضم الى حزبه أكثر من ٧٠٠ فتاة من الاسكندرية ومريوط .

انظر :

L'Histoire des Bas - Empires, t. Ier, liv IV et t. III liv. XVIII  
p. 262.

وكذلك :

L'Histoire de la décadence de l'Empire Romain, t. VI. p. 68.

العام السابع « أغسطس سنة ١٧٩٩ » فاخترق اقليم البحيرة الى منطقة مريوط وقال انه قد شاهد هناك عددا كبيرا من المدن والمساكن المتهمة .

وفي شهر نيفوز من العام التاسع ( يناير ١٨٠١ ) قام فريان Friant قائد حامية الاسكندرية بحملة ضد بعض قبائل العربان ، واندفع جنوده حتى برج العرب ، الذى يقع على مسيرة تسع ساعات على الشاطئ الجنوبى الغربى من الاسكندرية . وكانت هذه اول مرة منذ الاحتلال الفرنسى لمصر تكتشف فيها هذه البقعة من الساحل المصرى . وقد ابدى هذا القائد فى تقريره العام عن الحملة ، أسفه لانه لم يصحب معه بعض الأشخاص من العارفين بالآثار القديمة .

وقد قام كبير مهندسى الحملة ، لوبير Lepère — وهو اخى الأكبر — يصحبه السادة فاي Faye وشابرول Chabrol ولاكريه Lancret وهم من مهندسى الطرق والكبارى ، قام كل هؤلاء بجولة فى اقليمى رشيد والبحيرة ، كان القصد من ورائها استكشاف ترعة الاسكندرية ، التى تبدأ من الرحمانية ، حاملة مياه النيل الى المدينة ، ومن هناك رحل هؤلاء المهندسون فى الرابع من بليفوز من العام التاسع ( ٢٤ يناير ١٨٠١ ) لمشاهدة الآثار الموجودة عند برج العرب . وقد سجلت نتائج هذه الجولة الاستطلاعية تحت رقم ١٠٧ من بريسد مصر Courrier de l'Egypte ومنذ نزول الانجليز فى ابي قير ، قام قائد الحامية من سلاح الهجنتي بعض الحملات فى هذا الجزء ، وقد اخبرنى بأنه قد مر هناك بأطلال هامة (٥) وقد تمثلت جيدا كل هذه المعلومات ، وانتهزت فرصة آخر حملة استطلاع كلف بها هذا الضابط من قبل الجنرال مينو ، لكى اتأكد من حجم المساحة التى تفرقتها بحيرة ماريوتيس ( مريوط ) وان كنت كل المنطقة قد غرقت بأكملها فى نهاية شهر بريريال من العام التاسع ( يونية ١٨٠١ ) . وهذا ما سأحدث عنه بانفاضة فى مقالى عن البحيرات فى مصر . وقد كان

---

(٥) نقرأ فى رحلات جزانجيه Les Voyages de Granger ( ص ٢٢٢ ) انه يوجد على بعد ستة فراسخ الى الغرب من برج العرب ، برج آخر قد تحول الى انقاض ، وقد لاحظ هذا الرحالة ( فى عام ١٧٣٠ — ١٧٣١ ) وجود كتابات عربية على جدرانها .

القصد من وراء هذا الاغراق الذى تم ، حصار الفرنسيين فى الاسكندرية ،  
وذلك بقطع اتصالهم بفرقة الجيش الموجودة بالقاهرة .

رحلنا من الاسكندرية فى السادس عشر من فلوريال من العام  
التاسع ( ٦ مايو ١٨٠١ ) ، مع قائد الحامية المسو كافالييه Cavalier  
على راس اربعين رجلا من الهجائة ، وكان معنا أحد ضباط البحرية  
هو المسيو جار Gard الذى تلقى تعليمات بأخذ مجسات فى نقاط متفرقة  
من البحيرة ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصلنا الى  
اول جزيرتين فى وادى مريوط . كانت المياه بالفعل قد تجاوزتهما بكثير ،  
وكانتا فى ذلك الوقت قد خصصتا للدفاع عن هذا الجزء المحصور من  
البحيرة والذى يشكل الراس الشمالية لهذا الوادى . عبرنا الى هاتين  
الجزيرتين فى قارب من تلك القوارب التى كانت تتبعنا ، فى الساعة  
الخامسة من مساء هذا اليوم ، ووجدنا اكبر عمق لمياه البحيرة الذى يبلغ  
٥٥ الى ٦٠ قامة يبلغ عند هذه النقطة ٤ بوصات ، وبعد ان نصبنا  
خيامنا بالجزيرة واصلنا فى اليوم التالى ابحارنا داخل البحيرة التى وصلنا  
اليها فى الوقت الذى كانت قد وصلت اليها فيه مياه الاغراق .  
وتوغلنا لمسافة فرسخين الى غرب الجنوب الغربى ، تتبعنا فرقة الحرس  
التى كانت تسير بحذاء الشاطئ الغربى للجزيرة . وعلى هذا البعد ،  
وكنا فى حوالى الساعة الثامنة من صباح السابع عشر من فلوريال ،  
وجدنا أن عمق المياه لم يعد يتجاوز اكثر من ٧ الى ٨ بوصات . وعندما  
مُشلت قواربنا فى التقدم لأبعد من ذلك ، غادرناها لكي نكمل مهمتنا  
الاستطلاعية سيرا على الأقدام . وبعد ذلك بحوالى نصف فرسخ انتهى  
المدى الذى وصلت اليه مياه الاغراق . وكانت هذه المياه تواصل حركتها  
حينئذ . وفى نفس الوقت واصلنا صعود الوادى حتى نتعرف على زاوية  
اتجاهها وحتى نمنح انفسنا الوقت الكافى للملاحظة الممدى والحد اللذين  
سيبلغهما الفرق فى الأيام التالية .

وبعد قليل وصلنا الى ضريح ، كانت المياه ملائزال على مسيرة ثلاثة  
ارباع الساعة منه ، ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الكبيرة ، وهو  
حسب العادة عبارة عن مقبرة لبعض شيوخ العربان ، وهؤلاء ينظرون  
اليها بتقديس كبير ، وهى تقع على بعد حوالى مائتى خطوة من شواطئ

البحيرة فى شعب صغير لأحد التلال وتحيط بها اشجار النخيل التى تحميها من رياح البحر مرتفعت هذا التل نفسه والذى يمتد بطول شاطئ البحر . وبعد أن عبرنا مرتفعات هذا التل فى الشمال هبطنا الى واد صغير مواز للبحيرة وللشاطئ ، ويمتد بطول البحر ابتداء من الضريح ولمسافة ١٠ - ١٢ فرسخا الى الجنوب الغربى ، ويجد المرء هنا وهناك بعض جذوع النخيل وآثار خضرة واشارات لم تستغرق علينا تدل على وجود مياه عذبة تحت رمال الصحراء . وتغلغ هذا الوادى الصغير من جهة الجنوب سلسلة متصلة من المرتفعات التى تحدثنا عنها والتى تشرف على بحيرة مريوط ، أما من جهة البحر « الشمال » فتحده سلسلة صغيرة من المرتفعات الصخرية التى تحاذى الساحل بأكمله ، وهى مغطاة برمل ابيض يكونه البحر ويلقى به بلا انقطاع على شواطئه ، فتبعثره الرياح أو تجمعها فى شكل كتبان صغيرة متحركة . وهناك ، توجد مياه حلوة ، ولو انها تميل للملوحة بعض الشيء وذلك فى حفرات ضحلة حفرها العريان لسقاية ماشيتهم . تتبعنا هذا الوادى من القبة الكبيرة حتى برج العرب حيث وصلنا الى هناك بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وبرج العرب ، عمود له قاعدة مربعة تحمل جذعا مثن الزوايا تملوه كتلة دائرية ضخمة على غرار عمود ببتور لم يعد يتناسب ارتفاعه مع الارتفاع الذى يفترض له من طول قطره . وهذا المبنى القائم على الشاطئ ، لا يبدو فى الواقع الا كممود هائل معكوس بشكل جزئى . وفى الخارج ، على أحد وجوه الجزء المثلث منه ، وهو الوجه المقابل للبحر ، نجد عدة درجات لسلم لا بد أنه ينتهى الى بداية البرج على عمق حوالى عشرة أمتر تحت سطح الأرض ، وهذا المبنى الذى قام بفحصه مهندسونا فحاصبيدا ، جيد البناء ولا بد أنه كان يستخدم كنقطة مراقبة بحرية شأنه شأن كل الأبراج الأخرى التى تقع بالمثل على الشواطئ قليلة الارتفاع فى مصر وفى هذا الجزء من صحراواتها الغربية .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر ، ينبغى أن اتحدث عن شيء لم ألق عليه سوى نظرة عابرة ، حيث كنت على الدوام متخلفا عن رجالنا لكثرة ما كنت أتوقف لتفحص الأنتقاض والمواقع ، أريد أن اتحدث عن ربوة مرتفعة بعض الشيء نلاحظها على نفس السلسلة التى تفصل البحيرة



عن البحر ، خلف هذه الربوة الواقعة على بعد ١٠٠٠ — ١٢٠٠ متر من برج العرب عند الاتجاه نحو الاسكندرية طلع اثنا عشر من النواطير وأجزاء مبنية من الحجارة وأخرى واجهات مربعة الزوايا ومائلة لتمطى في مجملها شكلا هرميا . وفي أسفل هذه الربوة ، يوجد قاع به أنقاس خزان جبل للمياه كما توجد منشآت أخرى . واسم كوم أبو صير (٦) الذي يطلقه العرب على هذا المكان إنما هو مشتق من اسمه القديم ، تابوزيريس ، وهي المدينة التي يحدد مكانها كل من سقراطون وبطليموس — وقد سبق أن ذكرنا ذلك فيما سبق من هذا الموقع ، وإن كان موقعها هذا يتفق في الواقع مع تابوزيريس أخرى كلفت كما سبق أن حدد العالم الجغرافي اليوناني تقع على بعد مسافة من مدينة تحمل هذا الاسم (٧) ، والتي نظن أن موضعها كان في نفس موقع برج العرب كما سنوضح فيما بعد .

وبمواصلة السير بحذاء الساحل إلى الجنوب الغربي يجد المرء على بعد ٤٠٠ متر من البرج ، أطلال مبنى واسع مربع الشكل تحيط به جدران يبلغ ارتفاعها من ١٢ — ١٥ مترا ويبلغ طول واجهاته حوالي ٢٤ مترا . ويتجه مدخل هذا المبنى باتجاه الاسكندرية . وتعلو هذا المدخل قبتان ويضم المبنى في داخله حجرات بها بعض النوافذ الصغيرة والعالية مما لا يسمح إلا بدخول قدر كاف من الضوء وهذا يعني بوضوح أنها خلوات سرية والحجرات متينة البناء كما أنها سهلة ومريحة ، وجدرانها مبنية من الحجارة ولها مظهر جذاب . ويبدو للوهلة الأولى أن هذا المبنى ينتمي

---

(٦) في رأينا ، أن اسم « أبو صير » يحتفظ بكل معنى الاسم القديم الذي كان يعني عند الإغريق ، كما لاحظ ديودور ، مقبرة أوزيريس ، وبوزيريس التي يلفظها العرب بوصير هي الاسم الذي كان المصريون يطلقونه على الأماكن التي توجد بها مقبرة لأوزيريس . وتوجد كذلك قرية تحمل هذا الاسم غرب أطلال ممفيس عند سفح الجبال التي أقيمت عندها أهرام سقارة . ويقول المترجم الحاذق لهيرودت المسيلولاشيه Larchet في شروحه ، أن بو باللغة المصرية تعني مقبرة . ويضيف هذا المترجم العلامة أن بلو تارك يخبرنا أنه نقل عن أودوكس Eudoxe أنه على الرغم من وجود مقابر عديدة لأوزيريس فإن جسمه كان مدفونا في بوزيريس .

(٧) انظر الوصف الخاص بمدينة تابوزيريس القديمة والذي قدمه سانل جنيني Saint Genis — وصف آثار المصور القديمة ، وصف مصر .

الى الصلابة المصرية . لكنه فى واقع الامر ليس سوى تقليد لها ، وهو مبنى جبيل . وتدل انقراض اممته المضلعة وتمته ذات النمط القوطى التى نجدها فى اطلال السور ، على أن هذا المبنى يعود تاريخه ، مثل برج العرب ، الى العصر الرومانى ، وفى نفس الوقت ، فلما نستطيع اثبتين أن ننسب بنسائه الى جوستينيان الذى عمل فى حوالى منتصف القرن السادس عشر - كما يفكر بروكوب Procope - على بناء عدد كبير من المنشآت فى تلبوزيريس ، الواقعة - كما يقول هذا المؤرخ - على الشاطئ الأمريقى ، على مسيرة يوم من الاسكندرية ، والتى كتبت تضم كما يذكر مقبرة لأوزيريس ، وليس ثمة شك ، فى أن هذا هو المكان الذى حدد فيه هيرونت ، النقطة الغربية لقاعدة الدلتا ، والذى كانت تقام فيه الأعياد على شرف أوزيريس ، وهى الأعياد التى كتبت تجذب كل عام ، أعدادا هائلة من الناس ، وبخاصة الشباب كما ذكرنا ، وكما يذكر سترابون .

وتقدر المسافة بين الاسكندرية وتلبوزيريس الواقعة على الخليج البلنتينى حسب جدول تيودستىوس بـ ٢٥ الف خطوة فى مقابل ٧٥٦ قامة ( ١٤٧٣ مترا و ٤٧ سم ) بالميل الرومانى ، أى ما يساوى ١٨٩٠٠ راقمة ( ٣٦٨٣٦ مترا ) ، لكن يبدو أن هذه المسافة ، هى تلك التى تقع بين الاسكندرية وتلبوزيريس التى كانت توجد كما سبق القول ، عند كوم أبى صير ، والتى عثرنا على خرائبها على بعد ١٠٠٠ راقمة الى ١٢٠٠ مترا ، الى الشمال الشرقى نحو الاسكندرية ، ونحن نقدر المسافة بين اطلال تلبوزيريس ، التى تقع على الخليج البلنتينى ( ويسمى حاليا خليج العرب ) بمسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، أى أنها ، اذا ملقنا مسيرة القوافل بـ ٤٠٠٠ متر فى الساعة الواحدة ، حسب ملاحظتنا فى مصر ، تساوى ٢٨٠٠٠ متر .

وفى ما بين برج العرب ، والمبنى الذى انتهينا من الحديث عنه ، ترتفع سلسلة من الجبال تفرقتها محاجر أدى استغلالها الى انشاء المباني والمدن التى ذكرناها ، وقد حفرت بعض هذه المحاجر واقتطعت على شكل مغارات . ويمكن أن يبلغ عرض الساحل فى هذه النقطة ابتداء من حافة البحر حتى حافة وأدى مربوط والذى يبدو كما لو كان حوضا للبحيرة ، من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، ويلاحظ فى حوض هذا الوادى

نتوءات أو سدود صغيرة تعترضه وهى التى عملت على تسهيل الاتصال بين الساحل وبين كل البلاد فى الجنوب . وتخترق هذه النتوءات بعض الجسور الصغيرة المخصصة لتصريف مياه المطر فى الشتاء . وتتوقف المياه المتسربة من بحيرة مريوط على بعد حوالى الألف متر الى الشمال الشرقى حسب تقرير المسيو لوجنتى ، ذلك الضابط المهندس الذى قام بالاستطلاعات الأخيرة فى هذه المنطقة . وفى نفس الوقت ينبغى أن يكون من المؤكد - بحسب حالة هذه الأماكن - أن مياه البحيرة قد تتجاوز كثيرا هذه السدود فى الجنوب الغربى حيث كان النيل فيما مضى يصب مياهه فى هذه البحيرة مما أدى الى اتساع مساحتها الى حد كبير كما لاحظ سترابون .

وعلى بعد بضعة ميريامترات « الميريامتر = ١٠.٠٠٠ متر » يظل يحتفظ الشاطئ الذى يتبع على الدوام اتجاه غرب جنوب الغرب بنفس طبيعته ، وببنفس تكوينه من الحجر الجيرى والرملى الشديد البياض .

أما عن الوادى الثانى الذى سبق أن تحدثنا عنه والذي تمضى زاوية اتجاهه موازية للشاطئ ولوادى مريوط الكبير فإنه يصبح ابتداء من برج العرب جزءا سهليا محصورا ينتظم اتساعه على نحو كبير بين ٢٠.٥٠ متر حتى ليبدو وكأنه ترعة حفرتها يد الإنسان . وتنمو الخضرة هناك بوفرة متمثلة فى شجيرات وتبسات بحرية . وقد سرنا فى هذا الوادى لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وعند بلوغنا القمة التى يقود إليها الطريق لم أر مستوى امتداد لنفس هذا المنظر . وعندما عملت على حفر حفرة فى هذا الجزء من الشاطئ استخرجت رمال كبيرة الحجم وشديدة الرطوبة ، وعلى عمق قدم واحدة فقط ظهرت مياه ملحية الطعم مما يؤكد أن الأرض فى هذا الوادى الصغير أدنى من مستوى سطح البحر . وقد نصبنا خيامنا فى هذا المكان الذى شكل بالنسبة لنا بلجا آمينا يسهل الدفاع عنه اذا ماحدثت أية مفاجأة لنا من جانب العربان

وفى اليوم التالى ، الثامن عشر من غلوريال . عبرنا الى جنوب وادى مريوط الكبير . الذى يبلغ اتساعه ما بين ١٠٠٠ و ١٢٠٠ متره ووجدت نفس الشكل الذى سبق أن وجدته عند برج الغرب ، شكل السهل الواحد ، المكون من رمال كبيرة الحجم ، وإن كانت أقل طينية ، وتغطيه

بعض النباتات ، ومن أعلى سلسلة المرتفعات التى تحد هذا الوادى الكبير ،  
والتي تمتد بطوله من الجنوب الغربى وحتى الشمال الشرقى ، لحنا رأسا  
يبدو أنها تشكل نهاية للخليج البلطى القديم ، من جهة الغرب ، فى الوقت  
الذى تشكل فيه نهايته من جهة الشمال الشرقى رأس شرسونىوس والتي  
تسمى اليوم بالفريخ أو الشيخ . ومن هذه النقطة ، لحث كذلك سلسلة  
أخرى من الجبال تتجه نحو الجنوب الغربى لتنتهى بنفس هذه الرأس .  
وينبغى أن نستنتج أن هذه السلسلة ، تنتمى الى السلسلتين من الجبال ،  
اللتين تشكلان حوض البحر بلا ماء .

لم يشأ قائد الحملة ، المسيو كامالييه ، الذى كان يشاركنى نفس  
اهتمامتى أن ينهى استطلاعتى التى كانت قد تجاوزت الغرض من  
استطلاعاته هو ، وأن كان قد رفض أن نمضى لأبعد من ذلك بمثل هذه  
الحراسة الضعيفة وفى هذه المنطقة من الصحراء التى يتجول فيها عديد  
من قبائل العربان . نزلنا الى السهل وسرعان ما صعدنا الى الشمال الشرقى  
محاذين سلسلة جبال مريوط . وقد جلبنا الخضرة الوفيرة والثمار التى  
خلفتها الماشية أثناء فى منطقة يتردد عليها العربان الرحل . واستولى  
رجالنا على ٦٠ من العجول والأبقار والخراف التى فر حراسها ، وقد  
شاهدنا بعض العربان يهربون عدوا نحو أماكن غير مكشوفة تشكل لهم  
ولا شك خطوط الرجعة اذ اتنا حين تتبعناهم وجدناهم اختفوا فجأة .

وبعد قليل ، وجدنا أطلال مدينة صغيرة ، وبين الانقراض والأحجار  
وجدنا بعض خزائن المياه والكثير من الآبار المبنية المصنوعة بها ، وثمة  
جداول مرصومة تتجمع فيها مياه الأمطار وتحملها بفعل انحناءات محسوسة  
فى نفس الاتجاهات المؤدية نحو هذه الأنار . وبعد أن استرحنا بعض  
الشيء لم ، هذا المكان نفوتنا مياهه فوجدناها طيبة مبلانا منها قريبا . وقد  
مرت الماشية التى استولينا عليها من العربان بهذا المكان دون أن تشرب ،  
ومن هنا نفهم بالطبع أن المياه لا تنقصها .

وبعد مسيرة نصف الساعة الى الشمال الشرقى ، وعلى مسافة  
٨٠٠ — ٩٠٠ خطوة من سطح سلسلة الجبال التى سرنا بحذاءها وعن  
شمالها وجدنا ، بقايا مدينة أخرى صغيرة ، لابد أن يبقاها كلفت على قدر  
من الغمامة ، وشاهدنا هناك أطلال منشآت جبيلة من الحجر ومن الطوب

الأحمر وأبراجا وأرسلة تحته وخزانات مياه .. وبمواصلة سيرنا في نفس الاتجاه وجدنا بعد ثلاثة أرباع الساعة خرائب هائلة لمدينة ثالثتيحت تنشرت على مساحة واسعة اكوام من الحجارة الضخمة والمكسبة بشكل مضطرب ينتج عن حال مدينة قلبت رأسا على عقب وأخيرا وعلى بعد مسافة مشابهة وخلال سيرنا الى الامام ، عثرنا على خرائب جديدة لمدينة رابعة . وينبغى أن نلاحظ أن المسافات التي حسبناها ، هنا بالزمن ، انها قد حسبت بحسب السير السريع للجمال .

ونظن أن بإمكاننا أن ننسب الى خرائب المدن الأربع ، الكبيرة منها والصغيرة ، والواقعة في اتساع يقل عن أربعة فراسخ أسماء المدن والقرى المبنية بجدول بطليموس بحسب الموقع الخاص بكل منها وهي كما يلي بادئين بأكثرها بعدا : كوبي ، انثيفيلي ، هيراكس ، غوموثيس .

وكل هذا الجزء من الصحراء تكسوه الخضرة والأشجار . ويبدو أن تربتها القليلة للزراعة تحتوي على رمل اقل وطين صالح للزراعة أكثر مما تحتوي سهول البحيرة . وعند صعودنا الى الشمال عبرنا من جديد سلسلة الجبال التي تشرف على جنوب منطقة مريوط ، وعند تمتها لحنا على بعد حوالي الفرسخ الى الجنوب الغربي برج العرب . ويكفي هذا لتحديد الموقع الجغرافي بدقة كاملة لخرائب المدن والقرى الأربع التي تحدثنا عنها عند اتجاهنا من جديد نحو الجنوب الغربي .

كان المسيو كافالييه قائد الحملة يجد في البحث عن خرائب أكثر إثارة سبق له أن زارها ويريد أن يرى أياها . وتوجد هذه الخرائب على الشاطئ الجنوبي لبحيرة ماريوتيس « مريوط » تجاه ضريح أبي الخير الواقع على حافة الشاطئ المقابل والذي سبق أن زرناه منذ يومين ، وهي عبارة عن انقاض سور مزدوج لمدينة حصينة يبلغ ارتفاعه مترا أو مترين فقط وتعلوه أبراج ، وينتهي في شماله الشرقي برصيف متقدم داخل البحيرة . ولا يمكن أن يتطرق إلينا الشك للحظة واحدة في أن هذه الخرائب الهامة والتي تقع على بعد حوالي ٣٠ الفا من الأمتار الى جنوب الجنوب الغربي للاسكندرية ، ليست سوى أطلال مدينة ماريا ، العاصمة القديمة لاطليم المريوطية .

وقبل أن امضى لأبعد من ذلك ، سأحدث عن مبنى هام يقع بأكمله تقريبا وسط حوض البحيرة على مسافة ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر الى الجنوب الغربى من مدينة ماريا ، ومع ذلك فليس بمقدورى أن أقدم عنه إلا مقاييس جزافية إذ كان على — وقد أصبحت وحيدا بعد أن تمت بزيارة بعض الجزر والخرائب الأخرى بالبحيرة — أن أسرع للحاق بالفرقة التى أصبحت بعيدا عنها والتى كانت فى هذه اللحظة قد وصلت الى ماريا ، لهذا لم أستطع أن اتوقف طويلا عند هذا المبنى الهام على الرغم من أننى جئته دون قصد منى ، ذلك أن القارب الذى كنت أركبه قد ساقنى نجاة بينما هو يصارع سهل البحيرة الرطب وائتلق الى هذا المكان .

وهذا المبنى عبارة عن سور مستطيل الشكل يبدو أن طول واجهتيه الكبيرتين يبلغ ٥٠ — ٦٠ مترا بينما يبلغ عرض الواجهتين الصغيرتين من ٢٠ الى ٢٥ مترا . وجدرانه مبنية بحقق شديد وعلى هيئة مرافئ ماريا التى لم أكن بعد قد زرتها والتى توجهت اليها للحاق بالمسيو كافالييه الذى كان ينتظرنى هناك . ويبلغ سمك هذه الجدران من ٣ — ٤ أمتار ويبلغ ارتفاعها نفس الطول عند قياسه من فوق التربة الخارجية باعتبارها مرافا خاليا . وكان الموقع المنعزل لهذا المبنى الواقع فى الحوض الجاف بالبحيرة مريوط والذى لم تكن مياه الافراق تبعد عنه فى ذلك اليوم بأكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ متر ، وكانت الفتحة الوحيدة التى لحتها فيه توجد نحو البحيرة من عرضها . . كان كل هذا يجعلنى أظن بأن هذا المبنى لا يمكن أن ينشأ فى هذا الجزء الذى يمكن لمياه البحيرة أن تفرقه الا لى يستخدم فى بناء أو ترميم أو تلفة سفن شراعية حربية وبوارج وانه كان من الممكن أن يفتح أو يغلق حسب الحاجة لله بالمياه أو لتجفيفه هو والمباني التى بداخله منها . ومن الصعب أن نستنتج غاية أخرى للأفادة من مثل هذا المبنى الذى تبدو ترسانتنا لبناء السفن فى طولون ، وروشيل ، وبريست فى فرنسا ، وفى بعض الموانئ الكبرى فى أوروبا ، مجرد محاولة للاقتراب من عظمته .

وبعد أن زرنا موقع ماريا عبرنا البحيرة متجهين الى الشمال الغربى نحو ضريح أبى الخير الواقع فى الجهة المقابلة كما سبق أن قلنا ، وقد عبرناها بواسطة طريق صغير مرصوف ، ثم بناؤه فى هذه الجهة كما

ثم بناء غيره فى نقاط أخرى على يد العربان حتى يحصلوا على طرق ميسورة لى يقوموا بجولاتهم عبر سهول هذه البحيرة القديمة ، الطينية والرطبة .

كانت مياه الاغراق قد وصلت بالفعل الى علو يبلغ ١٠ - ١٢ بوصة على الاكثر وذلك عند النقطة الاولى من هذا الطريق الذى يبلغ طوله - وهو قليل التماريج - حوالى ١٢٠ خطوة من شاطئ لآخر من شواطئ البحيرة اى ما يبلغ ٨٠ هامة اذا ما حسبنا خطوة كل من الجنديين اللذين ارسلتهما الى هناك لاجراء هذا القياس باعتبار قدمين ونصف التقدم للخطوة الواحدة وكانت مياه البحر تتقدم حثيثا نحو برج العرب الى الجنوب العربى . ويمكننا تصور ان هذه المنطقة يمكن أن تصبح نقطة الاتصال بين الاسكندرية وقرية الجيش التى لاتزال تحتل الرحمانية وبالتالي مع بقية الجيش فى القاهرة . تلك كانت نقطة هامة وثمينة قد حصلنا عليها ويمكننا تقديمها الى القائد فى الاسكندرية ، فلتقد كانت هذه هى الهدف من استطلاعنا .

ولذا ، فلكى نتأكد من الارتفاع المحتمل للمياه فى هذه المنطقة ، فى حالة الاغراق الكامل للبحيرة ، فقد تمت بعمل تفدين ( اى تعيين الارتفاع النسبى لمختلف اجزاء الأرض ) ابتداء من البحيرة وحتى البحر ، مروراً بالضريح ، وكذلك فوق جزء منخفض من الجبل الذى يفصل بينهما ، وارسلنا لهذا الغرض من يقوم بقياس منسوب المياه فى الجزر الاولى التى تحدثنا عنها ، والتى كنا نقوم عندئذ بتقويتها . وفى اليوم التالى ، تمت بعمل هذا التفدين اولاً من البحر الى البحيرة ، لى احصل على تقدير مؤكد . واليكم ما حصلت عليه من نتائج :

فى التاسع عشر من فلوريال من العام التاسع ( ٩ مايو ١٨٠١ ) ، كانت مياه البحيرة تنخفض عن مستوى مياه البحر بـ ١٠ لنية ، ٦ بوصة ، ٢ قدم ، ومن جهة أخرى ، بلغ ارتفاع المياه فى الجزء الاكثر انخفاضاً من الطريق المرسوف الذى يعبر البحيرة ، فى نفس اليوم ٨ بوصة ، ١ قدم ، ويؤكد هذان التقديران ، ان عمق المياه فى هذا الجزء من البحيرة ينمى ان يصل الى ١٠ لنية ، ٢ بوصة ، ٤ قدم ، بل ويمكننا ان نصل بهذا

الحق الى خمسة اقدام ، بسبب اندفاع المياه نحو هذا الطرف من البحيرة ،  
وبسبب اختلاف المتوسطات في مياه البحر الواطئة (٨) .

وتبلغ مسافة الأرض المحفورة من الشطآن ، من البحيرة الى البحر  
حوالى ٣٥٢٠ خطوة او ١٥٦٧ قامة حسب تقديرنا السابق للخطوة ، لكن  
هذه المسافة تشتمل على ارتفاع وانخفاض الجبل وهو الأمر الذى يستوجب  
منا ان نزيد هذا التقدير بحوالى العشر . وقد جعلنا هذا التقدير نتوصل  
الى ان النقطة الأكثر ارتفاعا من سلسلة الجبال التى تشرف على البحيرة  
والبحر كما قلنا تصل الى ٦٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وان أدنى  
نقطة في الوادى الصغير المتاخم والموازي للشاطئ تصل الى ١٠ اقدام  
فوق منسوب البحر .

ومن ذلك نستنتج ان المياه المالحة بعض الشيء ، والتى هي برغم  
ذلك صالحة للاستعمال ، والتى نجدها على عمق ٢ الى ٢ اقدام فى كل  
اتحاء هذا الوادى الصغير ، الممتد حتى برج العرب ، حيث يمسد من  
طبيعته ، ليتخذ مستوى أدنى ، يبلغ مستوى منسوبها هي الأخرى من ٧  
الى ٨ اقدام ، أعلى من مستوى سطح البحر .

واضيف الى هذه التفاصيل ان قائد الحملة المسيو كاثالييه وكذلك  
ضبط البحرية المسيو جار قد أسعدهما ان مساطر الارتفاع ظلت تعمل  
طيلة النهار الذى استغرقته هذه العملية الدقيقة التى زاد من صعوبتها ،  
وبالذات من ناحية الرؤية ، كثرة الوتفلات والمراحل وشدة الحرارة والتموج

---

(٨) قلت من قبل ، انه في اليوم السابق على عبورنا للبحيرة تجاه  
ضريح أبى الخير ، كانت مياه الاغراق قد بلغت بالفعل ارتفاعا قدره ١٠  
— بوصة عند أدنى نقطة من الطريق المرصوف ، وعندما ثبت علامة  
على الشاطئ الشمالى للبحيرة في هذا اليوم ١٨ فلوريل وجدت في اليوم  
التالى ١٩ منه زيادة في ارتفاع المياه تدرها ٨ بوصات في مدى أربع  
وعشرين ساعة ، مما جعلنى أقدر هنا ارتفاع المياه فوق أدنى نقطة من  
الطريق المرصوف بـ ٢٠ بوصة .



الشديد فى طبقات الجو فوق رمال الصحراء (٩) .

وكنيت قد لاحظت خلال الأربع والعشرين ساعة التى أمضيتها عند ضريح أبى الخير ، أن مياه الاغراق التى كانت قد امتدت بالفعل الى بعد نصف فرسخ ، الى الجنوب الغربى من ماريا ، نحو برج الغرب ، قد ارتفعت فى هذه النقطة الى ٤ لنية ، ٨ بوصة ، وعند عودتنا من الاسكندرية ، وجدنا أن العمق عند الجزر الصغيرة التى قمنا بتحسينها ، والتى أجرينا عندها أولى ملاحظتنا منذ أربعة أيام ، قد أصبح ٧٠ بوصة . إذن ، فقد بلغ الاغراق هناك غيبا بين ١٦ ، ٢٠ من فلوريال حوالى ٦ بوصة ، ٨ قدم ، ولقد سبق لنا القول بأن هذا العمق لم يكن يبلغ فى السادس عشر من فلوريال الا حوالى ٤٠ بوصة . واختتم هذه البيانات ، بأن هذا العمق ينبغى أن يكون قد بلغ اليوم ١٠ أقدام ، فى هذا الجزء من البحيرة ، وخمسة عند قمة ماريا .

(٩) قلة فقط من الفرنسيين الذين أتوا فى الاسكندرية هم الذين لم يكن بمقدورهم أن يلاحظوا أثر انكسار الأشعة على هذه المنطقة من سواحل مصر ، وعندما ترون فى هذه المدينة نحو برج الغرب فئاتك تلاحظ على الدوام نوعا من البخار يرتفع من الأرض والبحر ، مشكلا درحات محسوسة جدا للوتين متميزين ، لون يميل الى الشقرة ولون يميل الى الزرقة : وهذا ناتج عن انكسار أشعة الشمس فى الطبقات الدنيا من الجو عند الأفق ، وترسم هذه الأشعة الملونة وتشكل أمام البصر بشكل واضح هذه الألوان ، التى تعود الى تأثير انكسار الأشعة فوق رمال الصحراء ومياه البحر .

وبعد متاعب ذلك اليوم ذبح جنودنا فى المساء ، وفى خيمتنا ، عند الفريخ ، ووسط القطيع الذى استولوا عليه ثورا باطلاق رصاص البندقية عليه من على بعد خمس عشرة خطوة ، وبقي الحيوان الذى أصيب فى منتصف جبهته لحظة بلا حراك ، ثم ترنح وسقط . ان العبور من الحياة الى الموت ليس سوى وميض ، واحاط بالحيوان للحظة كل ثيران القطيع ثم أطلقوا جميعا خوارا طويلا ، أخذ بعده البعض منهم فى الابتعاد ، والبعض الآخر فى الهرب ، وقد أصابهم ذهول عميق . ولقد ذكرت فى هذه الملاحظة التى هزنتى ، وأرجو ألا يعتبر البعض تدوين ذلك أمرا لاجدوى من ورائه ، بهذا البيت الجليل لفرجيل :

وارتجف الثور بفعل الضربة ، وترنح ، ثم سقط

وقد جاء تذكرى لهذا البيت طبيعيا ، لأن الصورة التى رسمها الشاعر اللاتينى صحيحة وحقة . وقد قام بترجمته ترجمة أمينة المسبو ديليل Delille فى أليادته الفرنسية .

تحركنا من هذه الجزر الصغيرة متوجهين الى الشمال الغربى نحو الضريح عابرين سلسلة الجبال حيث توجد محاجر واسعة لابد انها قد استغلت فى بناء الاسكندرية . ويتكون الشاطئ فى كل هذه المنطقة من تربة حجرية ورملية تسير فيها الجبال بمشقة بالغة . فى هذه المنطقة ، والى الغرب من هذا الضريح نزل الجيش الفرنسى ، اول يولية ١٧٩٨ « . ومن منطقة الضريح توجهنا الى الاسكندرية حيث دخلناها « ١٠ مايو ١٨٠١ » وهو اليوم الخامس لمغادرتنا هذه المدينة .

وفى يوم ٢٣ التالى قمت بتفدين آخر عند قطع فى الساحل يبدو انه كان ترعة قديمة تصل بين خليج الاسكندرية والبحيرة على مسافة ٥٨٥٠ مترا الى الجنوب الغربى للمعبود .

ويمكننا ان نرى هناك آثار مجرى هذه التربة القديمة التى لايجاوزا متوسط ارتفاع الجزء الثانى منها ٤ اقدام فوق مستوى البحر ، كما نلاحظ انها لا تتطلب الا جهدا ضئيلا لكى يعود عن طريقها الاتصال القديم بين مينائى الاسكندرية وموانى مريوتيس . وقد لاحظت كذلك ان مياه البحيرة فى الفترة التى قمت فيها بهذه العملية كانت قد ارتفعت الى حوالى ٣ اقدام و ١١ بوصة و ٣ شرطات ذلك ان قياس الارتفاع الاخير قد اخذ بالنسبة لمستوى مياه البحيرة لكى نحصل على مستوى مياه البحر ، وقد ظلت تتزايد الأطوال التى تقدمها المجسات التى اقلبتها فى البحيرة باتجاه هذه التربة القديمة التى بلغت من ٨ اقدام من المياه الى ٥٠٠ قامة .

وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر ، تراوحت الأطوال التى اعطتها المجسات ، بين ١١ قدما و ٧٠٠ الى ٨٠٠ قامة ، بحيث ينبغى ان تصل المياه عند اقصى درجات الاغراق من ١٥ الى ١٧ قدما .

وفى يوم ٢ من بريرال التالى ، حصلنا بالمثل على ٧ - ٨ اقدام من المياه ، فى المسافة بين الجزر الصغيرة المحصنة على الشاطئ الجنوبى للبحيرة من نفس النقطة التى قمنا بقياسها منها ، يومى ١٦ و ٢٠ من فلوربال .

لم اشأ ان اتحدث عن عدد من الخرائب الاخرى ، كبيرة كانت لم صغيرة وجدها فى كل مكان وبخاصة على الشواطىء الجنوبية للبحيرة ،

فيكنينا من هذه الجولة الاستطلاعية أنها جعلتنا نمر على موقع سبع مدن أو قرى هامة نعتقد انها تنتمى الى مدينتين باسم تابوزيريس ، واحدة منهما تقع على الشاطئ والأخرى تقع بالداخل ثم مدن وقرى كوبي ، وانتيفيلي ، وهيراكس ، وفوموتيس وأخيرا مدينة ماريا عاصمة هذا الاقليم والتي تقع على شاطئ بحيرة تحمل اسمها .

وقد جعلتنا هذه الجولة ندرك ان كل الشاطئ وكل داخل هذه الصحراء التي تغطيها الخرائب والتي تهرج فيها قبائل عديدة من المريان الرحل والرعاة قد ظلت على الدوام صالحة للسكنى ، بحيث يمكننا ان ننزع أى ظل من شك قد يحيط بشهادة المؤرخين الذين يقولون بأن هذه المنطقة كانت فيما مضى منطقة زراعية مزدهرة وآهلة بالسكان . ونرى فى النهاية أنه يكنى لكى تعود هذه المناطق الى حالتها القديمة أن يعاد حفر الترع المتفرعة عن النيل والتي كانت تجلب اليها كل عام مصادر الخصوبة .

أما بخصوص مختلف القبائل العربية التي يبدو انها وضعت يدها على المنطقة فإنه ينبغى على حكام مصر أن يتركوا لها حرية استغلالها شريطة أن يصبحوا مزارعين مسالمين ، والا فعلى هؤلاء الحكام أن يجلوهم عنها بقوة السلاح .

أما القبائل العربية التي تجوب صحراوات مريوط ، والتي تقوم بغاراتها حتى وسط اقليم البحيرة ، فهى قبائل الجومات والطروات ، بنى عون ، الجوابى ، الهنادى ، أولاد على (١٠) ، ويزرع عربان القبائل الثلاثة الأولى بعض أجزاء من اقليم البحيرة ، وهى الأجزاء المتاخمة للصحراء . وقد استقر عرب بنى أونوس فى قريتى جوامى والحوش حيث يزرعون الشعير . ولكى نمهل على توطين هؤلاء نهائيا هناك فلا

---

(١٠) حصلت على جزء من هذه المعلومات عن طريق المسيو شابربول Chabrol الذى قام ببحث واسع حول مختلف القبائل العربية التي تجوب هذه الصحراوات ، ومهما تكن هذه اللمحة سريعة ، فمن الأفضل أن نورد هنا ، ذلك أن المسيو شابربول قد أخبرنى بأنه يخشى أن يكون قد فقد المادة التي جمعها حول هذا الموضوع .

( جراتيان لوبير )

ينبغي أن نسلك معهم مسلك العنف والقسر بقدر ما ينبغي أن نخلع عليهم حمايتنا ضد القبائل التي تقف منهم موقف العداء ، فلقد أصبح هؤلاء يصطلمون شيئا فشيئا عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ويبدو أنهم مؤهلون لكي يصبحوا مزارعين .

وفي الوقت نفسه ، فمن الميسور أن يترك عربان الهنلاد حياة الترحال ، وينبغي على حكام مصر ، حتى يبلغوا بهم هذه الحال أن ينتزعوا منهم ، عن طريق هجمات خاطفة ماشيتهم ، وبخاصة خيولهم ، ذلك أنهم سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة ، إذا ما حرموا من وسائل الهرب السريعة وهو الأمر الذي سيحد من غاراتهم وانتهاباتهم . وينبغي حتى نرغبهم على ذلك أن نستولى على الحبوب التي يحصونها من بعض المناطق التي تساعد مياه الأمطار على زراعتها ، وذلك قبل أن يقوموا بحصادها وفي النهاية فإن وطأة العوز : عندما يصبح هؤلاء محرومين من كل مصدر دخل — ستضطرمهم الى اللجوء الى طلب عون الحكومة وحمايتها .

ان هذه الوسائل التي عدناها باعتبارها اساليب يمكن اللجوء اليها ضد بعض قبائل العربان هذه، لتتناسب عموما مع نوع الحرب التي ينبغي دعمها ضد كل القبائل التي تخرب وتروع حدود مصر ، والتي يمكن أن يبلغ تعداد محاربيها مجتمعين كما يقول الجنرال رينييه Reynier في كتاب « الأوضاع في مصر » Situation de l'Egypte من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ فارس ، هذا ان لم تفرق المصالح فيما بينهم ، وتجرحهم الى حالة من الحرب المستمرة بينهم وبين بعضهم البعض .

ويشكل عربان اولاد على بشكل دائم ، حين يراد حماية مصر من غاراتهم عقبات اكبر من تلك التي تشكلها القبائل العربية الاخرى ، فهؤلاء العربان يأتون كل عام لقضاء عدة شهور على الحدود الغربية لمصر ويعيشون في حالة حرب دائمة مع بقية القبائل . ولقد جعلت منهم الاتاوات التي يحصلونها والمصادر التي يحصلون عليها اثناء رحلاتهم الطويلة في الصحراء الممتدة بحذاء سواحل البحر في غرب مصر ، بالاضافة الى ما يحصلون عليه من مكاسب من ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة ، كل هذا جعل منهم اعداء اشداء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية ، حيث

يقتربون دائما في موسم الحصاد السنوي كي يقوموا بالانتهاك والسلب  
ولكى يبنوا الرعب والأحزان في هذا الوقت من العام . لذلك ينبغي أن  
تخصص قوة متحركة ، كتلك التي يمتلكونها هم ، لكي يمكن انتقاء ثمرهم،  
ويمكن أن يقوم سلاح الهجانة الذي أنشأه قائد الجيش الفرنسي في مصر  
بهذه المهمة المرجوة ، والتي لا بد أن تصبح الشغل الشاغل لاهتمام الحكومة  
الأم ، بخصوص هذه المنطقة القديمة والبائسة .

الدراسة الثانية :

## رحلة الى وادي النطرون الجنرال اندريوي

العنوان الاصلى للدراسة هو :

دراسة موجزة عن وادي بحيرات  
النطرون وعن النهر بلا ماء ، حسب  
المعلومات التى حصلنا عليها من جولة  
استكشافية تمت فى ٨٧٦٥٤٤ بليفوز  
من الصام السابع ، ( اى ٢٥٢٤٢٣ )  
٢٧٢٦ من يناير ١٧٩٩ ) .

( المترجم )



يكاد لا يعرف الناس عادة من كل أرض (١) مصر ، الا وادبها الذى يرويه النهر ، ومع ذلك ، فهناك من الاعتبارات الجغرافية والحكيات التى يرويها مؤرخون قدامى ورحالة محدثون ، ما يدفع على الاعتقاد بأن مياه النيل كانت قد اقتحمت فى أزمنة ضارية فى القدم ، أعماق صحراوات مصر الغربية ، وانها قد تركت هناك آثارا لجراها .

واذا صح ان ملوك مصر القدامى قد امكهم — كما يدعى هيرودت — دفع النيل واحتواءه فى حوضه الحالى ، عن طريق قيامهم بأعمال هائلة ، فلا بد ان يعد هذا العمل من جانبهم ، واحدا من تلك الأمور العظيمة التى يمكن لذاكرة البشر ان تحتفظ بها .

ان البحث فى هذا المجرى الابتدائى للنيل ، ينبغى ان يلقى الضوء على الجغرافيا الفيزيائية لمصر ، وعلى تلك الأعمال التى بذلت كى تصبح ارضها خصبة ، كما لابد ان يفضى بنا الى الطريق الواجب اتباعها لاصلاح نواحى الخلل ، التى أحدثتها حقبات الأزمان ، وادت الى تراكمها ، المهجية والجهل فوق أرض محرومة من مزايا الأمطار ، لن يكون لها من مصر فى غيبة الفيضانات او وسائل الرى الصناعى سوى القحولة والعقم .

ويشير الجغرافيون لهذا المجرى القديم للنيل باسم « بحر بلا ماء » ويسميه اهالى البلاد باسم « البحر الفارغ » . ومن المعروف ان هذا المجرى لا يبعد كثيرا عن بحيرات النطرون التى بدىء فى استغلالها من جديد منذ حوالى خمسة عشر عاما ، والتى يشتد الطلب على منتجاتها فى مجالات صناعية عديدة فى فرنسا . ومن المعروف كذلك انه يوجد بالقرب منه اديرة ومغارات لرجال الدين الأقباط ، انشئت فى القرن الرابع الميلادى أى فى ذلك الوقت الذى انجذب فيه الى أعماق صحراوات الغرب ، وبفعل الوله بحياة الأديرة ، رجال يتقنون حمية وحماسة لدينهم أو آخرون هيابون

---

(١) سبق ان نشرت هذه الدراسة فى *Décade égyptienne* ( دورية تصدر كل عشرة أيام ) التى كانت تطبع فى القاهرة .



أثروا السلامة فابتعدوا عن الخير ، وان كانوا قد ظلوا مرغمين بفعل احتياجاتهم على الاقتراب من هذا الخير ، سميا وراء استشارة شفقتهم او تأجيج ايمان ساذج لديهم .

ولقد كان مما يثير فضولنا ، وهو في نفس الوقت امر مفيد لاعتبارات عدة ان نتعرف على ذلك الجزء من أرض مصر الذي انتهينا من الحديث عنه. ومن اجل تقدير كل الأمور التي يمكن ان تفيد منها كل من الجيولوجيا وضروب الصناعة المختلفة فلقد دعا لاعداد هذا البحث السادة برتوليه Bertholet وفورييه Fourier وريدوتيه Redouté الشاب (٢) .

ولقد كان لدى انا الامر ، اثناء قيامي ببعض العمليات العسكرية ، بأن احمي أبحاثهم في مناطق تتعرض على الدوام لغارات العربان الرحل، الذين يأتون أحيانا من الصعيد وأحيانا أخرى من أطراف اقليم البحيرة ، الى مشارف هذه الصحراوات لسلب بل ولاغتيل هذا المزارع المسالم، والفلاح البائس . ولقد تجميعنا هناك لكي نحاول تجميع كل الملاحظات التي تبدو لنا على درجة من الاهمية وسأقدم في هذا الموجز عرضا لتفاصيل الرحلة ، تاركا للمسيو برتوليه مهمة ان يقدم بنفسه نتيجة التجارب الهامة التي قام بها ، لكي يتعرف على طبيعة المادة ، وسوف تكون هذه النتائج ذات فائدة قصوى ، بمجرد ان يبين لنا المجالات التي يمكن استغلالها فيها.

---

(٢) فنان ماهر في رسم اللوحات والحيوانات ، وبخاصة الأسماك الملونة ، كما الحق باللجنة المسيو ديشانوى Duchanoy والمسيو رينو Regnault ، تلميذ برتوليه .

# الفصل الأول

## عن وادى القطرون

رحلنا من الطرانة فى ٤ بليفوز « ٢٤ يناير » الساعة الثانية صباحا ، وبعد مسيرة أربع عشرة ساعة لحنا الوادى الذى توجد به بحيرات النطرون .

### الحالة الطبوغرافية :

يفصل وادى النطرون عن وادى النيل هضبة فسيحة ، يتدرج سطحها ببطء وتوازى النيل على الدوام ، ويبلغ عرض هذه الهضبة التى تظل على الدوام ، تقريبا محافظة على نفس مستواها ، ثلاثين ميلا ، وتغطى أرضها المتينة والصلبة بالحصى من مختلف الأحجام ، وبزلط صغير مستدير يتلون بالوان مختلفة ، وبعض الزلط المختلط بالعتيق .

وقد دفعت الرياح القوية القادمة من جهة الغرب ، الى الجهة الأخرى من التلال التى تحف بالنيل ، وكذلك الى داخل الوادى ، كل الرمال المتحركة ، ويبدو الحجر الجيرى فى بعض المناطق على سطح الأرض . وفيما عدا ذلك ، فإن المرء لا يلمح فى هذه الصحراء التى قد يظن المرء بأن الطبيعة قد تركتها نمسا نمسيا ، الا ثلاثة أو أربعة أنواع من النباتات الضعيفة والصغيرة والمبعثرة للعالية ، مثل نبات الشوكية (٣) *nitraria* والبنج البنفسجى (٤) أو « الداتورة » .

وسوف يكون من العسير أن يستطيع أى كائن حي أن يجد ما يعيش عليه ، فوق أرض على مثل هذه الدرجة من القحولة ، وفى نفس الوقت

(3) *Nitraris Schoberi*, Lin.

(4) *Ayoscyamus daturas* Fors.

فاننا لم نجد هناك سوى نوع واحد من الحشرات ، ليس من هذا النوع من الأنواع الشائعة ، ويطلق عليه اسم *mente obocure* ، والصنف الذى تحملها هذه الحشرة ، « صنف العتمة » ، تماثل تماما حالة العزلة التى تحياها ، فى أعماق مثل هذه الصنحراوات .

وعند الرحيل من الطرانة ، يتخذ الطريق اتجاهه فى البداية من الشرق الى الغرب . وقبل الوصول الى النطرون بحوالى الساعتين ، وبعد أن يكون المسافر قد اجتاز ممرا جبليا بالغ الانخفاض ، يسميه الناس راس البقرة ، يمشى الطريق نحو الشمال الغربى ، مع ميل اكبر الى جهة الغرب ، وعندما هبطنا ، وجدنا فى منتصف هذا الجنب ، وفوق ربوة ، قصرا أو حصنا مهدهما ، بنى سوره المربع والذى تعلوه ابواب مستديرة عند اثنتين من زواياه ، بواسطة قطع صغيرة من النطرون ، مما يدل على أن الأمطار ليست بذات بال فى هذه المنطقة ، كما رأينا فى الانحدار المقابل دير براموس أو دير الأروام ، كما يوجد الى الشمال وعلى نفس المسافة تقريبا دير السريانيين أو دير بيشوى حيث يجاور كل منهما الآخر .

اتمنا مثلما يربط القصر ودير البراموس ودير السريانيين . وإذا ما اتخذنا كتعادة ، تلك المسافة التى تفصل بين القصر ودير البراموس ، والتى قمنا بقياسها فوجدناها تبلغ  $723\frac{1}{4}$  مترا فان ضلعى المثلث الآخرين يبلغان  $743.2$  مترا للمسافة بين القصر ودير السريانيين ، و  $925.8$  مترا للمسافة بين هذا الدير ودير البراموس ، وإذا أردنا الذهاب بين واحد من هذه الأماكن وبين غيره يكون علينا أن نجتاز طريقا هو عبارة عن رمال متحركة أو ثابتة فى بعض الأحيان بفعل بعض الطحالب النباتية ، ويلمخ المرء هناك بعض النباتات ، ويقابل فى كل مكان الجبس وكمل الصخور الجيرية ، كما يرى أجمل الأحجار الطباشيرية بين دير البراموس ودير السريان .

### الجغرافيا الفيزيكية للوادي :

يصنع وادى النطرون زاوية ٤٤ درجة الى الغرب مع خط الزوال المغناطيسى أما فيما يختص بالواقع التبادلية للبحيرات واطوالها ، فانها تقع فى نفس الاتجاه الذى للوادي ، ويحدد الأب سيكار حوضها العمودى

باتجاه الوادى ، وهو ما يتعارض بصفة عامة مع الهيدروجرافيا « علم وصف المياه او طبوغرافيا البحار » . ولم يبين الاب سيكار على خريطته ، سوى بحيرة واحدة كبيرة ، فى الوقت الذى توجد فيه ست منها : ثلاث الى الشمال من القصر وثلاث الى الجنوب منه ، بل ان اهالى الطرانة يذكرون ان عددها سبع . فقد كانت البحيرة رقم ٤ منفصلة بالفعل الى بحيرتين بواسطة سد تحطم فى الوقت الحاضر . ويبين دانفيل — وهو يتفق فى ذلك مع سترابون — بحيرتين ، لكنه يعطيها نفس الموضع الذى يحدده الاب سيكار P. Sicard

وبحيرات **النطرون** عبارة عن مساحة تبلغ ستة فراسخ طولاً ، ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ متر عرضاً ، وذلك من طرف الحوض الى طرفه الآخر ، وهى منفصلة عن بعضها البعض بواسطة رمال قاحلة ، وتحمل اليحيرتان الأوليان منها ، وهما الواقعتان نحو الجنوب اسم بركة الدوارة او بحيرة الاديرة اما البحيرات ارقام ٣، ٤، ٥، ٦ فتحمل اسماء لا تدل على معنى محدد ، ويقوم عرب السمالو (٥) بتجريب النطرون من البحيرة رقم ٦ وينقلونه الى الاسكندرية .

وتوجد المياه العذبة — وان كانت درجة صلاحيتها تتفاوت — اذا ما حفرنا بطول البحيرات فى الانحدار المتجه الى ناحية النيل ، وتجري المياه بغزارة على سطح الأرض لمدة ثلاثة اشهر فى العام ، اى فى تلك الشهور التى تلى انقلاب الصيف ، وتتزايد المياه عند نهاية ديسمبر ، ثم تبدأ فى الانخفاض تدريجياً ، حتى ان بعض البحيرات يصاب بالجفاف .

وينبغى بصفة اساسية ان نلاحظ الحالة الفيزيائية للبحيرات ، اذ تنقطع شواطئ البحيرات من جهة الشرق الى خلجان صغيرة ، حيث ترشح المياه وتتخذ شكل نافورات عند بداية الوديان الصغيرة ، ثم تقرب بعد ذلك فى شكل نهيرات صغيرة تتجه الى اعماق الاحواض . اما البحر رقم ٣ ، فان الجزء من الأرض الذى يعلو عن هذه الينابيع — وهذا ما لاحظناه

---

(٥) عرب السمالو ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الجوابى الذين سفتناولهم بالحديث فيما بعد ، هم عرب رجل بالفو الكرم ، ولهم ثلاثة رؤساء ( مشايخ ) ، اكبرهم الشيخ سليمان ابو دمن ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى ١٠٠٠ رجل ، وتملك اربعين حصاناً .

بصفة خاصة يمتد ليلغ عرضه مائتين وخمسين مترا ، تغطيها بلورات من الملح ، ينهض وسطها وبكميات وفيرة بعض الشيء ، هذا النوع من الغاب المسطح الذى يستخدم فى صناعة الحصر العالية . اما الأرض التى تشغلها هذه الينابيع فيبلغ عرضها ٩٦ مترا ، وتشرف فى شمال البحيرة على شريط من النطرون يبلغ ٣١ مترا . اما البحيرة فيبلغ عرضها ١٠٩ من الأمتار . فى حين يبلغ طولها ٥١٤ مترا ، أما أقصى عمق لها فيبلغ نصف المتر . وقاعها طباشيرى مختلط بالرمال ، والمياه فى هذه البحيرة وحدها لها لون الدم .

تلك هى الحالة الفيزيائية للبحيرة رقم ٣ من جهة النيل ، ويلازم النشاط الأيمن لحوضها رمال قاحلة ، وهناك ينمو بعض الغاب ، ويبدو أن المياه العذبة لا تصل اليه . فهل يمكن القول بأن المياه التى تغذى البحيرات تأتى من النيل مختزنة فى بطء هذه الكتلة أو هذه المسافة التى تبلغ ثلاثين ميلا ، والتى تفصل وادى النيل عن وادى البحيرات ، متبعة فى مسارها تكون الانحدارين اللذين يتجه أحدهما الى الشمال وثانيهما الى الغرب ؟ أم هى بعد أن انفصلت عن النيل بفعل هذين الانحدارين قد جاءت من رأس الوادى — كما سنرى فيما بعد — تلتبس وادى النيل فى الفيوم ؟ وعلى الرغم من كون الراى الثانى أقرب الى الطبيعة ، إلا أنه لا يبدو معقولا ، إذ من المؤكد أن المياه التى تصب فى البحيرات تخرج من انحدارات الشط الأيمن الذى يعلوه . وثمة عدد قليل من الينابيع على الانحدار المقابل ، وتوجد هذه على عمق كبير . وينهض الراى الأول على انتظام حركة ارتفاع وانخفاض المياه فى البحيرات كل عام ، وفى فترة تتصل بشكل شبه مستمر بفترة الفيضان .

### تحليل مياه البحيرات :

تحتوى مياه البحيرات على أملاح ، تختلف حتى فى أجزاء من نفس البحيرة الواحدة ، مما يدل على عدم وجود اتصال بين مياهها .

وهذه الأملاح هى على الدوام: موريات الصودا ، وكربونات الصودا، وقليل من سلفات الصودا .

وتغلب كربونات الصودا فى بعض هذه البحيرات ، بينما تغلب موريات الصودا فى البحيرات الأخرى .

ويبدو — تبعا للحالة الفيزيائية للأرض — ان كربونات الصودا تمص جاءت الى هذه البحيرات عن طريق مياه النافورات التي تحدثنا عنها، وكذلك عن طريق مياه الأمطار ، وهذا هو مايفسر لنا لماذا يكون الملح الموجود فى جزء من البحيرة يختلف عنه فى جزء آخر منها .

ومياه البحيرة رقم ٤ وجزء من مياه البحيرة رقم ٣ ذات لون احمر ثان يشبه لون الدم ، ويعود هذا الى أثر مادة نباتية — حيوانية ،وعندما تتبخر هذه المياه يحتفظ الملح البحرى — وهو الذى يتبلور أولا — بهذا اللون الاحمر ويكتسب رائحة الورد الخفيفة .

ويرى الميوس برتوليه ان تكون الصودا ، يعود الى تحلل الملح البحرى بفعل كربونات الجير الموجودة فى الأرض الرطبة . التى يتم فيها هذا التحلل . ووجود الرطوبة امر ضرورى لحد كبير لتحلل الملح البحرى، وقد راينا ان هذا امر متوفر . اما عن الحجر الجيرى ، فانه موجود بكميات كبيرة فيما بين النيل والبحيرات ، وكذلك فى الوادى ، حيث يظهر اما فى شكل صخور او فى شكل طباشير .

### استغلال النطرون

يشكل استغلال النطرون جزءا من التزام الطرانة (٦) التى تدخل حاليا ضمن الحدود الجديدة لولاية الجيزة (٧) .

ويتم نقل النطرون فى الفترة ما بين البذر والحصاد ، وتتجمع التوافل فى الطرانة ، وتتكون القافلة الواحدة من مائة وخمسين جملا ومن ٥٠٠

---

(٦) تشتمل منطقة الطرانة على ستة قرى منها : كفر داود ، الطرانة : وابو نشابة .

(٧) كان يحد ولاية الجيزة تحت حكم المماليك ، من الشمال الجسر الأسود . الذى كان يفصلها عن ولاية البحيرة ، لكنها تمتد الآن حتى قرية أبو جروة . ويعبر الجسر الأسود الأول ، ابتداء من السكتبان الرملية ، حيث ينحدر حتى النيل . وعند طرف هذا الجسر بالقرب من قرية أم دينار ، توجد قناطر لتمرير مياه الفيضان ، أما المياه التى يحجزها الجسر الأسود ، طول الوقت المطلوب ، فانها تخصب السهل ، وتجعل انتاجه بالغ الوفرة .

الى ٦٠٠ حمار ، وترحل مع حراسها عند غروب الشمس ، لتصل الى البحيرات اثناء النهار ، فتكسر النطرون وتحمله ثم تعاود الرحيل .

وفى اثناء العودة تتوقف القافلة فى منتصف الطريق . وتصنع وقودها من روث حمير وجمال القافلة السابقة (٨) ويشرب رجال القافلة ومرشدها القهوة ، ويدخنون الفارجيلة ، ويتزودون بقليل من الخبز ، وذلك بمعجن الدقيق فى طبق من الخشب ، ثم بانضاج المعجن على الفحم ، ويقيم مرشد القافلة نقط حراسة لكى تظل القافلة فى حى ضد العربان ، وتنام بقية القافلة لبضع ساعات ، ثم تعاود السير ، لتعود الى الطرانة فى اليوم الثالث .

ويقدر ما تنقله كل قافلة بستمائة قنطار من النطرون ، كل قنطار منها يزن ٤٨ أنة (٩) .

والطرانة هى مستودع النطرون ، وينقل النطرون بطريق النيل الى هذه القرية ثم يرسل الى رشيد ، ومن هناك يذهب الى الاسكندرية ، ثم يصدر من ثم الى اوروبا ، او ينقل الى القاهرة حيث يباع لكى يستخدم فى تبييض الكتان وصناعة الزجاج (١٠) .

ويقدر الفاقد الذى يصيب المادة عند التفريغ او الابداع بـ ١/١٠ الوزن .

ويدفع فلاحو قرى الطرانة المست الميرى المقدر عليهم من نقل النطرون ، واذا ماحدث نتيجة لظهور العربان او بقمل احدث اخرى او

(٨) يؤدى نقص الوقود ، على الدوام ، بالقوافل المتتابعة فى الصحراء ، الى ان تتوقف فى نفس الاماكن التى عسكرت فيها سابقتها من قبل .

(٩) تساوى الأنة ٤٠٠ درهم او رطلين ونصف زنة مارك .

(١٠) يوجد فى القاهرة نوع آخر من النطرون ، يجلبه الجلابة السود فى قوافل دارفور وسنار ، ويستخدم فى تجهيز التبغ المصرى ، اذ يخلط به لاعطائه نكهة نفاذة . وقد قام المسيو رينبولت بتحليل هذا النطرون ، ووجد انه يحتوى على كمية من مريات الصودا اكبر من غالبية العينات التى جلبناها معنا .

عائى استغلال النطرون من بعض التعطيل ، يدفع الفلاحون احدى عشرة بارة (١١) عن كل قنطار كان مقدرا أن ينقلوه .

ويباع النطرون فى مصر بسعر القنطار زنة ٣٦ اقة ، بخردة واحدة تساوى بدورها تسعين بارة .

ويدفع المشتري اجرة الشحن النهري ، ويجهز الملتزم بالبرود والرصاص لحرس القوافل ، ويبلغ عدد افراد هذا الحرس ستين رجلا مسلحا ويطلق عليهم اسم الباشات .

ويدفع اليهم الملتزم اجورهم . والتزام النطرون هو ضريبة ملح حقيقية ، وتلتزم القرى التى تملك منشآت تستخدم فيها هذه المادة بشراء كمية محددة منها كل عام .

وقد جعلت صعوبة اختراق وادى النطرون ، من المسير ، فى كل وقت ، دراسة احوال البحيرات ، فكان استغلالها يتم على غير نظم او قاعدة . وشواطئ البحيرات كما سبق القول مغطاة بكث من بلورات الكريستال التى لا يقترب منها احد ، والتى يمكن برغم ذلك الحصول منها على فوائد جمة ، فهى توجد بكميات وفيرة . ولا يستغل من بين هذه البحيرات فى الوقت الحالى الا البحيرة رقم ٤ . ويدخل الرجال عراة الى المياه ، ويكسرون وينزعون النطرون بكماشة حديدية مستديرة الشكل ، يبلغ وزنها حوالى الستين رطلا ، احد نكيها على هيئة عشب الغراب ، اما الآخر فينتهى بسن مدببة من الصلب . وهؤلاء الرجال لا يلحون انى اهتمام بالنطرون الموجود على سطح الأرض ، والذي يمكن انتزاعه بجهد لقل من الجهد المبذول فى استخراجها من البحيرات بكثير . وانه لمشهد مثير للفضول أن ترى هؤلاء المصريين ، وهم يخرجون من البحيرات فى بياض شامق ، بينما هم فى الحقيقة سود البشرة لو برنزيو اللون .

### تجارة النطرون :

تعتمد حالة تجارة النطرون بالمثل على تحليلات لم تكن فى وضع يسمح لنا بالقيام بها ، وعلى نوع من النشاط والاهتمام لا يمكن لنا



الاضطلاع به ، فى بلد ظلت فيه مكاسب الصناعة فريسة لمفارم الحكام ومظالمهم . وقد يترك المستفلون فى النطرون خليطا من مختلف الأملاح مع الصودا ، وبالذات الملح البحرى ، الذى يؤدى وجوده الى زيادة مجففة فى وزن النقلة . ومن جهة اخرى يشكو صناع مارسيليا فى أنهم يعانقون من اضرار حقيقية وكبيرة ، اذ تتحلل غلاياتهم اثناء غلى الأملاح ، وبداءوا لذلك يقبلون على الصودا القادمة من اليككتى . وهكذا كانت مصر توشك ان تفقد هذا المصرف لبضاعتها فى اوربا ، لولا ان الحرب قد نشبت فجأة فجعلت نقل الصودا من اليككتى امرا اكثر مشقة .

وفى سنوات ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، عندما امكن لتجار مارسيليا عقد صفقات تجارية جديدة ، فانهم استوردوا الى فرنسا كمية هائلة من النطرون ، خزنها جزءا كبيرا منها فى محلاتهم .

ويتم تصدير النطرون المصرى الى الخارج ، الى البندقية وفرنسا وانجلترا ، ويكاد ماتستورده انجلترا يساوى نفس الكمية التى تستوردها فرنسا ، اما البندقية فلا تحصل الا على خمس ماتستورده الدولتين الآخرين .

وقد اهتم الميسو رينيولت بموضوع شديد الاهمية ، هو ان يفصل اكبر قدر من الصودا عن النطرون ، بقصد تقديم النطرون الى اغراض التجارة وهو فى اقصى درجات نقائه ، الامر الذى يؤدى مع زيادة طفيفة فى مصاريف استخراجها الى مضاعفة انتاج وقيمة الصودا ، مع اتباع نفس الاساليب المستخدمة . ويوجد الملح البحرى فى بعض انواع النطرون بين طبقتين اقميتين من الصودا ، بحيث يمكن استخلاص الملح بشكل الى .

وهكذا ، فتجارة النطرون فى مصر ، بعد ان اصبحت هذه مستعمرة ، سوف تعتمد على اعتبارين اساسيين :

الاول : الاستغلال الحر للبحيرات ، وسيصبح هذا الاستغلال فى شكل افضل ، عن طريق اقامة حرس ، واتخاذ اجراءات عسكرية ، مثل اعادة استخدام وترميم القصر وشغل الاديرة القبطية . . الخ ، لان الغريان فى هذه الحالة — وامرهم لا يخفى علينا — سيكونون اقل مدعاة للخوف .

الثانى : اختيار وتنقية النطرون . وينبغى ان تقام المنشآت الخاصة بتنقية النطرون فى اماكن اكثر قربا من البحيرات مثل القصر والطرانة .

### منتجات الممالك الثلاث « النباتية والحيوانية والجمادات » :

يوجد على شطآن البحيرات البوص والسمار بوفرة شديدة ، كما توجد منتجات أخرى من المملكة النباتية . وتتناقص خضرة هذه النباتات بدرجة تبعث على الدهشة ، مع بياض بللورات الملح شاهقة البياض، ومع اللون الرمادى الكالچ لحصى الصحراء .

ونرى بالقرب من البحيرات غاب البوص ذا السيقان العالية (١٢)، والقطق « زهور من فصيلة الرصاصيات » الخالى من الاوراق (١٣)، والائل الفرنسية (١٤) والارطماسية البحرية (١٥) « نبات عطرى » والسمار (١٦) والبوط « او عصوية المروج » ذات الاوراق العريضة (١٧). وهذا النبات الأوروبى الذى ينمو بوفرة فى فرنسا ، فى البرك والمستنقعات، وهو واحد من أغزر النباتات على شواطئ بحيرة النطرون . وترى هناك الشنجر ذات الاوراق الضيقة (١٨) « هو نبات زينة » ، والجمان او الطرطير ذات الورود البيضاء (١٩) والجنبية او الحولاى (٢٠) ذات الاوراق الرمادية . وتوجد ايضا السويدا (٢١) وهو نوع من الصودا ويطلق عليه هذا الاسم فى حين يسميه العربان باسم الصهد . ويشاهد هناك أيضا بعض اشجار الفخيل قليلة الارتفاع ، وهى تكون غابات كثيفة ، لكنها لا تنتج ثمارا على الإطلاق . وقد وجدنا خلف البحيرة الأخيرة بقليل عشرين نخلة منزوعة من الأرض ، ومجموعة كيفما اتفق فى شكل كومة ، بحيث يمكن القول بأنها قد انتزعت وحطمت بفعل حركة عنيفة .

(12) *Arundo maxima*, Fors.

(13) *Statice aphylla*, Fors.

(14) *Tamarix gallica*, Fors.

(15) *Artemisia maritima*, Lin.

(16) *Juncus spinosus*, Lin.

(17) *Typha latifolia*, Lin.

(18) *Lithospermum angustifolium*, L.

(19) *Zygophyllum album*, Lin.

(20) *Fagenia scabra*, Fors.

(21) *Suaeda vera*, Fors.

أما أنواع الحيوانات المختلفة هناك فليست كثيرة العدد فترى الجمل أو القنفذ (٢٢) والسرطان بأنواعه المختلفة (٢٣) والنمل المعادي والنمل الضخم ذا الأجنحة ونوعا من البعوض الذى تسبب لسعته أوراها هائلة . ومن طبقة الصدفيات نجد القواقع « الحلزون » من النوع الصغير ، ومن فوات الأربع نجد الحرباء والغزلان ، ويستدل على الأخيرة من آثار أقدامها المشقوقة التى تتركها على الرمال . وقد تعرفنا بين الطيور على دجاجة الماء والبط والشرشير « البط البرى » ، وتوجد هذه الطيور بوفرة شديدة وبخاصة عند البحيرة الأخيرة ، وهى التى يقل تردد الناس عليها .

ولا يوجد فى وادى النطرون أى اثر لمنشآت قديمة ، اذ لم نشاهد فيها وراء البحيرة الرابعة الا اثر مصنع للزجاج ، وقد تعرفنا عليه من انقراض أفرانه المبنية بالطوب الأحمر ، ومن بعض فتات المعادن والزجاج فى أشكال مختلفة . ويزخر الموقع الذى كان يوجد به بالمادتين اللازمتين لصناعة الزجاج ، وهما الرمل الصوانى والصودا . ولعل الخشب فى ذلك الوقت لم يكن بالندرة التى هو عليها اليوم . ولسنا نعرف الى أية فترة تنتمى هذه المنشأة ، وكان من الممكن أن نستدل على ذلك من نقوش الميدالية او قطعة النقود التى عثرنا عليها هناك ، لكن هذه النقوش كانت صدئة لدرجة لم يكن من السهل معها أن ن فك أيا من رموزها .

---

(22) *Pimelia muricata*.

(23) *Carabus variegatus*.

## الفصل الثاني

### طبوغرافية البحر الفلرغ

يتبع وادى النهر بلا ماء الى الغرب من وادى بحيرة النطرون . وهذان الواديان اللذان يلتصقان كل منهما بالآخر ، لا يفصلان الا عن طريق تل مرتفع ، وتستغرق المسافة من الديرين الى الوادى المجاور ساعة ونصف الساعة .

وقد تكسبت الرمال فى وادى نهر بلا ماء ، ويبلغ اتساع حوض هذا الوادى من شاطئ لآخر حوالى ثلاثة فراسخ . ويمضى المرء اربعين دقيقة كى يهبط ، عن طريق منحدر منتظم على نحو معقول ، حتى يصل الى قاع الوادى فوق الرمال .

وهذا الوادى تاحل لا تبدو به أية مصادر للمياه . وقد وجدنا به الكثير من الخشب المتحجر ، وعددا من اجسام اشجار بأكملها يبلغ طول البعض منها ثمانية عشر قدما . ولم يكن يبدو أن اجسام الشجر وقطع الخشب التى ظهرت لعيوننا قد مستها يد الانسان (٢٤) . وكانت غالبيتها قد تحجرت تماما اما اقلها فقد بدا اقل تقدما فى تحجره ، لذلك كان مغلفا بطبقة بالغة الكثافة وبألغة الصلابة . اما الجزء الذى يشكل المادة الخشبية « اللباب » فكان متباعدة فى شكل طبقات من الورق . وقد وجدنا كذلك

---

(٢٤) يؤكد ب. سيكار (P. Sicard) (Lettres édifiantes) أن المرء يجد فى وادى نهر بلا ماء صواري ، وانتاض سفن متحجرة ، الا اننا لم نلاحظ شيئا من ذلك ، وان كنا فى الحقيقة لم نر الا جزءا من الوادى : ويدعى جرانجيه Granger فى تقريره عن رحلته الى مصر ، أن ما نأخذه عادة على أنه خشب متحجر ليس كذلك على الاطلاق ، ومع ذلك ، فان العينات التى احضرناها لها بالتأكد خواص الخشب المتحجر ، حتى انها بدت كذلك فى أعين افراد اقل خبرة ودراية ، كما أن علماء الطبيعة الحاذقين ، الذين فحصوها بعناية ، قد حكموا عليها نفس الحكم .

فى هذا الحوض سلاسل عظام من السمك الكبير الذى بدا لنا متحجرا، وهو ما يضيف احتمالا جديدا - كما سنرى - الى الاحتمال القائل بان المياه كانت تجرى فى هذا الوادى ، وانها كانت تحتوى على حيوانات تعيش فيها .

وبخلاف الاخشاب المتحجرة ، يرى المرء ، وبشكل خاص على منحدرات الوادى ، احجار صوان ملفوفة ، جاءت دون شك من مكان جد بعيد ، بالاضافة الى الزلط والجص والبلورات الصوانية المكونة داخل تجويفات ، وانواع من الجيود « وهو حجر به تجويف ومبطن ببللورات او بمادة معدنية » وقطع من اليشب « حجر كريم مختلف الالوان » المستدير، وقطعا من الحجارة ذات قاعدة صوانية تميل الى اللون الأخضر ، وبعضا من اليشب المسمى بالزلط المصرى . الخ وتنسب غالبية هذه المواد الى تلك الجبال النائية فى صعيد مصر ، ولا يمكن ان تنتقل هذه المواد الى هنا الا عن طريق مياه النيل . اذن فقد كانت هناك صلة بين النيل ونهر بلا ماء ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة صلة بين الواديين ، وليس ثمة ما يؤكد ان مثل هذا الاتصال كان مستحيلا ، لكننا سوف نؤسس وجود هذه الصلة على اعتبارات اخرى .

ان اتجاه وادى نهر بلا ماء هو نفس اتجاه وادى بحيرات النطرون، والراى الشائع هو ان المرء عند اتجاهه الى الجنوب بين هذه الوديان ، يصل الى الفيوم ، وعند اتجاهه الى الشمال منها يترك على يساره اقليم مريوط (٢٥) . وهذا هو الطريق الذى يسلكه العربان عادة للقيام بغاراتهم

---

(٢٥) تقع مريوط على مسافة اربعة فراسخ الى الغرب من الاسكندرية ، نحو البحر ، وتستطيع سرية من الفرسان ، راكبي الجمال ( الهجانة ) ان تصلها فى ساعتين ونصف الساعة ، ويجد المرء فى هذه المنطقة ، ثلاثة آبار عميقة ومعتنى بها ، تغذيها مياه الأمطار ، ويلمح المرء فى المنطقة المجاورة بعض الخرائب ، وكذلك مقابر العربان المزدانة بالتعويذات ، وهذه عبارة عن آيات من القرآن ، موضوعة داخل كيس صغير من الجلد ، معلق فى خيوط فوق المقابر .

فى مناطق الصعيد . كما أن اتجاه هذين الواديين ، يدفع الى استنتاج أن نقطة تماسهما تقع فى نفس المكان الذى ترسم فيه على الخريطة بحيرة موريس ، كما أن اتساع وادى النهر بلا ماء بالإضافة الى ما يذكره المؤرخون من بحيرة ( قارون ) يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الخزان لم يكن سوى راس لهذا الوادى ، الذى سد بشكل طبيعى بفعل تكس الرمل ، او بواسطة يد الانسان ، بطريقة يمكن القول معها بأن بحيرة موريس قد تكونت ولم تحفر . وهذا الراى شديد الترجيح بحيث أن المرء عندما يفكر فى طبوغرافية هذه البلاد سيجد ما يقنعه بأن خزاناً يحفر تحت مستوى تربة مصر ، سوف يجعل المياه التى يتلقاها بغير ذات نفع لهذه التربة . ولقد أوضحنا أن المياه التى حجزت على هذا النحو ، ستكون بالأحرى فى وضع تجرى معه نحو نهر بلا ماء ، لا أن تجرى الى داخل وادى النيل .

ولكى تكون هذه المياه نافعة للجزء الأدنى من مصر ، كان الأمر يقتضى عكس ذلك ، أى أن يكون حوض البحيرة ، بدلاً من أن يكون محفوراً بشكل طبيعى ، قد يكون عن طريق سدود علوية اقيمت فوق الأرض الطبيعية ، بقصد أن تحجز بعد الفيضان كمية من المياه أعلى من مستوى أرض مصر . أن وجود بحيرة موريس ، والغرض الذى ينسب اليها عادة ، سيصبحان إذن امرين مشكوك فى صحتها ، وربما يشكلان على الدوام مشكلة تستدعى الحل .

== وتلامس أرض مريوط ، التلال التى تنتهى اليها المرتفعات الليبية ، أما التربة هناك ، فهى عبارة عن أرض رسوبية ، تشابه أرض مصر ، وتبعاً لذلك ، فإنها تدين بتكوينها لمياه النيل ، التى كانت تصل الى هناك فيما مضى ، وحين تسقط الأمطار ، تتكاثر بعض الأعشاب فى مريوط ، وهذا ما يدفع العربان ، وبخاصة الجوابى ، الى الذهاب الى هناك مع قطعانهم ، ولأن الآبار لا تزود بالمياه الا عن طريق الأمطار ، فإن مياه هذه الآبار ، تتجدد فى اوقات الجفاف ببطء شديد . ويتردد العربان على مريوط بسبب قربها من الاسكندرية ، ولأنها تقع على طرف خط الآبار الذى يجاور الصحراء عند الاتجاه الى ولاية البحيرة . ويؤدى هذا الخط الى بحيرات النطرون ويصل المرء بعد عبوره الهضبة التى تفصل الواديين ، بعد مسيرة يوم ، وعند الطرف الشمالى للبحيرات ، الى مرتفعين متجاورين يطلق عليهما اسم النهدين .

وهذا الجزء ، الذى سمحت لنا الظروف بالتعرف عليه ، هو مفتاح الجغرافيا الفيزيائية لمصر .

وان كان لنا ان نتجاسر على التشبع لراى ، لقلنا ان اتساع وحجم حوض النيل فى الفيوم يعودان الى منفذ بحر بلا ماء الذى يبدو على نحو مائل . ويحدد الأب سبكار ، ويحذو حذوه سترابون ، حوض هذا الفرع القديم للنيل ، بأنه يتجه نحو بحيرة مورييس ، لكتهما يتركان نقطة التلاتى غامضة ، ويعطيان لبحيرة مورييس نسباً وابعاداً من الضخامة بحيث تتجاوز الحد بالنسبة لاتساع بحر بلا ماء . واذا كان الراى الذى عرضناه لايعدو ان يكون الا نوعاً من التخمين ، فان النتائج التى حصلنا عليها ، وحسب استنتاجاتنا ، من المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها ، توضح لنا ، أنه كانت توجد مجارى مياه كبيرة فى داخل الصحراوات . وانه من المحتمل جداً ان كان النيل ينقسم الى عدة فروع الى الجنوب من بحيرة مورييس ، وان الفرع الحالى كما سبق ان لاحظنا كان يجرى فى قاع الحوض بطول التلال الليبية ، كما تبرز على ذلك شهادات المؤلفين ، وخطوط مهد او قاع هائل يستمر بطول هذه التلال ، ويستحيل ان يكون هذا المهد قد تكون الا بواسطة مجرى مياه كبير . وقد وجدت هذا المهد فى كل اتساع ولاية الجيزة ولمساحة تبلغ ثلاثين فرسخاً ، وثمة مظهر لامت للنظروهو انه يتوغل الى الامام متجهاً نحو الجنوب حتى يوصل فيما ازعم حتى بداية بحر يوسف ، اى عند النقطة التى يعتقد ان النيل فيها قد غير مجراه ، لى يلقى بثقله على الشط الأيمن ، وفى اعماق هذا المهد تجرى مياه بحر يوسف (٢٦) .

وهكذا يبدو لنا من شهادات التاريخ القديم التى تناولت تربة مصر :

- ١ — ان النيل ، او بترجيح اكبر ، ان جزءاً من مياهه كانت تجرى داخل صحراوات مصر الغربية عن طريق وادى النطرون ونهر بلا ماء .
- ٢ — ان المياه قد دفعت الى الوادى الحالى ولعلنا نستطيع ان نفسر بهذا ، لماذا كانت مياه الفيضان فى عصر هيروdot ترتفع الى خمسة عشر ذراعاً بينما لم تبلغ فى زمن مورييس الا ثمانية اذرع فى حين انها اليوم ، تبلغ ثمانية عشر ذراعاً .

---

(٢٦) تحمل هذه القرعة فى البداية وهى تمر بولاية الجيزة اسم ، ترعة اللبن ، ثم ترعة الاسراء ، ثم تستعيد فى ولاية البحيرة اسمها الذى تسمى به فى مصر العليا وهو اسم : بحر يوسف .

٣ - ان النيل بعد هذه العملية قد جرى بأكمله بموازاة التلال الليبية،  
وشكل لنفسه المهد الذى نراه فى مصر السفلى ، وفى جزء من  
مصر الوسطى .

٤ - ان النيل قد « حمل » على الشط الأيمن وأن هذه الفترة قد سبقت  
مباشرة الوضع المنتظم للفروع السبعة للنيل وتكوين الدلتا (٢٦) .

٥ - ان الشهادات الجغرافية التى علمت الوثائق السابقة ، تؤكد  
بالإضافة الى ما قلناه ، أن مياه النيل تميل للاتجاه نحو الغرب ،  
وهو ميل يوضحه فى مصر ، كما هو الحال فى كل بلد آخر ، فى أى  
موقع آخر ، فعمل وتأثير الطبوغرافية العامة للأرض .

ويتبع هذا الراى الأخير ، ان المشروع الذى كان لدى البوكيرك والذى  
كان يرمى الى تحويل مصر الى أرض جرداء ، بتحويل مجرى النيل ، كان  
ممكن التحقيق لو انه قد دفع بياه النيل الى الصحراء الغربية ، أكثر منه  
ممكن لو انه دفعها الى اتجاه البحر الأحمر ، كما كان يقضى مشروعه .

ان وادى النهر بلا ماء ليس هو النقطة النائية فى هذه المنطقة ، اذ  
يمكن للمرء ان يتوغل من هناك الى داخل افريقيا ، فمكان الطرانة  
يذهبون الى ماوراء هذا الوادى لقطع السمار ، الذى تنقله قبيلة عرب  
الجوابى من قراهم ، لبيع فى منوف (٢٧) حيث يستخدم فى صناعة  
أرق انواع الحصر ، ولكى نتوجه من وادى نهر بلا ماء الى المكان الذى

(٢٧) انظر دراستنا عن بحيرة المنزلة . ( المجلد الثالث من الترجمة  
العربية ) .

(٢٧) منوف : هى احدى مدن الدلتا ، وتتبع مباشرة امام الطرانة على  
بعد فرسخين من فرع رشيد ، وأربعة فراسخ من فرع دمياط ، وعلى  
الشط الشرقى لفرع الفرعونية ، التى تعبر ، بالمثل ، الجزء الجنوبى  
من الدلتا ، ابتداء من فرع دمياط ، حتى فرع رشيد ويقلها عن جهة فرع  
دمياط جسر يسمى الفرعونية ، وبهذه الطريقة أمكن توزيع عادل للمياه ،  
بحيث حصلت الولايات الواقعة الى شرق او الى غرب الدلتا ، على نفس  
الامتيازات ، وتستطيع ادارة مننورة ، بأيسر السبل ، أن تعالج الاضطرابات  
والتعاقب التى نجمت عن جشع وجهالة الحكومة السابقة ، عندما فضلت  
ولاية المنصورة ودمياط على حساب ولاية البحيرة ، التى تحول جزء كبير  
من أراضيها بسبب نقص المياه ، الى صحراء حقيقية .



تقطع منه السمار ينبغي ان نسير ثلاثة ايام كاملة من شروق الشمس حتى الغروب ، دون ان يكون بإمكاننا ان نعثر على ماء طيلة هذه المسافة ، وحتى نبلغ المنطقة التى ينمو فيها السمار .

### زحف الرمال :

قلنا فى بداية هذه الفقرة ان وادى نهر بلا ماء قد غص بالرمال . وما يقال بخصوص هذه الرمال هو نفس مايمكن قوله بخصوص الرمال التى توجد فى وادى النيل ، فقد حملتها الرياح من فوق الهضاب الواقعة الى الغرب . وحيث ان وادى النطرون ووادى نهر بلا ماء لا ينفصلان الا بواسطة تل ضيق ، فان الوادى الاول يكاد لا يساهم على الاطلاق فى زحف الرمال هذه ، على الرغم من انه توجد على يمين الوادى او الى الشرق منه ، تلك الهضبة الواسعة التى تفصله عن النيل . وبدل ذلك بوضوح على تحرك محدد للرمال من الغرب الى الشرق ، وقد كانت هذه الحركة ملموسة منذ وقت طويل ، لدرجه سببت اشد القلق على مصر تلك المنطقة شديدة الخصوبة من ارض مصر ، وهى تلك التى توازى الشاطئ الايسر للنهر .

ودون ان نخرج كثيرا عن الاطار الذى حددناه لانفسنا ، نستطيع القول بأن الكتبان التى تقع فوقها قرية منية سلامة والتى تضم اتريس ووردان (\*) قد تكونت بفعل انتقال الرمال من الصحراوات اللبية ، عن طريق الرياح القادمة من الغرب ، وتحت هذه الكتبان توجد تربة رسوبية تكونت من طمي النيل اى انها بمثابة قاعدة لهذه الكتبان ، وترتفع منها اشجار جميل بالغة الجمال ، لتخرج من قلب هذه الكتبان القاحلة . وتصل الرمال فى هذه المنطقة ، وفى مناطق اخرى الى النيل ، كما يصل رماد فيزوف الى شاطئ البحر . وتردم الرمال الطريق الموازى للنهر ، وتضطر المسافر الى اجتياز هذه الارض المرتفعة والمتحجرة .

ويؤدى هذا الأمر ، بالإضافة الى ماقلناه فى دراستنا عن بحيرة المنزلة ، الى امور نوجزها فيما يلى :

(\*) انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر .

هناك ثلاثة اسباب مجتمعة عملت منذ وقت طويل على حصر أرض مصر وتدهور خصوبتها . وهذه الأسباب هي : عمل الحكومة وهو فى عمومته ذو اثر مضاد للصالح العام ، تكليل فاعلية مياه النيل وهو الامر الذى ادى نتيجة للإدارة السيئة للحكومة الى طغيان مياه البحر على الأجزاء الدنيا وغير المستوية من أرض مصر ، وأخيرا ذلك العمل المستمر والدعوب للرياح التى تدفع رمال الصحراوات من الغرب الى الأراضى الصالحة للزراعة وإلى الترع والنهر . . ومن الممكن تعديل الظروف فيما يختص بالمسيبين الأولين ، لكن ليس ثمة جهد بشرى يمكنه أن يتصدى لزحف الرمال . وفى غيبة العوامل الطبيعية القادرة على ذلك ، فقد أنت السذاجة والجهل الى تلمس الخرافات ، فنقرأ مثلا عند مؤلفين عرب (٢٨) ان إبا الهول ، الذى يشاهد بالقرب من الأهرام ، هو بمثابة تعويذه لايقاف الرمال الليبية ، ومنعها من التوغل فى اراضى ولاية الجيزة .

ومع ذلك فاننا نعتقد ان بإمكاننا ان نضيف الى ما سبق ، وكما امكنا ان نلاحظ ذلك بانفسنا ، ان غزوة الرمال الليبية تقارب من نهايتها ، بالنسبة لمصر السفلى على الأقل ، حيث لا يوجد فى الواقع الا القليل من الرمال المتحركة فوق الهضبة ، الى الغرب من النيل .

وهذه الهضبة من الحجر الجيرى .

وتكاد تكون كل الرمال التى ترى فى وادى النيل من نوع الرمال الصوانية ، فلا يبقى اذن للرياح الا الرمال التى يمكن ان تنتج عن تفتت الأحجار الجيرية .

وبالإضافة الى ذلك ، فان وادى نهر بلا ماء ، يقوم بدور الحاجز ضد الرمال التى ترحف من داخل أفريقيا نحو النيل ، ويوازى هذا الوادى ولايتى الجيزة والبحيرة ، وفى الحقيقة فان وادى نهر بلا ماء هذا يفسد بالرمل ، لكن الرمال لايزال أمامها الكثير حتى ترتفع الى حواف حوضه ،

---

(٢٨) انظر جغرافية عبد الرشيد ، الذى كتب عام ١٤٠٣ من العصر الحديث ( الميلادى ) .

بل أنه حتى لو حدث ذلك، فسوف يكون على الرمال أن تسد وادى بحيرات  
النطرون قبل أن تبلغ الهضبة لتنتقل من هناك الى وادى النيل .

ان عمل الرياح على الرمال الموجودة فى هذا الوادى هو بلا جدال  
اكثر الامور مدماة للأسف ، وهذه الرمال تتحرك وتغير من مكانها ، وسوف  
تصل بعد انتقالها من منخرة لأخرى الى النهر ، كما يشاهد ذلك فى الأماكن  
التي يضيق فيها وادى النيل ، فى حوض مصر .

ومع ذلك ، فليست الرياح وحدها هى التى تنهض بكل المعباء لكى  
تدفع بالرمل نحو النيل ، فمياه النيل نفسها ، بتحليلها على الشط الأيسر،  
وينحرها لهذا الشط ، تسمى بنفسها حينئذ نحو الرمال .

## الفصل الثالث

### عن الأديرة القبطية

انشئت الأديرة القبطية الموجودة في وادي النطرون في القرن الرابع ، ومع ذلك فيبدو أن هذه الأديرة قد أعيد بناؤها أو ترميمها مرات عدة ، منذ هذا التاريخ . وثلاثة من هذه الأديرة قد بنيت على شكل مستطيل ، يبلغ طولها من ٩٨ إلى ١٤٢ مترا ، ويتراوح عرضها مابين ٥٨ إلى ٦٨ مترا ، الأمر الذي يؤدي بمتوسط مساحتها إلى ٧٥٦٠ مترا مربعا .

ويبلغ ارتفاع جدران السور ثلاثة عشر مترا على الأقل ، أما سمكه فيبلغ عند الأساس من ٢  $\frac{1}{4}$  إلى ٣ من الأمتار وهي مبنية من خامات جيدة وبشكل معتنى به . ويسيطر على الجزء العلوى طوار يبلغ عرضه مترا واحدا . وبالحائط في أعلى الطوار كوات بعضها إلى داخل الجدار وبعضها تميل وتنزل إلى خارجه حتى يسهل الدفاع عن النفس ضد العريان ، وذلك بتنفهم بقطع من الحجارة حيث أن أنظمة الرهبان تحرم عليهم استخدام الأسلحة النارية . ولهذه الكوات المقلقة إلى الخارج ، أفنعة لقامين الناس من طلقات البنادق .

وليس للأديرة إلا مدخل واحد ، وهو خفيض وضيق فلا يبلغ ارتفاعه أكثر من متر ، كما لا يصل عرضه لأبعد من مترين ويطلق هذا المدخل من الداخل باب شديد السمك ، مزود بمزلاج في أعلاه ويقفل خشبي قوى ( ضبة ) في وسطه ، كما أنه مزود عند أسفله بعارضة حديدية تخترقها مسامير ذات رموس ، وبخلاف ذلك فإن مدخل الدير مقفل على نحو ما وبإحكام من الخارج ، وذلك بواسطة رحوين من الجرانيت موضوعتين على جانبي المدخل الضيق ، وقطر كل منهما أقل بتليل من ارتفاع المدخل ويسمح سمكها بأن ينهض في ثبات . وتشرف على الباب شرفة دفاعية يمكن منها إحراق المهاجم والتقاء الحجارة فوقه . وعندما يراد الاختباء ،

يبدأ راهب موجود خارج الدير. في درجة واحدة من الرحوين بواسطة عتلة ، ثم يثبتها ، ثم يحرج الأخرى وينسل الى الداخل ليجر ، نحوه الرحي الأخرى فتأخذ مكانها بشكل طبيعي الى جانب الأولى وعندما تتماسك الرحوان يقفل الباب، ومن طريق الشرفة الدفاعية يكون من السهل اكتشاف أولئك الذين يريدون زحزحة الرحوين .

والى جوار هذه الشرفة ، يوجد الناقوس الذى يتدلى منه حتى يلامس الأرض حبل مصنوع من ليف النخيل . وفى بعض الأحيان يستيقظ الرهبان اثناء الليل على صوت الناقوس ، ومع ذلك فهم على الدوام يلزمون الحذر والحيلة ، حتى ولو تعرفوا بالنعل من حيث هم أعلى الأسوار ، على أنهم يتعاملون مع أناس أصدقاء ، فانهم لا يقررون فتح الباب امامهم واستقبال الطارق الا بعد أن ينزل راهب عن طريق الشرفة متعلتا فى طرف حبل مربوط فى رحي صغير ليرى عن قرب ما ان كان ثمة من يبقى أخذ الدير على غرة ، وعندما يأخذ فى فتح الباب يبقى واحد من الرهبان فى أعلى الحائط متخذاً وضع الحارس ، حتى يلحظ ما ان كان هناك من يأتى على بعد من العريان .

ولكل دير بداخله برج مربع الشكل ، لا يمكن الدخول اليه الا بواسطة جسر متحرك يبلغ طوله خمسة أمتار ، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ستة أقدام ونصف القدم . ويرفع الجسر بواسطة حبل او سلسلة تمر من خلال الجدار ، ويلتف هذا الحبل حول رحي أفقية ، وينتهى البرج بسطح علوى فوق جدار السور .

وللاديرة الثلاثة التى تجاور البحيرات آبار مخفورة يبلغ عمق الواحدة منها ثلاثة عشر مترا ، ويوجد بكل بئر حوالى المتر من المياه العذبة التى ترفع بواسطة ساقية ذات قواديس . وتستخدم المياه فى احتياجات الرهبان ولرى حديقة صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات ، كما تزرع فيها بعض الأشجار مثل النخيل والزيتون والتمر هندی والحناء والجبيز . وعند نهاية شهر يناير ، يبلغ ارتفاع مياه الآبار حده الأقصى ، لتتخفض اثناء الصيف لكن الآبار لا تنضب مطلقا .

ويمتلك دير السريان شجرة سانت افرام (٢٩) ، وهى شجرة مقدسة يبلغ ارتفاعها ٦ امتار ونصف المتر ، ويبلغ محيطها ثلاثة امتار . . انها شجرة التمرهندي (٣٠) التى يظن الرهبان السريان انهم وحدهم الذين يحوزون مثل هذه الشجرة « اى انها لا توجد عند سواهم » . . وهذه الشجرة بالغة الندرة فى مصر السفلى ، لكنها بالغة الانتشار فى الصعيد . وليس للدير الرابع الذى يحمل اسم دير الانبا مقار الابن واحد ، مياهها مالحة ، ولكن ثمة بئرا محفورة على نحو طيب (٣١) ومياهها بالغة العذوبة تقع خارج الدير وعلى بعد اربعمائة متر منه ، كما يوجد نبع عند الانحدار المقابل لهذا المر الجبلى ، وللديرين الآخرين بالمثل نبع يجاورهما .

وصوامع الرهبان عبارة عن حجرات ضيقة ، لا يصلها من ضوء الا من طريق الدخل الذى يبلغ ارتفاعه اكثر من المتر . واثاثهم ليس سوى حصيرة وجرة وقلة (٣٢) . والكنايس منظمة على نحو طيب ، لكنها تزدان بصور رسنت بخشونة ، وبخلاف ذلك فكل شئ مضطرب ، غير منتظم وغير نظيف وخال من الذوق . وحيث ان فقر الاديرة لايسمح لها مطلقا باتخاذ زينات فاخرة ، فان الرهبان يجدون فى تجهيزها بأشياء

---

(٢٩) يحكى انهحدث فى الأزمنة الاولى لحياة الاديرة ، ان شكا الرهبان من ضيقهم بحالتهم ، ومن انه لا ينمو حولهم فى وحدتهم القاحلة تلك اى نبات . ولكى يقوى القديس افرام من حماستهم ، ويزيد من ايمانهم ، فقد امر احد اتباعه بأن يزرع عصاه فى الرمال ، مخبرا اياه انها ستغدو شجرة ، وبعد فترة تردد اطاع الراهب الشاب . ويقال ان المعجزة قد حدثت وان العصا قد مدت لها جذورا وانبتت لها فروعا ، وانها هى نفس الشجرة التى لا تزال تنهض حتى اليوم وتحمل اسم شجرة القديس افرام أو شجرة الطاعة .

(30) *Tamarindus indica*, lin.

(٣١) يبلغ عمق هذه البئر خمسة امتار ، وهى على شكل مربع ، طول ضلعه متر وثلث المتر ويبلغ ارتفاع الماء بها اقل من المتر بقليل . (٣٢) يقال لها ايضا وبشكل اكثر شيوعا : بردق ، وهذه الكلمة الاخيرة تركية ، والقلل عبارة عن آنية مصنوعة من الطين المعد والمحروق ، بطريقة تسمح بنسوغ خفيف للمياه ، وهى تستخدم فى تبريد الماء ، وذلك بتعريضها ، هى ، لتيسار الهواء .

مقلدة .. وهكذا فبدلاً من المصاييح الفضية تجد لديهم مصاييح من بيض النعام لها تأثير جميل لحد لا بأس به .

ورجال الدين هؤلاء ، هم فى العادة عور أو عميان ، ولهم ملمح وحشى ، حزين وقلق ، ويميشون على بعض الدخول ، وبصفة أساسية على المطايا والاحسان ، ويتغذون على البقول والعدس المطبوخ بالزيت ، ويتنفضى وقتهم فى الصلاة ، ويحترق البخور فى هذه الخلوات التى يحيط بها بحر من الرمال .. ويملو الصليب القباب عالية الارتفاع .. ويوجد تسعة من الرهبان فى دير براموس وثمانية فى دير السريان ، واثنى عشر فى دير الأنبا بيشوى وعشرون فى الدير الرابع ، ويعنى بطريرك القاهرة برعيا هذه الأديرة الأربعة .

اننا فى الحقيقة لنجهل ماتكون عليه مباهج وملذات حياة هؤلاء الرهبان الورعين والمتوحدين ، فنحن لم نلمح شيئاً يمكن أن يشتم منه انهم يمتنون بتتقيف أرواحهم ، ولا بتنشيط أيديهم . والكتب التى بين يديهم ليست سوى مخطوطات صوفية مكتوبة على رق أو على أوراق من القطن ، وبعضها مكتوب بالعربية ، وبعضها الآخر مكتوب باللغة القبطية ، وعليها فى الهامش ترجمة عربية ، وعندما تصفحنا المخطوطات الأخيرة ، وجدنا أنها ربما تعود الى ستمائة عام . وقد عبرنا داخل هذه الأديرة ، ووقفنا على كل تفاصيلها ، وقد أخذ الرهبان بسرور بالغ استعدادهم لزيارتنا هذه ، وعدوها بمثابة تقدير لهم أرضى كبرياءهم .. وقبل خروجنا تقبلنا خبز القربان (٣٣) الذى قدموه لنا .

ويقوم رجال الدين تجاه العربان بواجب الضيافة الاجبارية . وهم مضطرون أن يكونوا على الدوام فى كنف حراستهم ، ولذلك فهم عندما يذهبون من ملجأ آخر ، لا يفعلون ذلك الا فى اثناء الليل ، ويمر العربان بالأديرة اثناء جولاتهم ، ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ، ولكى يستريحوا ويريحوا خيولهم ، ويقدم اليهم الرهبان واجب الضيافة هذا من وراء الجدران ، ذلك انهم لا يفتحون لهم الأبواب مطلقاً ، فثمة بكرة موضوعة

---

(٣٣) يصنع خبز القربان دون خمور ، وهو مستدير ، ويبلغ سمكه سمك الاصبع ، وهو فى حجم كف اليد ، ويغطى سطحه بحروف عربية .

على احدى زوايا السور ، الغرض منها ان تنزل بواسطة جبل ثفة الخبز والخضار والشعر المخصص لهم . وهم مضطرون للسلوك على هذا النحو حتى لا يتعرضوا عندما يقابلهم العربان خارج الاديرة للنهب بلوالقتل على ايدي هؤلاء . وحيث انهم يعيشون فى وطأة هذا الخوف والقهر فتهم يتحملون بنفاد صبر متعصبى الديانة المسيطرة . وتلك هى الامة الرهيبة لهذه الافكار المسبقة ، التى تؤدى الى ان يكون اختلاف الدين ، بل وحتى اختلاف المذهب سببا فى خلق اعداء متباغضين فى هذه البلاد، ليس فقط بين اتباع المسيح واتباع محمد ، بل وحتى فى داخل الاسلام نفسه بين اولئك الذين يتبعون مذاهب مختلفة فى اطار الدين الواحد ، وكان الرهبان يسألوننا — وكأنه امر دينى مقدس وبلهجة لا تخلو من غرض — وماذا سيكون موقفكم من المسلمين (✱) ؟ ولم يكن هذا اول سؤال من نوعه يوجه الينا ، منذ وطئت اقدامنا ارض مصر .

ومع ذلك فان المصلحة والخرافة تقربان فى بعض الاحيان بين هؤلاء الخصوم الطبيعيين ، فيحدث على سبيل المثال فى مناطق معينة ان يرسل مسلم ، يريد ان ينشئ برجاً للحمام ، الى اديرة الصحراء التماساً مصحوباً بهدية مناسبة ، ويتقبل الرهبان الورعون الهدية ، ويمطونه فى مقابلها بطلاقة بها عبارات دينية ، من شأنها ، عندما توضع فى البرج وحسب الاعتقاد الشائع ، ان تجعله مزدحمًا بالحمام ، وان تجلب له البركة والازدهار .



## الفصل الرابع

### عن عرب الجوابى وعن البدو

يتردد على شواطئ بحيرات النطرون كل عام عربان الجوابى (٢٤)، وهم أبناء قبيلة عربية رحالة ومضيافة ، وتسكر هذه القبيلة هناك مع قطعانها فى فصل الشتاء . ويعمل هؤلاء العربان فى خلال هذا الفصل من العام فى نقل النطرون والسمار ، كما يقومون بنقل البلح ، ولكى يحصلوا عليه ، يذهبون فى شكل قوافل الى سيوة ، واحة آمون ، ويستفترقون فى رحلة الذهاب الى هناك من ١٢ الى ١٥ يوما . وهؤلاء العربان يعيشون فى حالة سلم دائمة (٢٥) ، فهم مسالمون ، يتجولون هنا وهناك بحثا عن المياه والمراعى لماشيئهم . وتحفظ هذه القبيلة اكثر من سواها بالعادات القديمة ، وأبناءؤها رعاة بسطاء لا يميلون لاجتراف الزراعة . وهم رقيقو الحاشية ، لطيفو المعشر ، ولا يحسون بأذى غضاضة من نوع الحياة التى يحيونها . ومع ذلك فعواطفهم متاجبة، وبخاصة عاطفة الحب ، الذى هو صنو للغيرة فى كل البلدان ، وخاصة عند الشرقيين . وقد تدفعهم هذه العاطفة فى بعض الاحيان الى سلوك متطرف ، بالغ القسوة (٢٦) .

---

(٢٤) رؤساء قبيلة الجوابى هم الشيوخ : قراميط او غالب ، وهو شيخ القبيلة الاكبر ، والحاج عيسى ابو على ، والحاج طه ابو ديل ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى الف رجل ، وقد يصل عدد مائتك من خيول الى الستين .

(٢٥) أناس مسالمون ، لا يبدأون مطلقا بشن الحرب ، ولا يشهرون السلاح الا للدفاع عن النفس ، وهو امر نادر الحدوث ، وهم ينصرفون عادة لكسب المال .

(٢٦) هواد ، رب لأسرة كبيرة العدد ، وشيخ مسن يحظى بالاحترام، ومن اتباع الحاج طه ، وذات يوم وجد ابنه الوحيد قتيلا الى جوار زوجته ، وكانت تلك متزوجة من قبل من رجل آخر ، طلقها لبعض التعلات الواهية ، ولما كان هذا الأخير مجنونا بجيها لدرجة السعار ، فقد اقسام

وملابس الجوابى ، حرام وبرنس وهو نوع من المعطف الذى يشبه الغفارة التى تستخدمها الكنيسة الرومانية عند اقامة قداس ، وهو من الصوف الابيض. وتستخدم هذه الاتمشة فى صنع ملابس الرجال والنساء ، وهى تصنع فى النوبة ، ويشتريها العربان من القاهرة ، وبصفة خاصة من الاسكندرية .. وتغزل النسوة وبر الماعز ليصنعن منه اتمشة الخيام وبعض البسط العادية .

وتتمثل ثروة الجوابى ، وعموما كل عربان الصحراوات ، فى الجمال وقطعان الأغنام والماعز ، بينما تتمثل ثروات من استوطنوا القرى منهم فى الماشية الكبيرة وقليل من الجمال . ومن ذا الذى كان يسدور بخلده ان الثروة فى وسط هذه الصحراوات القاحلة ، شأنها فى ذلك نفس شأنها عند الأمم المتحضرة ، يمكن ان تصنع هذا التمايز وتبتعد بأصحابها عن حياة الفطرة ؟ فليست كل الأمهات العربيات يرضعن بأنفسهن اطفالهن ، اذ تتخذ الثريات منهن لأطفالهن مرضعات . اما أولئك اللاتى لا يسلمن أبناءهن لامهات مأجورات ، فيعرفن فيما يبدو الاهمية التى توحى بها هذه السن الحنون للشعوب المتحضرة . وعند الهجوم على مخيم عربى ، لم يتخذ احتياطاته الكافية ضد المفاجآت ، يركب الرجال على الفور خيولهم ويهربون سريعا تجاه النيل ، وتبقى النسوة وحدهن مهجورات ، ولكى يتقين بطش جنودنا وابطاء زحفهم يستقرن على نحو ما بأطفالهن ويضعنهم أمامهن ، وقد يتم هذا من جانبهن بدافع من الغريزة وحدها ، كما قد يتم بعد انعام للمكر ، لكن مثل هذه العقبات لم تكن لتوقف زحف رجالنا الشجعان ، فكانوا يلتقطون اثناء جريهم هذه المخلوقات البائسة ويحملونهم ثم يودعونهم على مقربة من امهاتهم ويواصلون ملاحقة الأعداء .

---

هذا المخبول ان يقتل بيده من يتزوجها . وكان عند كلمته ، وحيث لم يستطع هواد ان يتحمل رؤية قاتل ابنه ، فقد انسحب الى الصعيد ، فجر معه ، دون قصد منه ، السيد من الأسر ، وحين لاحظ هذا الأب المسكين ان انسحابه قد ادى الى حدوث اضطراب فى القبيلة ، فقد آثر ان يكظم آلامه حتى لا يؤذى الصالح العام لقبيلته ، فعاد الى كنف الحاج طه ، لكنه كان يشاهد على الدوام حزينا وعيناه مليئتان بالدموع ، وعاش حياة مليئة بالآلم والضنى .

ومن العسير الا تدب الفوضى فى مخيم استولى عليه عنوة ، فلى هذه الحال ترى النسوة العربيات وهن خائفات من ان تطبق عليهن شريعة المختصر ، ويلجأن كى ينفرن منهن رجالنا ، الى تكتيك شاذ وهو ان يلطخن وجوههن بروت البقر .

ويحمل عربان الصحراء اسم عرب الخيش أى عرب الخيام ، اما الساكنون خلف الجدران ، فقد كانوا فيما مضى عربا رحلا ، وعندما اقتربوا من بلادان مزروعة ظلوا لفترة تحت الخيام ، ثم بداوا شيئا فشيئا يبتنون لانفسهم بيوتا مثل بيوت فلاحى مصر .

وليس هناك عقد يربط أفراد قبيلة ما بشيخها ، ويعود هذا الشيخ فى معظم الأحيان الى أصل ضارب فى القدم ، يسر الناس ان يعرفوه ، ومع ذلك فعليه لكى يصبح على رأس قبيلته ، ان يستخدم الاتناغ والمهارة والمرونة ، وباختصار كل الكياسة المفترضة فى حاكم ماهر ، اذ ان عليه فى الوقت نفسه ان يعقد السلم أو ان يشن الحرب ، وان يقضى فى كل مايمكن ان يكون نافعا للقبيلة .

وما ان يعقد سلام مع قبيلة او ما ان يتم تعامل معها حتى يخلع على شيخها جبة وشال . وعادة تقديم الهدايا امر مستقر ، حتى انه لا يتيقن ان الاتفاق قد تم بدون ذلك .

ويتفاوض شيوخ العرب فى كرامة أو مع استخدام العنف كل المخاتلين . ان مايسمونه أكل العيش والملح مع الحلفاء الجدد ، ذلك الأمر الذى يحظى بالاحترام فيما يقال ، ليس سوى فعل شائع املته العادة ، فلقد برهن عربان ضفتى النيل انهم لا يحترمون المهود ، فهم ينتهكون المواثيق التى وضعوها ذات حين ، حين املى عليهم ذلك ضعفهم أو مصلحتهم .

وعندما يذهب العربان للقاء شخصية يحترمونها ، فانهم يتركون خيولهم على بعد مائة خطوة ، ثم يتقدمون اليه سائرين على أقدامهم .

ولا يعرف العربان قوانين أخرى غير قانون القصاص ، وحيث لا يوجد قانون رادع ، ولا قضاة يستطيعون تنفيذه فسوف يبقى القتل بلا عقاب

ما لم يأت الاغتيل ، ليقابل هذا الضرب من ضروب استخدام القوة ، وعندئذ فإن ما ننظر اليه نحن على اعتباره جريمة أو جينا ، يغدو انتقاما مشروعا يتابعه اهل القتل من جيل لجيل .

وتغذى الاغتيالات نوازع الحرب من قبيلة لأخرى ، أو بين القبائل والقرى ، ويقال عندئذ أن بين هؤلاء دما . وفى بعض الأحيان يضطر الناس أن يدفعوا ثمنا لاعادة شراء الدم واحلال السلام « الدية » ، وإن كان ينظر الى ذلك باعتباره عارا ، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخلخل أن يدفع جزية مضاعفة للأقوى . . أما القرى التى ترفض أن تدفع فتتعرض للسلب والنهب ثلاث مرات ، ويصيب مثل هذا السلب القرى بالفرع ، وينظر الفلاحون الى العربان كما ينظرون الى وباء مخيف . سألت مرة احد مشايخ قرية ما : هل حل الطاعون بقريتكم هذا العام ؟ فأجاب ، نعم مرتين ، فلقد حل الطاعون والعربان .

والغرام بالمولود الذكر امر ذو مذاق طيب ومرغوب عند العرب ، كما هى الحال عند كل أم الشرق .

ويؤدى العربان الصلاة خمس مرات فى اليوم ، ويتناولون الطعام قبل صلاة الظهر وقبل الصلاة الأخيرة « العشاء » عند انتهاء الفسق ، ويكنى طعام اثنين من سكان القرى لأطعام عشرة من العربان ، فهؤلاء يأكلون القليل من الخبز ، ويستخدمون لطحن الدقيق طاحونة ذات ذراع مزودة بشقتين صغيرين من الحجارة « رحي » يأكلون كذلك البلع ، ويشربون القليل من الماء ، ويفضلون لبن النوق ، وينامون حوالى ست ساعات فى اليوم . وكلما يأكل العربان اللحم ، ولا يعرف هؤلاء وجبات البذخ : فخروف محمر يقدم بأكمله بعد قطع رأسه ، هو الوجبة الفاخرة لديهم ، وهذه ، لا يقدمونها الا ترحيبا بزائر كبير أو شيخ عربى .

ولا يبالي العرب بقياس الوقت الا لمعرفة اوقات الصلاة . ويقدرّون الوقت بقياس طول ظلمهم ، ويقيسون هذه الظلال بقدميهما عاريتين ، ويضعونها واحدة امام الأخرى بالتبادل ، ويرون — كعادة عامة — أن الظهر يتحدد صيفا عندما يبلغ طول الظل تدما واحدة والشمس عمودية . ويتحدد نفس الوقت شتاء عندما يبلغ طول الظل تسعة أقدام . أما الفترة

الفاصلة بين منتصف النهار وغروب الشمس « العصر » فيتقن جلولها صيفا عند بلوغ طول الظل سبعة اقدام .

ويعتقد العربان بسبب جهلهم وسذاجتهم بان علاج الحمى وعلاج بقية الامراض ، يتم بأن يوضع تحت رأس المريض ورقة تحتوى على بعض كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش . وهنا ينال المريض وهو شديد الثقة فى هذه التذكرة « الطبية » ، واكثر من ذلك فى قدرة العناية الالهية .

ويجد النسوة العربيات عند نهاية فترة الحمل ، عند بنات جنسهن ، العون والمساعدة فى عملية الرضاعة ، ويؤكد البعض ان الفتيات او النسوة الارامل اللاتى يصبحن حاملات يقتلن على يد اهليهن ، هذا ان لم يقتلن انفسهن بانفسهن .

ويخشى العربان كثيرا وبائى الجدرى والطاعون . ويسارع الأشخاص الذين لم يصابوا مطلقا بهذين المرضين الى الابتعاد عن اولئك الذين يصابون بأى منهما ، ويترك الجدرى ندوبا كبيرة ، وبرغم كل افكارهم الدينية المسبقة، يقوم العربان باحراق جثث الذين ماتوا بالطاعون، ويولون ذلك الامر عناية شديدة .

ويقدر عمر الأطفال بالنسبة الى أحداث او فترات معينة ، وهكذا فان مواليد هذا العام ستقدر اعمارهم بالنسبة الى دخول الفرنسيين الى مصر . ولدى العربان نوع من التقويم يغطى حوالى ستة اعوام . وليس ثمة سجلات عامة ، لذلك يكتب تاريخ مولد الطفل على قطعة بالية من الورق ، او على صفحة من القرآن ( الكريم ) كما يكتب تاريخ ميلاد الاطفال فى القرى على ابواب المنازل او جدرانها .

ويؤدى بهم نقص الأدوات الطبية الى ممارسات شاذة لعلاج جروح الأسلحة النارية ، يهدفون من ورائها الى الاستعاضة عن آلات الجراحة ، لاجراج المقذوفات النارية التى لم تصل لأبعد من اللحم املا فى الشفاء ، وهذه الممارسة هى مطابقة شق أحدث فى الجزء الخلفى لضفدعة بشق الجرح وربط الاثنين برباط محكم، ويزعم العربان ان الحركة المرتعشة التى تحدثها الضفدعة وهى تموت كهيئة بجذب المقذوف الى الخارج .

وينظف العربان الجرح بالزيت أو الزبد ، ويكونونه بالجنزار ، حتى يمنعوه أن يلتئم قبل الألوان ، ولنفس الغرض ، ولكى يساعدوا المصاب على التحمل الجميل ، يضعون فى الجرح زلطة صغيرة ، وهو امر يماثل الكى الذى نستخدمه لهذا الغرض فى أوربا .

ويصحب العربان معهم اينما ذهبوا ، الجزء الأكبر من ثروتهم ومئونتهم ، ويحتفظون فى مخيمات اقامتهم بالقش المهروس « التبن » والحبوب ، وذلك فى تجويفات كبيرة محفورة فى الأرض . وتحدد مجاورة الآبار المذبة وبعض قطع الأرض ذات الانتاج الضعيف ، أو البحيرات الملحة التى يقدم استغلالها بعض النفع — يحدد كل هذا اختيار مكان مخيماتهم ، وبالإضافة الى ذلك فللعربان على مبعدة أربعة أو خمسة فراسخ من مشارف الأرض المزروعة ، مخازن مسورة بسور عال . وإلى الأبعد من ذلك ، فى الصحراء ، توجد مستودعات فى الرمال توضع عليها علامات لا يعرفها الا أصحابها .

ولكى يختفى الجوابى من سلب واثتهاب القبائل الرحل لهم ، فانهم مضطرون لاستضافة هؤلاء فى مخيماتهم ولتقديم الشعر لجمالهم ، ولا يعرف العربان الرحل « البدو » أى نوع من القوانين ، وقد كانوا على الدوام فى عدااء مع الحكومة الأخيرة التى كانت قد توصلت ، برغم ذلك بعض الظروف ، الى تضيق الخناق عليهم فمنعتهم من دخول مصر .

ومنذ بضعة أشهر اخذت فتيت الهنادى (٢٧) يفشدن لنا :

عاش الشعب الذى طرد مراد من القاهرة .

عاش الشعب الذى اتاح لنا أن نرى القرى .

عاش الشعب الذى جعلنا ناكل الفطير (٢٨) .

---

(٢٧) شيخ القبيلة الرئيسية من قبائل الهنادى ، هو موسى ابو على ، ولهذه القبائل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ حصان . ويوتقع الرقم الى ٩٠٠ — ١٠٠٠ اذا ما اضفنا ما تملكه القبائل الصديقة والمخالفة معها من خيول ، ولعل الهنادى هم اقدم القبائل الليبية التى يتعرف عليها المرء فى مصر .

(٢٨) نوع من الفطائر المورقة والتى غمست أوراقها فى السمن ، ويأكلها الناس مغموسة فى عسل النحل ، وكثيرا ما تؤكل مغموسة بالمسل الأسود .

ولكنهم منذ تمكنا بفعل إجراءات عنيفة أن نجمع سلبهم وانتهاهم ، قد كفوا عن الترحيب بنا . وينبغي للمرء أن يحترس من العربان بالقدر الذى يحتمى به من اللصوص والسفاحين . وهم لا يوخون بأية رهبة كفرقة مسلحة مادام هناك من يقاومهم أو يزحف عليهم ، وفضلا عن ذلك فلقد توغلنا « نحن الفرنسيين » فى الصحراء التى كانوا يظنون أنفسهم فى منعة فى جوفها ، ولم تعد هذه الرمال القاحلة بغريبة علينا .

والعربان مسلحون بحراب (٣٩) يستخدمونها بمهارة ، ويقتذفونها وهم ممطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة وذلك بإيقافها فجأة على قدميها الخلفيتين ، وهى تجرى بأقصى سرعتها وان كانوا فى نفس الوقت يبذلون قصاراهم للعناية بها الى حد لم نسمع به من قبل . ولا يغير العربان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متزقين ، وهم يطلقون صيحات عالية تختلط بسببب بذى ، وطريقتهم فى الحرب هى الطريقة التى تتبعها الفرق الخفيفة .

والخيول العربية شديدة السرعة . ويطلق الفرسان لها العنان دون ان يتركوا السرج التى يمسكون بها بيدهم اليسرى ، وهم يحملون على عدوهم ، فاذا قتلوه سلبوه ، وفى بعض الأحيان يحزون رأسه ويحملونها على طرف حراهم دليلا على النصر ، وعندما لا يحززون النصر يعودون ليحملوا على عدوهم عن مينة أو عن ميسرة أو يسعون لتحسين وضعهم بارتقاء الأماكن العالية .

لكن العرب فى العادة مسلحون على نحو غير جيد ، وبارودهم واسلحتهم النارية بالغة الرداءة ، والبارود مغلف بطريقة شائنة . وكمية الفحم به أكثر مما يلزم ، وهم يحملونه فى علب مصنوعة من الخشب ،

---

(٣٩) الحربة ، قطعة حديد مربعة الشكل ، تنتهى بسن مشحودة ، وتثبت فى عصا يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ودرجة اختراق الحربة اقل من درجة اختراق الرمح ، الذى تكون خدينته مسطحة ، لكن الجروح التى تحدثها الحربة ، بتواليها ، تكون اقصى وأخطر من جرح الرمح ، اذ تسبب الاصابة بالتيتانوس ، ويحمل العرب الذين يقطنون حول النيل الحراب والرمح ، فى حين يحمل عربان ليبيا الأسلحة النارية .

كما يحملون الطلقات بشكل منفصل فى حقيبة من الجلد ، ومن النادر ان يعبئوا بنادقهم بالخرابيش .

وكان من عادة العرب المتأخمين لمصر ان يرسلوا الى بولاق جواسيس يتخفون فى هيئة فلاحين ، وكان هؤلاء يتعرفون على نوع وحجم الفرق التى كانت تخرج من القاهرة للزحف عليهم ، ويذهبون لتقديم تقرير عن ذلك ، وعلى الفور كانت القبيلة ترفع خيامها وترسل الى اعماق الصحراء بالنساء والاطفال وكل ثمين لديهم ، ويمشى العرب لعدة ايام حتى ينهكوا خصمهم ، وفى هذه الاثناء تتجمع القبائل المتحالفة ليقرروا ان كانوا سيهجمون ومتى ؟ ام ان عليهم ان يكتفوا بصد هجوم العدو .

وتقيم المخيمات نقاط استطلاع فوق المرتفعات ، ويضع افراد هذه النقاط عمالتهم فوق رماحهم ، فان راوا ان من الأفضل ان تقوم مخيماتهم بالهجوم يتجه هؤلاء ناحية العدو او الضحية التى قرروا الاغارة عليها ، اما فى الحالة المضادة فيعودون الى جهة المخيم .

وعندما يخشى العرب من هجوم العدو عليهم ، يتفرقون فى مخيمات كثيرة العدد ، ويستكشفون العدو عن بعد كبير ، ويحتفظون بالجمال مقيدة بالقرب من الخيام ليكونوا مستعدين للفرار فى اقرب وقت .

وعندما يشتبك المخيم مع قبائل أخرى ، تظهر الفتيات على مرأى من المتصارعين ، ويضربن على الدفوف ، وترن فى الهواء اغانيهن لتلهب الحماسة ، ويستقبل الجرحى بعناية كبيرة من زوجاتهم وحببيساتهم .. ويتدر هؤلاء النسوة الشرف حق قدره ، ويزيد تقدير القبيلة لشيخها كلما زادت الندوب فى وجهه « دليلا على ما تلقى من جروح دفاعا عن الشرف » فهذا الشرف ، الذى هو دعامة الامبراطوريات ، يقوم بالدور نفسه عند هذه العصب البائسة من اللصوص .

وينظر الى معركة يهلك فيها عشرون او خمسة وعشرون رجلا على انها معركة دامية ، وتظل ذكراها محفوظة فى تاريخهم .

وعلى الجيش الذى يزحف فى الليل سميا وراء العربان أن يحذر من خطأ يجعله يتوهم ان ثمة مخيمات حيث لا وجود لأثر لها ، وينتج هذا



الخطأ — وهو يحدث كذلك فى حروب البحار — حين تظن اشعة النجوم  
من بعد على أنها نيران العربان .

ولقد اوجبت الطبيعة على الانسان حين وهبته غريزة التكاثر ، ان  
يسمى لبقاء نوعه . ويعيش فى تخوم مصر أربعون ألف عربى لا يجدون  
فى رمالهم القساحلة اى مصدر لحياتهم ، وهم ينظرون الى ارض مصر  
باعتبارها عقارا لهم . وتحت هذا الادعاء ، يأتون اليها ليمارسوا آلاف  
الانتهاكات والسرقات ، ولقد سعت كل حكومات مصر الى ردعهم ، لكنها  
لم تنجح فى ذلك كل النجاح .

وفى خضم هذا الصراع ، وجد الفلاح المسكين نفسه يرتعد فرقا من  
عمال « موظفى » الحكومة ، الذين يعتصرونه ويقتلون كاهله ، ومن  
العربان الذين ينتهبونه ويسفحون دمه .

لقد كان هذا على الدوام قدر شعب مصر ، وكل ما نأمل فيه ان  
يتحسن مثل هذا القدر .

خط سير دائرية الاستطلاع التى مرت ببحيرات القطرون  
والنهر الفلرغ

المسافة المقطوعة مبينة بالآمتار أو مقدرة بالساعات	عدد الآمتار	عدد الساعات	ملاحظات
من للطرانة إلى القصر	—	١٢	بالنسبة للقوافل
من القصر إلى البحيرة رقم ٣	٦٢٨	—	
من القصر إلى الطرف الجنوبي للبحيرات	—	١ ½	
من القصر إلى الطرف الشمالى	—	٤	
من القصر إلى دير براموس	٧٢٣١	—	
من القصر إلى دير السريان	٧٤٣٠	—	
من دير براموس إلى دير السريان	٩٢٥٨	—	
المسافة بين دير السريان ودير الأنبا بيشوى	٤٤٤	—	
من دير السريان إلى دير الأنبا مقار	—	٣	حسب الاستدلال
من دير براموس إلى النهر بلا ماء	—	١ ½	حسب الاستدلال
من دير السريان إلى النهر بلا ماء	—	١ ½	مع الاتجاه شمالاً وجنوباً
من دير الأنبا مقار إلى النهر بلا ماء	—	١	حسب الاستدلال
من دير الأنبا مقار إلى وردان عن طريق ميت سلامة	—	١١	

وصلنا فى الخامس من بليفوز ( ٢٥ يناير ) الى الطرف الشمالى  
للبحيرات ، ووصلنا فى السادس منه الى دير براموس . وفى السابع  
منه عبرنا النهر بلا ماء .

**الزوايا التي سلرت عليها بعض اتجاهاتها  
بالنسبة لخط الزوال المغناطيسي**

- الاتجاه من القصر الى دير براموس . . . . . ١٦٢
- الاتجاه من القصر الى دير السريان . . . . . ١٨٠
- الاتجاه العام للبحيرات . . . . . {{
- الجانب الشرقي لوادي السريان . . . . . ٧
- واجهة الدخول الى دير الانبا مقار شمالا وجنوبا . . . . ١٠
- اما مداخل الاديرة الثلاثة فتطل جهة الشمال .

الدراسة الثالثة

دراسة موجزة عن عيون موسى  
ج. ٥. م. ٦



على الشاطئ الغربى لخليج السويس ، وعلى بعد أربعة فراسخ الى الجنوب من المدينة ، ويكاد يكون فى مواجهة وادى التيه ، توجد منابع مياه رسمتها كل الخرائط ، تعرف باسم عيون موسى ، ولسوف نفع فى خطأ بين اذا ماظننا ان اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من المصور المصرية الضاربة فى القدم ، وانه تد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك ان اسم هذه الينابيع شأنها فى ذلك شأن عين العذراء فى المطرية « هليوبوليس القديمة » ، وشأن عيون غيرها كثيرات ، لا يعود الى ما قبل وقت استقرار المسيحية بمصر ، حيث تحورت أسماء قديمة ، تتصل بديانة تزعزعت مكانتها ، الى أسماء أخرى مشابهة ، فى المعتقدات الجديدة .

وعلى الرغم من ان عيون موسى اقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى من الصحراء ، فانها مع ذلك مائلة الى الملوحة ، ونتيجة لهذا الأمر ، فليس من خاصيتها ان تروى من الظبا بقدر ماتروى المياه العذبة ، وان كانت تكفى للبقاء على حياة النباتات والحيوانات ، وقد روينا منها لمدة أربع وعشرين ساعة اثناء زحف شاق ، لكننا لم نسغ طعمها . ومن جهة أخرى فحيث ان هذه المياه تجرى وتتجدد بصفة مستمرة ، فانها رائقة على الدوام ، وليست لها لا رائحة ولا مذاق غير مناسبين ، فى الوقت الذى تتعكر فيه مياه غالبية الآبار عادة ، بفعل الاهتزاز الذى تحدثه حركة الاغتراف منها ، والتى لها على الدوام رائحة كريهة مقترزة ، وعلى سبيل المثال فان بئر المجرود الواقعة على بعد أربعة فراسخ الى شمال السويس ، والمخصصة لسقاية محل مكة — بعد مسيرة ثلاثة ايام من القاهرة ، وهى محفورة على عمق مائتى قدم — تتحلل وتنفع فيها المواد الحيوانية والنباتية ، التى لا يستطيع أحد ان يتفادى سقوطها فيها ، ولذلك فان مياهها — بخلاف قدراتها الطبيعية — رائحة كريهة يتحملها المرء بصعوبة .

ولابد ان عيون موسى كانت على الدوام بذات نفع كبير لعرب الطور ، الذين يسكنون ضواحي جبل سيناء . فالعرب مضطرون على الدوام ان يجلبوا من مصر بعضا مما يحتاجونه من مواد تموينية ومصنوعات اجنبية ،

وعليهم في مقابل ذلك أن يحملوا إليها منتجات الغابات الصغيرة التي تغطي جبالهم ، ولم يكن هذا التبادل ليتم إلا عن طريق قوافل كان عليها على الدوام أن تتخذ من عيون موسى واحدة من محطاتها . وبغلا من ذلك . فما أن كانت تتم منشآت بحرية في أعماق الخليج ، وليكن في السويس ذاتها ، أو في وادي التيه ، أو على الطريق من البحر الأحمر حتى مميس . . حتى يكون من الضروري أن يتردد الناس على هذه العيون ، لأنها مصدر لاغنى عنه ، بعد أن تنضب مياه الخزانات التي تكونها مياه الأمطار إذا ما مرت فترة من جفاف طويل .

لكن الوقت الذي كانت فيه عيون موسى — فيما يبدو لنا — تجذب أكبر قدر من الاهتمام ، هي تلك الفترة التي دارت فيها الحرب ، التي تحالف خلالها البنادقة والمصريون ضد البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . فمن المعروف أن هؤلاء الجمهوريين ، كى يدافعوا عن صولجان التجارة الذي احتفظوا به حتى ذلك الوقت ، والذي بدا أنهم سيفقدونه ، قد أنشأوا وسلحوا أساطيل لهم في السويس ، ولكن ليس من المحتمل على الإطلاق أن يكونوا قد أقاموا ترسانات لبناء السفن عند عيون موسى ، إذ لا يقدم موقعها أية ميزة في هذا الخصوص ، ومع ذلك فيبدو أنهم قد أنشأوا هناك موردا تتزود منه السفن بحاجتها من المياه ، لكن لم يبق شيء من آثار هذا المورد على الإطلاق ، لقد تبدد كل شيء أو قل لقد استهلكه العربان ، ولا يجد المرء هناك أية آثار أخرى إلا أساسات ، جزء كبير منها تحتى ، وهذه الآثار التي لا تزال هائلة والتي لم نكتشف إلا جزءا منها في ذلك الوقت القصير الذى أمكننا أن نخصصه لها ، هي بالدرجة الأولى انقراض خزانات كبيرة شيدت بعناية . وكانت تجلب إليها مياه العيون عن طريق ترع مغطاة وكانت المياه تنتقل منها بواسطة قناة حتى شاطئ البحر . وقد اكتشف الجنرال بونابرت هذه التركة المغطاة بكل طولها الذى يبلغ من ٧٠٠-٨٠٠ قامة\* ، وقد بنيت من مواد بنائية جيدة ، وكانت مغطاة في كل طولها ، وليس لها من انحناء إلا عند البلاج الذى تسير تحته ، وبعد توقف استعمال

هذه التربة ، ادت الرمال التى جلبتها المياه الى طمسها فى الخسین قامة الاولى منها . اما الجزء الباقى ففى حالة جيدة ، بحيث يمكن اعادتها الى العمل باقل المصاريف الممكنة . وعلى الشاطئ تنتهى التربة بأكبتين كونتهما الانخفاض ، ولطهما من آثار المورد الذى تحدثنا عنه ، ويتضح ذلك من الاسم الذى يطلق عليهما . ولابد ان يكون هذا المورد قد بنى بطريقة مناسبة ، من ناحية الشكل وطبيعة الاوانى التى كان من المعتاد استخدامها لنقل المياه أثناء الرحلات البحرية .

وعلى بعد حوالى مائتى قامة ، الى الشمال من العين الأخيرة ، يوجد جبل هائل لحد ما ، وهو يتكون شأنه شأن جبل تستانشيو Tctaccio فى روما ، من انقاض الجرار وآنية اخرى مصنوعة من فخار سيئ النضج .

وقد اكتشفنا هناك بقايا هي بلا جدال انقاض لأمران قديمة ، اذن فقد كان هناك فى هذه المنطقة منشأة هائلة لصناعة الفخار ، ولا يمكن ان يكون غرض هذه المنشأة الا صناعة الانية الفخارية ، التى تكون السواقي ، التى بواسطتها تنزح مياه الابار لرى الاراضى التى لايفرقها الفيضان فى كل اثناء مصر ، وفى الحقيقة فعندما أصبحت عيون موسى أهلة بالسكان ، كان كل البلاج الممتد من العيون حتى الشط مزروعا ، وما زلنا نرى فيها حتى اليوم عددا لا بأس به من النخيل الصغير ، الموزع بنظم لا يمكن ان يكون قد تم صحفة . وتلك النخلات الصغيرة ، وهى فيما يبدو ليست سوى سلالات من اشجار قديمة بليت ، انما هى على الاقل أدلة على وجود زراعة قديمة فى هذه المنطقة ، ولم تكن هذه الزراعة تتطلب اى نزح للمياه من أجل الرى ، حيث كان فى مقدور مياه العيون بسهولة ان تصل ، عن طريق قنوات غير مغطاة الى كل الأجزاء المنزرعة ، لذا لم تكن السواقي ضرورية . ولذلك فاننا لم نجد بين هذه الأكاداس الهائلة من الفتات والحصى التى تكون المرتفع ، الا مايمكن ان يعود الى سواقي لم يتغير شكلها منذ ازمة ضاربة فى القدم .

وكل هذه السواقي التى رأيناها كانت مصنوعة من فخار ذى كفاءة عالية لحد كبير ، ونحن نعتقد ان الغرض من هذه المنشأة الكبرى للفخار ، هو صناعة الجرار الكبيرة المخصصة لنقل المياه بحرا ، فى بلد ادت درة الخشب فيه ، بل وربما غيبة الصقاعة ، الى جعل صناعة البراميل



أمرًا غير عالى . لذلك فقد كان أولئك الذين يفدون لجلب المياه من عيون موسى على ثقة بأنهم سيجدون الجرار التى ستستوعبها ، وأنهم سيجدون بنفس الطريقة الآتية الفخارية الأخرى اللازمة لاستعمالهم الشخصى .

وتشكل عيون موسى ظاهرة هامة فى الهيدروستاتيكا (❖) فالينابيع المختلفة التى تكونها ، والتى يبلغ عددها ثمانية ، توجد كلها على قمم عدد مماثل من مرتفعات مخروطية صغيرة ، تنتهى كل منها فى جزئها العلوى بفوهة تستخدم كحوض للمين ، ومنه تسيل المياه على السطح المخروطى بواسطة قنوات طبيعية ، وعلو هذه المرتفعات يختلف فيما بينها ، وأكثر هذه المرتفعات علوا يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما من مستوى الأرض المجاورة ، وقد نصبت عين المرتفع الأخير منذ وقت طويل ، وفوهتها مليئة بالرمال التى كدستها فيها الرياح ، ولا يزال يرى هناك حتى اليوم ، جذع نخلة طعمها العريان بعد أن كانت قد نمت نموا كبيرا .

ولقد كان من السهل أن نتفهم الطريقة التى تكونت بها المرتفعات التى توجد على قممها العيون . فقد أدت الرطوبة التى نشرتها مياه إحدى العيون فى أرض مجاورة ، الى نمو خضرة دائمة حول حوضها ، وأدت أعشاب هذه النباتات الى تقليل سرعة الرياح التى تصطدم بها ، مما جعلها تتخلص من كل حبوب الرمل الكبيرة التى كانت تحملها ، وحيث أن سيقان هذه الأعشاب كانت تحمل تلك الرمال التى تحجزها ، والتى تترسب أسفلها ، فقد بدأت هذه الرمال تتماسك بفعل الرطوبة ، حتى تلتحم ببعضها البعض ، مما جعلها تصمد لهبات الرياح بالغة القوة . . وقد أخذت كربونات أو سلفات الجير التى تحتويها مياه النبع متحللة ، والتى كانت تتعرض للهواء بفعل البخار ، أخذت تشكل بللورات بين حبوب الرمل وتشكل جلوتينا تكمل هذا الالتحام . ومن هنا فإن حواف الحوض توجد عالية بعض الشيء . وكان على المياه أن ترتفع من منسوبها مع كل ارتفاع للحوض لى تخرج منه وتسيل الى خارجه ، وحيث أن الظروف التى تؤدى لحدوث ذلك هى من طبيعة يمكن أن تتكرر معها على الدوام ، فانه يمكن القول بأن عملية الارتفاع مستمرة برغم بطئها ، وبعد وقت طويل يصبح النبع الذى يرتفع منسوبه على الدوام ، فى قمة مرتفع

مخروطى ، يتكون من مادة رملية وطباشيرية مالحة كماء النبع نفسه ، تخرج منها شرارات تحت ضربات المعاول .

وحيث ان النبع الذى يعد حوضه أعلى الأحواض ارتفاعا قد نضب ، فان من الطبيعى ان نرى ان ارتفاعا يبلغ ٤٠ قدما وهو الارتفاع الذى وصل الحوض اليه — هو أقصى حد ، ويعود هذا الى درجة المقاومة التى تقدر عليها الجدران الداخلية للقنوات التحتية التى تجلب الماء الى الحوض ، أكثر مما يعود الى ضخامة قوة الضغط الذى يحدث على قاعدة المرتفع ، وبمجرد ان تتمكن المياه — وهى تحاول صعود هذا الارتفاع — ان تحطم جدران قنواتها ، وان تتخذ لنفسها مخرج جديدة ، فان عيوننا جديدة تكون قد تكونت ، وتصبح هى السبب فى نضوب الأولى ، لتكون بنفس الطريقة ، المرتفعات التى توجد على قممها اليوم هذه العيون .

ومهما يكن الأمر ، فانه من المحتمل لحد كبير ان عيون موسى لم يكن لها — فى هذه الفترة البالغة البعد — من نبع الا ذلك النبع الذى نضب منذ زمان طويل ، وان الينابيع الثمانية التى تعطى مياهها اليوم ، والتى لها أحواض اقل ارتفاعا من حوض ذلك النبع الذى جف ، قد تكونت فى زمن لاحق ، او بفعل تحطم القنوات التى كانت تحمل المياه لشدة ضعف جدرانها ، او بسبب تنقيبات تمت بقصد انشاء مبان مختلفة ، وقت ان كان الناس يترددون على النبع ، وحين كانت المناطق المحيطة بهذا النبع آهلة .

ولابد ان كان من المفيد ان نتعرف على شكل وطبيعة القنوات الطبيعية التى كانت تجلب المياه الى ينابيع عيون موسى ، خلال سهل فسيح من الرمال ، تحملت خلاله ضغطا قويا ، قادرا على دفعها كى ترتفع لأكثر من أربعين قدما فوق مستوى أرض هذا السهل ، ولابد ان كان من المفيد كذلك ، ان نحاول التأكد مما ان كانت هذه المياه تاتى من سلسلة الجبال التى تبدأ من سوريا لتنتهى بجبل سيناء ، والتى تلمحها على بعد حوالى أربعة فراسخ الى الشرق من العيون : لكننا لم يكن لدينا الوقت للانشغال بمثل هذه الأبحاث التى لم يكن يرجى منها أى نفع قريب .



## الدراسة الرابعة

# ثمانية وعشرون يومًا في سيناء ج. كوتل

العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول طبوغرافية شبه جزيرة  
سيناء .. القنال، الممرات ، الصناعة،  
التجارة ، الشعب والسكان .



يقسم الخليج العربى أو البحر الأحمر ، عند خط عرض ٢٨ شمالاً ، الى فرعين ، يتجه أحدهما الى شمال الشمال الغربى ، ويتجه الآخر الى الشمال الشرقى ، ويطلق على الأول اسم بحر القلزم أى بحر العرب أما الآخر فيسمى بحر العقبة أى بحر الشرق .

وتشكل مساحة الأرض الواقعة بين هذين الفرعين ، والتي تبلغ مساحتها ١٦٠٠ فرسخ مربع والتي تسمى شبيه جزيرة الطور ، أو سيناء ، امتداداً للجزيرة العربية الصخرية ( الصحراوية ) ، وتمتد من خط طول ٣٠° الى ٣٠° ٣٢' ومن خط عرض ٢٨° حتى خط عرض ٢٩° ٤٥' شمالاً .

وكل اجزاء هذه المساحة الداخلية تغطيها الجبال ، وهى جبال قديمة من الجرانيت والرخام السماتى فى بعض الاحيان ، أو هى تكوينات حديثة من الجبال الرملية أو الحجر الجيرى والجص ( الجبس ) فى احيان أخرى .

وتنتج الوديان التى تسكنها قبائل عربية عديدة ، بخلاف بعض النباتات الشوكية ، عدداً صغيراً من اشجار ( المن ) وبعض اشجار الأكاسيا ( الست المستحية ) التى يطلق عليها اسم الأثل ، وإذا ما استثنينا بعض اشجار النخيل والنبق وبعض الحدائق التى تنمو فى سفح جبال حوريب وسيناء وفيها حول الطور ، فاننا لن نجد فى كل شبه الجزيرة أى نوع من الزراعة ولا أية أرض يمكن زراعتها .

كفت قد ابدت الرغبة فى الانضمام الى الرحلة الذهابية الى جبل سيناء التى أخذتها لجنة الفنون على عاتقها ، فلقد كان يهم الحكومة الفرنسية أن نتعرف بشكل خاص على القبائل العربية ، التى تدفعها الحاجة وتجارة الفحم ونقل البضائع التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر ، للمجئ الى القاهرة مرات عدة كل عام . ونتيجة لذلك فقد اوقف كل شئ من أجل الرحلة ، وكانت قافلة الطور قد وصلت منذ بضعة ايام ، وكانت تتجه للعودة الى بلادها ، واقترح على المسيو بليار Belliard قائد القاهرة أن أسافر معها ، فقبلت ، وشاء المسيو روزير ، خبير المعادن ، أن يقتسم معى مخاطر ومتاعب هذه الرحلة ، وكان القائد العالم قد سبق أن تعامل مع أهم شيوخ البلاد وخلق عليهم الجبة ، كما

وعدهم بمكافآت سخية مقابل وفائهم وخدماتهم ، وطلب اليهم تقديم بعض الرهائن ففعلوا دون مشقة .

### اليوم الاول

خرجنا من القاهرة ، المسيو روزير وانا ، فى السابع عشر من برومير من العام الثامن ( ٩ أكتوبر ١٨٠٠ ) ، مع شيوخنا الأربعة ، ومترجمين اثنين ، أحدهما مصرى والاخر رومى ، وخادمين مصريين ، بالإضافة الى المريان الذين يقودون جمالنا ، وكنائركب نوعاً من الجمال يسمى الهجين .

وعلى الرغم من أن الأمور كانت تحتّم اصطحاب حراس ، فقد كان الأمر فى الواقع مستحيلاً فى بلاد لا تكاد تفتح شيئاً ، فمجرد حمل المياه اللازمة لجموعتنا والتي روعى فى كميتها أن تبقى فقط بأبسط الضروريات ، لم يتم بلا صعوبات من نوع ما ، كما أن اصطحاب هؤلاء الحراس كان سيؤدى من جهة أخرى الى تبديد الهدف الذى أخذت على عاتقى أن أحققه ، الا وهو دراسة شعب بالغ التوجس ، لا يولى ثقته لأحد ، ويظن أن أحداً لا يمكنه زيارة الصحراء الا بقصد التهديد لغزوهم .

لقد بدت لى الثقة التامة هى الوسيلة الوحيدة للنجاح مع المريان ، لذلك لم اشترط عليهم سوى شرط واحد ، هو أن نظل نرتدى ملابسنا الفرنسية ، ذلك أن ارتداء ملابس لم نكن معتادين عليها سيكون بالنسبة لنا أمراً غير مريح ، كما أن هذا التخفى ( بارتداء زى غير زينا ) قد يستثير شكوك العرب دون أن يزيد من درجة أمننا نحن .

كانت القافلة المكونة من بعض أبناء شبه الجزيرة ، والتي كانت قد جلبت الى القاهرة الفحم والبضائع التى أفرغت فى السويس ، قد سبقتنا ، وكانت تسد عسكرت ولابد فى الصحراء على بعد حوالى اثنى عشر ميلاً ، وقد لحقنا بها عند نهاية اليوم بعد مسيرة استغرقت ست ساعات ، ولم يسمح لنا اتساع المسكر الا بزيارة جزء منه ، وقد بدت على الجميع دهشة مزوجة بالارتياح والسرور ، وبخاصة على الشبان منهم ، عندما رأونا ، توقفنا بين جماعات منهم حيث قدموا البنا القهوة ، ويبدو أنه قد أثار إعجابهم أن يشمر اثنان من الأوروبيين بالأمن بينهم .

## اليوم التالي

فى صبيحة اليوم التالى رحلنا ، كانت كل العيون مركزة علينا ، وبدا العرب اكثر اندهاشا عندما راونا ننزل من فوق الجبال لنمشى بينهم بلا سلاح (١) .

وعندما كنا نريد ان نقدح بعض الزلطلات ( للحصول على النار ) كلقوا يجلبون الينا اكثرها شفافية اذ يظنونها افضل ما يصلح ليستعمل كقداحات . واذا ماتفحصنا ملابسهم ، كان شكل قبعاتنا ، وملابسنا الضيقة القصيرة ، والجلد الذى كنا نحبس فيه اقدامنا وسيقاننا .. كان كل ذلك يبدو غير مريح ولا نفع من ورائه . وبينما كنت انتفخصى بنادقهم وخناجرهم سألنى أحدهم أين توجد أسلحتى فأجبته على الفور مشيراً لى أسلحتهم : « هذه هى أسلحتى . الست مسلحا كى تدافع عنى ؟ » فأجبتنى : « انت فرنسى طيب ، اذهب مع أصحابك الى الطور ؟ » (٢) .

كانت لذى الرغبة فى أن اعرف عدد الرجال والجمال الذين يكونون قاطلتنا ، وكان يستحيل على أن اعرف ذلك عن طريق الشيوخ (٣) ، وبعد محاولات عدة لاحصائهم قدرتهم ثمانمائة شخص ، ويضم هذا العدد اطفالا كثيرين وبعض النساء ، كما كان هناك ٨٠٠ راى — ٢٠٠٠ جمل من بينها ٩٤ جملا محملا بالبضائع الى سوريا ، وتسرى فى صحبة احدى قبائل الطور وهى قبيلة لم يسبق لنا التعامل معها . ويقود الرجل الواحد ثلاثة جمال . ولكى يمر خمسمائة جمل فلان الأمر يحتاج الى خمس عشرة دقيقة ، وقد انقضت قاطلتنا فى ذلك أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

ويحمل كل رجل خنجرا ، لكننى لم احص اكثر من بنقية واحدة لكل ثلاثة رجال .

(١) كنت احوز سيفا بالغ الجمال كان لأحد المالك ، وكنت اتركه على الدوام متعليا من قنوس برذعة الجمل الذى كنت أركبه حينها كنت اتمشى بينهم .

(٢) طلب الغرب نفس الشيء من المسيو فولنى Volney اثناء رحلته الى سوريا .

(٣) لا يعبر اهل الطور عن الكميات الا بكلمتى : قليل وكثير ، وهم لا يعدون لا أعمارهم ولا أعمار أولادهم ، وعندما تسألهم عن الأمر يجيبون بأنه شيء لا يحتاجون لمعرفته .



استمر السير طيلة اليوم ، وكان راكبو الجمال منهم يندفعون الى الامام فى بعض الاحيان ، ثم يتوقفون لحظة لتناول القهوة ، ويستحق النظام المتبع فى اقامة المعسكر ، والدقة التى يتم ذلك بها ، وقفة خاصة لتوضيح تفاصيله .

يحدد وجود الأعشاب التى تقابلها القوافل فى بعض مناطق الصحراء المنخفضة مكان اقامة المعسكر ، فهذه هى المناطق التى تبقى فيها مياه الأمطار التى تسقط مرة أو مرتين فى العام لوقت أطول مما تبقىها فى مكان آخر مما يجعل البذور تنمو .

وتتوجه القوافل الى هناك لتستريح بعد مسيرة تبلغ ٨-١٠ ساعات . وأول قبيلة تصل الى المكان هى التى تعسكر أولا ثم تتبعها بقية القوافل على التوالى . ويتم ذلك دون ارتباك أو تخطيط . وتشكل القبائل دائرة واسعة ، وتتخذ كل قبيلة مكانها المعتاد فى نفس النقطة من الدائرة ، ثم تنقسم هى بدورها الى زمرات وتتكون كل زمرة من عدة عائلات او من مجموعات تعيش على الشبيوع تتكون كل منها من ستة الى عشرة اشخاص (٤) .

وفى لحظة خاطفة تنزل حمولة الجمال ، وتذهب هذه وحيدة ، أو يقودها طفل ، الى منطقة الكلا والأعشاب التى تقع فى بعض الاحيان على بعد ميل من مكان المعسكر (٥) وعندئذ يجرى اثنان أو ثلاثة رجال من كل زمرة ليبحثوا عن بعض الأعشاب أو النباتات الجافة بينما يقترح واحد ممن بقوا القداحة ويشعل النار ثم يحرك الهواء بذيل رداءه ، وينحنى فى بعض الاحيان ليستقبل الريح بشكل منحرف ويوجه الهواء الى النار ، ويقوم آخر بتحميم البن (٦) ويقوم ثالث بعجن الدقيق وصب الروجا أو الفطير . وهو نوع من الاقراص ، لا خميرة فيه ، يبلغ سمك

---

(٤) حيث أن القوافل تتكون من نفس القبائل والعائلات فمن المرجح ان يظل نظام المعسكر هو نفسه على الدوام .

(٥) ليس ثمة ما يدل على الطريق ، فاقدام الجمال وقدام الانسان لا تترك اى أثر فى هذا البحر من الرمال والزلط .

(٦) يحمص البن فى ملعقة حديدية ثم يصحن بعد ذلك بواسطة مصفا غليظة فى اناء من الفخار .

الواحدة منها ٧-٥ مم ويتسلسب حجبا مع عدد أبناء الزمرة الذين يشتركون في أكلها . ويمد نحو أقل من ١/٤ الساعة يكون هذا المعين قد نضج بين الرمال الساخنة وقطع الفحم الصغيرة وبعرات الجمال المحترقة والتي تظل في بعض الأحيان مشتتة بعد نضوج الفطيرة (٧) .

وسرعان ما تنتهي هذه الأعمال التي تستدعي الاعتماد عن المخيم ، ويجلس الناس من حول النار ، ويتناولون القهوة بينما هم يأكلون الروجا ، ويزيد بعضهم على ذلك بعض الحقيق والأرز المطبوخ مع قليل من الزيت وبعض البصل ، ويضيف آخرون الفول والمعدس ، وتنتهي الوجبة على الدوام بتناول القهوة . وتبدا المناقشات في كثير من الأحيان لساعات طويلة ، فيتحدث الناس عن السفن التي ينتظر قدومها من جدة وينبع ، وعن حمولة الجمال ، وعن المطر الذي طال انتظاره ، وإذا كان ثمة راو للحكايات فانهم يصفون اليه بانتباه ويضيفون الماء الى ثفل البن . ولقد كنت أجلس على مسافة قصيرة من هذه الجماعات متخيلا انني انصت الى تجمع من أبناء ريفنا .

وعند نهاية النهار تعود الجمال من لقاء نفسها ، وتسمى نحو المكان الذي انزلت فيه حولتها ، فاذا أخطأت الطريق اليه ، فانها تسرع نحو صوت سيدها يناديه .

كنت كل ليلة أقوم بجولة في جزء من المعسكر ، وكانت كل جماعة تدعوني لتناول القهوة وأن استريح على جلد الماعز ، فاذا ماتبلت كانوا يرددون : « طيب فرانسيس ، انت في الطور ، سوا سوا » اي : « انت فرنسي طيب ، قادم الى الطور ، مع اصققاء لك » .

وفي الغد ، قبل انبلاج النهار ، كان الناس يعملون في تحميل الجمال ، بينما يضع الآخرون القهوة والروجة ، ويمد ذلك نرحل . ويستتب النظام ، بشكل تلقائي ، وطبيعي .

---

(٧) اذا كان العدد اكبر مما ينبغي فانهم يصنعون أكثر من فطيرة .

### اليوم الثالث

فى هذا اليوم ، عسكرنا فى العجروود ، على بعد حوالى ثمانية أميال من السويس حيث وائتنى الفرصة كى اتبين كم سيكون من الطبيعى ، لو اتنا اصطحبنا معنا حراسا ، أن تقل الثقة بيننا ، والتي كان من مصلحتنا أن نبثها فى نفوس العرب ، فلقد لحق بنا هناك ضابط مهندس ، لم يستطع الامادة من سفر تافلتنا ليصحبنا الى السويس . وقد أدركنا هناك ، بعد مسيرة يومين ، ومعه حرسه . لمح العريان عن بعد فلاحظت على الفور تغيرا فى سحتهم وسرعان ماحدثت السبب . لقد اعتقدوا اننى خدعتهم ، وأن حرسا قد جاء يصحبنا فى جبالهم . وعلى الفور مرت بعدد كبير من خيامهم وأنا أكرر : اننى اتق فى شرف العرب ، ويمكنكم أن تثقوا فى شرف الفرنسيين ، سنذهب وحدنا ، رغبى وأنا الى جبالكم ، وستصحبونا انتم الى القاهرة ، فهذا الضابط الفرنسى ( الذى ترونه ) ذاهب الى السويس . وكرروا باننا ذاهبون مع أصدقاء . وعسكر الجنود ( الضابط وحرسه ) بينهم ، وفى اليوم التالى عاودنا السير معا دون قلق أو شكوك .

### اليوم الرابع

سرعان ماتركنا القافلة تذهب كى تضرب خيامها فى عيون موسى بعد ان استدارت حول قمة قلزم السويس . كانت الجمال لم تشرب منذ غادرنا القاهرة أى منذ ٧٢ ساعة ، عندما وصلت الى العيون ، وذهبننا مع شيوخنا كى ننام فى السويس .

### اليوم الخامس

فى اليوم التالى توجهنا بطريق البحر الى العيون حيث لاحت بنا جبالنا بعد أن دارت حول قمة الخليج ذى المد المنخفض ، كانت تافلتنا قد غادرت العيون فى الصباح ، ونهيا كل امرئ للعودة الى قبيلته عبر الجبال ، وانزلت حمولة ٩٤ جبلا من تافلتنا وهى البضائع الذاهبة الى سوريا ، وظلت البضائع فى حراسة بعض أبناء الطور الذين يتعامل معهم التجار لنقل البضائع الى هذه البلاد .

بقينا مع شيوخنا الأربعة ومع العربان الذين يقودون جمالنا ، كما قد أصبحنا في شبه جزيرة سيناء ، ولم يعد لدينا مانخشاه من العرب الغريباء الذين قد يكون عليهم دم ينبغي الانتقام له : لكن ماحدث للتجار الذين صحبونا حتى السويس وذلك المصير المحزن الذى كان من نصيب القائد المساعد « ديلانو » (٨) قد برهن لنا اننا لا ينبغي ان ننسى مخاوفنا في رحلة لم تكن نستطيع ان نعرف موعد نهايتها ، اذ يعتمد ذلك على رجوع القافلة الى القاهرة وهو الأمر الذى يتبع بدوره الحاجة التى يمكن ان يشعر بها العرب في نقل بضائعهم الى هناك ، والذي يعود كذلك الى استتباب الأمن في الداخل ، ومع ذلك فقد اتبعنا نفس طريقتنا في الرحابة والثقة اللتين اظهرناها عند بداية الرحلة .

وبعد زيارتنا العيون (٩) واصلنا طريقنا ، تاركين البحر الأحمر الى الغرب وكانت تقع الى يميننا الجبال المسماة تيت ( او طيط ) التى يسكن في سفحها عربان الطور ، عسكرنا على بعد خمسة أميال من العيون عند خور ضيق يسمى عين ، وهو مفر ليست به مياه ، ولا تنبت فيه أعشاب ولا اى نوع من الخضرة ، ولم تكن لنستطيع ان نوجد نارا لو ان العربان الذين يعرفون جيدا احوال المناطق التى سنعسكر فيها لم يعوا اثناء الرحلة او اثناء الطريق بالحصول على القش اللازم للوقود (١٠) .

### اليوم السادس

في اليوم السادس ، وبعد مسيرة ثمانى ساعات ونصف ، احيانا خلال سهل قاحل ، وأحيانا أخرى من خلال كثبان من الرمال والأعشاب الشوكية ، وصلنا الى أمي صويره ، في مكان تنفطيه اشجار الأثل والنباتات ، مما ينبئ عن أرض أكثر رطوبة . وفي الواقع فان المرء يجد هناك عددا

---

(٨) اختطف العربان القائد المساعد ديلانو ، أثناء ذهابه من الاسكندرية الى القاهرة وقد انقضى الرجل بكيس مليء بالنقود الفضية ، وعندما اختطف العربان على كيفية أمتسام النقود ، وتشاجروا فيما بينهم ، أطلق عليه أحد العربان رصاصة فقتله .

(٩) انظر وصف هذه العيون بقلم المسيو مونج Monge ، الدولة الحديثة ، المجلد ١ ص ٥٥٥ ( الدراسة السابقة في هذا الكتاب ) .

(١٠) كثيرا ما يعتمد العربان اثناء السير ويجرون لمسافة تزيد على الميل كي يلتقطوا بعض الأعشاب اللازمة لسهرة المساء .

كثيرا من الآبار . يبلغ عمق الواحدة منها مترين ونصف المتر تحت سطح الرمال ، وقد تقوض جزء من هذه الآبار ، وعلى الرغم من أن مياه هذه الآبار حبيسة — فيها عدا واحدة منها على الأقل — فإنها أفضل من مياه عيون موسى . ويتردد عرب ترابين على هذا المكان ، وهم يمتلكون المنطقة ابتداء من القاهرة حتى وادى الفرندل على شواطئ البحر الأحمر ، وقد وجدنا كثيرين منهم يرعون هناك ماشيتهم .

### اليوم السابع

عند الرحيل من أبى صويرة يقضى المرء عشر ساعات فى سهل تاحل على شاطئ البحر، وبعد ذلك ، وبعد أن يجتاز كثيرا من الشعاب الضيقة، يصل الى وادى الفرندل . ويمتاز هذا المكان بمياهه المعدنية الحارة التى تسمى حمامات فرعون وتجرى هذه المياه فى سفح جبل يبلغ ارتفاعه ما بين ٢٩٠ — ٣٩٠ مترا ( ١٥٠ — ٢٠٠ قامة ) . وتسيل مياه العين الأولى بعمق يبلغ بوصتين ، وفى هذه المياه يرتفع ترمومتر ريو مور الى درجة ٥٦ ، وتغطى الأحجار التى تسيل فوقها هذه المياه وكذلك تلك التى تحيط بالترعة بالكبريت المؤكسد . وتجرى مياه عيون كثيرة أخرى خلال الرمال بطول يصل الى خمسين خطوة .

وعلى ارتفاع أربعة أمتار ( حوالى قامتين ) فوق مستوى هذه العيون نجد فتحتين : تلك التى تقع الى اليمين وتؤدي الى ما يشبه مغارة يرتفع فيها الترمومتر الى درجة ٣٤ وسط جو رطب تصحبه رائحة الكبريت القوية : أما الأخرى فتشكل مدخل كهف لا يزيد علوه على نصف المتر ( حوالى ١٥ — ١٨ بوصة ) ، فوق عرض أكبر من ذلك بقدر طفيف ، ولذلك يضطر المرء كى يبلغ النبع أن يزحف عاريا لمسافة يبلغ طولها ٢٣ — ٢٥ مترا ( ١٢ — ١٥ قامة ) فوق رمل حار ورطب ، وهناك يرتفع الترمومتر الى درجة ٣٦ . وهذه الحرارة المتزايدة ، بالإضافة الى هذا الوضع المتعب للجسم والذى يضطر المرء لاتخاذها ، هى السبب فى النصيحة التى تقال للمسافرين هناك والتى مؤداها أن النور ينطفئ داخل هذه المغارات وأن هناك خشية من أن يخنق المرء هناك فى وقت قصير . لم نبق هناك لوقت طويل يكتفى للتأكد من صحة هذا الزعم ، لكننى لم أشعر بأن انفاسى قد ضاقت كما أن رائحة الكبريت فى هذا الجو المشبع بالرطوبة قد بدت لى محتملة .

ويبدو لى ان وادى الفرندل كان فيما مضى مرعا بالغ الجودة ، اذ هو فى حصى من رياح الشمال والجنوب لانه مفتوح الى الغرب ، كما يساعد على الخروج منه رياح الشرق ، وهى التى تسود البحر الاحمر فى معظم الاحيان . وهناك تشكل المياه التى تسقط فوق الجبال مرة او مرتين فى العام ، اضرارا كبيرة ، اذ تحمل الى الوادى كمية هائلة من الزلط ومن قطع الحجارة . وهذه هى المنطقة التى يزعم كثير من المؤلفين ان موسى قد اتى اليها بعد عبوره البحر الاحمر . وهذا الوادى ( الخليج ) جاف خال من الماء فى هذه الايام .

### اليوم الثامن

عند الخروج من وادى الفرندل يدخل المرء الى واد ضيق ، او بالاحرى فى شعب تحيط به جبال عالية شديدة الانحدار ، ويبلغ طوله حوالى اربعة اميال ، وعند طرفه يصل المرء الى ربوة توجد بها بعض اشجار النخيل . وثمة بئر يبلغ عمقها المتر ( حوالى ٣ اقدام ) توفر كمية ضئيلة من المياه الرديئة وصفها بوكوك Pococke بأن لها مذاق الصلب ، وسرعان ماتنضب مياه هذه البئر ، لكنها تتجدد من جديد فجأة ، ومن هذه المياه يستقى العربان جمالهم . ويطلق على هذا المكان اسم الحوزية وهو يقع على بعد ٢٤ ميلا من أبى صويرة . وعلى الرغم من شدة ارتفاعه فوق سطح البحر ، فهناك سلسلة من الجبال العالية تتحكم فيه وتمتد هذه الجبال باتجاه سوريا . ويملك عربان الطور هذه الاراضى .

كان ما يزال علينا ان نمضى اثنتى عشرة ساعة فى الطريق حتى نصل الى مكان المخيم وعلى الرغم من ان هذه المنطقة كانت افضل مكان قابلناه ، منذ غادرنا القاهرة فاننا لم نبق بها الا لوقت يكفى بالكاد لسقاية جمالنا .

تاندنا واد طويل الى الجنوب ، الى هضبة واسعة تحيط بها جبال تجعلها فى حماية من رياح الشمال . كانت الحرارة هناك ، فى الساعة العاشرة من الصباح ، شديدة الارتفاع ومع ذلك فقد كان الترمومتر لا يتجاوز درجة ٢٥ . وبعد ان عبرنا سلسلة الجبال الى الجنوب الشرقى دخلنا الى وادى اتل ثم فى شعب ضيق دفن به شيخ يسمى ريس الشمالية

ويحمل اسمه احد جانبي الوادى ، وهو المكان الذى توجد به مقبرته . ويودع العربان هناك عند مرورهم من هذا المكان بعض الأغصان او بعض قطع من القماش ، اما الجانب الآخر للوادى فيحمل اسم شبقية . وبعد ذلك ، وبعد أن نجلوز واديا مزروعا بأشجار الأثل ( المن ) نلقى البحر من جديد الى الجنوب الغربى ، وقد توقفنا هناك كى نذهب ، على بعد خمسمائة قلمة الى الشمال ، لزيارة جزء من الجبل الذى يستخرج العربان منه الكبريت . وفى واقع الأمر ، فقد وجدنا هناك بعض عينات من الكبريت شديدة الفلّس .

وبمغادرة طريقنا نحو الجنوب دخلنا فى واد بالغ الاتساع، تحيط به جبال عالية مما يجعله فى حى من رياح الشمال ، والشمال الشرقى ، والجنوب ، لكنه ، كما هو الحال فى وادى الفرندل ، يكاد يكون مردوما عن آخره . وبعد الالتفاف من حوله خوضا فى المياه لمسافة تبلغ حوالى الميل ، عسكرنا فى سهل المجرى ( أو المجره ) وسط الكثبان التى كونتها غابات الأثل أو الطرماء التى تصد الرمال التى تحملها رياح الشمال . وهناك توجد مياه غير طيبة . كانت مؤننا من مياه النيل قد نفدت عند السويس وجعلنا نطلب معدتنا نشعر بالفرق بين هذه المياه وبين تلك .

### اليوم التاسع

بعد مسيرة ساعة فى هذا الوادى المليء بالأشجار ، دخلنا فى واد تغطيه كل من الجرانيت والسماق ( الرخام ) والزلطات المستديرة التى انصلت عن السلسلة التى تطل على الجبال الجيرية التى اتبعنا اتجاهها، والتى اجتريتها بعد ذلك لكى نصل الى واد يسمى فيران ، حيث نمنا دون أن نعثر على ماء .

### اليوم العاشر

فى اليوم العاشر ، قضينا ثلاث عشرة ساعة فى صحراء جرداء، وفى وديان نلتى فيها بالكاد بعض الأعشاب الشوكية : هناك نرى الى الغرب سلسلة جبال سناء . وتوجد الى الشرق جبال من الحجر الجيرى . دخلنا وادى المضارة حيث اكتشفنا وسط أشجار النخيل شجرة دوم ، وهناك حوض مبنى يبلغ عمقه ستة أقدام يوفر كمية من المياه

الجيدة ، وبعد أن عبرنا سهلا تاحلا ، رطبنا ملينا بالملح ، وصلنا بعد مسيرة ساعة الى الطور .

### بندر طور او ميناء الطور

يشكل ميناء الطور خليجا يبلغ اتساعه حوالى الميل ، ويكاد يكون ذا عمق متساوى السطح ، ويقع الخليج تحت خط عرض ٢٨° ١٢' وعند خط طول ٢٠° ٢١' الشمالى من خط زوال باريس . وقاع هذا الميناء ليس طيبا على الدوام ، فهو يتكون من كتل من المرجان وبكتل من الأحجار يغطيها المرجان والقواقع على عمق متر او مترين ( ٢-٦ اقدام ) بل ان بعض شعاب المرجان هذه تصل لمستوى سطح الماء لتجعل من الجزء الشمالى الغربى نوعا من روضة تنتثر فوق سطحها المغطى الورود . وفى حين يرتفع مد البحر فى السويس من ١ ١/٢ الى مترين ( ٤ - ٦ اقدام ) فانه لا يبلغ هنا اكثر من ثلاثة أرباع المتر فى أكثر حركاته قوة . أما فى النوبات العادية ، فانه لا يتجاوز ثلث المتر ( ١٠-١٢ بوصة ) .

وتقوم سلسلة جبال سلت كاترين وسيناء بحماية هذا الميناء من رياح الشمال والشمال الشرقى ، كما تحميه من رياح الشرق غابات قديمة من اشجار النخيل وبقية قلعة الطور التى أصبحت شبه مهدمة تماما على وجه التقريب وان كان المرء لا يزال يرى بها كوات فى مستوى سطح الماء تغطيها قباب على شكل مشكاة . كانت هذه البانى المحطمة ، ومظهر الأرض ، وتلك الحقائق بالغة السوء ، وهذه الأسوار التى تكاد تكون كلها حطاما ، بالإضافة الى مظهر السكان البائس ، كان كل هذا يعطى صورة للخراب والموت . أما الميناء المفتوح الى الجنوب الغربى ، فتسده فى اكبر اتساع له كتلة صخرية ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مستوى سطح الماء .

أما قرية الشاذلية ، وبلد النصارى ، اللتان تكونان مدينة الطور القديمة فتضم من ٢٥ - ٣٠ مسيحيا ، ومن ١٠ - ١٢ عربيا مسلما وان كان هذا العدد لا يشتمل النساء والأطفال .

أما قرية الجبل الصغيرة ، الى جنوب قلعة الطور ، فلا تضم الا خمسة او ستة سيادين يعملون مرشدين للسفن التى تعبر الطور الى



السويس أو الى جدة ولا يتجاوز سكان كل هذه القرى والنجوع مائة وثلاثين مردا .

ويدير شئون المسيحيين واحد من رجال الدين من دير سانت كاترين فى جبل سيناء ، وهو الذى يتسلم المؤن القادمة من القاهرة عن طريق القوافل والننى يبعث بها الى الدير ، وكذلك السمك الذى يشرف على صيده . ولا يفوق بساطة مسكنه الا بساطة تلك الكنيسة الصغيرة الموجودة فى مكانه .

وعلى بعد ميلين من الطور ، الى الشمال الشرقى ، بالقرب من الجبال الجيرية ، يمتلك رجل الدين هذا حديقة واسعة بعض الشئ ، تحيط بها الجدران ، وتزرع بها أشجار النخيل ، وتنجر فيها عيون مياه معدنية حارة ، تسقى واحدة منها الحمامات . وهناك حوض واسع مسور تظل المياه فيه على ارتفاع ثمانية ديسيمترات وفى درجة حرارة ٢٧ ويبدو الحوض وكأنه قد بنى خصيصا لهذا الغرض . وهناك كمية هائلة من سعف النخيل تغطي سطح هذه الأرض غير المزروعة .

وحيث ان اهالى الطور البؤساء لا يمتلكون على الاطلاق اية جمال ، اذ ليس لديهم ما يحملونه الى القاهرة للمقايضة عليه ، فانهم مضطرون للعمل على جلب القمح عن طريق القوافل ، مما يضاعف فى سعره ، ولهذا السبب فهم يستهلكون منه القليل ، ويعيشون على السمك .

وفى الطور ، تهب رياح الشمال لجزء طويل من العام فيما عدا فصل الشتاء ، اذ تهب الرياح فى هذا الفصل من جهة الجنوب وذلك حتى منتصف النهار فقط ، ثم تستعيد اتجاهها فى بقية النهار .

وتدخل السفن الصغيرة فى الميناء التى يبلغ عمقها ، وكذلك عمق المضيق البحرى من ٦ الى ٨ أذرع ، لكن السفن التى تخشى عادة أن يلقى بها على الساحل المنحدر الأجرد فلا تتوقف هناك الا للترود بالمياه ، أما السفن الضخمة فتبقى فى الخليج . ويجد الناس فى الميناء ، على بعد مسافة صغيرة من البحر آبارا مبنية بالحجارة بقدر كبير من العناية ، توفر مياهها بالغة الجودة . وتعلن هذه الآبار ، بالإضافة الى الحصن وبعض بقايا المنشآت القديمة ، أن هذا الميناء كان فيما مضى مطروقا لحد

كبير . لكن فقر السكان الذين لا يستطيعون انتاج أى شئ أو شراء أى شئ ، بالإضافة الى احداث السلب التى مارسوها مرات كثيرة مع بعض السفن ، قد أبعد التجار عن هذا الميناء (١١) .

ولو اننا اتبعنا الطريق الذى اعتاد المسافرون ، وكذلك العربان المرافقون لنا اتباعه لكنا قد دخلنا الجبل فى الشمال كى نذهب الى جبل سيناء على بعد أربعة وعشرين ميلا من الطور ، لكننا كنا نرغب فى القيام بالدوران حول شبه الجزيرة للتعرف على الموانئ الواقعة على طرفها وللتعرف على بحر الشرق ( خليج العقبة ) . ولكى نحقق هذه الفاية كان علينا أن نسير لمدة ثلاثة ايام بلا مياه ثم خمسة او ستة ايام نقضيها وسط الجبال ، وهكذا كان يتعين علينا أن نمر وسط خيام قبيلة مزينة التى لا تشكل جزءا من تحالف قبائل الطور ، والتى لم تكن تربطنا بها أية معاهدة (١٢) ومع ذلك فلم يكن لمثل هذه الصعوبات أن تعرقل مشروعنا .

وقد لقينا اكبر مقاومة من جانب العرب الذين كانوا معنا ، فقد احتجوا بصعوبة نقل المؤن اليهم ونقل المياه الى جمالهم ، وقالوا لنا اننا لم نتفق معهم الا على الذهاب الى الطور ومن هناك الى جبل سيناء، كما حذروا باننا قد نهاجم من قبل عربان قبيلة مزينة الذين قد يطمعون فى اقتسام ما معنا من خيرات . ظللنا كل العقبات باسترضاء جزء من رفقاتنا ومرشدينا وذلك بتقديم المؤن اليهم والى جمالهم ، وبتوضيح عزينا الذى لا يلين على القيام بهذه الرحلة حتى وان لم يبق معنا سوى مرشد

---

(١١) لم يعد لدى أهالى الطور سوى تسع سفن صيد ، يمتلك الأروام ثمانى منها ويرى المرء هناك بقايا سفينة جانحة ، وكانت هذه السفينة قادمة من ينبع ، ودخلت الميناء للترزود بالمياه . ويؤكدون أن مرشد الطور هو الذى جعلها تصطدم بالصخور عن عمد وأنها نهبت بعد ذلك ، وكانت تحتوى على ١٣٠ بالة صغيرة من القماش ، تضم البالة الواحدة ثمانين قطعة ، وثمانين طردا من العدس ، سعة الواحدة نصف أردب ، ومائة وعشرة من الأرز ( شرحه ) وبالتين صغيرتين من النحاس زنة الواحدة ستمائة رطل . ويلقى العرب بمسئولية السلب على الأروام ، وهؤلاء يلتقون بها على العرب ، وقبل مجيئنا الى الطور بخمسة عشر عاما نهبت قبيلة القراشة احدى السفن ، فحرم عليهم المالك المجيء الى القاهرة، وهكذا لم تعد الطور تدخل ضمن نطاق الموانئ التى يتوقف فيها التجار .

(١٢) لعل عربان هذه القبيلة هم الذين نهبوا البضائع التى كانت تاملتنا قد نقلتها معنا من القاهرة حتى مدخل الجبال .

واحد ، وقتلنا لهم فى النهاية : من حق العربان أن يخشوا قبيلة معادية .  
أما الفرنسيون فهم أصدقاء لكل القبائل . وعندئذ قال أحد الشيوخ  
المسنين : لا يقول الفرنسيون سوى كلمة واحدة . سنذهب . معك حتى  
لا يصيبك سوء .

### اليومان الحادى عشر والثانى عشر

لم يخدعنا رجالنا العربان ، مشينا لمدة يومين . على مسافة قصيرة  
من البحر ، أحيانا فى سهل رملى تاحل نادرا ما تلقى فيه بعض الشجيرات ،  
وأحيانا أخرى وسط جبال من الرخام السماقى والجرانيت المرقق ( أى  
تتكون صخوره من طبقة فوق طبقة وهكذا ) .

وكنّا فى فصل تتقلب رياحه الجنوبية والغربية ، أى فى فصل  
العواصف ، وهو الفصل الذى يرغبه العربان أكثر من غيره لأنه يهيب  
بعض المياه ، لكن الحرارة فى بعض الأحيان كانت أكثر ارهاقا لنا من أعلى  
حرارة عاتينا منها فى صعيد مصر كما كانت درجة الحرارة أكثر ارتفاعا (١٢)  
وبعد أن سرنا طويلا الى الجنوب الشرقى دخلنا الى الجنوب فى واد  
طويل أو بالأحرى فى شعب عميق تحف به من الجانبين جبال تتكون حتى  
قمتها من أحجار مستديرة ، وكان الطين الذى يثبتها قد اكتسب قدرا من  
الصلابة حتى أن قطعنا ضخمة منه كانت تسقط مندفعة نحو الوادى دون أن  
تتفتت . ويقع ميناء رأس محمد عند قمة الساحل ، وهو يشكل فيما يبدو  
نقطة انقصاص فى شبه الجزيرة .

ويقل هذا الميناء المفتوح عند شرق الشمال الشرقى ، لسان من  
الأرض فهو شبه جزيرة ، قمتها رأس جبل مرتفع بعض الشيء وهذا هو  
ما جعلهم يطلقون على هذا المكان اسم رأس محمد . وحيث يقترب الميناء  
بشدة من الجبل فانه يكاد يكون مطموسا فى جزء منه بالرمال والأحجار  
التي جرفتها السيول .

ولم نجد هناك أى نوع من المساكن .

(١٢) سجل ترمومتر ريومور درجة الحرارة فى الظل — ٣٢ درجة

## اليوم الثالث عشر

فى اليوم الثالث منذ رحيلنا من الطور ، او اليوم الثالث عشر من بدء رحلتنا ، سافرنا من رأس محمد للذهاب شرقا من خلال الجبال الى ميناء شرم ( الشيخ ) التى تقع تحت خط طول ١٠° ٥٨' ٢١" من خط زوال باريس وخط عرض ١٠° ٥٦' ٢٧" حيث وصلنا بعد مسيرة ثلاث ساعات . وتنقسم هذا الميناء ، الذى يقع مدخله الى الجنوب ، قمة جبل يبلغ عرضه حوالى مائة تامة وبانحدار مماثل . ويجد المرء على مسافة قصيرة من الشاطئ آبارا مبنية بكتل ضخمة من الجرانيت . كانت السفن تأتى الى هناك فيما مضى للتزود بالياه ، وعندما كانت تفاجئها رياح معاكسة ، يلوح لها ان مدتها سوف تطول ، فانها كانت تفرغ هناك بضائعها التى كانت تنقل برا الى القاهرة ، وهناك ضريح وكثير من أحجار اضرحة كثيرة ، لعلها تنبئنا ان هذا الميناء كان فيما مضى أهلا بالسكان ، وقد شاهدنا هناك بعض الصيادين الذين لا يعيشون الا على السمك ، ابتعنا سمكا منهم ، واكلوا هم غداءهم بالقرب منا ، وكانت الدهشة تبدو على اطفالهم ، الذين استملناهم الينا ببعض البارات ، من شكل قبعاتنا بشكل خاص .

وتقع شرم ( الشيخ ) فيما يبدو على بعد ستة الى ثمانية اميال من بحر الشرق ( خليج العقبة ) الذى ميزناه بدقة بواسطة جباله الواطئة للغاية ، وبدا لنا فى اتساعه يختلف قليلا عن اتساع بحر العرب ، ولجنا جبال الشاطئ الآخر تنخفض وتمتد لتوغل فى الصحراء الغربية . قطعنا مسافة كبيرة بطول الساحل وكنا نود الذهاب الى العقبة ، قمة نهاية الخليج ، لكن ذلك كان يستوجب منا ان نعبّر صحراء خالية لم يكن عرباننا يعرفونها ، فضلا عن اننا كنا سنبتعد عن جبل سيناء الذى كان هو الهدف من رحلتنا . ودخلنا الجبل عن طريق الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة .

وبعد ذلك بوقت قصير قبلنا فوق أحد التلال بعض الخيام فاقتربنا منها ، ولم يبد على النسوة الفزع لرؤيتهم لنا بل طلبن الينا اعطاءهن بعض الأبر والبارات .

اتبعنا نفس الوادى باتجاه الشمال الغربى فوجدنا مرة أخرى بعض الأشجار ومخيم أكبر اتساعا ، كان هذا هو مخيم قبيلة مزينة ، لم يخدمنا

افن شيوخنا ، حيث لم يبد أولئك مسرورين لرؤيتنا فلم يقدموا لنا أى شىء عند مرورنا من أمام خيامهم ، وسأل أحد العربان وهو يصحن بعصاه فى هاون من الخشب خليطا ويصنع منه البارود ، سأل بحدة مترجما « لماذا جئت بهؤلاء الكلاب » ولم يتم شيوخ هذه القبيلة بدعوتنا الى داخل خيمته حسب عادة العرب كى لا يجعلنا نقرب من مخيمهم الذى كنا برغم ذلك قد اجتزناه . وعندما مدت مائدة الطعام وسط الوادى لم نبسد أى ضيق او قلق، واتخذنا مكاننا بينهم لئلا نأكل العنزة دون ان توجه الينا دعوة . وقدمنا اليهم البن ، ونمنا بينهم فى هدوء .

### اليوم الرابع عشر

قدم الينا عرب المهاتنة ، وهى قبيلة صغيرة تنتمى الى عرب العواتمة الذين التقينا بهم فى اليوم التالى فى وادى النصب ، قدموا الينا فكرة اكثر دقة عن الطريقة الأبوية التى يتعامل بها العرب مع الأعراب ، وقدم الينا الشيخ الحاج حسن واجلسنا الى جواره فى مدخل خيمته وأمر بنبح عنزة واعطانا ماتفتسل به ، وبينما كانت النسوة يعددن الطعام ، وبينما نحن نتناول القهوة قام أحد المغنين ، وبعد ان ابتهل الى الله ، غنى المقاطع التالية مصطحبا آلة ذات أوتار ثلاثة (١٤) ، كان يعزف عليها انغامه بقوس فى يده .

ينفق الناس كثيرا من مالهم كى يذهبوا الى مكة  
ويتركون أبناءهم عاما كاملا كى يذهبوا الى مكة

(١٤) تتكون هذه الآلة من جفنة صغيرة من الخشب مغطاة بجلد جمل ، عليها من أحد طرفيها بمسافة ٢ ديسيمتر ( حوالى ٧ بوصات ) حديدة مسطحة عرضها من ١٢ - ١٥ سم وطولها ٣ ديسيمتر ( ١١ - ١٢ بوصة ) . ويرفع طرف الجفنة السميك الذى يبلغ طوله ٢ ديسيمتر ( ٧ بوصات ) على الأرض .

وهناك فى الطرف الآخر عصا ذات ذراع يبلغ طولها ٤ الى ٥ ديسيمتر ( ١٨ بوصة ) ويوجد فى أحد طرفيها ثلاثة ملاوى أو أوتاد تستخدم فى شد ثلاثة أحبال مكونة من اتحاد شعيرات عديدة مثبتة فى الطرف الآخر بعد أن تمر على مشط .

أما القوس المصنوع من قطعة من الخشب الخام يبلغ طولها ٤-٥ ديسيمتر ( ١٨ بوصة ) فيحبل حزمة من الشعيرات مثبتة من أحد طرفيه ومشدودة الى الطرف الآخر بواسطة أصبع .

وعندما يزوج شيخ ما ولده يحضر له كل شيخ من شيوخ القبائل  
الآخرى عنزة ثم ينتهى بما يلى :

اولادى كثيرون ، ويأكلون كثيرا ، وذراعى تصيرتان  
( اى انه قليل الحيلة ) فلا يستطيع ان يحصل لهم على الخبز .

وبعد ان انتهى الطعام (١٥) ، استرحنا تحت سقف خيمتنا التى  
اتمناها فى مواجهة خيمة الشيخ .

ولقد وجدنا نفس كرم الضيافة عند القبائل الاخرى ، ومع ذلك  
فلا يمكن لأى من شيوخ هذه القبائل ان يكون ندا لهذا الشيخ فى صفاته  
الكريمة ، فتقاطيعه بالغة التمايز وروحه بالغة التوتر على الرغم مما يبدو  
عليه من شرود . ولقد كانت له علاقات مع التجار والاغراب كما سبق ان  
قام برحلة مكة ( الحج ) مرتين ، ويؤدى فريضة الصلاة بشكل بالغ  
الانتظام (١٦) .

### اليوم الخامس عشر

لم نكن قد قابلنا حتى اليوم سوى اشجار السنط وبعض الأثل  
( الطرفاء أو المن ) وبعض غابات من الأعشاب الجافة ، بالإضافة الى  
جبال الجرانيت والسماق المورقة ( اى التى تتشكل من طبقة فوق طبقة )  
ولم نكن نلقى المياه الا غيا ندر وبكميات بالغة الصفاء تجرى فى واد الكيد  
بين كتل ضخمة من الحجارة الجرانيتية ، وهما نحن نرى كذلك اجزاء  
من الأرض تفسوها الخضرة ويغطيها النعناع لمسافة يبلغ طولها حوالى  
الميل ويبلغ عرضها من ست قامات الى خمسين قامة . وتنمو فى هذا  
الوادي اشجار النخيل والنبق ، وهناك بعض الاسوار من الحجارة  
الصلبة تستخدم كمأوى وامكن اقامة ومستودعات للعرب الملاك الذين

---

(١٥) وصفت مائدة الطعام فى مقال عن عادات وتقاليد العربان  
( فى آخر الدراسة ) .

(١٦) بعد ان عدنا الى القاهرة ، ظهرت على هذا الشيخ كثير من  
علامات الجنون . ومن المؤكد ان مقبرته ( بعد موته ) ستكون موضع  
التقديس .

يأتون ليحصدوا ثمارها ، ومع ذلك فإن أحدا لا يقيم فى هذا الوادى الا فى فترة الحصاد ، فضلا عن ذلك فأننا لم نجد به على الإطلاق استراحات مناسبة .

### اليوم السادس عشر

لم نكن فى هذا اليوم محظوظين كما كنا فى اليوم السابق ، فقد قضينا النهار والليل فى وديان قاحلة جرداء دون أن نقابل ظلا لنبات أخضر .

### اليوم السابع عشر

وأخيرا ، فى هذا اليوم ، وبعد أن عبرنا مع جبالنا جبالا كنا نجد فى معظم الأحيان مشقة بالغة فى تسلقها بأقدامنا ، وصلنا الى دير سانت كاترين .

كان احد الأخوين اللذين اصطحبانا حتى الطور قد سلك الطريق الأنصر حتى يلتقى بنا ، وكان ينتظرنا بقدر كبير من اللهفة والقلق .

يؤدى الى هذا المكان المنزل منفذ صغير يعطو الجدران التى يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثنى عشر مترا . وهذا المنفذ هو المدخل الوحيد الى هذا المكان المنزل (١٧) ، وتغطى هذا المنفذ بكرة يمر فوقها جبل ضخيم يلتف حول اسطوانة مثبتة فى شبه ردهة وينزل الجبل الذى ينتهى بحلقة من الحبال يدخل فيها الشخص الذى يراد رفعه وتدار الاسطوانة بواسطة روافع متشابكة ، تشبه تلك التى تستخدم فى الموانى لانزال الأبحار من فوق السفن .

وعندما جاء الآباء لاستقبالنا ، رأينا ترحيبا حارا يكاد يبلغ مرتبة الملوك واقتادونا الى رواق الأغراب ، ومكثنا هناك خمسة أيام زرنا خلالها الدير والأماكن المقدسة المحيطة به .

---

(١٧) ومع ذلك فيوجد باب للمربات ولكنه مـسـور ومغطى جزئيا بالأتربة ، كما أنه لا يفتح الا لاستقبال زيارة البطريك .

ويقع هذا الدير ، الذى تشكل جدران سورته ، المبنية بكتل من الجرانيت يبلغ ارتفاع الكتلة الواحدة منها حوالى نصف المتر ( ١٨ بوصة ) وعرضها اكبر من ذلك بقليل ، مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ مترا ( اى ٨٤ قامة والقامة تساوى ياردتين ) - يقع هذا الدير عند سفح جبل حوريب او خوريب .

وتشعر وانت بداخل الدير بعدم انتظام سطح الارض التى اقيم فوقها ، وهو يتكون من عدد كبير من المباني غير المنتظمة المتماثلة على مستويات مختلفة ، ويضم كنيسة مكرسة لسانت كاترين ، و ٢٦ كنيسة اخرى لها نفس العدد من المشرفين ، ومسجدا ( ١٨ ) ومسارب بسيطة تتصل بدهاليز خارجية ومغطاة بالخشب وبعض مصانع يدوية لصنع الاشياء الضرورية لحياة رجال الدين ولصيانة الدير .

ويقع فى هذا « السجن المقدس » ستة من رجال الدين واثنا عشر راهبا . وتتكون الكنيسة من أجنحة ثلاثة تفصلها عن بعضها البعض عواميد من الجرانيت تحمل سقفا خشبيا مطليا بلون أزرق بالغ الجمال تتناثر فيه النجوم الذهبية اللون وتغلق المحراب قطع من الخشب جميلة ، محفورة ومذهبة . اما المذبح فمن زخارف حرشفية تشبه جلد السمك ، مطعمة بالصف ، ومشغولة بشكل بالغ الجودة ، اما المنبر فمن الرخام لكن كرسى المطران مصنوع من الخشب المنقوش والمذهب ، ويزدان القاع بلوحة منقوشة على الخشب نرى فيها فى منظور ( ١٩ ) سبىء التنفيذ تفاصيل بالغة الدقة للدير ، وتغطى الجدران لوحات سيئة لحد ما مرسومة فوق الخشب ، اما البلاط فمن الرخام والجرانيت ويتخذ السلم شكلا حلزونيا ( ٢٠ ) .

**وجدران السور مستنقة ، بها استحكامات بارزة ذات زوايا**

( ١٨ ) اخبرنا رجال الدين أن هذا المسجد قد بنى فى الفترة التى كان العرب يعملون فيها فى خدمة الدير .

( ١٩ ) انظر اللوحة ١٠٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

( ٢٠ ) لا يوجد بالدير جرس ، وينادون هناك على الصلاة وكذلك لمبة الممارسات الدينية بالطرق بواسطة بيزر ( مطرقة ذات رأسين ) على لوحة طويلة من الزان مغلقة أفقيا من الطرفين .



أربع تحمل كوات تغطى قطعاً صغيرة من السلاح تطلق قذائف من زنة الرطلين ، لكن هذه المدافع لم تنطلق أبداً إلا لكي تحدث ضجيجاً في الجبل ( أى لم يحدث أمر جدى يستدعى انطلاقها ) .

وتشتمل ترسانة الدير على عدد صغير من البنائى ذات المحاور ، اضطّر الرهبان لاستخدامها في بعض الأحيان ضد العربان الذين كانوا يأتون بقصد انتهاب حديقة الدير الخارجية التى تحيط بها جدران أكثر انخفاضاً وأقل صلابة من جدران الدير . ويصل سكان الدير إلى الحديقة عن طريق ممر سفلى يطله باب مزدوج من الحديد ، وهذه الحديقة واسعة بعض الشيء لكنها مزروعة بشكل غير جيد ، ومع ذلك فهى تنتج الخضروات التى تشبه بعضها ما تنتجه نحن من خضار ولكنها أقل جودة ، كما تنبت فيها الكروم وأشجار اللوز والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والبرقوق والزيتون . أما العربان ، أولئك الذين لا يعتنون بزراعتهم ، ولا يقلمون أشجارهم بشكل دقيق ونادراً ما يلجأون إلى تطعيمها فينتجون فواكه ضئيلة الحجم لكثك تجدها لذيفة الطعم حيث أنت فى مكان تندر فيه الفاكهة إلى هذا الحد . ولا يعرف رجال الدين التطعيم عن طريق شق القشرة ، وقد علمتهم طريقة التطعيم بالبراعم وكيفية تكاثر أشجار الكروم عن طريق ترقيد العقل ( العقل ) .

والمياه في الدير وفيرة ، ويخترق الحديقة جدول تسيل فيه المياه وبعمق يبلغ أكثر من ثلاث بوصات حتى ولو لم تكن قد سقطت أمطار منذ عام كامل ، وعلى الرغم من أن معظم العيون عندئذ تكون قد نضبت .

وحياة رجال الدين شديدة الزهد ، ويقتصر عمل الرهبان على القيام بأعمال بالغة الضلالة فيصنعون الزيت وقليلاً من النبيذ من عنب كرومهم ، كما يصنعون الخمور من البلح والتين والعنب المجفف ، ولا عمل لهم بعد ذلك إلا أن يأكلوا ويحصل الدير من القاهرة على كل احتياجاته من المؤن التى تجلبها إليه القوافل والتى يرسلها الدير الرئيسى هناك . ويثرى هذا الدير عن طريق صدقات المسيحيين الذين يطمحون في أن يحصلوا بهذه الوسيلة على هبات السماء عن طريق دعوات رجال الدين في جبل سيناء . وإذا ما استثنينا قداس الصباح ، وبعض الصلوات التى تتلى في السماء ، فإن هؤلاء الرهبان الوريين يقضون كل وقتهم في انجاز لا شيء .

وهناك مكتبة جبيلة لحد لا بأس به ، تضم عددا كبيرا من المجلدات اليونانية ، ومع ذلك فقد بدا لنا ان احدا لا يتردد عليها . ويتحدث الجميع باليونانية وليس ثمة الا عدد صغير من الرهبان يفهمون العربية ويتحدثون بها . وهؤلاء هم الذين يقومون بالسفر الى القاهرة لتدبير شئون الدير .

### اليومان الثامن عشر والتاسع عشر

يشكل جبل خوريب او حوريب ، الذى يقع الدير فى سفحه ، ربوة تقع الى الشمال ، يمر فوقها الناس وهم ذاهبون الى جبل سيناء (٢١) . وعلى مسافة حوالى ٥٠ قامة ( ١٠٠ ياردة ) الى الجنوب من الدير تقابل عين مياه تسمى بئر الاسكافى تهبط طيلة العام كمية صغيرة من المياه بالغة الجودة ، وعند نقطة الالتقاء توجد كنيسة صغيرة يطلق عليها اسم كنيسة ماري او كنيسة المفوض . وفوق هذا الجبل يوجد خزان مياه ببنى وكذلك شئ يشبه حوضا كبيرا للسبك يمتلئ بمياه الأمطار . كان كلاهما — الخزان والحوض — جانين منذ زمان طويل ، وفوق الربوة توجد شجرة سرو تمتاز بجمالها ، وعلى ارتفاع متر ونصف المتر ( ١٠٠ قدم ) يبلغ محيط هذه الربوة مايقرب من مترين وثلاثة ارباع المتر ( ٨١/٢ قدم ) مع ارتفاع مناسب (٢٢) . وعلى جزء اكثر ارتفاعا على نحو طفيف من نفس الهضبة توجد كنيستتان صغيرتان تحملان اسمى : ايلى ، ايليزيه ، وجدرانها مغطاة بأسماء اولئك الذين قدموا لزيارة جبل سيناء الذى يبلغ المرء قمته بعد مسيرته ساعتين صعودا فوق سلم يتكون من درجات من الصخور وكتل الجرانيت التى جلبت الى هذا المكان . ويطلق المرء المؤدى اليه بعض الأحيان ويقوم بحراسة الأبواب رجل لايسمح بمرور احد الا من كان مسيحيا مزودا بكتاب من بطريرك سوريا . ويرى المرء ايضا من فوق هذا الجبل اطلال كنيسة صغيرة مبنية بالجرانيت ، كما يرى مسجدا يرتفع فوق مايشبه قبوا صغيرا يبلغ ارتفاعه مايقرب من متر ونصف المتر ( ١٠٠ قدم )

---

(٢١) عادة ما نضع على الخريطة كلا من جبل حوريب وجبل سيناء باعتبارهما كتلتين تفصل بينهما مسافة قصيرة ، وهذا خطأ ، فجبل حوريب ربوة من جبل سيناء ، اما تلك الكتلة التى تفصل عنه فهى قمة جبل سانت كاترين ، وهذه أكثر منه ارتفاعا بنحو طفيف .

(٢٢) يلاحظ وجود ربوة مشابهة داخل الدير .

٧ بوصات ) فوق مايمثلها من العرض والعمق . وينظر الى هذا المكان باعتباره المكان الذى أمضى فيه موسى اربعين يوما . ويوجد فى مقابل هذا المكان كهف بالغ الضيق هو ذلك الكهف الذى اختبأ فيه موسى — كما يقال — عندما تجلى له ربه . ويرى المرء بالمثل اطلال كنيسة ثانية خربها العربان لأنها كما يزعمون كانت تمنع المطر من السقوط . وهناك كثير من الآبار المحفورة فى الجرانيت ، لكنها جافة .

كان العرب ينتظروننا عند سفح الجبل ، وهنا وقع حادث ، طبيعى فى هذا الفصل ، لكنه نادر ، يتلف الناس لحدوثه منذ زمن طويل ، جاء لضيف الى الاحترام الذى يكنه هؤلاء العرب للفرنسيين ولتقديرهم لنا ، لم تكن قد سقطت امطار منذ عام ، وكانت القطعان تمانى ، وكانت مصادر المياه تتناقص . وسمعنا ونحن فوق الجبل الرعد يزجر عن بعد ، وبدأ المطر يتساقط بينما كنا نهبط ، لم نكن قد شاهدنا مطرا يسقط منذ زمن طويل . فتمتعنا بلذة أن نحس بأنفسنا مبللين ، ولم يكن يخطر على بالنا مطلقا أن ننسب لأنفسنا فيما يحدث فضلا حين سمعنا العرب يهتفون ، وعندما حاذيناهم هبوا جميعا واقفين يهللون : « ماشاء الله ! ماشاء الله ! عظيم غفار ! ايها الفرنسيون الطيبون . لقد صليتم من أجلنا فوق جبل سيناء ! لقد ساعدتم ( بذلك ) فى أن يهطل المطر علينا ، وهو اثنى علينا من الذهب » كانوا يقبلون أكمامنا وذيل ملابسنا ويبتهلون الى السماء وهم يرددون : ايها الفرنسيون الطيبون ! ايها الفرنسيون الطيبون ! كان الجو مشبعاً للغاية . وكان لون السماء يماثل لونها فى أوروبا قبل هطول ثلج كثير . وأبدت هذه الملاحظة لزميلى ثم أجبتهم . « اننا مسرورون منكم ، لقد صلينا على الجبل ودعونا الله من أجلكم ، وسيستجيب على الفور لأمنياتنا وأمنياتكم » . وبالكاد ، كان لدينا الوقت الذى يكفى لأن نحتفى تحت سقف مبنى ردىء من مباني الرهبان ، تدخله الرياح من كل اتجاه ، وظل المطر يسقط بغزارة شديدة ، واستمر بنفس القوة لفترة طويلة من الليل .

رحلنا فى اليوم التالى عند انبلاج النهار لكى نذهب لزيارة جبل سانت كاترين ، وأمضينا أربع ساعات لكى نبلغ القمة بادئين من عند السفح ، نسير أحيانا فوق قمم حادة مدببة وأحيانا فوق صخور من السماق المورقة أو المفتتة بشكل تام . وفى كل لحظة كانت مساقط المياه،

والأخوار ، والشعاب التى شكلتها الثلوج التى سقطت فى العشية عند ذوبانها والتى كانت لاتزال تغطى الثلث الأخير من الجبل . . كان كل ذلك يجعل عبور بعض المرات أمرا بالغ الصعوبة . وكانت الرياح تهب من جهة الشمال ، وعلى الرغم من ان الترمومتر لم يكن يشير الى درجة التجمد ، فقد كان الجو جد قارس بالنسبة لنا ، نحن الذين لم نعد نعرف منذ زمن طويل لا البرد ولا المطر . ولا الجليد . كانت السماء صافية فوق رعوسنا ، لكن بحر المياه التى سقطت فوق الصخور الدائشة على الدوام قد شكل من حولنا ، ومن تحت أقدامنا سحباً كثيفاً ، كأننا كنا فى داخل جزيرة ، وكأنها قمم الجبال العالية من حولنا تشكل عدداً مماثلاً من صخور البحر ، وسط هذا البحر من البخار . وفوق هضبة الجبل شديدة الضيق ، ينهض كوخ متهدم بشكل جزئى ، ويغطى صخرة من الجرانيت ، هى موضع تقديس من جانب المسيحيين . وقد شرح لنا الأخ الذى كان يصحبنا والرهبان الذين كانوا معنا ، فى أثناء عودتنا الى الدير سر هذا التقديس .

لقد استشهدت سانت كاترين ، عذراء الاسكندرية ، حسبما يذكر مؤرخو القرن التاسع فى مدينتها الاسكندرية . فى عهد ماكسيميانوس الثانى ، الامبراطور الرومانى فى ذلك الوقت . وفى هذه اللحظة ، وجد الناس على صخرة سانت كاترين هذه جثة لفتاة . وأخبر بعض المسيحيين أحد الرهبان بالأمر ، وذهب الجميع للتعرف على الجثمان . وأقروا بأنه جثمان لشهيدة ، وأنه لابد أن يكون جثمان سانت كاترين . التى نقلت بالتاكيد ، حسب المعتقد الراسخ فى الدير ، من الاسكندرية الى هنا بواسطة الملائكة الذين انزلوا الجثمان عند سفح جبل حوريب (٢٢)

وسرعان ماذا صيت هذه المعجزة ، وتزايد عدد الحجاج القادمين من سوريا ومن القاهرة ( كذا ) ، وسرعان ما امد هؤلاء الرهبان بوسائل لاقامة كنيسة صغيرة كانت هى اصل منشأ هذا الدير .

وبعد ذلك وضع الجثمان فى صندوق له نافذة من الرخام الابيض

---

(٢٢) يحدد رجال الدين المحطات التى استراح فيها حاملو الجثمان ، وهم يتقدمون كذلك الصخور الأمتية التى وضع الجثمان فوقها .

وحفظ بالطريقة التى يقضى بها الدين ، وفى أيام العيد تعرض الراس واليد اليمنى أمام النافذة وتثال تقديس الناس ، أما النافذة الموازية فلا تدع احدا يلمح الا اجزاء من الهيكل (٢٤) .

رجونا رئيس الدير ان يسمح لنا بالمشاركة فى هذه الحفلة الدينية، فوافق على تحقيق هذا الرجاء فى الغد ، وعندئذ زينت الكنيسة كما فى أيام الأعياد الكبرى ، واضيئت كافة الشموع والمصابيح ، وبعد ان خر رئيس الدير والرهبان ساجدين ابتداء من اسفل الكنيسة حتى بلغوا المحراب ، جاء هؤلاء ليقبلوا جبهة القديسة والخاتم الذى يحيط بأحد أصابعها .

ولقد لفت هؤلاء انظارنا عند هبوطنا من الجبل الى زهور نسرين بالغة الازدهار والفتح ، يطلق عليها الرهبان اسم شوك النار ، وقد أعجبنا عند مرورنا بالوادي الواقع بين جبل سيناء وجبل سانت كاترين ، بكل رائعة من الخزف الهولندى تحيط بحوض اسماك واسع كانت الأمطار قد ملأته اثناء الليل .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ذلك ، عند منتصف الوادى ، لفت هؤلاء انظارنا الى الصخرة التى خرج عندها موسى من الماء (٢٥) .

(٢٤) استرعى رجال الدين انتباهى الى انه اذا كان الملائكة لم يعرضوا الجسد كله ، فقد كان ذلك من جانبهم تقديرا لاعتبارات العفة والفضيلة .  
(٢٥) تشكل الأمطار بسقوطها فوق الجبال أخوارا ، تحمل معها ، بينما هى تتبع نفس الاتجاه لوقت طويل ، الطين والأحجار ، والزلط المستدير ، وتشكل بهذه الطريقة صخورا تستعصى على حركة التنقل هذه، كما تحفر جداول يزداد عمقها بقدر ماتزيد رخاوة الحجر وبقدر ما يحدث المزيد من الأخوار ، حتى يحدث أن تندفع هذه الصخور من تلقاء نفسها ، بعد أن تفقد القاعدة التى كانت تنهض عليها بفعل انحراف الأرض من تحتها ، الى الوادى ، ولقد اندمعت كتلة من الجرانيت تبلغ مساحتها ٥٠ هكتار مربع ( حوالى ١٤ قدما مربعا ) الى وسط الوادى ، وترى اليوم على سطحها جدولا صغيرا يبلغ عرضه ٢٥ ديسيمتر ، وعمقه ديسيمترا واحدا ، وتقطعه من ١٠ — ١٢ قطعا يبلغ عمق التقطع منها ٣ — ٤ سم ( ١٥ — ٢٠ بوصة ) ، وقد تشكلت هذه بفعل بقاء المياه فى الأجزاء الأكثر رخاوة من هذه الكتلة ، التى يسميها الرهبان والعرب صخرة موسى . ويضع الآخرون العشب فى هذه الأنواء المزعومة ، ويطعمونها جمالهم ، عندما تكون مريضة .

وعلى مسافة عدة أميال من هذا المكان ، تتلاقى عدة وديان وتشكل باتحادها هضبة واسعة مليئة بالرمال وكتل الجرانيت والزلط وتحمل اسم سهل الاسرائيليين . وهناك وسط هذه الصحراء تل قليل الارتفاع يسمى جبل هارون ، وقد اكد لنا مرافقونا أن بعض العرب يذهبون الى هناك لذبح العنزات ، وبمواصلة طريقنا ، راينا صخرة مجوفة ، يزعم الرهبان بأن العجل الذهبى قد صب ( صبغ ) فيها .

كانت القافلة هى نقطة البدء لعودتنا الى القاهرة ، وكان علينا ان نحرم على انتهاز هذه الفرصة والا فانتنا سوف نخاطر بالبقاء فى الصحراء حتى يحين موعد سفر القافلة التالية أى لمدة أكثر من ستة اسابيع اذا ما افترضنا - فوق ذلك - أن حدثا طارئا لن يأتى ليعطل مسيرتها . إذن فقد عدنا الى الدير . وفى اليوم التالى فارقنا هؤلاء الرهبان لكى نعود الى القاهرة عن طريق الجبال . كان شيوخنا فى انتظارنا عند سفح الكهف ، وكانت القبائل الأكثر بعدا قد بدأت بالفعل مسيرتها لكى يلتقى الجميع عند مدخل الوادى لعبور صحراء السويس ، لكى يتبادلوا الحماية ضد القبائل المعادية التى قد يصادفونها .

وبينما كنا نشرف على تحميل جمالنا ، جاء احد مترجمينا وأخبرنى ان عربيا قد ابلغه أن الأتراك قد سيطروا على القاهرة وقتلوا الفرنسيين . كان يمكننى استدعاء هذا الأعرابى **سؤاله** حول صحة هذا الخبر وإن أفحمه لو كان الخبر مختلفا لاثارة العربان ضدنا . لكن مثل هذه المناقشة سوف تكون لها مساوئها . فقد كان بعضهم حائقا لأن رحلتنا قد عادت ببعض الفوائد على عدد قليل منهم . واعطيت امرى للمترجم ان يذهب ليقول لراوى الخبر ان الفرنسيين اصدقاء للأتراك ، وأنه - هو - لايعرفنا حق المعرفة . ان كان يظن أنه بذلك سيخيفنا ، واننى ارسل له حفنة من البارات باعتباره منشدا وراوى قصص . وبعد أن ركبنا جمالنا ( الهجين ) ، وزعنا البارات على الفقراء ، والقينا بها الى الاطفال

كما كانت عادتنا ان نفعل عندما كنا نغادر احدى القبائل ، ورحلنا  
بينما ادميات وبركات الرهبان الطيبين ، تنهال علينا (٢٦) .

### اليوم العشرون

بعد مسيرة ست ساعات من وادى الراحة وبعد مسيرة ساعتين فى  
وادى الشيخ صالح عسكرنا بالقرب من اولاد سعيد الذين لقينا فى كنفهم  
افضل استقبال . قائدنا الشيخ الى خيمته ، ودار حوار غنيف اثناء الطعام  
بينه وبين جار له كان يود ان يستضيفنا . وفقنا بينهما واعدين الآخر ان  
نذهب لتاكل عنزة معه فى الغد قبل رحيلنا .

### اليوم الحادى والعشرون

لم يعد امامنا سوى مسيرة ساعتين لكى نصل الى وادى فيران  
الخصيب والذى تحتله قبيلة القارشة ، وهى اكبر القبائل عددا ، ويعد  
شيوخها فى نفس الوقت اقدم المشايخ ويحمل لقب الشيخ الكبير . ويبلغ  
طول هذا الوادى ، المزروع بأشجار النخيل وبعض اشجار النبق حوالى  
ثلاثة اميال وعرضه حوالى ٢٠٠ الى ٣٠٠ متر ( ١٠٠ - ١٥٠ قامة ) .  
ويحتوى على اسوار كثيرة جدرانها من الحجارة الصلبة ، تشكل عددا  
مماثلا لعدددها من الملكيات التابعة لأكثر أبناء القبائل المجاورة ، مسيرة ،  
والذين يأتون ليجنوا هناك بلحهم ، وهناك شخص بعينه يأخذ على عاتقه  
الحفاظ على هذه الحقائق التى تحظى بحماية الشيخ الكبير .

وهذا المعسكر كبير فى مساحته وأهميته ، فهو يتكون من حوالى  
أربعين خيمة تنهض بين أشجار الطرفاء ( المن ) ، وهى تضم الجزء الأكبر  
من أبناء القبيلة ، ويجد المرء هناك آبارا عديدة تهبى المياه بوفرة كافية  
وهم ينزحونها من عمق عشرين قدما ، وقت أن كنا فى رحلتنا هذه .

---

(٢٦) كانت قطعة من جوار السور قد تهدمت ، ولم تكن لديهم  
وسيلة لترميمها ، فوعدناهم بأن نرسل اليهم بنائين سافروا بالفعل مع  
أول قافلة تبعا لاتفاق عقدناه مع العربان . وبعد ذلك بسنوات وجد أحد  
الرحالة الروس ، الذى سافر برا من سوريا الى جبل سيناء ، اسما  
مدونا فى حجرة الاغراب ، دليلا على عرفانهم بالجبل .

وكان الطعام الذى قدم لنا هناك هو نفس ذلك الطعام الذى قدمته  
الىنا القبائل الأخرى ، لكن تجمعهم الكثير العدد كان يضم من ٤٥ الى ٥٠  
شخصا ، أى كل رجال وأطفال القبيلة .

ثمة ما يجعلنا نلمس واقعة هامة . كان بوكوك Pocoke ويصفه  
خاصة نيببور Niebhur قد وجدا على بعد مسيرة يومين وادى ميران احجارا  
تغطيها النقوش الهيروغليفية يبدو انها تشير الى وجود مقابر مصرية ،  
وقد تحدث الناس اليهما كذلك عن وجود مدينة قديمة ، الامر الذى يتفق  
لحد كبير مع ما واثقنا الفرصة مرات عديدة للتعرف عليه فى صعيد مصر ،  
اذ من المعروف أنك عندما تجد خرائب مدينة فانك على يقين من أنك  
ستلقى مقابر غير بعيدة من هذا المكان ، والعكس صحيح . ولما كنا  
نعيش منذ قرابة شهر مع رجالنا العربان ، ولما كانوا يبذلون شديدا  
الثقة بنا للحد الذى لا يقدر أحد أن يحصل عليه من هذه الشعوب  
المرتابة ، فقد كانت لدينا من الأسباب ما يكفى لأن نأمل بمساعدتهم فى العثور  
على الآثار القديمة التى رسمها ووصفها نيببور ، وعليه ، فقد سألنا رجال  
الدين الذين قاموا بالسفر الى هناك عدة مرات ، كما سألنا الرجال  
الطاعنين فى السن ، وأولئك الذين ليس لديهم ما يخفونه حيث لا يمتلكون  
شيئا يخشون من فقده ، ووافق الجميع على أن يدلونا على أطلال مدينة  
قديمة تقع فى نفس المكان ، وعلى بقايا أحجار منقوشة فى مكان آخر ،  
هو بالتأكيد المكان الذى أشار اليه نيببور ، لكن ، لقد خدعنا اماتينا ،  
سواء كان ذلك بدافع من الجهل أو بدافع من سوء الطوية والظن من جانب  
مرشديننا ، فانا لم نذهب الى المكان الذى توجد به الانقاض القديمة ، التى  
كنا نتلف على زيارتها .

### اليوم الثانى والعشرون

بعد ساعة من خروجنا من وادى ميران ، اكتشفنا فوق تل يبلغ  
ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا ( ١٥ قمة ) وجود هضبة تحيط بها جبال  
عالية . وقد رايت وسطها كذلك انقاض مساكن قديمة تفقد الذوق فى  
بنائها . وقد بنيت هذه بكتل من الحجارة غير المشخبة ، كما بنى جزء منها  
بالطوب النوى . ويوجد فى أسفل الجبل بقايا جدار سميك يبدو انه كان



قد بنى بقصد دعم التربة ، او لاستخدامه كسور ، كما توجد ثمة مغارات محفورة فى الصخور ، لكن مداخلها ظلت ناتئة غير مشنية .

ويؤكد العربان والرهبان ان المباني الموجودة فوق القل وسط الهضبة هى اطلال مدينة صغيرة كل يسكنها المسيحيون ، وخربها العربان الذين طردوهم منها ، ويزعم آخرون ان هذه المدينة قد انهارت فوق سكانها الذين وجدت جثثهم تحت أنقاضها .

وعلى قمم شديدة الارتفاع تسمى رأس الطاحونة توجد أساسات كنيسة قديمة تعود الى نفس الزمن الذى تعود اليه المباني الموجودة فى اسفل . وكل ما هناك ينبنى ببؤس وجهالة السكان القدامى لهذه المباني التى تهدمت حيث لا شئ منه شبيه بالمباني المصرية فى شكلها ومقائنها .

وعلى بعد خمسة عشر او ستة عشر ميلا ( مسيرة يوم ) مررنا كذلك بسفح جبل تغطيه النقوش مع الأرقام العربية ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، وبجوار اكبر هذه الأرقام يوجد عدد ضئيل من الحروف لدرجة لا يمكن منها ان تكون شيئا آخر سوى أسماء يسبق الكثير منها — او يتبعها — رسم الصليب . وقد رأينا هناك خيولا وجمالا منقوشة ، ورجالا على ظهر حصان وهناك رجل بين آخرين ، يحمل رمحا تشبه قمته رأس السهم .

وتوضع هذه النقوش احيانا فوق احجار انقية ، وحيانا أخرى فوق احجار راسية ، وكان الكثير من هذه الحجارة مقلوب لانها انفصلت عن الجبل منذ نقشها ، ولا يزيد ارتفاعها مطلقا على مايزيد على ثلاثة أمتار ونصف المتر ( ١٠ — ١٢ قدما ) بل انها نادرا ما تبلغ هذا الحد من الارتفاع . وفى هذه السلسلة من الجبال ، التى يبلغ طولها حوالى ثلاثة لميال ، والتى تقطعها فى اماكن عديدة شعاب او وديان صغيرة ، لا يجد المرء مطلقا احجارا منقوشة وان كان ذلك قد يحدث احيانا عند زوايا الممر .

ولا تنبئ أى من هذه النقوش لا عن موهبة — بل ولا حتى عن عادة — النقش فوق الاحجار . وقد حفرت كلها بواسطة احجار مدببة صلبة او بقالوم ، فيما عدا عدد ضئيل منها تم حفره بواسطة ازميل .

ومن الصعب الا يدرك المرء الغاية من هذه الكتابات ، بل ومن الصعب أكثر أن نتردد حول التفسير الذى ينبغى أن يعطى لها ، اذ هى لا يمكن أن تكون قد تمت الا على ايدى مسيحيين كانوا يذهبون للحج ( الزيارة ) الى جبل سيناء . ويوجد أكبر عدد من هذه النقوش فى مكان استراحة الليل ، وهناك القليل منها فى مكان استراحة النهار فى الوقت الذى لانجد فيه أى نقش على الاطلاق فى أى مكان آخر على الطريق .

وقد نسخنا العديد من هذه النقوش ، ثم دخلنا بعد ذلك الى الشرق فى واد ضيق حيث نصبنا خيامنا بعد أن قطعنا ثلاثة أميال فى سفح جبل جرانيتى وسط قبيلة العوارمة .

### اليوم الثالث والعشرون

وفى هذا اليوم ، لم نقطع سوى أحد عشر ميلا فى واد ضيق ، بين جبلين رملين ليس بهما أثر لخضرة من أى نوع ، لكى نصل الى هضبة مرتفعة تسمى وادى الخيمة ، حيث قضينا الليل .

### اليوم الرابع والعشرون

باتباعنا الوادى . مع الانحراف قليلا الى الغرب ، عبرنا عدة شعاب مغطاة بصخور رملية وجرانيتية وسماقية ( رخامية ) ، ثم توقفنا فى وادى النصب على بعد عشرة أميال من وادى الخيمة ، فى سفح جبل من الجرانيت تغطيه النقوش . وعلى الرغم من أن هذا المكان ليس سوى استراحة نهائية ، فإنه ينبغى عليك أن ترسل الجبال الى مسافة عدة أميال من هناك اذا كنت تريد الحصول على الماء .

كنا وسط قبائل الطليقات ، وتادنا شيخها . الذى كان قد هرع إلينا من مخيمه حيث نمنا بعد أن اكلنا العنزة تحت سقف خيمته .

## اليوم الخامس والعشرون

فى هذا اليوم ، وجدنا آخر النقوش (٢٧) فى واد يسمى وادى الحبور بعد مسيرة نحو خمس ساعات وبعد أن اجتزنا واديا عيقا ورطبا مليئا بالبولس ، وبه بعض أشجار النخيل ، ويغطيه فى جزء منه الملح والبارود الأبيض بطول يبلغ ثمانية أميال ، وصلنا الى واد عسل ، حيث قضينا الليل .

## اليوم السادس والعشرون

وباتباع الوادى ، الى الشمال الغربى ، استرحنا للخطات فى مكان يقع الى الجنوب من وادى الفرندل لكى نذهب لتقيم خيامنا فى خور فرق

---

(٢٧) لمعرفة كل النقوش انظر اللوحات A , E المجلد الخامس ، كما يمكنك أن تجد جزءا منها فى Voyage de Niebuhr en Arabie المجلد الأول.

ومن المرجح اننا ابتعدنا لمسافة قصيرة من الجبل الذى نسخ عنه هذا الرحالة الممتاز الكتابة الهيروغليفية المنقوشة فى مؤلفه ، ولكن سواء كان ذلك عن جهالة او عن سوء طوية فإن عرباننا قد اكدوا لنا أنهم لا يعرفون أحجارا أخرى منقوشة . وقد واصلنا طريقنا ونهضنا واثقون من اننا سنعثر على النقوش الهيروغليفية ، لأنهم عندما أخبرناهم أنه لا تزال توجد أحجار أخرى ، دلونا على مكان أكثر بعدا للبحث عنها هناك ، ولم نترك اننا قد خدعنا الا عندما وجدنا النقوش الأخيرة . كانت القافلة تسير ولم يعد ذلك هو الوقت الملائم لكى نواصل البحث ، بل لكى نعود أدارجنا لنلحق بالركب .

وفى أثناء عبورنا الصحراء ، سببت لنا الكثير من القلق ، احدى القوافل التى كانت تسير على مسافة بعيدة منا ، ثم تعرفنا فيها على قبيلة صديقة .

وعلى مسيرة يومين من القاهرة ، عندما كنا معسكرين ، فوجئت غزالات ثلاث بانففسها سجينه داخل المعسكر ، وبدأت تطاردها صيحات العربان ، وكلما فرت قبايلتها نفس العقبة ( الصياح ) وقد اجتازت احداهن الشباك ، واغلقت الأخرى على الرغم من جراحها ، وأسرت الثالثة . كان العربان من قبل قد ذبحوا لنا غزالة كنا قد اشتريناها عشيية وصلونا الى دير سانت كاترين ، وبمائل لحمها كثيرا لحم اليعمور ( نوع من الأيائل ) البالغ اللذة .

على بعد عشرة اميال من الحوزية وذلك بعد أن بلغنا هضبة شديدة الارتفاع وجدنا فيها مياهها بالغة الرداءة داخل مايشبه كهنا مكونا من الأحجار الجيرية . اجتزنا وادى الفرندل الذى تغطيه اشجار الطرفاء ( المن ) حيث يأتى عرب الطليقات يصنعون الفحم .

### اليوم السابع والعشرون

كنا بعد على بعد أكثر من عشرين ميلا من عيون موسى . وكنا منذ نهاية اليوم الثانى قد تركنا الجبال لكى ندخل صحراء قاحلة قطعنا فيها ستة عشر ميلا ثم نصبنا خيامنا فى وادى الحلزا .

### اليوم الثامن والعشرون

فى هذا اليوم وصلنا فى ساعة مبكرة الى عيون موسى . كان المد قد بدأ يهبط وعبرنا ذراع البحر ( الخليج ) تجاه السويس ، وفى امكن كثيرة كانت المياه من حولنا تبلغ عمقا يقدر بأكثر من اربعة اقدام . وفى اليوم التالى لحقنا بالقافلة فى العجروود . وكانت القافلة تتكون من ١٢٠٠ جمل ومن ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل وفى اليوم الحادى والاربعين منذ رحلنا ، وصلنا الى القاهرة .

### تقاليد وعادات عرب الطور

يسمى سكان شبه جزيرة سيناء الطورة او عرب الطور . وهؤلاء — شأن كل العربان . ذوو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر الى متر و٧٣٢ سم ( ٤ اقدام وست بوصات ) . ولون بشرتهم حائل ، شديد السمرة ، بل يكاد يكون اسود تماما ، وعيونهم حادة سوداء ، تغطيتها الجفون بعض الشيء . وهم فى العادة نحيفو الأجسام ، جادو النقاطيع دون أن يوحوا بالكأبة ، وهم على دين محمد ، لكنهم لا يعرفون عن محمد سوى اسمه ، ولا يعرفون عن القرآن سوى شهادة لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ولم نقابل من بينهم سوى رجل واحد يؤدى الصلاة بانتظام . كما قام بالسفر الى مكة ( الحج ) مرتين .

وعلى الرغم من أن الإقامة الاعتيادية لهؤلاء العربان فى جبال صخرية ووسط ارض قاحلة لا يمكن ان تغرى احدا على الاطلاق على انتزاع هذه

البلاد منهم ، فقد منحتم هذه الحياة — كما منحت كل العربان البدو — روحا من الحرية اساعوا استخدامها فى معظم الأحيان . وعلى الرغم من ان الضرورة تفرض عليهم ان يكونوا على الدوام مسلحين لحماية تجارتهم وللدفاع عن انفسهم ، وعلى الرغم من ان حوادث الانتقام (٢٨) التى قد يكون عليهم ان يمارسوها ضد قبيلة معادية قد دعمت لديهم الميل الى السلب حين يكونون منتصرين فان المرء مع ذلك لا يستطيع ان ينكر انه يجد — رغم ذلك — فى كل القبائل العربية بقايا ثمينة من تلك التقاليد الابدية التى نقلها الينا سفر التكوين فى قصة ابراهيم ، وكما وصفها المسيو فولنى Volney بقدر كبير من الدقة والعذوبة فى مؤلفه الهام الحالة السياسية لسوريا Etat Politiqu de la Syrie ان مانستطيع ان نؤكد هو اننا فى خلال الواحد والاربعين يوما التى امضيناها مع عرب الطور لم نستشعر من جانبهم اى نوع من القلق او ان نتوجس منهم خيفة ، كانت خيمتنا على الدوام مفتوحة بل وكثيرا ما كنا نغادرها ، وكانت اسلحتنا ملقاة كينما اتفق ، ومع ذلك فلم نفقد شيئا على الاطلاق مهما يكن ضئيلا .

ولقد وجدناهم شديدي التحفظ تجاه الفرنسيين ، ولكى ندعم مواقفهم الطيبة هذه معنا ، فاننا لم نعدهم بشيء على الاطلاق دون ان نكون عند وعودنا ، كما لم نطلب اليهم ما يستحيل عليهم ان يفعلوه . ومع ذلك فقد كنا نفرض ماتريد بقدر من الحزم كنا نبدو معه وكان لدينا من القوة مايجعل الغير يستجيب لارادتنا .

« كلمة الفرنسيين واحدة » ، هكذا كانوا يقولون على الدوام . وقد سألنى كثيرون منهم ، وهم دهشون لرؤيتنا نركب جمال الهجين ونسير بينهم ، نتحمل نفس المتاعب ونفس صنوف الحرمان التى يعانون منها ، سألونى : ان كان كل الفرنسيين اقوياء مثلى . وكنت اقول لكل سائل انك ذاهب الى القاهرة ، وسوف ترى بنفسك اننى لست واحدا من اكثر الفرنسيين فتوة كما انى لست واحدا من اكثرهم فتوة فكانوا يجيبون : لقد خلقتم معشر الفرنسيين للاسفار .

---

(٢٨) هناك قانون عام عند العرب يقضى بان دم كل قتييل لابد من الانتقام له بدم قاتله وهو يسمى بالثأر أو القصاص .

كل ما يرتديه عرب الطور كملبس هو قميص من الصوف الأبيض ينزل الى منتصف الساق ، واكمامه قصيرة ، وكذلك جلباب من الصوف المقلم بالأبيض والغامق ، مفتوح من الأمام ، وليست له أكمام ، ومشقوق من الجنبين لرور الذراعين ، وسروال من التيل .

ولا يرتدى الأطفال سوى الجلباب ، وكثيرون منهم عراة ، وفي الصيف لا يرتدى الرجال سوى القميص مع حزام من الجلد أو من قماش صوفى . أما الشيوخ ، وهؤلاء هم أكثرهم ميسرة ، فيرتدون ملابسهم على طريقة المصريين وقد تلقى كثير منهم عبايات ( خلعت ) من حكام البلاد .

ويرتدى البعض منهم نعلا تربطه الى قدمه سيور من الجلد أو خيوط من الصوف ، لكن سيقان الجميع عارية حسب عادة المصريين ، ويرتدون غطاء للرأس ، قلنسوة تحت عمامة رديئة من الصوف الأحمر أو الأبيض ، وتكاد تكون رعوس كل الأطفال عارية .

ويحمل هؤلاء العرب كسلاح بنقوية ذات سر جلدى وخنجرا مقوسا طوله ٥١ ديسيمتر ( حوالى ٢١ بوصة ) وهو ذو حدين ومزخرف بالفضة فى معظم الأحيان وهم يحصلون على هذا السلاح المصنوع فى فارس عن طريق جدة وهو يوضع فى مقدمة الحزام من الشمال الى اليمين .

وهناك ما يشبه جعبة من الجلد تعلق بالمثل فى الحزام من الأمام ، وتمتلئ بعلب من البوص أو الخشب ليوضع بها البسارود ، وبالإضافة الى ذلك ثمة جراب يتكون من سيور صغيرة من الجلد المجدول ، تنتهى بأهداب مزدانة فى بعض الأحيان بقطع صغيرة من الرصاص ، ومزود به حقيبة من الجلد للصوفان ( مادة اسفنجية للجراحة ) وفنائل مطلية بالكبريت ، وحقيبة أخرى للأحجار . وتعلق به قداحة لها سلسلة صغيرة ، وهناك حقيبة ثالثة صغيرة توضع بها المقذونات وعلبة كبيرة من الخشب على شكل مخروط تملئ كذلك بالبسارود ، بالإضافة الى جعب كثيرة مشابهة تعلق بهذا الجراب .

وتشبه ملابس النساء ملابس نساء القاهرة ، سروال ضيق من قماش فاتح ، وفستان طويل من التيل الأزرق ، مفتوح عند الصدر ، وله

أكمام واسعة مشقوقة حتى منتصف طولها ، يرتفع أو يربط من القماش الأسود يبلغ عرضه ٢ ديسيمتر ( ٨-٩ بوصات ) وطوله ٥٦ ديسيمترات ( ١٨ - ٢٠ بوصة ) ، معقود من جانبي الرأس فوق العينين وعند منتصف الجبهة بشريط صغير تغطيه الباربات ( قطع النقد الفضية ) فى بعض الأحيان ، على هذا النحو تتكون ملابسهن ، وفى نفس الوقت ينبغى أن نضيف الى ذلك تناعا من التيل الأزرق وعقودا وأسابور من الحلى الزجاجية ، ولبعضهن حلقات كبيرة من الفضة فى أسفل الساق العسارية ( خلخال ) والتي لا يغطيها جراب ( شراب ) .

### الأثاث

تشتمل اثاثات عرب الطور على خيمة من قماش من الصوف الغامق يصنعونه بأنفسهم ، ورحى من الحجارة لطحن القمح ، وغلاى او غلايين للقهوة من النحاس ، وقدر معينة ، وأطباق من الخشب وملعقة من الحديد لتحميم البن وهاون من الخشب ليصحن فيه البن بواسطة عصا — هذا هو اثاث الميسورين من هؤلاء العرب والذين يمتلكون زيادة على ذلك ، حقائب من الصوف لنقل الفحم .

### المخيم

نادرا مايضم المخيم القبيلة بأكملها ، ولا يتجاوز عدد الخيام الخاصة بكل قبيلة والتي توزع هنا وهناك تبعا لوجود الأعشاب والشجر التي يعثرون عليها فى الوديان ، ١٢ أو ١٥ خيمة ، وينبغى استثناء عرب القرارشة الذين يمتلكون ٣٥ الى ٤٠ خيمة لأنهم يقيمون فى وادى فيران الخصيب .

وتنهض الخيام ، وهى مفتوحة من الأمام ، فوق عارضة من الخشب يحملها وتدان يبلغ ارتفاعهما المترين ( حوالى ٦ اقدام ) ، وتنزل بشكل منحدر لمسافة يتفاوت طولها فوق عارضة أخرى يبلغ ارتفاعها نصف المتر ( ١٨ - ٢٠ بوصة ) وهى من الطين ، وتنهض فوق العارضة الأخرى بشكل عمودى . وتتفل الجوانب بنفس القماش او بقطع عديدة مختلفة الألوان . وفى معظم الأحيان تنقسم هذه الخيام بشريط من القماش يمتد الى الأمام قليلا ويستخدم فى عزل المكان المخصص للنساء .

## الممتلكات

إذا استثنينا بعض الأراضى فى وديان الكيد وغيران ، وهى المحاطة بأسوار متهدمة ومزروعة بأشجار النخيل والنبق ، وإذا ما استثنينا كذلك الدير وحديقة الرهبان ، فيمكن القول بأنه ليست هناك ملكيات فى شبه جزيرة سيناء ، فجل أو عدة جمال ، بالإضافة الى بعض العنزات هى ثروة العربى ، وتنتشر كل قبيلة فوق منطقة محددة من الأرض ترعى فوقها قطمانها وتصنع فحمها ، وتقدر الثروة هناك بعدد الجمال ، ويعد فقيرا من لا يملك جمالا : أبو فقير ، مفيش جل ، أى انه فقير لا يملك جمالا مطلقا ، فليعه وليعطه الملك .

## الصناعة

تتناسب صناعة عربان الطور مع احتياجاتهم باللغة البساطة ، فهم يصنعون ملابسهم ، ويصنعون بأنفسهم أقمشة خيالهم من الصوف ووبر الماعز الذى يغزلونه دون إزالة الشحم منه (٢٩) .

وعلى الرغم من أن بيع الفحم هو مصدر دخلهم الأساسى ، فليست لديهم الوسائل اللازمة لقطع الخشب ، وهم يضعون النار عند جذر الشجرة ، ويكسرونها بقطع ضخمة من الأحجار . وإذا كانت لدى البعض

---

(٢٩) تحمل الخيوط التى تشكل سداة القماش ، عصوان موضوعتان بشكل افقى ، ومثبتتان بالأرض من كل من طرفيهما ، وتبتعد كل منها من الأخرى بمسافة تزيد أو تنقص ( حسب الفرض المطلوب ) ، وهناك جزء من غزل صوفى مماثل ، ملفوف حول عصا طولها ٣ ديسيمترات ( حوالى ١ قدم ) تستخدم كمكوك ، وتصنع لحمة القماش بتمرير هذا المكوك باليد بالتبادل خيطا فوق خيط من تحت ، ويكون الصانع فى هذه الحالة راقدًا ، ثم يسحب المكوك ويمرر من جديد حتى يبلغ الطرف الآخر من خيوط السداة ويضمون خيوط اللحمة الى بعضها بضربها بشط له ١٠ الى ١٢ من الأسنان . وعندما يضم الخيط بأكله يعود المكوك الى الجانب الآخر بنفس الوسيلة . واعتقد أن الخيط الواحد لا ينسج ولا يضم فى أقل من ١٠ دقائق أو ربع الساعة وتقوم النسوة بهذا العمل ، بينما يصنع أزواجهن الفحم ويحملونه الى القاهرة



بلطات صغيرة ( قادوم ) فهي ضعيفة وبالفة السوء لدرجة لا يمكن معها أن يستخدموها الا لقطع الأغصان ، وعندما سألتهم لماذا لا يجلبون من القاهرة بلطات أحدث أجابونى : هكذا كان يصنع آبائنا . وهؤلاء العرب لا يولون أى اهتمام لما يضيع بددا من خشب ماداموا سيظلون يعيشون على الدوام على خشب يستعملونه فهم لا يفكرون مطلقا ان كانوا سيظلون يجدون الكثير منه ولوقت أطول لو أنهم استخدموا وسائل أفضل « ريك يدبرها » ، وهم يصنعون الفحم بوضع الخشب بشكل أفقى وتغطيته بالتراب ، ويكتمونه دون أن يرطبوه . ويمكن أن يكون هذا الفحم بالغ الجودة لو أنه كان أكثر سمكا بقليل مما هو عليه . لكنه مع ذلك يكفى لأعمال المطبخ وكذلك فى العدد الأكبر من محلات الحدادة فى القاهرة .

ولكى لا يئذل جهد لا جدوى منه . فان أحدا لا يصنع من الفحم الا الكمية التى تستطيع جماله أن تحملها . ويصنع العرب الفحم فى نفس المكان الذى اسقطت فيه الشجرة . ويملأون منه حقائبهم ويتركون هذه الحقائب على الأرض او يحملونها الى طريق القافلة لكى تأخذها عند مرورها .

## التجارة

تشتمل تجارة عربان الطور على الفحم الذى يحملونه الى القاهرة، وعلى نقل البن والسلع الأخرى التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر .

ويباع الفحم بالقاهرة بسعر ٦ بوطاقات او ١٨ فرنكا للحمولة الكبيرة اذا كان من فحم السنط ( أو السيل ) و ٤ ١/٢ بوطاقات او خمس بوطاقات اذا كان من خشب الطرفاء ( الاثل أو المن ) .

ولا يحمل العدد الأكبر من الجمال سوى نصف او ثلثي الحمولة . مما يعطى ثمنا يبلغ ٩ ١٢ ٤ فرنكا .

وعن طريق بيع الفحم يدبر العرب عيشهم وعيش عائلاتهم وجمالهم لمدة ستة أسابيع تستغرقها الرحلة الى القاهرة ، وعن طريق هذا المبلغ المتواضع أيضا يشترون البن والدقيق أو القمح والتبغ والفارجيلات التى

تمثل احتياجا كبيرا بالنسبة لهم ، كما يمكنهم ان يتزودوا بقطع الملابس ومعدات الجمال التى لايمكنهم صنعها .

وقد يصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن بمقدور هؤلاء ان يعيشوا بمثل هذا الدخل الهزيل ، وقد يصعب عليه بدرجة اقل مما سبق ان يتصور ايضا كيف يمكن ان توجد بينهم بعض العائلات الميسورة — اى التى تمتلك جمالا كثيرة — اذا لم يكن لها مصدر آخر للثروة ، او على الاقل ، اذا لم تكن تلجأ الى استخدام أكثر ادرازا للربح لهذه الحيوانات (٣٠) .

ويقوم العرب عادة بعمليات النقل من السويس الى القاهرة ويقوم التجار باخطار شيخ أو عدة شيوخ ، عند مرورهم بالطور ويتعاقدون معهم على نقل حمولتهم التى قد تتطلب من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جمل . ويذهب اولئك الذين تعاقدوا الى الجبل ليبرموا صفقات خاصة يحققون من ورائها بعض الارباح ويدفع للحمولة ( حمولة الجمل ) الكاملة ٨ بوطاقات او ٢٥ بارة مع جزء من البن .

وبخلاف هذه المنافع ، كان عرب الطور يتولون امر القوافل الذاهبة الى مكة والتى كانوا يعدونها بثمتين جملا تذهب من القاهرة الى المعرود، وكانوا يتلقون من البكوات ٢٤ ألف بارة اى ٨٠٠ فرنك وفردا من البن ( قنطار يساوى ١٠٨ أقة ) و١٢ أردبا من القمح وثلاثة اطقم ملابس .

## الطعام

يتمثل طعام العربان فى بعض البصل ، والروجة او الفطير ، وهى نوع من الاقراص المصنوعة من الدقيق المعجون بالماء بدون خميرة او ملح ، ويصنعونها مرتين كل يوم ، ويضيف اليها الميسورون الفول أو العدس المطبوخ بالبصل وقليل من الزيت ويكتفى الفقراء باكل الروجة

---

(٣٠) تحدد الثروة بعدد الجمال ، واذا سألت ان كان عربى ما غنيا او فقيرا فانك تحصل على هذه الاجابة . ان لديه جملا ، او ان لديه عدة جمال ، ومن يمتلك من بينهم اربعة جمال يعد أكثر ثراء بأربع مرات ممن لا يملك سوى جمل واحد .

ولا يثبح غربان الطور العنزات الا ايام الاعياد او عندما يستضيفون اغرابا ، وعندئذ ياكلون الارز والبلح ان كان قد تم جنيه .

وقد عوملنا على النحو التالى عند كل القبائل فيما عدا قبيلة مزينة : تبسط امام مدخل الخيمة قطعة من السجاد او بعض جلود الماعز ، ويجلس الشيخ أولا ثم تدامى التوم وشيوخهم بترتيب السن ، ويشكل كل ابناء القبيلة دائرة كبيرة وتوضع النار فى الوسط ، وعندما يكون آخر من يصل ، كانت القبيلة بأكملها تنهض واقفة ويجلسوننا بجوار الشيخ ، ويصبون على يدينا الماء بعد ذلك لنفطس . وكانوا يدفعون الماء عندما يكون الطقس باردا ، وتقدم القهوة ، ثم يحضرون امام الاغراب وكبار السن طبعا كبيرا من الخشب مليئا بالبلح ، ويمرر هذا الطبق بالتوالى فى نقاط كثيرة من الدائرة الكبيرة حتى يستطيع كل امرئ ان ياخذ منه ، ويظل شيخ القبيلة واقفا بالقرب من الفاصل الذى يشكل عازلا للحريم اللاتى يمرر اليهن الطبق بعد انتهاء الطعام .

وتغسل الايدى مرة اخرى ، ثم تسلم النسوة الى الشيخ قطعة من العنزة المسلوقة فى ماء بدون ملح فوق قطعة من الفطير ، ويسلم الشيخ هذه القطع بادئا بالاكبر سنا ، ثم الى الشبان والى الاطفال . وزيادة فى اكرامنا كانوا يرسلون الينا فى طبق من الخشب قطعة كثيرة من العنزة مع عدد مماثل من قطع الفطير .

ويعيد الشيخ بقايا الطعام التى ترد اليه ، بعد ان ياكل هو نفسه . ويظل هذا الرجل واقفا طيلة تناول الطعام ليكون على اتصال بالحريم ولكى يخدم المبعوع .

ونغسل ايدينا للمرة الثالثة مع تمرير قطعة الصابون من يد لآخرى . وفى الفترات الفاصلة اثناء الاكل نتناول القهوة ، واخيرا يصل الارز المطبوخ بالدقيق وقطع من الفطير وقليل من الزيت وبعض البصلات ، ويقدم هذا كله فى طبق كبير من الخشب يحمله شخصان فوق قطعة من السجاد او بالآخرى فوق جلباب . ويوضع الطبق امام اوائل الجمع . وياكلون هذا النوع من المعجن شأنه شأن غيره بالايدي ، ويمرر الطبق على التوالى حول الدائرة . ويحصل الاطفال الذين لم يستطيعوا ان يعثروا لانفسهم على مكان فوقفوا الى الخلف جزءا من هذا الطعام فى ايديهم ، ويعود

الطبق امام الشيخ الذى يمرره بعد ذلك الى النسوة . ولا توجه الى اى واحد من هؤلاء الاكلين دعوة الى الطعام ، فكل جائع يأكل ، ويعتمد عن المائدة فور شعوره بالشبع . وفى اثناء الطعام يتحدث كبار القوم (شيوخهم) وحدهم ويتناقشون ، وهو امر نادر ما يحدث من قبل الشبان، كما لا يصدر مطلقا عن الأطفال ، وفى كل القبائل كان العرب يشعرون نحونا بالامتنان الشديد لأننا نعيش ونأكل على طريقتهم دون اى تمييز سوى اننا كنا نتصدر المكان فى مدخل الخيمة حيث كنا نجلس على جلد عنزة، او فوق قطعة من القماش .

### الرقص

لا يستسلم العربان فى ايام الاعياد لمرح يكون اكثر صخبا مما اعتادوا ، ويقوم الشبان وحدهم ، وفى يدهم سيف او خنجر ، بعمل بعض حركات الجسم والأعضاء التى تقلد شكل معركة بطريقة منفرة وخشنة . ولا يشبه رقص النساء فى شئ رقص العوالم (عالمية) فى مصر . ولا يحدث هذا الرقص الا فى الليل .

يتجمع رجال كثيرون فى شكل نصف دائرة مناسكين باليد وهم يهتزون ، او يغنون بعض العبارات التى تتفق مع المناسبة (٣١) والتى يصحبونها من وقت لآخر بتصفيق منغم بالأيدي .

وفى اثناء الغناء تقبل امرأتان كل واحدة منهما من احد طرفى الدائرة، ويبسطان الذراعين ، ويمران بالتبادل قدما امام الأخرى ، ويقومان ببعض الانحناءات للتحية والتبجيل ، وهما بهزان جسميهما حتى تلبفا وسط نصف الدائرة . وعند كل انحناء احترام ينحنى المنشدون ثم ينفادان نصف الدائرة وهما يصنعان نفس الحركات ، وتمثل مكانهما اثنتان اخريان ، وعند انحناء الاحترام الأخيرة ينحنين ، وهم يطلقون صيحة من الحنجرة ، هى تلك التى

---

(٣١) اليكم بعض هذه الجمل : شكرا لله وللرسول لأن رجالنا قد وصلوا — كل القبيلة فى فرح منذ وصول مسالم مع صحبه — مسالم بترك خيمته مفتوحة لكل الناس — الذين طردوا المالك كتبوا الى مسالم لكى يحظر — نرجو الله ورسوله أن يظل الذين يحكمون مصر الآن ، فهيا الى الأبد — كنا فى انتظار عودة مسالم لكى نحز رأس الخروف .

تستخدم فى اناخة الجمال ، وكان احد شيوخنا ويسمى كريبزات داخل الدائرة مغنين له :

كريبزات يحسن تحميل جماله .

وقد ارسلنا الى الراقصات بعض قطع من الذهب وبعض البن مغنين لنا :

قدم الينا الفرنسيون البن مع السكر فى فناجين جميلة .

### المحادثات

عندما يموت شيخ يحل ابنه محله طالما كان هذا الابن شهيا وطالما كان لبق الحديث وكانت خيمته مفتوحة امام كل الناس . وفى الحالة التى لا يكون للشيخ المتوفى فيها ابن ، يعين اقرب اقربائه اليه او الشخص الذى تتوفر فيه هذه الشروط ، ويجمع الناس عليه ، ويعترف به دون ادى اعتراض .

وتتشابه بعض وظائف الشيخ مع وظائف قاضى السلام Juge de Paix عندنا . وفى حالات المنازعات ياتى الناس لالتماس حكمه ، وتسلم اليه كل الاطراف المتنازعة وكذلك الشهود خناجرهم فيرشقها فى الأرض امامه ، وعندما يتحدث اليهم يمسك بيده عدة خناجر يلوح بها . ويتحدث الجميع ، او عدد كبير منهم ، فى وقت واحد ، فيحدثون بذلك ضجة كبيرة ، واذا لم يتفقوا فان الشيخ يصدر حكمه ، ويعيد اليهم اسلحتهم ، وتهدا الضجة فى لحظة ثم ينسحبون .

اما الجرائم ، مثل القتل ، فيقتص لها بالدم ، او تغندى مقابل مبلغ كبير ، وتدفع دية الجرح بحسب حجمه ، ويقاس ذلك بحبات القمح .

واذا ما تشاجر رجل ميسور مع آخر فقير ، ترجع كفة الرجل الفقير .

وحيث تختلط القطعان ، وحيث الخيام مفتوحة ، فان العرب فى حاجة شديدة لكى يجعلوا من السرقة فيما بينهم امرا يوحى بالذعر الشديد . ويقصون فى هذا الصدد ، وهم يمتدحون ، حكاية اب سرقت ابنته احدى

عنزاته ، فقد تابع الأب المذنبه فى الجبال ، ووجدها تشوى قطعة من لحم  
المنزة ، فتقيد قدميها ويديها والقى بها فى النار .

وتعاقب بنفس العقوبة الزوجة الخائنة واليمنت التى تفقد شرمها ،  
ويتم التنفيذ علنا ، اذ يقود الأب ومعه الكثيرون من الاهل المخطئة  
الى الجبل .

ولا ينفذ الأب أى شىء كتابة ، اذ ليس من بينهم أحد يقرأ او يكتب،  
ولديهم قوانين وقواعد انتقلت اليهم عن طريق التقاليد ويتعلمونها بالممارسة  
( أى من وتائع الحياة ) .

وترغم البنت على الزواج من الزوج الذى يقدمه لها اهلها . لكن  
الامر ليس على هذا النحو بالنسبة للولد ، وعادة يفضل العرب ان يتزوجوا  
من نفس عائلتهم .

ويمكن للولد ان يتزوج من ابنة عمه او خاله لكنه لا يستطيع ان  
يتزوج اخت زوجته ولا اخت ابيه . ويدفع عند الزواج ١٠ بوطاقات على  
الاقل من ذات التسمين باره ( حوالى ٣٢ فرنكا ) الى اهل البنت ولا يعطى  
شىء للبنت نفسها ، ولكن اذا طلق الزوج زوجته فانه يعطيها مائة قطعة  
من ذات الثلاثين باره ، ( حوالى ١٠٦ فرنك ) اما اذا كلفت هى التى طلبت  
الطلاق فانه لا يستطيع ان تطلب شيئا .

واذا مات اب وترك ابنا وابنة ، يحصل الابن على ثلاثة ارباع  
القطيع ، اما اذا ترك ابنا وعدة بنات ، فيحصل الابن فى هذه الحالة على  
النصف فقط .

واذا ترك الزوج زوجة لا ابناء لها ، يكون لاهله الآخرين فى ميراثه  
نفس الحقوق التى كانت ستؤول الى ابنائه ، وتؤول الاسلحة التى كانت  
للاخ الاكبر ( المتوفى ) الى اخيه او ابن اخيه او ابن عمه .

واذا ترك هذا الزوج زوجة ثانية لا ابناء لها ، وله ابناء من الزوجة  
الاولى فان الزوجة الثانية هذه لا يستطيع ان تفرض كحق لها الا ما اعطاه  
الزوج لها بموجب وصية اوصى بها امام شهود .

ويتكفل باليتامى أحد الأقارب من المسورين ، ويتكفل كذلك بالقطعان التى سيقدم عنها الحساب عندما يكبر الأطفال .

وإذا كان الأطفال بلا قطيع فإن الله يرعاهم ، ومن لديه يعطيهم . والأمراض الشائعة عند العرب قليلة للغاية ، على الرغم من أن غالبيتهم ينامون عراة ، وقد لاحظت أن عددا كبيرا من بينهم يصابون بالسعال فى نهاية نوفمبر وأن أطفالا كثيرين هناك يصابون بما يشبه السعال الديكى .

ويستخدم العرب الكى فى حالات كثيرة ، ويجلب بعضهم من القاهرة أدوية يبيعها لهم المشموذون بسعر رخيص . وهم يشربون الماء المفلّى فوق بمرات الحبر كمعالج لأوجاع الرأس .

عن شبه جزيرة سيناء

### السكان

يبلغ تعداد عرب الطور حوالى ٩٠٠ الى ١٠٠٠ رجل يستطيعون حمل السلاح ويدخل فى هذا العدد سكان منطقة الطور ورجال الدين .

وللبعض من هؤلاء أكثر من زوجة تسكن كل واحدة منهم فى خيمة مستقلة . وثلثا عدد السكان على الأقل متزوجون ، وهم يسكنون الجبل على النحو التالى :

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
العليقات	١٥٠
الموارمة	١٢٠
القرارشة	١٠٠
أولاد سميد	١٣٠
مزينة	٢٥٠

وبالإضافة الى ذلك هناك خمس قبائل صغيرة أخرى أو عائلات ، تنتمى الى تلك القبائل . وهى الرزيدات ، العنابية ، الجريزات ، الدرامة ، الحمادى .

وأخيرا ، يشكل الجبالية ، الذين كانوا فى الماضى يقومون بخدمة دير سانت كاترين الواقع بالقرب منهم ، خمس قبائل صغيرة لكل واحد منها شيخ . ويبدو أنهم كانوا مسيحيين فيما مضى وأنهم كانوا يدخلون الدير ، ولكنهم منذ اعتنقوا الاسلام او منذ حل محلهم العربان ، لم يعودوا يترددون على الدير او يقومون بخدمة رجال الدين بأفضل مما تفعل بقية القبائل . وهؤلاء الجبالية هم أكثر هذه القبائل بؤسا، وهذه هى أساؤهم:

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
السلايمة	٣٠
الحايدة	٢٠
الوهيبات	١٥
أولاد جندى	٣٠
أولاد رزين	٤٠
المجموع	١٣٥

وعلى الرغم من أن الوقت والظروف لم تسمح لنا برسم خريطة ومسار الطريق فإننى دونت مذكرة دقيقة بكل نقاط هذا الطريق . وقد قست المسافات عن طريق الوقت الذى كنا ننفقه للذهاب من نقطة الى أخرى مع تقدير ميلين لكل ساعة للمسافة التى تقطعها الجبال محملة او التى تسير فى قافلة دون أن يسرع بها ثلادوها . وقد تبين لى أنك لست تذهب من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء مروراً من جهة البحر بالنقاط التى توجد بها المياه ، ولكى تعود من خلال الجبال فإن عليك أن تنفق مثلنا ٢٣٦ ساعة ، واننا نستطيع على هذا النحو أن نفترض أن هذا الطريق يبلغ ٤٧٢ ميلا أو ٢٣٦ فرسخا بالقياس الفرنسى .



واليكم واقعة تؤيد هذا التقرير .

وجد العالم الفلكى المسيو نويه Nouet عن طريق عملية حساب  
مثلثات أن السويس تبعد عن القاهرة بـ ٢٨ فرسخا متسداها ٢٢٨٢  
قلمة ( القامة = ٢ ياردة ) اى ٦٣ ميلا و ٨٩٦ قامة . وقد قطعنا هذا  
الطريق مرتين مع نفس القافلة ، وانفقنا فى كل مرة ٤٢ ساعة ( مع فارق  
بضع دقائق زيادة أو نقصانا ) ، الامر الذى يعطينا تبعا للتقدير السابق  
٦٤ الف قامة او ٣٢ فرسخا ، طول الفرسخ الفاقامة .

ومن هنا نرى انه ليس هناك سوى فارق بين النتيجتين يبلغ  
١.٤ قامة .

الطريق من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء عن طريق السويس  
مع اشارة الى الاماكن التى توجد بها مياه

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع
الأول	من القاهرة، فى الصحراء	١٢	بدون ماء
الثانى	"	٢٠	شرحه
الثالث	إلى المعجود	٢٤	شرحه
الرابع	إلى بير السويس	٦	مياه ملحية
	إلى السويس	٤	بدون ماء
الخامس	إلى عيون موسى	٦	مياه كبريتية وجبسية
	العين	٥	بدون ماء
السادس	أبو صويرة	١٥	مياه جبسية
السابع	وادي الفرندل	٢٠	بدون ماء
الثامن	وادي الحوزية	٤	مياه جبسية
	وادي إتل	٢٤	" "
التاسع	وادي المغارة	٢٦	مياه جيدة
العاشر	الطور	٢	" "
الحادى والثانى عشر	فى الجبال	٣٢	بدون ماء
	شرم ( الشيخ )	٦	جيدة
الثالث عشر	قبيلة مزينة	—	بدون ماء
الرابع عشر	وادي نصيب	٢٠	شرحه
	وادي المندار	٢	مياه جيدة
الخامس عشر	وادي الكيد	١٨	" "
السادس عشر	فى الجبال	١٤	بدون ماء

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والإسراحات	المسافة بالميل	نوع المياه
السابع عشر	إلى دير سانت كاترين	٦	مياه جيدة
الثامن والتاسع عشر	في جبال سيناء وسانت	١٢	جيدة
	كاترين وسهل الإسرائيليين والعودة إلى الدير	٨	—
العشرون	وادي الشيخ صالح	١٥	جيدة، تنضب في الصيف
الحادي والعشرون	وادي فيران	٤	جيدة
الثاني والعشرون	في واد ضيق	٦	بدون ماء
الثالث والعشرون	وادي الخيلة	١١	شرحه
الرابع والعشرون	وادي نصيب	١٠	جيدة
الخامس والعشرون	وادي عسل	١٦	بدون ماء
السادس والعشرون	الحوزية	٨	—
	خور فرق	١٠	كلسية
السابع والعشرون	وادي الحلزا	٦	بدون ماء
الثامن والعشرون	عيون موسى	٤	—
التاسع والعشرون والثلاثون	إلى القاهرة	٧٢	—
والحادي والثلاثون	مجموع المسافة	٤٧٩	

## الدراسة الخامسة :

# رحلة الى بنى سويف والفيوم

ب.م.م. مارتان

\* العنوان الاصلى للدراسة هو :

وصف هيدروجرافى لولايتى بنى سويف  
والفيوم .

( والهيدروجرافيا هى علم وصف المياه او  
طبوغرافيا البحار . اما الكوروجرافيا فهى  
علم وصف البلدان . المترجم )



هجر ولايتا الفيوم وبنى سويف ، الواقعتان فى ذلك الجزء من مصر ، الذى كان يشار اليه فيما مضى باسم هيتانوميد ، والذي يعرف اليوم باسم الوسطانى ، او مصر الوسطى ، اهتماما كبيرا من ناحية كوروجرافيتهما ، التى لاتزال حتى يومنا هذا موضوعا لجدل ، لم تلتق حوله الآراء ، بين اكبر وأشهر جغرافيينا ، فلك أن الأوصاف التى خلفها لنا الأقدمون لهذين الإقليمين ، تختلف اشد الاختلاف عن تلك التى يقدمها لنا ، عنها ، الرحالة ، وأشهر النقاد المحدثين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وحين نريد التوفيق . بين هذه الاختلافات ، نجد أنفسنا فى كثير من الأحيان ، عرضة للوقوع فى اشد الأخطاء خطورة .

وعند وصولنا الى مصر ، كان لابد أن تهدف لجنة العلوم والفنون الى العمل على ازالة كل هذه الشكوك ، والى أن تؤكد فى النهاية ، وبطريقة لاتقبل الجدل ، فلك الراى الذى لابد لكل امرئ أن يتوصل اليه ، بخصوص عظمة وعبقريّة تدماء المصريين ، كما توضحها مؤلفات تحظى بدرجة عالية من الاحترام ، مثل مؤلفات هيرودوت وسترابون ، وديودور ( الصقلى ) ، وببليوموس . الخ ، وهى مؤلفات يستحيل على المرء مطلقا أن ينحيا جانبا او حتى أن ينظر اليها نظرة استخفاف ، ونتيجة لذلك ، فقد توجه عديد من أعضاء هذه اللجنة الى بنى سويف والفيوم ، فى كل مرة كلفت تسنح فيها الفرصة لأى منهم للقيام بمثل هذه الجولات ، وقد أبدى الأستاذان : جومار Jomard ، وجيرار Girard حماسة لا تعرف الكلل فى أبحاثهما التى قدمت نتائجها الى مجمع القاهرة .

لقد اخذ أولهما على عاتقه أن يتأكد من حقيقة الأوصاف التى قدمها كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون لبحيرة مورييس ، وبرهن بشكل شديد الوضوح على أن هؤلاء المؤرخين ، يعنون فيما دونوه فى مؤلفاتهم ، تلك البحيرة التى تعرف اليوم باسم بركة قارون ، اذ هى البحيرة الوحيدة التى تنطبق عليها الاحوال التى أوردها كل من هؤلاء (١) .

---

(١) انظر دراسة حول بحيرة مورييس ، تأليف جومار ، المصنوع القديمة ، دراسات المجلد السادس ، وصف مصر ( الطبعة الثانية ) .

أما المسيو جيرار ، فقد اهتم بشكل خاص بوصف النجوم بوضعها الحالي ، بينما هو يعالج أمور الزراعة والتجارة ، لكنه ، على الرغم من ذلك النفاذ المعروف عنه ، والمعارف العميقة والغزيرة التي تميز كل مؤلفاته ، قد ظل عند مناقشته لهذه الموضوعات بعيدا عن مناقشة الطبوغرافية القديمة لهذا الاقليم .

وفى الواقع ، فإن الدراسة العميقة التي قام بها المسيو جومار قد ازالت كل لبس ، فقد أصبحنا الآن على ثقة من الموقع الصحيح لبحيرة موريس ، واللابرننت ، واقليم أرسينويه . لقد كنا نعرف ضعف الأسس التي تنهض عليها افتراضات دانفيل d' Anville وجيبير Gibert ، ولم يعد بمقدور أحد أن يرى بحيرة موريس لا فى تلك الحقول المزروعة على الدوام ، مثل حقول الباطن ( اى الداخل ) ، ولا فى هذا الفرع المتعرج للنيل والذي يحمل اسم بحر يوسف ، ذلك الذى يكفى بالكاد للملاحاة بعض القوارب الخفيفة ، ومع ذلك فإن المسيو جومار لم يكن قد استطاع حتى الآن أن يدحض دانفيل وجيبير ، الا ببراهين من شأنها ان تقدم بعض افتراضات ، تشي بعدم قدرتها على الانتفاع ، اذ كان دانفيل قد أنشأ ، دعما لرايه ، وبينما هو يعبر عن فكرته بخصوص حقول الباطن تبعا لما زعمه الأب سنيكار P. sicard ، خريطة ترك الأمر فيها معلقا ، حين يطلق على هذه الحقول اسم بحيرة موريس تبعا لما يذكره هيرودوت وريودور ، ثم يعود فيطلق فى الوقت نفسه اسم بحيرة موريس على بركة قارون تبعا لما يورده سترابون وبطليموس . وللوصول الى يقين حول هذه النقطة ، كان من الضروري عبور الجزء الشمالى من البركة ، والا نظل نحدد اتجاهها واتساعها تبعا لأوصاف مبسطة الى هذا الحد ، وغير دقيقة ، ولقد كان لسوء الحظ ، مستحيلا على السنين جومار وجيرار ان يقوموا بهذا الاستطلاع . وفى الفترة التي عبرا فيها هذا الاقليم . لم تكن مصر ، غير الوائقة حتى ذلك الحين من مصيرها ، لتسمح للفرنسيين الدارسين ان يتجولوا فى ربوعها ، الا فى أعقاب فرق من الجيش ، أوكلت اليها مهمة تأكيد السلطة الجديدة . ولأنهما ، والحال كذلك ، لم يستطيعا ان يديرا حركتهما بالحرية اللازمة لعمليات تتسع على هذا النحو ، فانهما لم يشغلا نفسيهما فى هذا الوقت ، الا بالجغرافيا الفلكية ، فى دراسة المنشآت وطبوغرافيتها . وفى النهاية ، فلقد ادى الانتصار الباهر ، فى معركة

هليوبوليس ، واستعمدة القاهرة عام ١٨٠٠ ، الى املاة الهدوء الى مصر ، ويبدو ان السهولة التي امكن بها تحطيم جهود العثمانيين ، الذين ينظر اليهم في هذه البلاد ، باعتبارهم الاعداء الوحيديين الذين يخشونهم ( بالنسبة لنا ) ، قد جعلت المصريين يلفون فكرة ان ينظروا الى الفرنسيين منذ الآن ، باعتبارهم حكما يستحيل ردهم على اعقابهم ، فتقلبوا منذ ذلك الوقت معنا بتقاليدهم اللطيفة وطباعهم الودودة ، وكنتموا امانيهم ، وازالوا العقبات التي كانت تعترض سبيل الفرنسيين ، وبدأ هؤلاء يجوبون انحاء مصر ، وحدهم ، في امان .

وقد سارع اعضاء لجنة العلوم والفنون بالتفحص هذه الظروف المواتية ، فانتشروا في الاماكن غير المأهولة وغير المعروفة كي يضيفوا جديدا الى اكتشافاتهم ، ولكي يطبقوا نتائج ابحاثهم السابقة على الواقع ، فعنفذ حدث ان قامت رحلات الى جبل سيناء ، ووادي التيه ، وبرج العرب ، واقر مشروع لزيارة الواحات ، والذهاب الى الحبشة ، وامكن باختصار ان نعمل بنجاح بالتفاصيل الكوروجرافية لمصر .

اما مهندسو الطرق والكبارى ، الذين اوكل اليهم بشكل خاص كل مايتصل بنظام الري ، الذي ينهض عليه وجود مصر ، فقد شغلوا معظم اوقاتهم بدارسة نظام النيل ، وترع الملاحة ، والري ، والتجفيف ، وكن من نصيبى ولايتا البهنسا والفيوم ، وتوجهت الى بنى سويف . قرب نهاية شهر ميسيدور من العام الثامن ( منتصف يولييه ١٨٠٠ ) .

كنت اعى تماما كم ستكون مهمتى ضخمة وعسيرة بالنسبة لقدراتى ، لكننى تدفعنى ، اهمية نتائج هذا العمل ، قد افترضت ان الحاسة المتأججة والشجاعة ستعوضان عدم كفايتى ، واتخذت قرارى الحازم باجتياز هاتين الولايتين من كل اجزائهما ، وان انشئ لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى ، وعزمت على وجه الخصوص ان اقوم بدورة حول بحيرة مورييس هذه ، وهو عمل لم يتم به حتى اليوم رحالة قديم ولا رحالة محدث ، وان اصل بذلك الى فكرة محددة حول شكلها ، وامتدادها ، وحقيقة الاغراض التي كانت تستخدم فيها في العصور القديمة .

ويذكر التاريخ باعجاب ، المصور والرجال الذين نفذت بمقتضى اوامره ، تلك الاعمال التي ازدهرت بفضلها الزراعة في مصر . انثراء



هذه البلاد لمدن لاسماء هؤلاء بالمرمان والمحيح الواجبين . وكنت اتسول  
لنفسى : يا لها من ميزة ستتحقق لوطنى ، فرنسا ، اذا ما اصبحت مصر ،  
بعد تحقيق اعمال كهذى ، مستعمرة فرنسية ! واى مجسد يمكن ان يكون  
للفرنسيين اذا خصصوا اعمالهم لخير البشرية .

واقدم هنا تفاصيل ابحاثى ومجهوداتى كى اتوصل الى تحقيق الهدف  
الذى وضعته نصب عيني ، وسوف تستخدم هذه التفاصيل كمنص لتفسير  
الخرائط التى رسمتها ، والتى تشكل جزءا من الأطلس الجغرافى (٢) .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين :

فى القسم الاول ، قدمت وصفا لولاية بنى سويف ؛

وفى القسم الثانى ، قدمت وصفا لولاية الفيوم .

---

(٢) انظر الخرائط ارقام ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ فى الأطلس الجغرافى ،

## القسم الأول

### ولاية بنى سويف

بدأت بعد بضعة أيام من وصولي الى بنى سويف ، حيث وجدت في شخص الجنرال زيونشيك قائد الولاية ، صديقا متحمسا للعلوم ، سارع فوضع تحت تصرفي كل الوسائل اللازمة لتسهيل عملياتي — بدأت بتأمل عدة مثلثات كبيرة ربطت فيها — تبعا لقواعد علم حساب المثلثات — قرى بنى سويف وبوش (\*)؛ بأعلى قمة لجبل المقطم ، الذى ينهض على الضفة الشرقية للنيل ، وكذلك بالهرم الذى يرى عند مدخل الفيوم ، وبعد ذلك وباستخدام الوسائل الطبوغرافية المعتادة عينت تفاصيل شمال الولاية ، وربطتها بهذه البنية المثلثية ، التى يمكن رؤيتها من كافة الجهات على وجه التقريب .

يجرى النيل ، كما يحدث في كل بلاد الصعيد تقريبا ، عند سفح الجبل الغربى بطول ولاية بنى سويف ، وينقسم الشط الغربى من هذه الولاية ، من ناحية عرضه ، وهو الشط الوحيد القابل للزراعة ، الى قسمين متميزين وذلك بخصوص الرى . والقسم الاول ، وهو يبدأ من عند حافة النيل ، اكثر ارتفاعا عن المياه العالية بتساع يبلغ حوالى الكيلومتريين ، وترويه عدة ترع صغيرة، تختص كل ترعة منها بقرية واحدة، ويلجأ الناس الى الأنرع ( الشواذيف ) ، والمكينات ( السواقي ) لرفع المياه حتى تغمر الأرض . أما القسم الثانى ، وهو الذى يمتد بعد ذلك الى سفح الجبال الصحراوية التى تفصل مصر (الوادي) عن الفيوم ، فهو يشكل ، تبعا لانحداره ، فى نمطين ، يصنع اتجاه كل منهما مع الآخر شكلا شبه عمودى ، أما النمط الاول فيتجه نحو الغرب أما الثانى فيتجه نحو الشمال وفق اتجاه مياه النهر . ولن آخذ على عاقتى مطلقا ان افسر سبب هذا التباين في ارتفاع هذين الجزئين من أرض الوادي ، فقد عولجت

---

(\*) احدى قرى بنى سويف [ المترجم ] .

هذه النقطة بما فيه الكفاية في دراسة المسيو جيرار عن الزراعة في مصر العليا (٣) .

وهذان الانحناءان محسوسان لدرجة أن المياه العالمة تظل تخمر الأرض بارتفاع يبلغ المترين ، ويبدو الريف في هذه الفترة من الفيضان في شكل بحر مترام الأطراف ، ومثل هذا الموقع المواتي يغنى تماما عن الأعمال الميكانيكية في الري ، لكنه مع ذلك يتطلب أعمالا ضخمة للاحتفاظ بالمياه أثناء الوقت اللازم للزراعة ، لأن الانحدار إلى الشمال ، ذلك الذي يسحب المياه بنفس سرعة النهر أثناء تناقص الأخير ، يحول دون بقاء المياه فترة طويلة كافية فوق الأراضي .

ولعلاج هذه السوءة ، أقامت السلطات المحلية باتساع هذا الجزء من أرض مصر ، وعلى مسافات محددة ، جسورا تلامس الجبال ثم يظل ارتفاع هذه الجسور يتضاؤل ليلبلغ مرتبة الصفر عند الأراضي المرتفعة على ضفاف النيل ، وتسبب هذه الجسور انحسار المياه حتى مستوى الأجزاء العليا ، وتظل على هذا النحو حتى تسمح لها الأراضي ، وقد تشبعت بالمياه ، أن تنصرف بواسطة تقطوع أعدت في هذه الجسور .

وهذه الأعمال كما نرى ، ذات أهمية قصوى في نظام الري ، ولا بد أن وجودها الذي بدأ مع بدء وجود الترعة على مر العصور ، قد أثار اهتمام الحكام ، ونميز من بين هذه الجسور : الجسور الكبيرة ، والوسطى والصغيرة . أما الجسور الكبرى فتد بنيت باتساع الوادي كله ، ويوجد منها أحد عشر جسرا في كل ولاية بنى سويف ، أكبرها وأكثرها أهمية هو ذلك الجسر الذي يحمل اسم الوكشيشى ، ويقع على بعد حوالي ٢ ميريامتر ( ٢٠٠٠ م ) شمال بنى سويف ، وهو يبدأ عند النيل ، إلى الجنوب من قريتي الزاوية والمصلوب ثم يمضي إلى شمال قريتي قمن العروس وأبجيج ثم يمضي جنوب الصحراء مارا بالقرب من قريتي أبويط ، وكوم أبو راضى ، أما السهل الذي بنى من أجله فينتهى عند قرى بهبشين ، ودلاص ، والزيتون .. الخ ، ويشمل مساحة حوالي ١٠٠٠ هكتار ، تنارت عليها ١٨ قرية .

أما الجسور الكبرى الأخرى فهي جسور : بهبشين ، صفاتية ، صفت ، راشين ، النويرة ، الشوبك ، أهوة ، ندهل أو الشسنتور ، سمالوط ، منبال ، بردنوها .

أما الجسور المتوسطة ، والتي لاتخدم إلا بعض الأراضي ، فيبدأ بعضها من خفاف النيل ، ويبدأ بعضها الآخر من الجسور الكبرى نفسها ، وينتهى كلاهما بالاتحام بأحد المرتفعات التي بنيت القرى فوقها .

ومن جهة ثالثة وأخيرة ، فإن الجسور الصغرى جسور محلية ، تنشأ لصالح عدة قراريط أو أجزاء من القرية .

وقد اقتضى نفس وضع الانحدارات العرضية للوادي وجود نوعين من الترع .. الترع الكبرى ، وتحمل المياه الى أعلى ، أى الى الجزء الواقع الى أقصى الغرب حتى سفح الجبل ، والصغرى ، التي تبدأ اما من النيل نفسه ، واما تشكل فروعاً من الترع الكبرى ، وتنتهى عند سفح المرتفعات المتناثرة فوق رقعة الأرض العالية ، الشديدة الاقتراب من النهر .

وقد يظن البعض ، نتيجة لذلك ، أن الأراضي الواقعة بالقرب من الجبال يمكن على الدوام أن تروى بشكل طبيعي بواسطة الترع الكبرى . مهما يكن ارتفاع فيضان النهر ، حيث أن منسوبها أدنى من منسوب أقل الفيضانات علواً ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو ، إذ لا يمكن لى تروى هذه الأراضي أن يبلغ الفيضان نفس مستوى ارتفاعها ، بل لابد أن يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع التي ينبغى أن تحمل المياه الى هذه الحقول الشاسعة . ولا يمكن أن يتحقق هذا الشرط إلا بالعناية المستمرة من جانب حاكم عاقل مستنير ، وتلك مميزة لم يعرفها المصريون منذ قرون طويلة ، فهذه الأراضي الواقعة الى الغرب ، والتي حبتها الطبيعة الى هذا الحد ، والتي ينبغى أن تنهض عليها دوماً آمال بقية مصر ، هي أكثر المناطق بؤساً ؛ فالمياه تنقصها كلية أثناء الفيضانات الضعيفة ، ولا تصل اليها إلا بكميات ضئيلة أثناء الفيضانات العالية إذ يتسبب ارتفاع قاع هذه الترع نتيجة للاهمال الطويل في الحيلولة دون تدفق المياه الى هذه الأجزاء المنخفضة ، ويحدث فقط عندما يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع أن تنزل المياه كشلال هائر ، لتغطي الأرض في لمح البصر ، ولقد شاهدت هذه الأراضي جافة

فى ٢٤ ميسيدور من العام الثامن ( ١٢ اغسطس ١٨٠٠ ) ، وفى العاشر من مريكيدور الذى يليه ( ٢٨ اغسطس ) وجدت المياه تعلو بنحو مترين ونصف المتر ، الى ثلاثة أمتار ، عند سفح الصحراء فى حين لم يبلغ الفيضان الفعلى فى ذلك الوقت الا مترا واحدا و ٢٥ سم .

وقد أدى ارتفاع فيضان العام السابع ( ١٧٩٩ ) ، الذى لم يستطع أن يتجاوز ارتفاع قاع العدد الأكبر من هذه الترع ، الى ترك مايقرب من ثلاثة أرباع الأراضى دون زراعة ، مما جلب الشقاء والأسى لعدد لا حصر له من العائلات فى حين كان ارتفاع منسوب المياه ، مع ذلك ، أعلى بدرجة كبيرة من ارتفاع هذه الأراضى التى كان يمكن أن تنتشر فوقها الحياة والرشاء ، لو أنهما قد وجدا للوصول اليها سبيلا .

ينبغى إذن الا ننظر الى ترع الرى الكبرى فى مصر باعتبارها مجرد خزانات للمياه ، حفرت لنفسها بطول مجراها فروعا لها ، فهى وسائل أو قل « خراطيم » تجلب المياه الى المناطق النائية : وعلى هذا ، فياله من أمر بالغ الأهمية الاتسد هذه الطرق ، وأن تستطيع المياه أن تجتازها دون عوائق ما أن تبلغ واحدا من أطرافها ، وهكذا فالهدف الذى يجب العمل فى سبيل بلوغه عند اعداد الترع فى مصر ، هو أن تحرص على أن تكون أطراف هذه الترع عند النهر على أدنى درجة ممكنة من الارتفاع ، وأن يكون هذا الارتفاع على مستوى أقل المناطق الداخلية ارتفاعا ، وهذا على وجه التقريب هو ما توصل اليه بطليموس ابيفان وحرص على تنفيذه ، فى الأعمال الكثيرة التى قام بانجازها ، ومن أجل هذا بالتحديد ، سجل حجر رشيد ذو النقوش الثلاثة اسمه كواحد من أبرز الذين قدموا لمصر الكثير من الأعمال النافعة .

أما أولئك الحكام الهمج والجشعون الذين تعاقبوا على مصر منذ ذلك الوقت ، ونحن لانتستنى من ذلك الرومان ، فقد أهملوا هذا الفرع الهام من فروع الاقتصاد السياسى ، وأى حظ ذلك الذى سيكون للفرنسيين ، لو أمكنهم ، كما كانت لديهم النية ، أن يضعوا فى سجلات التاريخ ، ذكراهم الى جانب ذكرى ذلك الحاكم الخير ، الذى ذكرته للتو .

تتطع شمال ولاية بنى سويف عديد من الترع الصغيرة التى تتفرع عن النيل ، والتى لا نجد من بينها سوى ترعة واحدة كبيرة تسمى ترعة

بنى عدى ، بإسم القرية التى تجرى هذه التربة بالقرب منها ، ويبلغ اتساع هذه التربة فى العادة ٢٥ مترا ، وقد لمست أن ارتفاع المياه بها، فى الحادى والعشرين من ترميدور من العام الثامن ( ٩ أغسطس ١٨٠٠ ) ، وبعد اليوم الذى اجتزلها فيه ، يبلغ المترين و ٥٠ سم ، وتنبع هذه التربة من النيل مباشرة ، على بعد ١٥٠ كم من بنى سويف وتستطيع القوارب أن تعمل بها لمدة تقرب من ستين يوما ابتداء من ١٥ أغسطس حتى ١٥ أكتوبر ، ويتفرع من جانبي هذه التربة عديد من القنوات الصغيرة لرى أول جزء مرتفع من أرض الوادى ، وبالقرب من طنسا تنقسم التربة الى فرعين : يمشى أولهما الى هذه القرية حيث توجد قنطرة من القرميد لها ثلاثة أقواس ، تشكل الحد الذى تنتهى عنده الملاحه ، وبعد ذلك تنبض المياه لتفتش الاراضى الواقعة عند سفح الجبل : أما القسم الثانى فيقوم ببعض الالتفافات ، ويمر بالقرب من قرى الحافر ، ابو صير ، انفسط ، أبويط ، قمن العروس ، وبعد أن يغطى بمياهه كل السهل الواقع بين جسر وكشيش فى الشمال ، وجسر بهشين فى الجنوب، يذهب ماينبض من مياهه ، عن طريق قناة تقع بالقرب من قرية معصرة الخليل (\*) ، الى منخفض غير مزروع ، بين جبلين فاصلين وصحراويين ، تجرى منه المياه نحو بحر يوسف ، لتبضى بعد ذلك ، حيث تصب فى الفيوم ، مارة تحت قناطر هواره .

ويوجد بالجزء الجنوبى من الولاية ، عدد اقل من الترع المتفرعة عن النيل ، وذلك بالمقارنة مع العدد الموجود بالجزء الشمالى ، لكن الجزء الجنوبى ، يحصل على حاجته من المياه بنفس السهولة التى يحصل عليها بها الجزء الشمالى ، حيث تشقه باتجاه عرضه عديد من الترع الكبرى المتوازية مع مجرى النهر ، فتغطى حتى فى حالات الفيضانات الضعيفة شرائح الأرض الواقعة بينها . وأهم هذه الترع : ترعتان يشيران اليهما الجغرافيون باسمى : بحر يوسف ، وبحر الباطن . وقد ضللتنا الاكاديميين

---

(\*) يورد القاموس الجغرافى للاستاذ محمد رمزى أسماء عدد قرى فى هذه النواحي تحمل اسم معصرة ليس من بينها اسم معصرة الخليل . ولا بد أنه يقصد واحدة من هذه القرى . [ المترجم ]

دانفيل ، وجير Gibert اللذين نظرا اليهما باعتبارهما نفس بحيرة موريس .

اما بحر يوسف ، الذى ترسمه على الدوام الخرائط الحديثة لمصر ، وهو ترعة تسير فى خطوط مستقيمة لمسافة تصل الى حوالى ٣٦ فرسخا ، ابتداء من ملوى حتى دخوله الى الفيوم ، فليس سوى فرع قديم من فروع النيل ، متعرج بقدر مايتعرج النيل نفسه ، ويبلغ اتساعه اليوم حوالى المائة متر ، ويبلغ أقصى اتساع له فيما بين قريتي Hezè (\*) ومنقطتين ، وقد قسمته بنفسى ، ١٤٠ مترا . ويحاذى هذا الفرع من فروع النيل سفح الهضبة الليبية ( الغربية ) كما يحاذى النيل نفسه سفح الهضبة العربية ( الشرقية ) ، وينقل بحر يوسف مياه النيل الى الفيوم ، ومجراه على الدوام أدنى من مستوى السهل الذى يعد ، كما ذكرت من قبل ، أدنى من منسوب مياه النهر ، ومع ذلك فان بحر يوسف يتصل وقت الفيضان ، بالترع المتوازية معه ، فتغطى المياه الأرضى التى تقع بينه وبين النيل .

اما اسم الباطن ، الذى اطلق على سبيل الخطأ على احدى الترع ، فليس على الاطلاق اسم علم ، ذلك أنه تسمية تطلق بشكل عام على معظم الترع التى تعبر الأرضى الداخلية باتجاه من الجنوب الى الشمال (٤) ويطلق اسم باطن كذلك على ذلك الجزء من الأرضى الواقعة بين النيل والهضبة الليبية . وتشترك هذه الكلمة فى العربية من بطن بمعنى وسط ، أو البطن نفسها ، وعلى هذا النحو اطلق العرب اسم بطن البقرة على قمة الدلتا التى ينفصل عندها فرعا دمياط ورشيد .

وهناك اسم آخر أكثر خصوصية ، على الرغم من أن عديدا من الترع تحمله ، هو : فياض . ويميز هذا الاسم البواطن الكبرى عن البواطن الصغرى . وأكبر هذه الفياضات الباطنية ، وهو الوحيد الذى

---

(\*) لم استطع التحقق من هذا الاسم فأثرت أن أوردته بحروفه اللاتينية كما ورد بوصف مصر . [ المترجم ]  
(٤) انظر دراسة عن بحيرة موريس ، تأليف جومار ، العصور القديمة ، دراسات ، المجلد السادس .

امكنه ان يظل كلا من جرانجية Granger والاب سبكار ودانيل ويوتعمهم فى الخطا ، لا يزيد طوله عن صفة فراسخ ، ويتفرع من النيل عند قرية الشيخ زياد ، على بعد حوالى ١٢ فرسخا الى الجنوب من بنى سويف ، ثم يواصل بعد ذلك مجراه ، باتجاه الشمال الغربى ، ليمر على بعد فرسخ واحد الى الشمال من الفشن ، جنوب قرية بنى صالح ومن هناك يمضى لتفيض مياهه فى الاراضى حتى يحجزها جسر صفت راشين . وفى خلال الفيضان ، يتم اتصاله مع بحر يوسف ، الى الشمال قليلا من قرية مزورة ، ويبلغ أقصى عمق له ٣٦مترا ، وعندما تمت بعمل مجسات له فى العشرين من فريمر من العام التاسع ( ديسمبر ١٨٠٠ ) لم يكن عمق مياهه لتبلغ اكثر من ١٥٠ سم وكان اتساعه يبلغ ٢٦٠ سم تحت مستوى سطح السهل .

والى الجنوب ، لابتعد من ذلك ، يوجد فياض باطنى آخر ، ينبع من النيل بين قريتى النزلة وقلوصنا ثم يمضى بالقرب من قرية مطاى حيث يتفرع الى قسمين ، يصبح احدهما ، وهو الواقع الى الشرق ، باطنيا صفرا ينتهى على بعد فرسخين من هناك ، فى اراضى ابو جرج ، اما الاخر ، الواقع الى الغرب فيتصل اثناء الفيضان ببحر يوسف عند قرية اهوة . لكن طوله لا يبلغ اكثر من ثلاثة فراسخ .

وهكذا فان رى اراضى ولاية بنى سويف ، يتم ، كما يتم فى كافة انحاء مصر العليا عن طريق كل من الرى الطبعمى ، والرى الصناعى ، مع فارق واحد هو ان الرى الطبعمى يتم حتى سفح السلسلة اللبية فى الجزء الشمالى للولاية ، حيث يستمر الانحدار حتى هناك ، فى حين يشكل المقطع الطولى للوادرى ، فى الجزء الجنوبى من هذه الولاية ، شكل منحدرين ، اولهما يبدأ من ضفاف النيل ، ويبدأ الثانى من شطالفرع المسمى بحر يوسف ، بحيث يشكل هذان الانحداران عند التقائهما داخل الاراضى منخفضة او ترعة صغيرة تحمل اسم البحر الباطن اى النهر الداخلى بسبب احتفاظها بالمياه وقتا اطول مما تحتفظ بها الاجزاء الاخرى ، وبسبب هذا الوضع كذلك فان الرى الصناعى لا يتم فى الجزء الشمالى الا فى شريط الارض القريب من النيل فى الوقت الذى يتم فيه فى جميع انحاء الجزء الجنوبى على شواطىء كل من النيل وبحر يوسف .



والطرق التى تتبع فى هذا الرى الصناعى بسيطة للغاية ، ولا تختلف الا حين يستوجب الأمر رفع المياه بعلو يتفاوت قدره . وهذه الطرق ، هى على وجه التقريب نفس الوسائل المستخدمة فى كل انحاء مصر ، والتى وصفها عديد من زملائى . لكننى أجريت بنفسى تجارب لا أرى بأسا من أن أورد هنا نتائجها .

ان أبسط كل هذه الوسائل ، هى تلك التى رسمت فى الصورة رقم ٤ من اللوحة ٦ — الدولة الحديثة ، المجلد الأول . وتمثل هذه الصورة رجلين ينكثان فوق أكمة من الأرض يحملان ويؤرجحان ، بواسطة أربعة حبال ، سلة من أغصان الصفصاف ، مصنوعة على شكل قنسيوة كروية ومغطاة بالجلد . ويفترق هذان الرجلان الماء ، بواسطة هذه السلة « على الطائر » ويفرغانها بنفس السرعة على الأرض ، وتنظم حركة تشغيل السلة ، وعب الماء وصبه بأغنية خاصة ، يمكن أن نجد نصها فى دراسة المسيو فيوتو Villoteau عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر (٥) ، وتكاد لاتستخدم هذه الطريقة فى مصر العليا لأنها لا تفترض سوى فرق طفيف فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح المياه . ولهذا السبب فهى أكثر ملائمة لمصر السفلى حيث تستخدم بكثرة ، فضلا عن ذلك فائنسا نرى أنها هى نفس الطريقة المستحدثة فى أوربا تحت اسم baquetage التى يلجأ اليها الناس فى عملية نزع المياه .

اما الوسيلة الثانية ، والتى تتطلب فرقا أكبر فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح الماء ، فهى الشائعة فى كل انحاء مصر العليا : وهى عبارة عن أداة تسمى « دلو » ، رسمت فى الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣ — اللوحة السادسة ، الدولة الحديثة . المجلد الأول ، وهذه عبارة عن رافعة من الخشب ، طولها ثلاثة أمتار وتبعد نقطة ارتكازها بمسافة متر عن أحد طرفيها . وتعلو مستوى الأرض بـ ١٢٠ سم ، ويتصل بالطرف الأطول قضيب متحرك طوله ٢٦٥ سم . تتعلق بطرفه ، كما فى الوسيلة الأولى ، سلة من أغصان الصفصاف مغطاة بالجلد ، وتتحرك حول محورها ، وفوق الطرف الآخر من الرافعة يثبت ثقل ( المقاومة ) من الطين

---

(٥) انظر الدولة الحديثة ، الدراسات ، المجلد الرابع عشر ( الطبعة الثانية ) .

الجاف الهدف منه تسهيل حركة صعود السلة . ويقوم الشخص المكلف بإدارة هذه الرافعة باغتراف المياه ، وصبها على الأرض ، أو في قناة تحلها الى الاراضى التى يراد ريها . ويبلغ قطر السلة ٤٠ سم ، ويبلغ عمقها ٢٥ سم ، وترفع حوالى  $\frac{1}{100}$  من المتر المكعب من المياه . وقد تابعت عدة مرات ، حركة اثنين من هذه الدلاء : كانت المياه فى حالة الدلو الأول تبعد عن الأرض بنحو ٢٣٠ سم ، ولكن العامل يرفع الدلو ٦٤ مرة كل ٦ دقائق : أما فى الحالة الثانية ، فكانت المياه تبعد عن سطح الأرض بـ ٢١٠ سم ، لكن العامل لم يكن يرفع الدلو الا ٥٠ مرة كل ٦ دقائق . ولا يستطيع العامل ان يعمل لأكثر من ساعتين فى اليوم الواحد ، ثم يستبدل به آخر ، ليعمل لنفس المدة ، وهكذا ، فإذا ما افترضنا وجود رجلين يعملان بشكل منتظم منذ شروق الشمس حتى غروبها ، فإنه يلزم لرى الفدان الواحد ان يعمل لمدة خمسة أيام : وتبلغ مساحة الفدان ٥٧٢٤ مترا مربعا .

ويستخدم الدلو للرى بالنسبة للأراضى التى تزرع بالشعير والذرة والحنطة وبقية البقول والحبوب الزيتية ، وان كان قد يصعب استخدامه فى زراعة الارز وقصب السكر وحبوب صلبغة النيلة ، وغيرها من المحصولات التى تتطلب كميات كبيرة من المياه .

وتروى الاراضى التى تزرع بهذه المحاصيل بوسيلة ثلاثة ، عبارة عن دولا ب ذى قواويس ( الساقية ) ورسمها مبين فى اللوحتين الرابعة والخامسة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، الفنون والحرف .

وفى هذه الآلة ، يطلق ثوران فى طرف رافعة يبلغ طولها ٢٩٠ سم ، تدار بواسطتها شجرة موضوعة بشكل رأسى ، تحمل بشكل لفتى مدارا مسننا يبلغ طول نصف قطره ٨٠ سم ، ومزود بـ ٣٦ سنة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠ سم ، وتحمل تلك الشجرة التى تدور حول نفسها ، والتى يبلغ طولها ٢٧٠ سم ، فى طرفها الآخر ، دولابا آخر يبلغ طول نصف قطره ١٢٠ سم ، تتحرك حوله ، بفعل دورانه سلسلة من الحبال تحمل ١٨ قادوسا من الطين ( الفخار ) دائرية الشكل ، يبعد كل واحد عن الآخر بـ ٥٠ سم ، وهذه القواويس تحمل المياه الى أعلى الدولا ب

بارتفاع يبلغ ٣٢٠ سم فوق مستوى سطح النهر ، ثم تصبه فى حوض ،  
تمضى منه الى الاراضى المراد ريها عن طريق مسطرة صغيرة .

ويبلغ محيط الطريق ( المدار ) الذى تدور فوقه الثيران ١٨ مترا  
و٨٦ سم ، وتدور الثيران ١٥٠ دورة فى الساعة الواحدة . وبشكل  
متواصل يعمل ثوران لمدة ثلاث ساعات ، وفى نهاية هذه المدة يستبدل  
بهما غيرهما ليعملا ثلاث ساعات أخرى ، وهكذا يعمل بالساقية اربعة  
ثيران ، يبلغ اجمالى المدة التى يعمل خلالها كل اثنين منهم ست ساعات  
فى اليوم الواحد ، اى أن الدولاب يعمل لمدة ١٢ ساعة يدور خلالها ١٨٠٠  
دورة ، وحيث تبلغ الاسنان الخشبية للمدار الأفقى ( القنفذ ) ٥٦ سنة،  
حيث تبلغ اسنان الدولاب الراسى الصغير ٣٦ سنة فقط فان الدولاب الاخير  
يقوم بدورة كاملة و  $\frac{1}{9}$  الدورة كلها اكمل القنفذ الأفقى دورة واحدة ،  
وهكذا فان الدولاب الراسى الصغير يكمل ٢٨٠٠ دورة فى مقابل ١٨٠٠  
دورة التى يدورها القنفذ فى اليوم (١٢ ساعة) . وحيث يبلغ قطر الدولاب  
الذى يحمل القواديس ٢٤٠ سم ويبلغ محيطه ٧٥٤ سم فى حين أن محيط  
الحزام الحامل للقواديس ٩ أمتار فان عدد دورات الأخير يكون عكس محيطه .  
اى أن حبل القواديس يعمل  $\frac{1}{9}$  ٨٣٧ دورة كلما قام الدولاب بـ ١٠٠٠  
دورة : وقد سبق أن رأينا أن الدولاب الراسى الصغير . يقوم بـ ٢٨٠٠  
دورة فى اليوم ولهذا فان الحزام الحامل للقواديس يتم ٢٣٤٦ دورة خلال  
نفس المدة . ويبلغ قطر القادوس حوالى ١٦ سم بعق يبلغ ٢٦ سم،  
وهكذا تبلغ سعته  $\frac{1}{3}$  من المتر المكعب ( اى ٥٠٠٠ سم<sup>٣</sup> ) مما يبلغ  
بسعة الـ ١٨ قادوسا الى  $\frac{1}{9}$  من المتر المكعب ( اى ٩٠٠٠ سم<sup>٣</sup> )  
فى كل دورة ، اى ٢١١ مترا مكعبا و ١٤ سم<sup>٣</sup> من المياه خلال ١٢  
ساعة من عمق يبلغ ٣٢٠ سم .

واذا أردنا أن نعقد مقارنة بين الدلو والدولاب ذى القواديس حسب  
التجارب التى انتهت من ذكرها فسفرى اذا اخذنا الدلاء أساسا ، أن  
العامل الذى رفع بواسطة الدلو ٦٤ سلة مليئة بالمياه خلال ٦ دقائق  
على ارتفاع يبلغ ٢٣٠ سم لم يكن ليرفع سوى ٤٦ سلة على ارتفاع ٣٢٠  
سم وخلال نفس المدة . وحيث أن سعة السلة تبلغ  $\frac{1}{9}$  من المتر المكعب  
( ١٠٠٠ سم<sup>٣</sup> ) ، فان بمقدور هذا العامل أن يرفع  $\frac{1}{9}$  ٦٠ من  
الأمطار المكعبة فى الساعة الواحدة ، اى : ٥٥ سم<sup>٣</sup> و ٢٠ سم<sup>٣</sup> من المياه

خلال ١٢ ساعة . وهكذا فلن انتاج الدلو بالنسبة لانتاج الدولاب ذى القواويس بالأرقام ٥٥٢٠ الى ٢١١١٤ ، وعلى هذا النحو يمكن ان نضع اربعة دلاء فى مقابل دولاب واحد لكن الموهلة القصوى فى استخدام الماكينة الاولى بالاضافة الى سهولة انشائها ونقلها والحصول عليها فى كل مكان ، تجعلنا نفضل استخدام الدلو ، الذى نراه منتشرا على ضفاف النيل وترع الرى ، فى كل انحاء مصر .

وفى هذا الوصف الهيدروليكى الذى انتهيت من تقديمه لولاية بنى سويف ، لم نر شيئا على الاطلاق يمكننا من ان نزن ان بحيرة مورييس وملحقاتها تستطيع ان تجد لنفسها مكانا ، فى هذه الولاية ، والآن ، سندخل الى ولاية الفيوم ، وهناك سنرى كل الصعوبات قد اختفت دون جهد ودون عوائق ، وسوف نعرف فى النهاية ، ان التفاصيل التى قدمها القدماء ، تنطبق تمام الاتطابق على هذه الولاية ، حتى انها لتغرينا على الدوام ، وفى كل خطوة ، ان نطلق على الأماكن الحالية، نفس الاسماء القديمة ، التى وصلتنا عنها .

## القسم الثانى

### ولاية الفيوم

على الرغم من أن الأبحاث التى أخذت على عاتقها القيام بها فى الفيوم ، كانت هى الهدف الأساسى من وراء رحلتى الى هذه المناطق ، فأننى لم أتمكن من النفاذ الى هناك الا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العام التاسع ( نهاية ديسمبر ١٨٠٠ ) ، ذلك أننى وجدت نفسى ، بعد أن انشغلت فى بداية رحلتى برسم خريطة مساحة لبنى سويف التى كان على أن الحق بها خريطة لولاية الفيوم ، غير قادر على القيام بالذهاب الى هذه المناطق ، وبأية وسيلة ، بسبب فيضان للنهر غير عادى ، أوقف كل أعمالى لأكثر من ثلاثة شهور . كان فيض بحر يوسف قد أوقف بشكل تام ، الاتصال بين بنى سويف والفيوم ، وتتسبب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصيبها ، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقاً فى اغتنام هذه الفرصة كى يأتوا لينتهبوا السكان . وقد حدث ذلك خلال الفترة التى تحدثت عنها ، وحين قام قائد بنى سويف بانفاذ قوات النجدة التى أرسلها الى المدينة (※) ، فقد اختفى العربان ، الذين تلقوا تحذيراً بالأمر فى الوقت المناسب ، ومعهم أسلابهم ، قبل أن تصل الفرق الفرنسية . وقد يكون من الضرورى للغاية ، كما سبق أن أوضحت رأى ، أن ينشأ طريق من بنى سويف الى قريتى هواره (※※) واللاهون ، اللتين تقعان عند مدخل الفيوم .

وقد رحلت أخيراً فى الثالث من نيفوز من العام التاسع ( ٢٤ )

(※) يقول الأستاذ مجهد رمزى فى قاموسه الجغرافى : « وذكر صاحب كتاب الفيوم وبلاده ، أن اسمها المدينة ، وهو اسم يطلق فى الفيوم على مدينة الفيوم تمييزاً لها عن الإقليم المسمى باسمها » ، ومنذ الآن سنشير إليها فى الترجمة العربية باسم مدينة الفيوم فى حين يعنى الفيوم الإقليم بأكمله . [المترجم] .

(※※) هناك أكثر من قرية تحمل هذا الاسم ، ولعله يقصد هواره عدلان ، حيث يفكر القاموس الجغرافى للبلدان المصرية ، للأستاذ محمد رمزى عن هذه القرية أنها « من القرى القديمة ، وكانت تسمى قديماً دموه اللاهون لأنها واقعة بجوار قناطر اللاهون » . [المترجم]

ديسمبر ١٨٠٠) مع رفيقى : المسيو كلريستى Caristie : وذهبنا لننام فى هواره الكبيرة وهى قرية كبيرة تقع على الشط الايسر لبحر يوسف عند الفتحة التى يأخذ منها هذا الفرع من النيل مياهه، وقبلنا على الشط الايمن ، راينا قرية اللاهون الصغيرة ، ويتم الاتصال بين هاتين القريتين عن طرق قنطرة مبنية بالحجارة ، وتتكون من ثلاثة اقواس ، تبلغ فتحه كل منها ، فيما بين قوائها التحتية المستقيمة ، ٢٨٠ سم ، ولا تهدف هذه القنطرة الى مجرد تحقيق الاتصال بين هاتين القريتين ، لان كلا من هذه الامواس الثلاثة ينتهى بقناة تستخدم فى تنظيم كمية المياه التى ينبغى أن تحصل عليها ولاية الفيوم . بحيث لا تسيل المياه اليها ، اثناء الفيضانات الضعيفة بوفرة أكثر مما ينبغى ، اما فى حالة الفيضانات العالية ، فتفتح امام المياه فتحة أكثر اتساعا وتتخلص منها بذلك ارض مصر ، التى قد يصبح مكث المياه فوقها ، لمدة اطول من اللازم ، مجحضا وضارا .

وعند الحاجز الشرقى راينا اثرا لثلاثة احجار منتزعة اكد لى الملوك كاشف سليمان ، الذى كان يرافقنا ، انه قد رأى عليها كتابات عربية تبين أن هذه القنطرة قد شيدها السلطان سليمان بن محمد ، فى القرن السادس الهجرى ، ومما تجدر ملاحظته أن هذه الفترة هى نفس فترة حكم الاسرة الفاطمية ، التى أصبحت مصر من جديد تحت سيطرتها، مملكة مستقلة (كذا ! ) ، وفى هذه الفترة كان السلاطين الحاكمون ، نتيجة لذلك ، يعملون لصالح مصر ، ولتحقيق منافعها الخاصة .

وفىما بين قنطرة وقرية اللاهون ثمة قنطرة تحتجز المياه التى تجلبها ترعة بنى عدى الكبرى ، والتى تمضى بعد سقوطها ، عن طريق قناة المعصرة ، فى ذلك المنخفض الواقع عند سفح جبل أبى صير ، لتروى بعض الاراضى حول ترعة اللاهون ، ثم تذهب بعد ذلك ، من طريق بحر يوسف الى الترعة التى تصل إلى طابية .

وتشيع بين أهالى الفيوم فكرة متواترة عن الحالة القديمة لهذه الولاية ، اعتقد ان ليس خروجا على الموضوع ان نوردها ، وقد علمت هذه الفكرة عن طريق رجلين وجدت فيهما درجة عالية من الذكاء ،

بالنسبة لمواطنيها ، أحدهما هو سيد أحمد الشيخ الأكبر لمدينة الفيوم ، أما الآخر فهو الملوك الكاشف سليمان ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، والذى كان يقطن الفيوم منذ مدة طويلة . وقد أكد لى هذان الرجلان ، أن ولاية الفيوم تبعا للحكايات الماثورة ، والمتواترة من زمن الى آخر ، لم تكن قبل عهد يوسف بن يعقوب ، الذى يعودون به الى عصر ضارب فى القدم ، سوى بحر واسع ، جاءت مياهه عن طريق النيل ، وان يوسف قد امر ببناء جسر فى اللاهون كى لا يتسحق المزيد من المياه الى هذا الخليج ، وان المياه التى بقيت قد انصرفت الى البحر ، مما ادى لحدوث عملية جفاف كبير للأراضى ، وعندما بلغ ارتفاع المياه ( فى هذا الخليج ) الى مستوى السرى الذى تجرى فيه ، ظلت المياه الزائدة فى المناطق الوطنية ، وكونت بركة قارون وبركة الفرق اللتين أصبحتا مستودعين لمياه الاقليم ، وبدأ يقل ارتفاع مياههما بقمل البحر .

ان هذا الراى ، الذى يبدو بشكل واضح ، فوق مستوى المصريين الحديثين لحد كبير ، لا يمكن ان يكون نتيجة لخيالهم ، لكنه يحمل ملحما من رواية ماثورة قديمة ، ولعلنا لو تفحصناه عن قرب لوجدنا فيه تفسيراً لهذا الاتساع الكبير للغاية والذى اعطاه الأقدمون لبحيرة موريى ، وكذلك على وجه الخصوص ، لتلك المنافع التى يقولون ان المصريين كانوا يحصلون عليها من هذه البحيرة ، حين كانوا يستخدمونها ، المرة بعد المرة بمثابة وعاء وحوض وخزان . وتتفق هذه الرواية مع مآشاهدته حول بحيرة قارون ، كما ان النتائج التى سوف أحصل عليها ، سوف تفضى كذلك الى نفس معطيات هذه الرواية ، وربما بمزيد من الدعم ،

وعندما نجتاز الفتحة التى يتركها الجبل بين هواره وبين اللاهون نرى سهلا واسعا يشكل ولاية الفيوم ، وليس لهذا السهل من مستوى واحد ، وانما هو يشكل تكوينين ينحدران على نحو خفيف ، يتجه أحدهما الى الشمال ، ويتجه الثانى الى الجنوب ، وفوق الخط الفاصل بين هذين المنحدرين توجد ترعة تبدأ من قنطرة هواره ، لتمر بعد ذلك بمدينة الفيوم ثم تعبر المدينة وتنقسم عند الطرف الغربى الى ثسع قنوات صغيرة ، تمضين حاملات للمياه لأراضى القرى المختلفة ، وتحدد فتحة المياه الخاصة بكل واحدة من هذه القنوات بواسطة قنطرة روعى ان

يكون مستواها أعلى من مستوى سطح الاراضى التى تمر بها وأعلى كذلك من منسوب الأرض التى ستروىها .

وتسمى أول هذه القنوات ، أى تلك التى توجد الى أقصى الشرق ، بحر نقاليقة ، وتمر بقريتي نقاليقة ، وسيطة .

أما الثانية فتحمل اسم سينهور وتصل الى قرية تحمل هذا الاسم . ويطلق على الثالثة اسم سينيرو وتتجه الى قرية فيديبين .

وتعبر الرابعة قرى العجيين ، أبشواى ، أبو جنشو ، أبو كساه . وتسمى الخامسة ترعة ثلاث . وتذهب الى قرية تسمى بهذا الاسم . وتمر السادسة بقرية السنباط .

وتحمل السابعة اسم بحر دسيا ، وتنقل المياه الى أراضى قرى : دسيا ، جردو ، طهار ، المناشى ( مناشى الخطيب حاليا ) .

وتروى الثامنة أراضى : موتود ، وريد ، أبو دلشى (\*) .

وأخيرا فان القناة التاسعة التى تبدأ من احد أقواس منطرة جامع الحاج حسن ، تروى أراضى قرية الزاوية .

ومن جهة ثانية ، فثمة ترع أخرى عند الطرف الشرقى للمدينة ، تحصل على مياهها ، شأنها فى ذلك شأن الترع التى انتهينا من ذكرها ، من القناطر والخزانات : وتتجه اولى هذه الترع — وهى تقع قريبا من باب النويرة — الى قرية ترسا وذلك بعد ان تدور حول خرائب أرسنويه .

أما الترعة الثانية وهى تحمل اسم بحر سنورس فتتمر بقرى : الكملبى ، بيهمو ، خنفشة ، أبويط ...

وتحمل الترعة الثالثة والأخيرة اسم بحر المعصرة وتروى قرى الزربى ، كمر فزارة ، منشأة الأمير ، سرسنا ، أنترتارس (\*\*) .

(\*) لم أتمكن من التحقق من صحة هذه الاسماء .

[ المترجم ] .

(\*\*) لم أجد فى القاموس الجغرافى قرية بهذا الاسم ويحتمل أن تكون هى قرية مطرطارس . ( المترجم )



وكما سبق لى أن ذكرت ، فمن الملاحظ أن القرعة التى تنقل المياه من هواره الى مدينة الفيوم ، والتى تحمل طيلة هذه المسافة اسم بحر يوسف ، هى أكثر ارتفاعا عن ارض الولاية ، كما أن مجراها ذو قاع صخرى فى كل المناطق الجبلية التى تخترقها هذه القرعة .

ونجد على بعد حوالى ثمانمائة ألف متر من جسر هواره الكبير ، على الشاطئ الأيمن قرية هواره الصغير ، التى شيد بالقرب منها ، وبكثير من الحلق جدار لتقوية الشاطئ ، يشكل خزاناً صغيراً ويصنع فى الوقت نفسه مسقط مياه يبلغ حوالى سبعة أمتار .

وحين تملأ المياه فى بحر يوسف ، فوق هذا الخزان . فانها تسقط فى رشاح واسع ، لتمضى من ثم الى طابية ، ومن هناك الى بركة قارون ، بل ان هذا الخزان ، غيباً يبدو ، لم يكن كائناً على الدوام لاستيعاب الزيادة الشديدة فى المياه ، حيث نرى أبعد من ذلك بثلاثة آلاف متر ، خزاناً آخر يصب المياه كذلك من جديد داخل الرشاح الذى سبقت الإشارة اليه عن طريق قناة صغيرة تفضى بها الى هناك .

وتشكل تفاصيل هذا الشط الأيمن لبحر يوسف ، ابتداء من اللاهون حتى هذا الخزان الثانى أهمية تصوى ؛ فبالقرب من قرية اللاهون نقابل أول هرم ، قاعدته من الحجر الجيرى ، أما بقيته فمن القرميد ، ثم نرى أبعد من ذلك بثمانية آلاف متر هرماً آخر من القرميد من نفس نوع الهرم الأول ، ثم عند سفحه قناة صغيرة تنبع من بحر يوسف قبل الخزان الأول الذى سبق أن تحدثت عنه . وتتجه هذه القناة الى طابية باتجاه مواز لاتجاه الرشاح الكبير ، الذى يظل جانبا طول السنة تقريبا ، اذ هو لا يتلقى الا المياه الزائدة عن حلبة الولاية ، ويطلق عليه لهذا السبب اسم بحر بلا ماء ( أو التهر الفارغ ) .

وتغطى الأرض حول هذا الهرم الثانى اكوام من الأحجار الجيرية وانقاض منشآت تدل بوضوح على المكان الذى كان ينهض فيه قصر اللابرنث الشهير ، الذى كان مقرا لاثنى عشر ملكا ، والذى يتفق معظم المؤرخين فى أن يضعوه الى الجنوب قليلا من بحيرة مورييس ، غير بعيد عن كروكوديلوبوليس Crocodilopolis ( أى مدينة التمساح ) وفى الواقع ، فاننا ما نزال نرى هناك بقية من حجرة ، لكنها مطبوسة

تماما ، بالإضافة الى قطع من الأعمدة المصنوعة من الجرانيت الصوانى ،  
متطوعة على النحو الذى قطعت به أعمدة معابد مصر العليا ، على شكل  
حزمة من النباتات البصيلية لقباب مصرية ضخمة من الجرانيت كذلك ، ويؤكد  
بلين Plin أن اللابرنث هو الوحيد من بين كل آثار مصر العليا الذى  
وضعت فيه أعمدة شكلت على هذا النحو .

وقد انتقلت الى هذا المكان ، فى العاشر من نيفوز من العام  
التاسع ( ٣١ ديسمبر ١٨٠٠ ) ، وقد ربطت ببعض العمليات المثلثية هرم  
اللاهون بهذا الهرم الثانى ، الذى أسميته هرم اللابرنث ، وكذلك بمنذنة  
جامع الروبى الواقع الى أقصى الغرب من مدينة الفيوم ، وبهذه الطريقة ،  
استتبعت خطى طول وعرض هذه المدينة — ولم يكن المسيو نوية Nouet  
قد دونهما ، وقد وجدت أن خط عرضها هو ٢٨ ، ٤٨ ، ٢٩ شمالا ،  
فى حين أنها تقع على خط طول ٩ ، ٤١ ، ٢٨ الى الشرق بالنسبة لخط  
زوال باريس .

وقد تبين لى أن طول الخط الواصل بين الهرمين يبلغ ٨١١٦ مترا  
و ٧/١٠٠ من الأمتار ، وأنه يشكل مع خط الزوال المغناطيسى زاوية  
مقدارها ١٠ ، ٤٩ الى الغرب .

وقاعدة هرم اللابرنث مربعة الشكل ، ويبلغ طول كل ضلع من  
اضلاعها ١١٠ من الأمتار . ومع ذلك فمن الواضح أن كانت ثمة تكسية  
لجدرانها لم نستطع تقدير سمكها ، ويرى المرء قبيل زاويته الشرقية فتحة  
مبنية ، وهى واسعة مستديرة تنتهى الى مرر تحت الأرض ويتجه نحو الجزء  
السفلى من الهرم ، ولقد نزلت من هذه الفتحة كى اتوغل فى هذا المر  
تحت الأرض ، لكن سرعان ما أوقفتنى هناك كومة من الانقاض يفص بها  
المر . ويحتوى قاع هذه الفتحة على مياه تبين أنها شديدة الملوحة .  
ويجد المرء اذا ما نزل عند نحو منتصف الرشاح ، تجاه هرم اللابرنث ،  
بقايا حائط كبير من الحجارة ، وقد استخلصت من ذلك أن هذا الحائط  
قد كان فيما مضى جسرا يحتجز المياه التى كانت تتسرب من أعلى الخزانات  
التي كانت مقامة على التربة الكيرة .

وليست للشط الأيسر لبحر يوسف نفس الاهمية التى للشط الأيمن

وتشهد فتوءات الصخر المتناثرة عليه ، والتي تشكل زوائد جبلية ( اى مقدمات لظهور الجبل ) بأن هذا الشط لم يكن عامرا من قبل قط ! وان كنا مع ذلك نجد عليه اليوم قرية دمشق التي ترتبط اراضى ومصالح اهاليها مع تلك باراضى ومصالح قرية هواره الكبيرة حيث تتجاور هذه مع تلك . بل انك لا تستطيع المضى فوق هذا الشط اذا كنت تبغى الوصول الى قرية الحصاة التي تحدها بعد ان تجتاز الخزان الثانى بقليل ، والذي يقع بدوره على الشط الايمن وقد سبق ان تحدثت عنه ، وبالقرب من قرية الحصاة هذه ، الى الشرق منها وإلى الغرب يتم تخزين مياه بحر يوسف ، عن طريق ترعتين ، فوق منطقة تنحدر الى الجنوب وهكذا تروى القرى التي تنتشر بين بحر يوسف وبحيرة الفرق .

ويشكل سطح هذه المنطقة فيما يبدو ، الى جانب انحداره نحو الجنوب ، منحدرًا هائلًا نحو الغرب ليبلغ قمة بحيرة قارون . ويشق هذا المنحدر خور واسع يحمل اسم بحر الوادى . وقد شيد عليه سد ضخيم رائع يحد من تدفق مياهه فوق هذا المنحدر . ويختلف هذا السد اختلافاً بينا عن امثاله من السدود التي تراها فى وادى مصر ، فهو مبنى من الأحجار والقرميد ، وتدعمه اكتاف سميكة متعددة ، وتمتاز بمناطة لا تهبطها عادة الا مراعاة قواعد فن البناء وبيئته . هذا الجسر عند قرية دفتو وينتهى عند قناة صغيرة تشكل حدود الاراضى المزروعة ( فى هذه المناطق ) ، ويبلغ طول هذا الجسر حوالى ٨٥٠٠ متر .

ولا يستطيع المرء ان يكتم دهشته البالغة حين يرى عملا بهذه الضخامة لخدمة مثل هذه المنطقة الصغيرة من الأرض والتي تنحصر بين بحيرة الفرق وبين الجبال التي تنصل الفيوم عن مصر وبحر يوسف والسد ، فى حين أن هناك مناطق شاسعة للغاية من الأرض ، ولكنها مهملة فى وادى مصر كلية ، اذا ما صرفنا النظر من بعض المصاريف الزهيدة التي تنفق على الجسور والترع التي تغذى أو تحمى هذه الاراضى . وهناك ما يدفعنى على الاعتقاد بأن المنشأة التي تحدثت عنها ، مثلها فى ذلك مثل قنطرة هواره ، هى من عمل واحد من سلاطين ( الخلفاء ) الفاطميين القدماء .

كان هدفى ان اجتاز كل منطقة البحر بلا ماء لكى ابلغ طامية وبركة

قارون وقد كنت أوشك أن أبدأ عمل مسح لها لكن الظروف التي صاحبت بعض التحركات العسكرية للفرقة العسكرية في الإقليم ، قد هزمتني من الجنود الذين وضعوا تحت امرتي . وقد كنت شديد الحاجة إليهم لانهم عمليتي . لذلك فقد اضطررت ، أسفا ، أن أعود ادراجي الى مدينة الفيوم — حيث انخفضت على الفور استعداداتي لبدء جولتي حول بركة قارون ، وهي الجولة التي كنت أرغب في القيام بها منذ وقت طويل ، كما قد انتهزت بعض الفراغ الذي هياه لي ببطء الاستعدادات كي أزور موقع كركوديلوبوليس ( اى مدينة التمساح ) القديمة والتي تحول اسمها في عهد البطلمية الى أرسينوييه .

حين يخرج المرء من مدينة الفيوم عن طريق القنطرة الواقعة تجاه جامع الروبي ، فانه يجتاز ، بينما هو يتوجه الى الشمال ، فراغا كبيرا تتناثر فيه مقابر المسلمين ، ليجد بعدها باتجاه يمتد من الجنوب الى الشمال عديدا من المرتفعات التي تكونت من انقاض من الأحجار الجيرية والطوب والفخار مبشرة هنا وهناك لمسافة تبلغ حوالى ٣٥٠٠ متر نحو الشمال ، و ٢٥٠٠ متر من الشرق الى الغرب . وقد عبرنا ، المسيو كاريسى Caristi وأنا ، وزرنا ونقينا في كل واحد من هذه المرتفعات كي نعرف فيها على أثر لبعض المنشآت ، لكننا لم نجد سوى انقاض شالمة لم نستطع أن نتوصل منها الى نتيجة سوى أنها تنبئ بسبب اتساعها وضخامة حجمها عن موقع مدينة ( قديمة ) ، وحيث لا توجد انقاض اخرى بهذه الضخامة في كل الإقليم ، فقد استنتجنا أن هذه المدينة هي كروكو ديلوبوليس التي سميت فيما بعد : أرسينوييه .

وسرعان ما تأكدت لنا هذه الظنون ، فقد وجدنا بفضل بعض العمليات المثلية ( اى باستخدام مبادئ حساب المثلثات ) التي قمنا بها على هذه المرتفعات أن المسافة التي تفصل بينها وبين هرم اللابرنت تبلغ ١٨/١٠٠ ٨٧.٢ منها ١٢٥٠ مترا تمتد حتى منتصف الخرائب . ويقول سترابون بطريقة موضوعية أن المسافة فيما بين أرسينوييه وهذا الهرم ، تبلغ ١٠٠ غلوة ، أما دانفيل فيرى أن من المحتم أن نطرح من أطوال هذه الأبعاد مقدار الثمن ( في مقابل التمرجات ) لكي تتفق مع الخطوط المستقيمة ، وتبعا لحساب الأميال الرومانية ، التي يضع دانفيل كل أربعة منها مساوية لشونة مصرية واحدة ، وبذلك يبلغ طول الشونة المصرية

٣.٢٤ قامة ، فان طول الخطوة يساوى ٥. قامة ، و٦ بوصات أو ١٨٢١/١٠٠ مترا ، وبذا فان كل ٦٠ غلوة تساوى شونة واحدة . وهكذا فان المائة غلوة تساوى ٥.٤٠ قامة ، وقديما واحدا ، وثمانى بوصات ، أو ١٨٢٦ مترا ، يحصم منها الثمن فيتبقى ٨٥٨٩ متر ، وهو ما يتفق لحد كبير مع المسافة التى توصلنا اليها باستخدام أساليب المساحة وحساب المثلثات .

سبق أن عرفنا فى مدينة الفيوم ، أن كانت توجد أطلال هامة الى الغرب من هذه المدينة ، وقد انتقلنا الى هناك ، لكننا لم نجد سوى منطقة يطلق عليها اسم العمود ، شاهدنا بها مسلة واحدة من الجرائيت على بعد حوالى ١٠٠٠ متر من قرية أبجيج وحوالى ٤٠٠٠ متر من مدينة الفيوم نفسها ، وقد أخذ المسيو كاريستى على عاتقه أن يقدم الرسوم وبعض التفاصيل الخاصة بهذه المسلة .

وما أن انتهت الاستعدادات لرحلتى حول بركة قارون حتى تمكنت من بدء طريق كى اتم هذه الجولة الاستطلاعية . كنت قد استطعت مبدئيا رأى كل من الشيخ أحمد وسليمان كاشف حول هذه الرحلة ، وكنت أخبرتهما بأننى — وقد علمت المصاعب التى سوف الاقياها مع جنودى الفرنسيين ، وهى المصاعب التى يعانى منها أى انسان يقيم فى الصحراء لأيام كثيرة — قد عزمت على أن أصحب معى بعض العربان ، وقد سمعيا كلاهما كى يثنيانى عن عزمى ، مؤكدين لى أن كل القبائل التى تجوب هذه البقاع تتحارب ، وأننى لا أستطيع أن أضع ثقتى فى أى منها دون أن اجازف بمخاطر كثيرة ، وقد اكد لى صحة ذلك شيخ العرب الذى تعهد بأن يصحبنى مع ثلاثين من اتباعه لو أننى اصطحبت معى عددا مماثلا من الجنود الفرنسيين ، هنا طلبت ثلاثين جنديا من الكولونيل ابلير Eppler قائد الولاية ، لكنه أجاب بأنه يرحب بأن يضع تحت امرتى أى عدد اطلبه من الجنود لاجتياز القرى والأراضى المزروعة ، لكنه لن يجازف ويمطينى جنعبا واحدا لمثل تلك الرحلة التى عزمت على القيام بها .

لكن الرغبة المتأججة التى كانت تدفعنى للقيام بهذه الجولة الاستطلاعية ، جعلتنى احادث من جديد شيخ العربان ، وانضم الكولونيل ابلير لدخس الاعتراضات المعيدة ، والتى تتولد بلا انقطاع ، والتى يقيمها

ردا على كل اقتراح لنا ، ومع ذلك فقد اتفقنا فى النهاية بان يصحبني ،  
ومعه ثلاثون من اتباعه من راكبي الخيول .

كان هذا العربى ، واسمه على ، شابا لما يتجاوز الثلاثين من  
عمره ، وهو ابن صالح ، الشيخ الاكبر لقبيلة السمالو ، التى اتخذت  
لنفسها مقر اقامة ثابت ، فى قرية مبنية تقع على شط بحر الوادى .

ويطلق اسم السمالو على هذا التجمع العام للقبائل التى تحيط  
بأقليم الفيوم ، وكان لصالح هذا ثلاثة أبناء وابن أخ واحد ، يتولى كل  
منهم زعامة قسم من اقسام القبيلة ، وكان اولهم ، وهو الشيخ على يقيم  
فى مدينة الفيوم ، أما الثانى ، جروبة فكان قريبا منه فى المنيا ، أما الثالث  
فهو عثمان ، ويسكن أبو جندير ، وبالقرب منه يقيم بعض أبناء له آخرين انجبهم  
من امائة ، وكان هؤلاء زينة وبهجة شيخوخته ، أما ابن أخيه ، على أبو بكر  
، فكان يشغل النزلة ، وسوف لقدم فى نهاية هذه المذكرة جدولا مفصلا  
بكل القبائل الخاصة بولاية الفيوم وكذلك بقبائل بنى سويف .

والسمالو ، هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر اقامة  
ثابت فى الفيوم ، وهم يقيمون هناك منذ زمان ضارب فى القدم كما انهم  
قوم ذوو بأس شديد لكنهم على الدوام فى حالة حرب مع القبائل الغربية  
التي تاتى لتشن غاراتها داخل الاقليم ، ونقصد هنا عرب الضعفا ، من بنى  
سويف ، والذين يدخلون عن طريق قرى طامية انقضت وابويط حيث  
يتخذونها مقر اقامة لهم ما ان تصل الى اراضيها مياه الفيضان ، كما ينطبق  
الحال على عرب الفرغان الذين يسكنون صحراوات الاسكندرية والبحيرة ،  
اولئك الذين يتجمعون فى الفيوم بعد مجيئهم عن طريق قصر قارون كى  
يشنوا غاراتهم العديدة التى يسلبون خلالها قرى السمالو .

وهكذا ، لم تكن مخاوف الشيخ على لتنهض على غير اساس ، ومع  
ذلك فقد اعتقدت باننا ملاننا قد هزمناهم مرة ، فاننا الان بمنأى عن  
الأخطار ، ولم أعد أفكر الا فى مشروع رحلتى .

وضعت البرنس على ظهرى ، وغطيت راسى بطربوش يعممه  
شال ، هكذا رحلت ، فرنسيا وحيدا ، يحوطه ثلاثون بدويا تسلحوا بشكل

جيد ، وعرفوا ، كما أخبروني ، كيف لا يمكنوا أحدا من أن يلحق بهم العار أو الفزع ، وحيث أراد الشيخ — دون شك — أن يعطيني فكرة طيبة عن قبيلته ، فقد بدأ يظهر ضروبا من شجاعة فياضة لم أكن أعدها فيه حتى هذه اللحظة ، وانتقلت هذه الشجاعة دون مشقة الى تابعيه .

غادرنا مدينة الفيوم في السادس عشر من نيفوز من العام التاسع ( ٦ يناير ١٨٠١ ) في منتصف النهار تماما ، وواصلنا طريقنا باتجاه الشمال بدقة بين عدة ترع ، وكانت تقع على شمالنا ترعة ، شاهدت على شاطئها خزاناً مبنياً ، وسرعان ما مررنا بالقرب من قرية الأعلام التي كانت تقع يمينا ، ودخلنا في دغل يغمره الضوء ، ويغص بأشجار النخيل ، ووصلنا بعد ذلك الى قرية الكعابي الجديدة ، وكان أقصر الطرق بالنسبة لنا أن نسير باتجاه شمال الشرق نحو المعصرة وطامية ، ولكننا عندما قيل انه يوجد بالقرب من هنا مبنى سبق أن تحدث عنه بوكوك Pockocke ، يعرف باسم أقدام فرعون ، فقد واصلنا طريقنا الى الشمال مجتازين التربة التي تهر بقرية الكعابي ، فوصلنا الى سهل رملي واسع تقع به قرية بيهو ، حيث يعلو بالقرب منها أقدام فرعون المزعومة : وليست هذه الأقدام سوى كتلتين كبيرتين ، تتكونان من أحجار جيرية ضخمة ، ويبلغ طول كل منهما حوالي ستة أمتار بعرض يبلغ مترا واحدا وثلاثين سنتيمترا ، كما يبلغ ارتفاعهما نحو المتر وهما مثبتتان ، كلتاهما ، بدون أسمنت أو مونة من أي نوع ، وتبعد كل منهما عن الأخرى بحوالي ١٢٠ مترا ، كما انهما محاطتان بكل صغيرة شكلت بنفس الطريقة .

وقد شاهدنا بالمثل أحجاراً ضخمة متناثرة ، مما يدل على أن هاتين الكتلتين كانتا فيما مضى أكثر ارتفاعاً مما نراها عليه الآن ، اذ هي لا تبلغ الآن أكثر من عشرة أرهاصات ( مدمكات ) ، ويقدر ارتفاعهما معا بعشرة أمتار ، أما سطحهما الداخلي فمربع يبلغ طول ضلعه حوالي ثمانية أمتار . كنت قد لاحظت أن انحدار الأرض ، الذي بدأ منذ حوالي ٤٠٠ متر الى الجنوب ، قد بدأ يصبح محسوساً بشكل طفيف ، مما قد يحمل على الاعتقاد بأن البحيرة تمتد حتى تبلغ هذه النقطة ، وكانت مسيرتنا قد انتظمت منذ غادرنا مدينة الفيوم ، وكنا نقطع حوالي ٣٣٥٠٠ متر في الساعة ، ومع هذا فلا بد أن الساعة الآن قد بلغت الثانية الا الربع ، ومن هنا ، من خلال هذه الاطلال ، كنت ألمح وسط دغل كبير من اشجار

النخيل ، الى الشمال ، قرية سنورس ، التى وصلنا اليها فى الساعة الثالثة وكنا قد غادرنا اقدام فرعون فى الثانية نهاما .

سنورس قرية كبيرة بعض الشيء ، وهى مبنية فوق مرتفع ، هو اعلى المرتفعات التى شهدتها فى مصر ، ويقدر ارتفاعه بحوالى ٥٠ مترا ، ويحتمل أن كان يشكل فيما مضى واحدة من جزر البحيرة التى يبدأ المراء يرى مياهها بمجرد بلوغه اعلى المرتفع ، ومن جهة اخرى سنورس هى مستودع للأملاح التى تستخرج من البحيرة .

وقد نزلت عند الشيخ الحبشى الذى استقبلنى بمودة بالغة ، واستقرت من القرية الشعر والفول اللازمين للخيول فى الصحراوات ، ثم رحلت فى الساعة الخامسة متوجها نحو الشمال ، واستمرت مسيرتنا نهرا حتى السادسة والنصف بالرغم من أننا فى انقلاب الشتاء ، ووصلنا الى رشاح صغير يسمى البطش ، يجرى من الشرق الى الغرب ، وينقل المياه من طامية حتى بركة قارون ، وتصل المياه الى طامية عن طريق ترعة تادمة من الروضة عن طريق ترعة تمر عند سطح هرم اللابرنث ، وعن طريق رشوحات البحر بلا ماء .

وكان بالإمكان عند النقطة التى وصلنا اليها ، أن نعبى الرشاح لتتسع هنا يبلغ حوالى ثمانية أمتار فى حين لا يزيد عمقه عن ٣٢سم ، بعد أن كنت قد لاحظت أنه كان محفورا على شكل ترعة بعقب يبلغ حوالى عشرة أمتار ، وبتساع يبلغ ثمانين مترا . كنا لانزال على بعد يبلغ مسافة فرسخين الى الغرب من طامية وكانت المياه لما نزل بالغة الجودة ، مما يدل على أنها لم تتأثر مطلقا من قربها من البحيرة . وهناك تزودنا بما نحتاج من المونة والمياه ، وملأنا قربنا بكمية تكفى فترة جولتنا بالصحراء .

أخبرنى الشيخ على أن هذه النقطة هى تلك التى تمر بها القوافل التى تمضى مباشرة من الجيزة الى سنورس . بل أن الفيضان نفسه لا يتسبب فى توقف مسيرة القوافل التى تمضى عندئذ صاعدة الى سيلة .

لاحظت أن الانحدار نحو البحيرة ، ابتداء من سنورس ، كان لايزال محسوسا حتى بيهمو ، وأن سطح الأرض يتبع انحدارا آخر من



الشرق نحو الغرب ، وهذان الاتحادان واضحان تماما ، حتى اننى لم اعد ارى ذروة رشاح البطش في الجنوب الا كحريط عام يلتقى بشكل حاد مع الامق .

كان الظلام تاما حين انتهينا من ملء قربنا ، فمن المعروف ان مدة الفسق في هذا المناخ اقل بكثير من المدة التي يمكنها الفسق في اوربا ، لذا فقد عزمنا على ان نمضى ليلتنا في هذا المكان ، وذهبنا لكي نقيم خيامنا على قمة الشط الشمالى ، على مسافة تبلغ مسيرة نصف ساعة الى الغرب من النقطة التي عبرنا عندها رشاح البطش .

منذ رحيلنا من مدينة الفيوم ، حذا رغائى في السفر في سلوكهم نحوى حذى الشيخ على في سلوكه اراثى . وكان هذا الرجل لا يفارقتى ابدا . وعلى الرغم من الصعوبة التي كنت أستشعرها في التعبير عن نفسى وانكارى بلغته ، فانه لم يكن يحادث سوى . كلن ينص على بقصد تسليتي وارضائى دون ريب ، حكايات كنت اجد - وهذا اعتراف منى - مشقة كبيرة في تتبع تسلسلها ، وان كانت تشتت انتباهى لدرجة اكبر مما كنت اود ، اذ كنت غارقا تماما في ملاحظاتي ، وفي بعض الاحيان كنت الحظ عن بعد ، بينما هو يقص حكايته ، أبرأ يستنفر فضولى فكنت اجرى اليه ، ومع ذلك فقد كان حصانه يتعقب على الفور ، وياتمى سرعة آثار حصانى ، وكذلك فقد كان العربيان ، كى يدخلوا البهجة على نفسى يتصنعون فيما بينهم معارك ومبارزات ، وذلك بأن يجروا على التوالى ، فريقا في اثر فريق ، ثم يأتى احد الفريقين القريب منى لينشدنى اغنيات البطولة الخاصة بقبيلته . وكان مظهر السرور الذى ابدية ، هو بمثابة مكافأة اصدقها لهم ، فيعاودون من جديد العالهم التي لم تقلل برغم ذلك من جدية وانتظام مسيرتنا .

ما ان اعطيت اشارة التوقف لاقامة معسكر المبيت حتى نصبت خيمتى وكنت قد اخضرت مرتبتين صغيرتين : احدهما للشيخ على والاخرى لى ، لكننى لم اتجح مطلقا في ان احمله على تقبل المرتبة التي خصصتها له ، بل لقد أستطعت بعناء شديد ان اقنعه على ان ينام داخل خيمتى ، حيث اكفى بحصيرة بسطها فوق الرمال . وخلال بضع دقائق أعددت القهوة ، وقدمت ، وبدات استعدادات العشاء .

وبانتظار ذلك ، أبديت رغبتى فى أن ارى كل رفاتى . فأتوا يقبلون يدى ، وينحنون مصطفىين حول فراشى . وشاء احدهم ، وهو الذى قدمه الى الشيخ على بوصفه منشدا ، أن يعطينى فكرة عن أمجاد وسمو قبيلته ، فقص واحدة من هذه القصص التى تحكى اعظم انجازات السمالو والتى يتداولونها استلهاما للشجاعة ، كان المستمعون فى كل لحظة يطلقون « يا الله » دليلا على الاعجاب والارضاء المنشد ، وعلى الرغم من اننى لم اكن ادرك معنى سوى القليل مما كان يقول ، فاننى لم اكن الاخير فى اظهار سرورى . كانوا جميعا مسرورين . وفى النهاية احضر الدجاج والبيلاف ( طعام شرقى من أرز ولحم وتوابل ) اكلنا بنهم . وبعد الطعام صرف الشيخ على كل رجاله واوتد شعلتين حول خيمتى كى يبعد الضباب — حسبما يقول — وهى التى تتجول هنا وتكرر فى هذه المناطق ، وتشتد كل من الباقين فى برنسه وقضى الليل على مقربة من حمتائه .

فى السابع عشر من نيفوز ( ٧ يناير ) ازلنا خيامنا فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من الصباح ، وكان الاتجاه الرئيسى لطريقنا يتجه من الشرق الى الغرب ، لكننا انعطفنا لحظة الى اليمين نحو الجبل العالى ، تاركين البحيرة عن يسارنا ، على بعد حوالى فرسخ ، وارتفع الانحدار بهدوء وبشكل غير محسوس ليختفى بعد ذلك فى واد واسع يتبسط نحو الشمال ، اخبرنى الشيخ على أنه هو الطريق المؤدى من مدينة الفيوم الى الجيزة ، والى الاسكندرية عن طريق البحر بلا ماء الذى يمر بالقرب من بحيرات النطرون ويتفق مايقول الشيخ على هنا ، مع رأى الجنرال اندريوسى (١) وسوف نرى فيما بعد النتائج التى استنتجتها حول طريقة استغلال البحيرة فيما مضى .

كان العريان شديدي اليقظة ، يجدون فى التعرف فى الرمال التى تغطى هذه الصحراء ، على ما ان كان قد مر من هنا منذ مدة قريبة عريان آخرون وبعد مسيرة نحو الساعة تعرفوا خلال السكبان على آثار

---

(١) انظر ملاحظات حول بحيرة مورييس المدونة فى الاخطار الخامس بالثالث عشر من برومير من العام التاسع .

عربان الضعفا الذين سبق للسماو أن طردوهم من الفيوم قبل ذلك بنحو عشرين يوما كما قيل لى .

وقد وجدنا بين البحيرة والجبل كمية كبيرة من الأشجار التى جفت وهى بعد واقفة ، وهى تشبه منسفة (\*) صغيرة جافة ، ويبدو أن احدا لا يفيد من هذه الغابة الصغيرة فى شىء فى حين أن من المستطاع أن تكون ذات نفع كبير لمدينة الفيوم .

وصلنا فى العاشرة الا الربع الى ضفاف البحيرة وهناك شاهدنا اكميتين كبيرتين تنزل احدهما عن الأخرى ، ويبلغ ارتفاع كل منهما ٥٠ مترا ، ويصل قطر أولاهما وهى مستديرة مائتى متر أما الأخرى فقاعدتها ذات اركان أربعة ، ويبلغ طولها ٥٠٠ متر بعرض يبلغ ثمانين مترا . وهذه الأخيرة هى الأدنى الى البحيرة ، وتغطى كليهما احجار شديدة الصلابة من الحجر الجيرى مقطوعة بشكل خشن ، وقد رأينا هناك كذلك بعض انقاض من القرميد ، لكننا لم نلمح عليها لا نحتا ولا آثارا لمنشآت ، كانت السكتلتان نصف مطموستين فى الرمال ، وتقع احدهما بالنسبة للأخرى فى خط يسير من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى بطول يبلغ حوالى الألف متر . فى هذه المنطقة يبتعد الجبل عن البحيرة بحوالى ثلاثة فراسخ على الأقل ، لكنه يميل بعد ذلك الى الاقتراب منها وتتناثر فى كل هذا الفراغ اكوام صغيرة من الأحجار الحمراء تتكون من نوع من الحجر الطباشيرى يشبه الى حد ما ، مانطلق عليه نحن الحجر الدموى او الطباشير الأحمر Sanguine وقد نزل العربان جميعا من فوق خيولهم واكبوا على جمع هذه الأحجار بهمة شديدة ، وأخبرونى بأن الناس يشترون منهم هذه الأحجار لاستخدامها فى صبغة المنسوجات ولطلاء الأخشاب .

ترجلت عند شاطئ البحيرة التى بدت لى مياهها الرائقة للغاية وكأنها تميل الى الملوحة ، وان كانت هى غير ملحية ، فسقينا منها جميعا خيولنا وتناولنا هناك وجبة خفيفة ، وقد اكد لى العربان أن البحيرة

---

(\*) المنسفة : احراش نبتت اشجارها الصغيرة على ارومات اشجار قديمة مقطوعة .

تحتوى على اسماك بالغة الجبال ولذيذة الطعم وان كان سكان الفيوم لا يصيدونها على الاطلاق ، وان صيادين من وادى النيل هم الذين يلتون الى هناك لهذا الغرض ابتداء من نهاية مارس وحتى ابتداء فيضان النيل . وتزحم البحيرة كذلك بالطيور المائية . وكان عرض البحيرة عند النقطة التى نزلنا عندها يبلغ — فيما يبدو لى — حوالى الفرسخ .

وحين اجتزنا الهضبتين لاحظت ان الأرض ترتفع بطريقة شبيهة فجائية ، وان كان فى شكل مرتقى غير وعر ، ثم يصل المرء بعد ذلك الى هضبة واسعة صخرية السطح ، عارية من الخضرة ، تمضى لتتصل بالجبل الذى يبعد عن النقطة التى نحن عليها بحوالى الفرسخ جهة اليمين، كما يتوغل سطح الهضبة حتى ضفاف البحيرة على بعد ١٠٠ متر جهة الشمال ، وقد راينا فى الفراغ الذى يفصل صخرتى الهضبة طبقت من ارض قابلة للزراعة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال ، كما راينا هناك ايضا بعض آثار للملاحات قديمة .

وقد وجدت فوق هذه الهضبة التى وصلت اليها بعد الظهر بعشر دقائق ، اطلال مدينة ، او ربما اطلال قصر واسع اخبرنى العريان انه يسمى قصر « طفشارة » او مدينة النبرود ، كما رايت هناك حائطاً سميكاً بالغ الارتفاع ، تعرفنا فيه على عدة مباني مختلفة ، تشهد حالها على قدمها ، وقد كنت اود لو استطعت ان ارسم الأسطح التفصيلية لهذه الخرائب ، لكن لم تتيسر لى لا المساعدات اللازمة ولا الوسائل، ولا الوقت اللازم . لذلك فقد اكتفيت برسم كروكى لها يشير اليها على خريطة . وكانت الجدران مبنية بنوع من القريد طوله ٢٠ سم وعرضه ١٠ سم وسمكه ٧ سم ، مصنوع من الجير الأبيض المخلوط بالفتش المهروس مع قليل من الصلصال ثم جفف بعد عجنه بتمريضه لاثسعة الشهور . وهذا الخليط هش للغاية ، ويتحول بسهولة بالغة بين الاصابع الى تراب .

وتتد هذه الخرائب حتى شاطئ البحيرة ، بعرض يبلغ مائتى متر، ويطول يصل الى نحو ستمائة متر ، ويتجه من الشمال الى الجنوب ، وقد شاعدا هناك كمية من القريد المحروق والفخاريات واوانى الموميات . الخ . ونحن نبين لى عجزى السلام عن انشاء خريطة لهذا

المكان بسبب نقص الامكانيات ، ابدت للعربان رغبتى فى ان اقوم بعمل بعض الحفائر ، فبدأوا جميعا البحث ، واحضر لى واحد منهم نصلا مستقيما ذا حدين صنع مقبضه من القرون ، ويبلغ طوله ٩٠ سم وعرضه ٥٠ سم ، ويحمل فى اعلاه ، أسفل المقبضة نقشا عربيا محفورا ، كما انه مطعم بسلك من الفضة ، وقد حملته الى فرنسا ، وان كان سرق منى فى مارسيليا ، فى نفس اللحظة التى كنت اتيهب فيها للرحيل الى باريس .

نزلت من المرتفع الصغير الذى توجد هذه الأطلال فوقه ، وواصلت طريقى قريبا لحد كلف بين شواطئ البحيرة باتجاه غرب الجنوب الغربى . وظلت التربة هى نفس تلك الهضبة الصخرية التى وجدت قبل قصر النمرود . وكان الجبل الواقع عن يمينى على بعد فرسخ صغير من البحيرة يواصل ميله على الدوام نحو الاقتراب منها ، وعند حوالى الثالثة كان طريقنا ، المتوازي على وجه التقريب مع الاتجاه الرئيسى للبحيرة ، يعضى بشكل ثابت نحو الجنوب الغربى ، وفى تلك اللحظة نزلنا فى منخفض ظننته فى البداية خليجا قديما ، لكننى رأيته بعد ذلك يتوغل نحو الجبل مواصلا اتجاهه نحو الغرب . وعند مدخل هذا المنخفض ، على شاطئ البحيرة ، لحت مرتفعا صغيرا على هيئة هرم فذهبت الى هناك على الفور وسرعان ما تبينت أنه ليس سوى صخرة تغطيها اترية تختلط بالرمال وتنمو عليها نباتات كثيفة . . وفى مواجهتها رأيت جزيرة منخفضة السطح وسط البحيرة .

فى كل هذا المنخفض تنثر عدد كبير من الاكمام على شكل قمم ، تغطيها فى معظمها ارض قابلة للزراعة ، وبقياء أحجار جيرية شبيهة بتلك التى سبق أن رأيتها فى الصباح . وهكذا ، فإذا أخذنا بالافتراض المرجح القائل بأن البحيرة كانت تمتد حتى الجبل — وهو افتراض تدعمه الطبقات التى نراها ، والاكمام التى تحدث عنها ، والتى تأكلت بشكل افقى بفعل المياه ، وكذا القواقع التى كانت لاتزال على نفس حالها حين جمعتهما من تحت قدمى — فإن هناك ما يدعو الى الظن بأن كل هذه الاكمام قد كانت بالمثل جزا مأهولة ، أما الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت ، فلا بد أنهما كانا يقعان فوق واحدة من هذه الجزر العديدة ، وان كان قد

يضعب علينا أن نعرف فوق أى واحدة من هذه الجزر كان ينهض هذان الهرمان إذا ما استثنينا الجزيرتين الأوليين اللتين تقعان عند منتصف البحيرة طولا وعرضا ، على افتراض أنها كانت تبدأ عند طامية وتمتد من بينهما حتى الهضبة الليبية ، ذلك أننا إذا استبعدنا هذا الموقع الأوسط الذى يبدو هيرودوت وهو يشير إليه كما لو كان يستند الى شيء ثابت، فسوف نجد عددا كبيرا من الجزر يصلح أى منها لوجود هذين الهرمين تبعا لكمية وأحجام الأحجار الجيرية التى تغطيها .

أما وقد ظللنا نواصل طريقنا على الدوام باتجاه الجنوب الغربى فقد وصلنا فى الساعة الرابعة والدقيقة ٣٥ بعد أن أسرعنا فى السير قليلا ، الى موقع غابة ، تغطيه أشجار جافة تشبه ما كنت شاهده فى الصباح ، بل لقد كان امتداد الغابة الأخيرة يبدو اكبر بكثير . كما كانت جنوب الأشجار تبدو اقوى ، وكان الكثير منها له سمك ذراع الانسان، كما كان سمك البعض الآخر يماثل سمك الفخذ . من هناك كنا نرى باتجاه الغرب قصر قارون . وكان قد خطر ببالي أن اذهب الى هناك لقضاء الليل حين لحق بنا أحد العريان ، أرسله الشيخ صالح ، والد الشيخ على . وكان قد بلغه منذ قليل أن ثمانية من رجاله قد انتهبوا بواسطة جماعة تتكون من ٣٠٠ من فرجان البحيرة ( عرب الفرجان بولاية البحيرة ) . لقد كلف الشيخ صالح هذا العريى بأنه يخبرنا بأنه يلزم حراسنا اليقظة ، كما طلب اليأس بشكل خاص الانفسار على الإطلاق بالدخول فى معركة ، نظرا لقلة عدتنا ، ومع ذلك فقد أخبرنا أن نظل على هدوئنا ( الا نفزع ) وبأنه على صلة بمجريات الأمور لكى يعرف ما آل اليه حال أعدائه الفرجان ، وبأنه اذا مابلغه أنهم لا يزالون على مقربة منا ، فسيأتى للقائهم على الفور وفى صحبتته . هـ من السملو ، هنا لفت الشيخ نظرى ، دون أن تهربه هذه الأخبار ، أن ليس من حسن الفطن أن نصل الى قصر قارون مع قدوم الليل ، اذ يعد هذا المكان الملتقى المفضل للقوافل الجوابية وأنه ، اذا ما افترضنا أن فريقا من بينهم قد يقضى الليل فى المناطق المجاورة ، فسوف يصادف سفره مع بزوغ النهار ويترك لنا الميدان خاليا . أدركت صواب رايه ، وفضلا عن ذلك ، فلم نكن قد ظننا — حتى ذلك الوقت — أى قسط من الراحة منذ السادسة صباحا ، أى أننا قد سرنا بشكل متصل لمدة عشر ساعات لذلك

فقد اخترنا من الغابة مكانا دنيئا وحسينا تحيط به المرتفعات ، حيث يتردد على الطريق الذى كنا سلكناه عرب الفرجان فى معظم الاوقات ، واتام الشيخ عليه حراسة ، وقضينا الليل فى هذا المكان .

كنا بالفعل على ضفاف البحيرة ، كما كنا فى نفس الوقت جد قريبين من الجبل . تذوقت المياه مرة أخرى فوجدتها تماثل تلك التى تذوقتها فى الصباح . وقد شربت منها كل خيولنا بل وكثير من خدمنا ، الأمر الذى يتعارض بعض الشيء مع تأكيدات بوكوك Pococke الذى وجدها كما يقول أكثر ملوحة من ماء البحر . وفى الحقيقة ، فقد جاء هو الى هناك بعد مثل الفصل الذى جئت فيه بشهر ونصف ، ولعل الفيضان الذى سبق رحلته كان بالغ الضعف ، فى حين كان الفيضان الذى سبق رحلتى بالغ الوفرة .

وفى اليوم التالى ، ١٨ نيفوز ( ٨ يناير ) واصلنا طريقنا فى الخامسة والرابع صباحا ، لكننا لم نستطع أن نحاذى ضفاف البحيرة بسبب ادغال الأشجار التى تغطيها . لذلك فقد اضطررنا أن نقرب من الجبل ، الذى كانت المسافة التى تفصله عن البحيرة تضيق شيئا فشيئا ، كما قد أصبحت طبقة الأرض القابلة للزراعة يزيد سمكها أكثر فأكثر دون أن تخالطها الرمال ، ولهذا فلعل من المؤكد أن يكون هذا الجزء الشمالى من البحيرة تابلا للزراعة حتى سفح الجبل اذا أمكن رى أراضيه بمياه الفيضان العتبة .

وصلنا أخيرا حوالى الساعة السابعة والرابع ، بعد مسيرة إبطاء بعض الشيء من مسيرة البشارحة ، الى الطرف الغربى للبحيرة ، وهو يفرق كلية سطح الجبل وكنت أظن أننى هنا بصدد ذلك الجبل الذى يقطعه منذ مبدئه ، البحر بلا ماء ، والذى يسميه دانفيل فى مؤلفه مصر القديمة *Aegyptus antiqua* باسم *Lycus Fluvius* ، ولكننى وجدت ، بدلا من هذه الفتحة ، أن السلسلة تتابع حتى مدى البصر باتجاه الجنوب الغربى ، وعرفت من العربان أنه لا يوجد فى هذه المناطق لا البحر بلا ماء ، ولا منخفض من أى نوع يستطيع أن يقوم ادعاء على وجوده .

أما لسان الأرض الضيق ، والذي يسمح بالمرور بين طرف البحيرة وسفح الجبل ، فقد كانت تطمسه كومة من الأحجار الجيرية الضخمة التي لا يبدو عليها أى اثر لعمل الإنسان والتي اعتقد أنها ببساطة قد سقطت من الطبقات العليا للجبل ، فضلا عن ذلك فقد كان هذا الممر وعرا لأن شواطئ البحيرة هناك مغطاة بقشرة ملحية تخور بسهولة تحت الأقدام وتوجد تحتها مياه عميقة لحد كبير فى بعض الأحيان . وتمكنت جبالنا بعد جهد بالغ المشقة من عبور هذا الممر .

وحيث كنت قد نفذ صبرى شغفنا لرؤية قصر قارون الذى كنت اراه منذ الصباح بشكل بالغ الوضوح : فقد تركت القافلة تواصل طريقها ، ورحلت وحيدا الى الأمام متخذا اتجاه جنوب الشرق نحو هذا المبنى الذى وصلت اليه فى الثامنة والربع . وهكذا امضيت ساعة ، سار فيها حصانى بأقصى سرعته كى أقطع المسافة التى تفصل القصر عن طرف البحيرة ، إذ ان المنحدر لم يكن وعرا بل كان كبيرا . وفى نفس الوقت فان القصر مبنى فوق مرتفع صغير مما يسمح بالظن بأن مياه البحيرة كانت فيها مضى أكثر ارتفاعا ، وبأنها فى تلك الأزمنة التى كانت تمتد فيها لتبلغ الجبل ، كانت تأتى كذلك كى تبلل سفح هذا المبنى .

لن أقدم هنا مطلقا وصفا لقصر قارون ، فقد سبق أن قدم المسيو جومار Jomard الرسوم والخرائط الدقيقة لهذا المبنى (١) . لكننى فقط أسمح لنفسى بأن أقرر أننى لست أعتقد ان مبناه قديم بنفس قدم معابد مصر العليا ، فأطلاله ، أولا ، لا تبدو حاملة لآثار تخريب الزمن لكنها تحمل آثار تدمير قامت به يد البشر . وثانيا فـها نحن نرى عند مدخله أحجارا منحوتة بشكل خشن على طريقة الاغريق ، فوق الدعامات الامامية ، وان كان من الممكن الافتراض بأنها قد اضيفت فى ازمة لاحقة . وقد حفر دكتور بوكوك اسمه على انقاض عضادات باب الدخول الاول الواقع الى اليسار ، كما حفر بول لوكاس Paul Lucas اسمه على انقاض العضادات الواقعة الى اليمين .

(٦) انظر اللوحتين ٦٩ ، ٧٠ ، العصور القديمة ، المجلد الرابع



كان هذا بمثابة اكتشاف له أهمية تصوى بالنسبة لى . هنا لم  
استطع أن اقنوم نزوة أن اطمسها ، فكتبت هذه الكلمات على المضادة  
الواقعة الى اليسار فوق اسم بوكوك .

عبر ب. م. ملرتان ، المهندس الفرنسى  
الجزء الشمالى من بركة قارون ، فى السابع عشر  
من نيفوز من العام التاسع لقيام الجمهورية  
الفرنسية ( الموافق ١٧ يناير ١٠٨١ )

وقد تفحصت باهتمام ، من أعلى المبنى ، وبمنظار جديد ، امتداد  
الجبل الذى تركته عند شاطئ البحيرة ، فلم أجد على مدى البصر  
مايمكن أن يدعم افتراض وجود الفتحة التى يتحدث عنها كل من ليكاس  
ودانفيل ؛ بل وجدت الأرض تنضى صاعدة فى مرتقى لطيف يبتدىء عند  
البحيرة وينتهى ببلوغ قمة الجبل . ويرى المرء عن بعد كبير تلك الحفرة  
( القمة ) التى حددها هذا الجغرافى فى خريطته عن مصر الحديثة  
تحت اسم Haram Medale el - Hebjad ولا تزال بعض جدران قصر  
قارون تنهض واقفة سواء من ناحية الشرق أو من ناحية الغرب ،  
بل ويوجد كذلك مبنى صغير امام مدخله ، ومع ذلك فلا توجد مطلقا  
قطعة واحدة من الجرانيت . وتقع حجرات القصر ، المربعة الشكل ،  
على خط يمتد بشكل تقريبي من الجنوب الى الشمال ، اما خط الواجهة  
الرئيسية أو المدخل فيمتد من الجنوب الشرقى ، واذا ما رنا الانسان  
ببصره نحو الأفق فسوف يلاحظ عن قرب ، والى الجنوب ، قمة عالية من  
الأرض تدل بوضوح على الحد القديم للبحيرة .

غادرت قصر قارون عند الظهر تماما ، واتخذت طريقى مباشرة نحو  
الجنوب الشرقى ، كانت الأرض التى نطوها صخرية خالصة تغطيها رمال  
خفيفة ، وتتناثر عليها اكداس صغيرة من الأحجار والقرميد ، ولكن  
بكيمات بالغلة الضالة ، وهذا ما جعلنى اظن أننا نتوصل الى نتيجة  
مبتسرة حين نطلق على هذه الاطلال اسم بلدة قارون ، ذلك اننى مقتنع  
بأنه اذا كانت توجد بعض مبان فوق هذه الصخرة فانها لابد أن تعود  
الى فترة جد قريية ، جاءت بعد انحسار مياه البحيرة بزمان طويل ، كما

ان هذه المباني ، من جهة اخرى ، ضئيلة الاهمية للغاية ، ولا يمكنها بآية حال ان تدلل على وجود مدينة قديمة ، وسيكون موقع مثل هذه المدينة ، فضلا عن ذلك بالغ السوء ، اذ يظل هذا المكان ، على الدوام ، عاريا من اية خضرة .

كنا نسير بخطو حثيث ، اذ كانت جمالنا قد سبقتنا بنحو نصف الساعة ، ووجدنا انفسنا عند حوالى الساعة الثانية فوق قمة بناء صغير يقع الى اليسار على شاطئ البحيرة ، ولاحظت ان قمة عالية بعض الشيء تمتد بدءا من هذه النقطة ، على نحو مواز لهذا الشاطئ .

وبعد مسيرة نصف ساعة شاهدت مبنى آخر فوق نفس القمة ، وتلك على وجه التقريب هى الأماكن التى يطلق عليها بوكوك اسمى قصر كوفو Couphou وقصر كوپال Copal ، واخبرنى العريان انه يشار الى هذه المباني فى عمومها باسم قصر البنات ، وتوجد على شواطئ البحيرة ، عند سفح الجبل الواقع الى يميننا فى ذلك الوقت ، ونحن باتجاه بحيرة الفرق ملاحات كان يستغلها اهالى التزلة . ولكى يتم لهم ذلك ، قاموا بحفر آبار تسحب اليها المياه المالحة ، وترك لتتبخر فوق الأرض ، لتنتج ملحا لذيق الطعم ، بالغ الجودة .

ويصبح الانحدار ، ابتداء من قصر قارون ، غير محسوس ، لكننى احسست فى الساعة الثالثة ان الانحدار قد عاد ليصبح بالغ الشدة . وعند الثالثة والرابع وصلنا الى القمة التى تشكل نهلية الصحراء . هناك احسست بلذة يصعب وصفها فهذه ثمانى واربعين ساعة ، لم تكن عيني النهمة للاكتشاف ، والتى كانت تحرق بلا انقطاع فى كل ما يحيط بى ، لم تكن تقع الا على احجار ورمال . كانت صورة الموت وحدها ترسم بخيالى دون أن تعطينى مع ذلك أى احساس بالحزن أو الانتباض . كنت أبعد ما اكون عن الاحساس بالحرمان أو الاجهاد ، ذلك الاحساس المصادى الذى ينتاب المسافر فى الصحراوات ، فلقد قمت بهذه الرحلة برغبتي بل وبترحاب كامل من جانبي ، بل انى لاشك ان اوريبا آخر يستطيع مهما تكن الظروف التى تحيط به ، ان يجد رحلة شبيهة برحلتى ، فلقد كانت روحي على الدوام فى توق لعملياتي ، كما انى لم اعان مطلقا من

حرارة الجو التي كانت ترتفع ، على الرغم من أننا كنا في يناير ، من ٢٢ الى ٢٤ درجة فيها بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . لم يحدث ان فتحت قريتي ولو مرة واحدة كي اشرب اثناء الطريق بين لحظة وأخرى . ومع ذلك فان السرور الذي تملكني عند اول رؤية للخضرة ، رؤية الطبيعة في حالة حركة وحياة ، جعلني أحس برجفة تسري في جسدي ، وبأنني دون أن أدري في حالة من أنفعال مستمر .

كنا نلمح عن بعد قرية النزلة ، في نفس اتجاه جنوب الشرق الذي اتبعناه بدءا من قصر قارون ، وقام العربان الذين كانوا قد أوقفوا سباتهم اثناء فترة اجتيازنا للصحراء ، بترقيص خيولهم من حولي ، مرهقين اياي بالتحيات والتمنيات وعبارات الصداقة . فكانوا يصيحون خلال فرحتهم بأنهم قد أعادوا ، سليما ، معافى ، مدبر السمالو ، وهي كلمة تعنى منظم ، ويستخدمونها في مقابل كلمة مهندس عندنا ، ولقد قدموا لى شهادة كبيرة على تقديرهم ، حين أضافوا الى هذا اللقب اسم قبيلتهم ، واعترف بأنني لم أكن متبلد الاحساس امام هذه الدلالات؛ فلقد جعلوني واحدا منهم ، وكان وجهي الذي لوحته الشمس ، كما كان شاربي الكث وردائي البدوي كان كل ذلك يتحدى امهر خبير في تمييز الملامح ( ان يتعرف على ) ، لذلك فقد لاحظت ان احدا من كل الاهالي الذين قابلناهم بعد ذلك ، لم يحدد وجود رجل فرنسي ، بين هذه الكوكبة من العربان .

وصلنا الى النزلة في الساعة الخامسة . وتقع هذه القرية ، الكبيرة بعض الشيء على بعد حوالى ثلاثة فراسخ من شواطئ البحيرة ، وعلى الشط الايسر لقرعة واسعة تعتبر امتدادا لبحر الوادي الذي سبق لى ان اشرت اليه . وفيما مضى ، كانت النزلة تحصل على حاجتها من المياه عن طريق رشاح ياتي من مدينة الفيوم ، لكن المياه ، منذ ان قطع سد المنيا ، ظلت تغمر الأرض ، لدرجة اننى كنت ارى في ذلك الوقت بركا كبيرة الحجم ، على مقربة من القرية ، على الرغم من ان انخفاض المياه التي كانت تتدفق منذ مايزيد على ثلاثة اشهر ، ربما يكون قد ترك الأرض مكشوفة ( اى معرضة للجفاف ) في كل مكان .

قضيت الليل في النزلة ، ودعوت الى العشاء معى شيخ هذه القرية ، وكذلك الشيخ على ابي بكر ، ابن اخى الشيخ صالح ، الذي

كان قد قدم على عجل لزيارتي . وقد أفدت من هذا اللقاء ، إذ حصلت من كل منهما بشكل خاص على كافة المعلومات التي يمكن لثليهما أن يقدمها لي عن الصحراوات المحيطة بالفيوم ، ولابد أن يستنتج القارئ أنني لم أهمل ما يتصل بالواحات . وقد سررت سرورا جما حين لاحظت أن إجابتهما تتطابق بشكل تام مع التفاصيل التي حصلت عليها قبل ذلك بعدة أيام ، من سليمان الكاشف ، ومن اثنين من أهالي الواحة الصغيرة ، كنت لقيتهما في مدينة الفيوم ، وسأقدم فيما بعد نتائج هذه اللقاءات .

غادرنا النزلة في التاسع عشر من نيفوز ( ٩ يناير ) ، في الساعة التاسعة والربع صباحا ، واتخذنا طريقنا ، بشكل مستمر ، باتجاه الجنوب الشرقي ، وسط الأراضي المزروعة ، والتي كانت متشققة في ذلك الوقت ، مما جعل سيرنا عسيرا ، إلى أن وصلنا بحر الوادي في الحادية عشرة والربع ، تجاه قرية ( العرين ) الواقعة على الشط الأيمن . وهناك ، كان عمق الرشاح لا يقل عن ١٦ إلى ١٧ مترا بعرض يصل إلى نحو مائتي متر ، نزلنا نخوض في مياه الرشاح ، وكان السير فوق قاعه أثقل مشقة من السير فوق حافته . كانت مياهه تجري في الجانب الأيمن من سريده ، وقد صعدنا متجهين نحو الجنوب حتى بلغنا فتحة ترعة صغيرة ، كانت تأتي من قبل ، كما قيل لي ، من مدينة الفيوم ، مارة بالمنيا ، متجهة إلى بركة قارون بعد أن تسقى أراضي القرى الواقعة على مجراها ، وقد أكد لي العربان أن بحر الوادي الذي كنت أراه بالغ الاتساع قد تكون نتيجة لفيض مفاجئ للمياه التي تسربت في ذلك الوقت ، حين تصدع جسر المنيا ؛ لكننا سنرى فيما بعد أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال ؛ ولم تبد لي الجبال الواقعة إلى الغرب سوى انحدار طفيف تضعيع ذروتها في الأفق البعيد .

وفي الساعة الحادية عشرة والربع ، وصلنا إلى أبي جندير ، وهي قرية بالغة الارتفاع ، تقع إلى جنوب الجنوب الغربي من النزلة . ومن فوق المرتفع الذي بنيت فوقه هذه القرية ، كنت أرى بوضوح مدينة الفيوم والنزلة ، وكل المنطقة الوسطى من ولاية الفيوم ، وعبر فرع من الرشاح القادم من مدينة الفيوم بالقرب من أبي جندير ؛ وحيث تظل

تصل المياه حتى هذه المنطقة فى مستوى سطح الأرض ، فانها تشكل عند تدفقها الى الوادى مسقط مياه يبلغ انحداره نحو عشرة امتار ، وهذه ظاهرة غير معروفة فى بقية انحاء مصر .

وهكذا فان اقامة آلات تحركها مساقط المياه ستعود بنفع كبير للرعى . وكان ليلى ، الشيخ على تدلقى فى ابنى جندير اخاه الشيخ عثمان ، شيخ القبائل المقيمة حول هذه القرية ، فلم نمكث فى خيمة الاخير سوى ربع الساعة تناولنا خلالها القهوة ، ثم واصلنا طريقنا باتجاه الجنوب الغربى ، مصطحبين معنا هذا الشيخ عثمان .

وعند الثانية عشرة والرابع ظهرا ، عدنا الى الصحراء ، التى تشكل ارضها - وهى اعلى من الأرض المنزرعة - احجارا رسوبية تختلط بالرمال ، فوقها قطع من الاحجار الجيرية . لقد كنا فوق ما يشبه هضبة ، عند بدء انحدارها غير المحسوس نزولا ، جهة الشمال الغربى نحو قصر قارون ، وبدء انحدارها كذلك الى الجنوب الشرقى عند قرية ورشاح الفرق ، حيث يتحول الانحدار الى مرتقى يمتد صاعدا بشكل غير محسوس الى مدى البصر .

وفى الساعة الواحدة الا خمس دقائق ، وصلنا الى مرتفع منغل يسمى بسمونه « كوم الفرق بتاع الملط » وهناك تعرفت على اطلال هائلة تمتد من جهاتها الأربع الى داخل السهل . صعدت المرتقى ، فرايت بحيرة الفرق ، فى اسفل ، وهى تمتد الى الجنوب لبعد يبلغ حوالى نصف الفرسخ ، واسترعى مرافقى انتباهى الى وجود جبلين يقعان عن بعد باتجاه جنوب الجنوب الغربى ، ويوجد بينهما ريان ( بئر ) وكذلك الطريق المؤدى الى الواحة الصغيرة التى سأتناولها فيما بعد ؛ ويرى المرء الى الجنوب الغربى تلك القرية التى تحمل اسم مدينة الفرق ، أما ظهر الجبل الذى يفصل وادى الفرق عن وادى مصر ، فيشكل منحدرًا لطيفًا سهلاً .

تركنا اطلال مدينة ( معدى ) فى الساعة الواحدة والنصف ، ونزلنا فى منخفض من ارض صالحة للزراعة . تغطيها رمال غير كثيفة . ومن السهولة بمكان زراعة هذه الأرض رغم كونها مهجورة ، اذ تتكاثر فيها دون اية مجهودات او عناية تذكر ، مجموعات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعة .

وتجرى فى هذا السهل ترعة تزرع شطحاتها ، وتمضى جنوبا لتصب مياهها فى البحيرة وقد صعدنا باتجاه هذه الترعة حتى مدينة الفرق فوصلنا الى هناك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . ثمة سور يحيط بهذه القرية الدفاع عنها ، لكنها ، فى داخلها ، تشكل مظهرا بالغ البؤس ، وهناك منزل لأحد المالك قد تحطم عن آخره ، وليست ضواحي القرية بأحسن من داخلها حالا : وبخلاف كل قرى مصر ، تلك التى يتمرق عليها المراء من بعد بالشجار النخيل الكثيفة التى تحيط بها ، فإن مدينة الفرق لا تحيط بها ولو شجرة واحدة ، لهى لا تمثل الا مظهر عرى بالغ الوحشية لحد يبعث بالرجفة الى القلب . وقد بقيت هناك لقضاء الليل ، وكنت أريد ان أرى « كوام الوزاى » وهم عربان تلبعون للسعالو ، سمعت انهم لصومس ذوو حيلة ، وتمحنى كثيرون بأن اتجنبهم ، ولست أدري ما ان كان ظهور الشيخ على والشيخ عثمان هو الذى كبح جماحهم ، ومهما يكن من أمر فقد خرجت من قبضتهم دون أن يكون لدى ما أشكو منه ، ولقد حدثونى بسرور بالغ عن المحبر جيار ، وكلفوا قد صحبوه فى جولته قبل ذلك بعامين . وقد عرض على شيخهم كرامنى خدماته بأن يصحبنى الى الحيرة التى يسمونها الفرق بتاع الفرق ، وهى تبعد عن القرية بمسيرة ساعدن نحو الجنوب . وقد قبلت صحبتهم ، لكننى أجلت الزيارة الى الفترة التى قد أزور فيها الجزيرة الصغيرة ، وهى زيارة كنت عزمت على القيام بها منذ عرفت تفاصيل موقع هذه الجزيرة الصحراوية . وان كنت مع ذلك قد صحبتته مضى لزيارة الانتقال الواسعة التى تحمل اسم دير زخاوة بتاع الفرق والذى يبعد موقعه عن القرية بنحو مرسخ واحد باتجاه جنوب الجنوب الشرقى .

رحلنا من الفرق فى العشرين من نيفوز ( ١٠ يناير ) فى الثامنة الا الربع صباحا فوصلنا الى قرية سنورس ، وهى قرية صغيرة تحيط بها الجدران ، وتمسك حولها قبيلة المعربين ، على الشط الايمن للترعة تجاه الفرق مباشرة ، وحين توجهنا بعد ذلك — على نفس طريقنا — الى الشمال الشرقى ، وجدنا السنة صحراوية كثيرة تعترضها اجزاء قابلة للزراعة ، وفى الساعة التاسعة والنصف عبرنا الترعة الصغيرة

التي تمضي فتصب مياهها في الوادي شمال أبو جندير ، ووصلنا الشط الآخر عند بداية الجسر الرائع الذي سبق أن تحدثت عنه والذي بينت موائده عند شرح الحركة العامة للمياه في الولاية ، وأقدم الآن التفاصيل التي حصلت عليها حول هذا الجسر .

يقدم لنا هذا الجسر — وهو مبني باكله من القرميد أو الأحجار المتناسكة بشكل متين بفعل ملاط من الجير والاسمنت — نهطا لواحد من تلك الأعمال العظيمة التي نتجت عن رعاية حكومة عاقلة تضع في اعتبارها العمل لصالح البشر، ويبلغ سمك هذا الجسر ستة أمتار عند ارتفاعه ، كما يبلغ ارتفاعه ابتداء من أدنى نقطة فيه ستة أمتار كذلك ، وتدهم الجسر وتقويه دعائم ومصدات مياه ، ولكن على الرغم من هذه الاحتياطات فقد تصدع عند المنتصف بالقرب من قرية شديمه لمسافة تبلغ ٦٠ مترا . ويبدو أن هذا التصدع لا يعود إلا لقوة اندفاع المياه ، بمعنى أنه لم يحدث نتيجة لتخريب من أي نوع على يد الإنسان فنحن لا نزال نرى هناك كتل البناء الضخمة التي حملتها المياه معها إلى بعيد في قاع التربة . وربما يقال تفسيراً لذلك ، وأنا نفسي أشترك في هذا الرأي ، بأن تصدعا كبيرا كهذا لا يمكن أن يتم إلا بفعل الإهمال في إصلاح أول تلف أحدثته المياه ، فلقد كان كافيا أن يحدث تسرب للمياه ولو ضئيل لكي يحدث على المدى البعيد كل هذا الدمار ، ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد للجسر من فائدة أو معنى ، فلقد أصبحت حقول وادي الفرق غير مزروعة ، وأخذت المياه تذهب عن طريق بحر الوادي، لتغرق — مشكلة بذلك خسارة تامة — تلك الأراضي التي تقع فيما بين النزلة وبحيرة قارون .

وتقطع أعلى هذا الجسر على الدوام قناطر صغيرة ، نفذت في منحاتها خزانات مخصصة ولا ريب لتنظيم ارتفاع المياه حين تغطي وادي الفرق . ومن شأن هذا أن يدحض زعم العربان الذين يدعون بأن الوادي لم يكن يوجد مطلقا قبل قطع الجسر . لقد كان على المياه التي تعبر هذه الخزانات أن تتجه بالضرورة وعن طريق ترعة ما إلى بركة قارون . وأن كان يمكن — فقط — أن تكون مثل هذه التربة أقل اتساعا مما هي عليه اليوم ؛ ومن جهة أخرى فإن الجسر يقوم بدورات عديدة تبعاً لانشاءات

و نمطانات الأرض ، ويتوغل نحو الشرق بطول يبلغ حوالى ٨٥٠٠ متر حتى قرية دنفو ، حيث ينتهى الجسر .

اقتربنا من قرية المنيا (✽) حيث يقيم الشيخ الاكبر ابو صالح ، والد على وعثمان ، رفيق سفرى ، وسرى النبا فى القرية ، فشاهدنا على الفور ظهور أخيهما الثالث جوربة ، الذى أرسله أبوه ليهتثنا بسلامة الوصول .

ثم جاء هذا الشيخ ( المسن ) نفسه للقائنا ، وما أن اقترب منا بنحو مائة خطوة حتى ترجل ، واتجه نحوى سائرا على قدميه ، يدايته على الفور نفس تحيته ، وتقدمنا ، وحدنا ، كل منا تجاه الآخر ، وكل منا على رأس جماعته ، وحتى هذه اللحظة ، كان الشيخ على يضع نفسه رهن اشارتى ، اللهم الا فى تلك اللحظات التى تركته خلالها عند طرف بحيرة قارون لاهرع وحدى الى قصر قارون . أما الآن ، فإنه لم يتبمنى مطلقا، لقد منعه من ذلك ، الاحترام الذى يكنه لوالده ، ولقد ابدت لأبيه من جانبى كل رضائى لأنه قد أتاح لى أن أصحب رفيقا مثل ولده ، وعربا مخلصين قوى شهامة مثل أتباعه الشجعان من أبناء السمالو . لاحظت انه تأثر لأطرائى ، ومنذ هذه اللحظة نشأت بيننا الثقة . امتطينا حصائنا من جديد ، وسار أبو صالح عن يمينى ، أما أبناء الثلاثة فقد ساروا من خلفنا ، فشكلنا على هذا النحو ما يشبه الدخول المظفر الى المنيا . كان الوقت قد بلغ العاشرة والربع وكان السكان جميعا قد اصطفوا على جانبى طريقنا واسمعتنا النسوة زغاريدهن ، تلك العلامة المعتادة عند حلول الأمراح الكبرى .

يقطن أبو صالح فى المنيا بيتا واسعا بعض الشيء ، سرعان ما امتلا بعدد كبير من المدعويين من كل الطبقات والأعمار ؛ وما أن جلسنا على الأرائك حتى قدم الى الشيخ صالح كل أبناءه ؛ لاحظت من بينهم واحدا لما يتجاوز التاسعة أو العاشرة من العمر ، يكن له أبوه عاطفة خاصة وكان هذا الصبى ، وله وجه بالغ الجمال ، يركب الخيل ، ويستعمل الأسلحة بقدر ما قد يفعل ذلك أكثر البدو ترمسا،



ويبدى من حيوية الطبع ما يسر والده بشكل بالغ ، وقلت لأبى صالح  
 اننى كنت قد لاحظت وأنا فى السهل رشاقة ومهارة هذا الصبى ومظهره  
 الحسن ، دون ان أعرفه وكيفتوب جديد ، عبر لى أبو صالح ، وقد  
 هزه المديح الذى أنهال به على ولده المحبوب ، عن عرفاته بطريقة  
 تد تبدو غير معقولة فى تقاليدنا ، لكنها ولا شك نتيجة افكارهم عن  
 الرق ، فلقد قدم الى هذا الطفل قائلا ان بإمكانى ان اصطحبه وان الحقه  
 فى خدمتى ؛ فأجبتة بأننى قد تأثرت للغاية بهذا العرض ، لكن ولده  
 لن يكون مطلقا على خير مايرام ، بل انه قد يتلف بلا جدال لو انه نشأ  
 بين قوم غير قومه ، وان لى فضلا عن ذلك ، فى فرنسا ، طفلا كطفله ،  
 تتعلق به كل آمالى ؛ واننى معرفة منى بقدر صنيع السماء سوف الوم  
 نفسى اذ حرمت من خدمات رجل أود ان انظر اليه منذ الآن وان احبه  
 كوالدى ، مرفع عينيه الى السماء شاكرا الله اذ جعله يجد فى شخصى  
 صديقا حقا .

قد يدور بخلد البعض أنه قد لذ لى هنا ان اصور مشهدا من صنع  
 الخيال ، او اننى على الأقل قد جهدت فى ان أمنح هذا المشهد بعض  
 مذاق الخيال ، لكن الحقيقة هى اننى انقل بدقة ما قد حدث ، واننى  
 اكاد اتقدم احاديثنا كلمة بكلمة كما وجدتها فى مذكراتى ، التى دونتها  
 فى مساء نفس اليوم ، ومع ذلك فينبغى على ان اقول كذلك ، تفسيراً  
 لمشاعر الصداقة هذه ، انه يبدو ان أبا صالح كان يريدنى ان استشف  
 انه يرعانى بسبب صفتى مدبرا ، شخصية بالغة الأهمية ، وانه يريد  
 ان يحملنى على العزم على اعادة ترميم الجسر وخزاناته وقد حدثته عن  
 الحالة الراهنة لهذابنى باعتبارها تقارب حد الكارثة ، وان الفرنسيين  
 كانوا ينتوون ترميمه فى اقرب فرصة ممكنة ، واكد لى هو من جانيه ،  
 وقد تدفقت عواطفه وزاد عرفاته بأن بإمكانى الاعتماد عليه ، وعلى كل  
 قبيلة السمالو ، الذين سيصحبونى فى كل مكان اريد الذهاب اليه ، وانهم  
 يمثلون لأمرى فى الحياة وفى المات ، وانتهزت انا هذه اللحظة لى أعد  
 لرحلتى الى الواحة ، وقد اكد لى دقة المعلومات التى حصلت عليها فى  
 مدينة الفيوم وفى النزلة ، كما اكد بأننى ، عندما أخبره بيوم رحيلى ،  
 سأجد كل شيء معدا للقيام بهذه الرحلة فى تمام واتقان . وهذه هى

التفاصيل التى جمعتها حول هذه الواحة ، وحول الطريقة التى اتفقتنا عليها للتعليم بالرحلة .

تبعد الواحة التى تقع على مرتفعات الفيوم ، والتى يشار إليها فى كل الخرائط القديمة باسم واحة برنا Oasis Parva بنحو مسيرة ثلاثة ايام ونصف اليوم الى الجنوب الغربى للمخينة ، وهى عبارة عن واد صغير يوجد به عديد من ينابيع المياه الحارة والباردة ويتوزع سكاتها على اربعة قرى ، تضم كل منها من ١٥٠ - ٢٠٠ نسمة ، يزرعون الكثير من اشجار النخيل وهى التى تشكل تجارتهم الرئيسية ، كما يزرعون الارز والذرة وبعض اشجار الفاكهة ، مثل اشجار التين والموز والبرتقال والرمان ، لسكتم لا يزرعون القمح ، وهم ينقلون او يعملون على نقل ما يفيض عن حاجتهم من المواد الغذائية عن طريق عرب الكوى من البحيرة الى الفيوم والقاهرة ويتقاضونها بالآتمشة والحديد والقمح ، ولاتوجد فى هذه الواحة خيول ولا خراف ، وذلك بسبب عدم وجود المراعى بلا جدال ، والطقس هناك غير صحى على الاطلاق ، اذ تحمل اليها رياح الجنوب والشرق والغرب ، وهى تجتاز مساحة شاسعة من الرمل ، هبات حارة ومسممة ، من نوع رياح الخماسين التى تهب على مصر ، لذلك فالنفس هناك ذوو قامة قصيرة . وهم على الدوام مرضى ، ويبدو عليهم لأول وهلة ان صحتهم بالغة السوء .

وينبئ على المرء ، كى يتوجه من مدينة الفيوم الى الواحة ، ان يمر ببخرة الفرق ، ويجد على مسيرة ساعتين ، الى الجنوب ، بئرين تسميان ريان الكبير وريان الصغير ، ويرى بالقرب منهما مبنى يشسبه قصر قارون ثم يجتاز بعد ذلك ، وباتجاه الجنوب الغربى ، ولمدة يومين ونصف اليوم ، صحراوات جرداء لا اثر فيها لياه او خضرة .

كان على ان اقوم بهذه الرحلة مع خمسين من العرب ، يقتلهم خمسة وعشرون هجينا ، يحمل كل هجين منها من الطعام والشراب ملكى راكبيه وما يكتفيه هو نفسه ، وهو الذى يمصر كل الصحراء دون ان يشرب ، ابتداء من بئر الريان الاخير حتى الواحة ، وقد شرب الرجال من البحيرة . وعند بئر الريان ، حيث لم يملثوا الا قرية بالغة السفر لكى يحنفوا من حولة الجمال ، ولذلك فقد كانوا يكتفون بشربة واحدة فى اليوم ،

وكان علينا ، الشيخ ، على وأنا ، أن يمتطى كل منا حصانه ، وكان ثمة جملان يحملان لنا الأمتعة والمؤن ، وثلاث قرب من المياه ، لكل حصان قرية فى حين خصصت لنا نحن الاثنين ، القرية الثالثة .

أما بخصوص واحة آمون ، والتي تعرف باسم واحة سيوة ، فإن الطريق إليها تقع الى الغرب من قصر قارون ويقتضى الأمر من المرء أن يصعد الجبل الى اليسار ثم يتجه على الدوام باتجاه الغرب ؛ وتفصل بين هاتين الواحتين مسيرة سبعة أيام ونصف اليوم ، لكن الأمر لا يستغرق أكثر من عشرة أيام اذا بدأت الرحلة من مدينة الفيوم ، ويعثر المرء بعد مسيرة أربعة أيام على بحيرة من المياه العذبة تسمى مجرارة ، وتقع هذه البحيرة فى مكان متوسط بين الواحة ومدينة النيويم ؛ وقد نستطيع أن نستخلص أن هذه البحيرة تقع داخل منخفض يتصل بمنخفض الواحة ؛ وبعد ثلاثة أيام نصل الى بئر من المياه المالحة تسمى هبجة ؛ وبعد ذلك بيومين نلتقى ببعض الأكواخ المأهولة . ثم يصل المرء فى النهاية ، فى اليوم التالى : الى سيوة .

وخلال هذه الرحلة ، تكفى قرية رجلين لمدة أربعة أيام ، وتكفى قرية واحدة فى اليوم لكل حصان ، فى حين تشرب الجبال عند البحيرة ، ثم عند بئر الهبجة ، ثم سيوة ، لكنها لا تشرب مطلقا فى المسافة التى تفصل بين محطة وأخرى .

قمت بتقدير المسافات فى هذه التفاصيل بعدد أيام السير . وقد حاولت فى بعض الأحيان أن أتبينها بطريقة أكثر تحديدا ، لكن الأمر على الدوام كان مستحيلا ، واذا سألتكم فرسخا يقطعها المرء منذ بئر الريان حتى الواحة ؟ كان العرب يردون على دائما : فرسخ واحد فقط . وحين أطلب التفسير يقولون : أن الناس فى الصحراء لا يقيسون المسافات على نحو ما يفعلون فى البلدان المزروعة ، حيث الفراسخ المعدودة هى على الدوام المسافة بين محطة وأخرى ، لكنها فى الصحراء نحسبها بالزمن ، ومع ذلك فلو أننى سألتهم : « اذن فكم ساعة تنقضى .. » لأجابوا : « يتوقف هذا على طول اليوم » ، ذلك أنهم يقدرون المسافة الزمنية بين شروق الشمس وغروبها باثنتى عشرة ساعة ، مهما يكن الفصل من العام

ما يجعل المسألة التي يقطعونها في الساعة أمرا يصعب تحديده بشكل مطلق .

تدم العشاء ، فوضع نهاية لهذه المناقشات الطويلة التي دارت بيني وبين أبي صالح وعريته وأبنائه لأكثر من ساعتين ، وبعد ذلك افترقنا ونحن راضون تماما ، كل منا عن الآخر ، مع وعد متبادل من كلينا بأن نلتقي معا قريب . لكن هذا الوعد لم يقدر له ، للأسف ، أن يتحقق على الإطلاق ، فقد قطعت الأحداث كل مشروعي ، ولم أر بعد ذلك أبدا هذا الشيخ الطيب الذي كنت أكن له — كشيء طبيعي — عاطفة قوية .

رحلنا من جديد ، الشيخ على وأنا ، من المنيا في الساعة الواحدة ، متجهين نحو مدينة الفيوم باتجاه الشمال الشرقي ، ومررنا بقرية الجمافرة ، على مسيرة نصف ساعة ، تاركين دفنو عن يميننا ، وبمسد ريع الساعة وصلنا الى العتامنة ثم الى اطسا ، وهي قرى متقاربة فيما بينها ، وهناك اتخذنا الطريق بين أبي صير عن يميننا والمصرة عن شمالنا ، واجتزنا الصوائف ، ومررنا من جديد بالقرب من ابجيج ، فدخلنا المدينة في الساعة الثالثة والنصف بعد أن راينا أن تسير الخيل بأقصى سرعتها ابتداء من المنيا .

لقد أمكن للجولة الاستطلاعية التي قمت بها للتو أن تدعم فكرتي حول نظام الري في الفيوم ، ومع ذلك ، فلكي نشرح جيدا هذا النظام ، ولكي نوضح كيفية ارتباطه بما يذكره ، كل المؤلفين القدماء ، فقد كان من اللازم وجود معطيات دقيقة ومحددة حول علاقة كل مناطق الولاية بنظام النيل وبترية وادي مصر : وكنت في هذا الصدد انتوى أن أقوم بعملية مسح ابتداء من النيل حتى قرية هواره الكبيرة ، وأن أقيس مسقط قناطر هذه القرية ، وأن أوصل عملية المسح بعد ذلك حتى بركة قارون ، من جهة ، الى بحيرة الفرق من جهة أخرى ، لكنني تلقيت بعد عدة أيام الأوامر بأن اتوجه الى القاهرة ، ومن هناك الى دياط ، للقيام بمشروع شق طريق بين الصالحية والإسكندرية ولقد حدثت رغم ذلك عراقيل مناخية أعاقَت تنفيذ هذا المشروع ، مما سمح لي أن أمل بأن أوصل من جديد عمليتي بالفيوم ؛ بل لقد حصلت بالفعل على تفويض بالعودة الى هناك ، وأوشكت على الرحيل عند حوالي منتصف شهر

فنتور ( أول مارس ١٨٠١ ) فى صحبة الجنرال دماس Damas الذى عين قائدا للولايتين ( بنى سويف والفيوم ) ، لكن قدوم الانجليز ، ثم ما تلى ذلك من رحيلنا عن مصر ، قد وضع نهاية لكل أعمالنا فى هذه البلاد .

### خاتمة

على الرغم من كل ذلك ، فان ما شاهدته يكفى لالقاء ضوء كبير على موضوع الموقع الحقيقى لبحيرة مورييس ، وشكلها ، وامتدادها ، واستعمالها ، ويتفق الناس جميعا حول نقطة واحدة ، هى ان بحيرة مورييس كان لها شكل البحر الواسع ، وانها كانت لوقت طويل ذات نفع كبير فى استيعاب مياه الفيضانات بالغلة الطلو ، وفى رى وادى مصر عند انخفاض مستوى النهر ، لكنهم يختلفون فقط حول وضع هذه البحيرة ، كما انهم يتشككون فى كون هذه البحيرة من صنع الانسان نظرا لمساحتها الهائلة .

وقد انفق البعض جهده ، تبعا لهذا النص من هيرودوت . « وتوجد بحيرة طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب » فى البحث عن بحيرة مورييس هذه فى ترعة تتجه نفس الاتجاه ، وحيث شاعوا لها ان يبلغ محيطها ٣٦٠٠ غلوة ، نفس المسافة التى يحددها هذا المؤرخ ، وحيث لا يستطيع احد ان يعثر على ترعة بهذا الطول فى ولاية الفيوم ، فقد اتجهوا ببحوثهم الى ولاية بنى سويف حيث ظنوا انهم قد عثروا عليها هناك .

وعلى العكس من ذلك ، فان آخرين اوقفوا جهودهم فى البحث عن بحيرة مورييس على بركة قارون ، مستندين فى ذلك الى الوصف المفصل لهذه البحيرة ، والذى نجده عند سترابون ، « ان المساحة المائية الشهيرة باسم مورييس ، انما هى بحيرة باهرة ، لها اتساع وشكل البحر ، كما ان لها شواطىء تماثل شواطىء البحار » .

اما انا من جانبى ، فلن ادخل طرما فى هذا النقاش الذى اصبح اليوم امرا لا جفوى منه ، والذى جسم بشكل علمى تام ودقيق ، كما سبق ان ذكرت ، بعد تلك الدراسة التى قام بها المسيو جومار Jomard

فبركة تملأون اليوم هي بالتأكيد بحيرة مورييس الأمس ، لكنها ، كذلك ليست سوى قاعها ، بمعنى كلمة قاع ، والذي بلغ عمقه اقصىه بفضل التوازن القائم بين البحر وبين المياه التي تصب فيها كل عام ، وينتج عن ذلك انه لا ينبغي لنا ان نقرن محيطها الحالي بذلك المحيط الذي ينسبه لها هيرودوت ، فقد كانت البحيرة في هذه الفترة ، وكذلك في عصر سترابون ، تغطي كلية اقليم ارسينويت ، ويقرر هذا الجغرافى ذلك بنص العبارة ، وبأنها كانت تبدأ عند الاتحاد الذي وجدته سائل محسوسا عند قرية بيهمو ثم تمضى - البحيرة - لتلامس الجبل من الجهة الشمالية ، وقد تأكدنا من صحة ذلك بفعل الارتفاع الكبير لقرية سنورس ، التي كانت تقع فوق جزيرة ، وبسبب طبقات الأرض القليلة للزراعة والتي خلفتها الترسيلات فوق كل الامتداد الواقع الى شمال البحيرة ، وتأكدنا من ذلك اخيرا بفعل الخطوط الأفقية التي يرى المرء آثارها فوق طبقات الجبل ، وبارتفاعه كله ، ويرى المرء وسط هذا الاتساع ، الجزر التي كان ينهض فوقها الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت .

كانت البحيرة تمتد بطول الجبل ، الى الغرب ، وحتى مسافة كبيرة للغاية ، ثم تعود بعد ذلك لتتجه نحو الجنوب ثم تمضى لتبلغ ذروتها عند النزلة حيث كانت تلامس الجبل الفاصل بين الفيوم ومصر .

وإذا اخفنا في الاعتبار الآن ، الامتداد الواسع لهذا التكوين فقد لا نتردد في تأكيد مسافة الـ ٣٦٠٠ غلوة التي يوردها هيرودوت او في تأكيد مقياس مقارب على الأقل ، حيث لا ينبغي علينا ان ننظر للأطوال التي يغطيها هذا المورخ باعتبارها دقيقة من الناحية الرياضية ، بل لقد اثبتنا هو نفسه بأنه لا يستطيع ان يؤكد كأمر صحيح ، أمرا لم يره ، ومن جانب آخر فإن علينا الا نلتزم بكل ما ينتقله هو عن الآخرين ، بل ان نقتسه في صدق تفاصيل الطريقة التيؤكد أنها استعملت لرفع ركابات وانتقاض الأراضي التابعة للبحيرة ، لأمر يجعلنا نلزم جانب التحفظ ، وأن نضع في اعتبارنا انه قد حصل على كل ما يقول به عن طريق الكهنة المصريين . أما سترابون ، الذي رأى أكبر قدر من الدقة والذي لم يكن يدون الا ما هو بالغ الثقة من صحته ، في مؤلفه الجغرافى البحث ، فقد لزم الصمت حول طول هذا المحيط الذي لم يستطع لا ان يراه ، ولا ان يقدره بدقة،

وقد اكتفى بأن قال انها ( اى البحيرة ) تستحوذ على الاعجاب بحجمها ؛ حتى انها تشبه البحر .

اما الجزء الذى ربما تكون قد صنعته يد الانسان ، فهو الترعنة التى تحمل اليوم اسم بحر بلا ماء الذى يربط ما بين بحر يوسف وبركة قارون ، وهو الذى كان يقصده هيرودوت حين قال « انها تمتد من الجنوب الى الشمال » (٧) .

ولقد وجدت ان اللابرننت يقع بالضبط فى نفس المكان الذى سبق لى أن توصلت اليه ، اى على بعد مائة غلوة من ارسينويه — وهى نفس المسافة التى حددها سترابون حينما قال : « وعلى بعد مائة غلوة توجد بلدة اسمها ارسينويه » — وعند منشأ الترعنة ، أعلى البحيرة بقليل ، او كما يقول هيرودوت « على بعد ضئيل من بحيرة موريس » . واخيرا ، فان الموروث الشعبى ، الذى شاء أن تكون ولاية الفيوم ، فيما مضى ، خليجا تكونه مياه النيل ، ثم جف واستزرع ، واصبح يستخدم فى رى الأجزاء الواطئة من ارض مصر بفضل عناية امير عظيم . . كل ذلك يبرهن أن ليس ثمة مطلقا اى تناقض بين القدماء ، وانهم جميعا قد وصفوا الأماكن كما نراها اليوم ، او على الاقل كما لازلنا نتعرف فيها على حالتها القديمة . ومع ذلك ، فقد يقال : كيف أمكن لبحيرة موريس ان تستخدم كوعاء يحتوى مياه الفيضان ، وخزان اثناء انخفاض مياه النيل ؟ واجيب بأنه قد يكون من العسير ، وربما من المستحيل أن نقدم تبريرا او تأصيلا لهذه الفكرة اذا ظللنا نحرص على الا نرى مدخل ومخرج المياه الا عن طريق نفس المنفذ ، لكن سترابون يتحدث بشكل موضوعى عن وجود فتحتين : تدخل المياه من احدها وتخرج عن طريق الأخرى .

وعلىنا أن نتذكر ان المياه تسقط فى الفيوم عن طريق هويس أقدم تحت قناطر هواره الكبيرة ؛ وان سرير الترعنة التى تتلقى هذه المياه حجرى صرف ، ولهذا فان ارتفاعها ثابت لا يتغير . وفى فترة المد الاقصى لبحيرة موريس ، اى تلك الفترة التى اعتبت جفاف الخليج . كان مستوى

---

(٧) انظر دراسة موجزة حول بحيرة موريس ، العصور القديمة ، المجلد السادس .

المياه اننى بوضوح من مستوى ارض الاقليم . ومن جهة اخرى ، فقد شاهدنا كيف أن التربة تتحكم فى سطح الأرض لأنها تقع على خط الذروة الذى يشكله التباعد بين منحدرين ، انن فقد كانت المياه لا تستطيع العودة من جديد الى ارض مصر عن طريق فتحة هواره الكبيرة ؛ فهذه لم تستخدم مطلقا كما يقول الاثر ، الا كخزان لتخليص مصر العليا من الكمية الكبيرة للغاية من المياه التى تضر بالأرض .

وتد رأينا فيما سبق أن الجزء الشمالى من البحيرة يشكل فتحة لوادى النيل تصل الى الجيزة ، فلابد ان هذا الوادى قد شكل بالضرورة الفتحة الثانية كما كان يقدم للمياه ممرا فى اثناء انخفاض النيل، لكى تذهب وتروى اراضى مصر السفلى ، التى تعد اراضيها اننى بكثير من ارض مصر العليا .

وبهذا تبين بشكل طبيعى تلك الطريقة التى كانت المياه تدخل بها الى بحيرة مورييس ، والتى كانت تخرج بها ، وكثت المياه بعد أن تتعرج، تتصل بفرع النيل مكونة جزيرة هرقل Hercleotique من ناحية الهضبة الليبية ، وعن طريق بحر يوسف ، تروى أولا اقليم ارسينويت ، ثم تمضى لتصب فى البحيرة الواسعة التى كانت تغطى هذا الاقليم عن طريق التربة التى تتجه من الجنوب الى الشمال مرة اسفل اللايرنت . كانت هذه البحيرة تحتجز مياه الفيضانات الكبرى ؛ أما فى اثناء انخفاض النهر ، فكانت المياه تتجه بالمثل جنوبا وشمالا نحو ممفيس عن طريق ترعة اخرى ، لتروى اراضى مصر السفلى ، التى يسمح انخفاض سطحها بأن تتجه المياه اليها .

تلك هى نتائج اعمالى التى حصلت عليها من البحث من الأماكن اثناء الوقت الضئيل الذى قضيته فى ولاية الفيوم ، واننى لشديد الثقة بأن العمليات التى كنت اتنوى القيام بها بعد ذلك كان بمقدورها أن تمدنى ببراهين رياضية للرأى الذى اتدعمه ، واننى لاسف اننى لم استطع أن اتمها ، واتمنى أن يحظى أحد الأوربيين ذات يوم بثقة اكبر من حكام وسكان هذه البلاد ، عله يستطيع القيام بها بنجاح .



وحيث أن التفاصيل التي وعدت بإيرادها في ثانيا هذا الوصف عن  
عرب الفيوم وبنى سويف ، يمكن أن تصبح ، في حالة تحقق افتراض  
كهذا ، ذات نفع كبير ، فقد أخذت على عاتقي - كواجب - أن أقدمها  
حتى أحقق كافة ما كنت أتمنى من معرفة تدور حول هذه المناطق الهامة .

### قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية الفيوم

عدد		عدد		القرى والمناطق التي يقعون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
ج	ب	رجال	خيالة مشاة			الاسماء الخاصة ( الفروع )	الانتم العام
١٠٠٠	١٦٥	١٠٠	٧٠	شرق التوتون	كرامى	كوم الوزاى	السالو
١٠٠٠	١٦٥	٧٠	٤٠	أبو جندير	سالم جوربة	الناسى	(أبو صالح)
١٠٠٠	١٤٠	١٠٠	٦٠	سنورس	حوت، الحاج محمد	الممرين	هو الشيخ
٤٠٠	٥٥	٧٠	٣٠	دفتو	محمد عبد الله	الروملة	الأكبر
١٠٠٠	١٥٠	١٥٠	٧٠	التوتون	رجيم	كامل المودات	للقبيلة (
				هلية	تقى الدين حسين		
١٥٠٠	٢٢٠	٢٠٠	١٢٠	العلوة	سليمان سيده	حواطة	
				الممصرة	داود		
				المصلوب	نصر يوسف		
				سرسنا	سيد ديله		
				جبله	جندودة		
١٠٠٠	١٧٠	٢٠٠	١٠٠	مطر طارس	أبو القاسم		
				بامى - آمون	جبلى عبد الله	الفرجان	
				ترسا	أبو زيد عبد الله		
				الزاوى	مبارك		
١٥٠	٢٠	٢٠	١٥	الروضة	.....		
٧٠٥٠	١٠٨٥	٩١٠	٥٥٥	المجموع			

## تائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بنى سويف

اسماء القبائل		اسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التي يقيمون بها	عدد الرجال		عدد
الاسم العام	الاسم الخاص			١٠٠	٢٠	
الضعفا	أولاد حمدة	عبد الأمير	{ أبو صير المعاونة	١٠٠	٢٠	٥٠٠
		سالم أبو ديار				
	الوطنات	متيرد	{ فن للعروس إفوة ميدوم	١٠٠	٣٠	٦٠٠
		محمد جريب بليدي				
	نولات سعيد	موسى عيسى	الحمام	٦٢	١٥	١٠٠
		عباس عمر الحبابي				
	السيدات	أبو بكر	الحافر	١٨	١٥	٦٠
	القاضي	يوسف أبو ذيل	الميمون	٤٢	٠٠٠	٦٠
		عبد محيط				
	نولات يزيد	ابراهيم زعيطه	{ صفت ميدوم	١٣٠	٣٠	٤٠٠
		لطفى				
		المجموع		٤٥٢	١١٠	١٧٢٠
				٣,٩٠٠		

## (تابع) قائمة القبائل العربية التي تقطن ولاية بنى سويف

عدد		عدد الرجال		القرى والمناطق التي يقيمون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
أ. ح. ح. ح.	ب. ح. ح. ح.	أ. ح. ح. ح.	ب. ح. ح. ح.			الاسم العام	الاسم الخاص
				دندبل	يوسف حاط	السعدى	السعدى
				البرج	عواد		
				الدوالة	عبد القادر		
				دلاص	عبد الله صروف		
٤٠٠	٨٧	٠٠٠	١٠٢	السيى	عبد الرحمن		
				بنى عدى	على		
				أبو صير	الندرك		
				منسط	رايد		
				قن المروس	حسن على الصويلى		
				كوم إدريجة	على رستن		
				باما	أحمد منصور	الفرايات	كسادوة
				الميمون	وسط جيو مع		
٣٠٠	٥٠	١٥	٥٠	منهرا	جيرة		
٥٠٠	٢٠٠	١٠	٦٠	اهناسيا المدينة	يوسف أبو صوين		
١٠٠	٤٠	٨	١٧	الزراى	عبد ربه		
١٠٠	٤٠	٥	٣٥	منهر	اسماعيل جياصى		
				منشية الحاج	محمد ماعونى		
٥٠٠	٢٠٠	٤٠	١٢٠	ميانة	محمد عبد المجيد		
					كسوم عمر		
٤٠٠	١٠٠	١٢	٦٠	ننسا	محمد صقيرة	الكولى	كسى
				الدويك	موكر		
					يريط		
٥٠٠	١٠٠	—	٤٠	مزورة	على ابراهيم		
					عبد مختار		
٢٠٠	٦٠	—	٣٥	صفط رامشين	—		
١٠٠	٦٠	—	٣٠	سمسطا	سليمان أبو ناى		
٢٧٠٠	٨٥٠	٩٠	٤٤٧	المجموع			

## ( تابع ) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بني سويف

عدد		عدد الرجال		اللقبى والمناطق التي يقيمون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
١	٢	٣	٤			الاسم العام	الاسم الخاص
٢٠	٥٠	٢٠٠	٨٠	زاوية الوالى أبو شريان الثوبك	أحمد أبو دياب محمود جيومم حسن أخيط	المسارحة	المسارحة
١٠٠	٢٠	٤٠	٣٠	—	أحمد حمزة	فرجان	
١,٥٠٠	١٠٠	١٠٠	٦٠	طورفة	سفع عمر	أولاد حينة	
٥٠٠	٣٠	٦٠	٢٠	شرشة	محمد	الخور	
٢,٥٠٠	٢٠٠	٣٠	١٠٠	العزبة	زبد	الحزاي	
٨٠	٣٠	٢٥	٣٠	—	أزيصة	أولاد جيار	
٦٠	١٥	٢٠	٣٠	جواة	عبد الله	زعونة	
٢٠٠	٤٠	٨٠	٢٥	دافوف	إبراهيم يوسف حسن تركى	الحمايدة	
١٠٠	٣٠	٦٠	٣٠	كروم والى	منصور أحمد سليمان خضرى	المرج	المحاريث
١٥٠	٢٠	٣٠	١٥	مرزوق	عمر شاكر عبد الله حسن	الأسمار	
٦٠٠	٤٠	٦٠	٣٠	برماشة صفانية	ابن حسن أبو موسى سليمان أبو سيجر	الدعامسة	
١٠٠	٣٠	٥٠	٢٠	كوم السمل	حسن	المجود	
٦٠٠	٦٠	١٠٠	٣٠	الشيخ مسعود	الحاج بركة	تينايط	
٦٤٩٠	٦٢٥	٦٥٥	٤٢٠	المجموع			



الدراسة السادسة :

# العرب والعربان في مصر الوسطى ١٠٠٠ هـ

● العنوان الاصلى للدراسة هو :

ملاحظات حول العرب فى مصر الوسطى



مكنتني الرحلات التي قمت بها ، وكذلك تلك الفترة التي قضيتها في ولايات مصر الوسطى (١) ، من ملاحظة طباع وعادات العربان ودراسة النظام الداخلي للقبائل ، سواء منها تلك التي اقبلت على احترام الزراعة منذ وقت طويل او فقط منذ اجيال عدة ، وسواء تلك التي لاتترع الأرض او حتى تستزرعها ، والتي لاتعمل ، عندما لاتكون في حالة حرب ، إلا في قيادة القوافل ورعى الماشية والجمال والمازر . وينطبق هذا التقسيم للعربان الى طبقتين كبيرتين على كل اولئك الذين يقطنون مصر منهم او يترددون عليها . وسوف استخدم هذا التقسيم في مذكرتي هذه للتعريف بالقبائل التي قمت بزيارتها ، واننى بهذه المناسبة لاحذر من ان هذه الملاحظات ، على الرغم من كونها ذات طابع عام ، انها هي باللغة الخصوصية بالاقليم التي تتحدث عنها .

ولست ادعى اننى اقدم هنا لوحة كاملة لتقاليد العربان ، اذ يقتصر عملى على ان اقدم تقريراً بالملاحظات التي أضمن صحتها اذ قمت بها ودونتها في نفس امكنتها حيث توفر لى الوقت والامن الكافيان ، اكدهما

---

(١) تتكون مصر الوسطى من ولايات الجيزة ، والبهنسا ، والفيوم ، واطفيح ، والاشمونين ، وقد اخذت الثانية والاخيرة اثناء الادارة الفرنسية اسماً : بنى سويف ، والمنيا ، على اسم مدينتين رئيسيتين كان يفترقهما الفيضان ، بينما كانت الأماكن الداخلية في منأى عن هذا الفيضان لوجودها في الداخل بعيداً عن مجرى النيل . ويتفق موقع هذه الولايات الخمس مع موقع اقليم هبتانوميد Heptanomide الذي كان يضم مدن : ممفيس Memphis اكسيرينثيس Oxyrynchus وهيراكليوبوليس Heracleópolis وافروديتوبوليس Aphroditopolis واثينوى Antinoé وكيونوبوليس Cynopolis وهرموبوليس الكبرى Hermopolis magna وفى اثناء السنوات ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، عبرت هذه البلاد وجمعت هذه المذكرات التي تنطبق اكثر ما تنطبق وبوجه خاص على ولايتى اطفيح والاشمونين .

ومن الضروري ان نتذكر ذلك ، للاحاطة بالظروف التي كتبت فيها هذه المذكرة .



أنتى كنت مصحوبا فى جولاتى على الدوام بفرسان من نفس هذه القبائل،  
 أو أنتى كنت أقيم بينهم . وسوف أولى اهتمامى بشكل أساسى ، بالعربان  
 فى علاقاتهم المعقدة مع البلاد ، وعلى ذلك ، فإن هذه الملاحظات — مع  
 أنها قد تبدو للوهلة الأولى منعزلة — سوف تساهم فى تقديم ملامح  
 لهذه الأمة الفريدة ، وفى خدمة تاريخها .

وحيث يمارس العرب المزارعون فى مصر نفوذا كبيرا ، وحيث أن  
 طباعهم وعاداتهم ليست معروفة لنا جيدا ، فسأبدأ بما يوضح أحوالهم،  
 ثم أعرض بعد ذلك ملاحظاتى عن العرب البدو الرحل وهم فى وقت معا  
 محاربون ورعاة . وينبغى أن تنقسم الطبقة الأولى الى طبقتين أخريين :  
 الأولى وهى التى استقرت فى مصر منذ مدة طويلة وهى من أصل آسيوى،  
 ويزرع هؤلاء الأرض بأنفسهم ، ويسكنون المدن التى تقع فى غالب الأحيان  
 على شواطئ النيل ، أما الأخرى فلم تعمل بالزراعة الا منذ فترة قريبة  
 فتتكون بصفة أساسية من عرب قدموا من شمال إفريقيا، وهؤلاء الآخرون  
 يشغلون جزءا من أرض الشاطئ الأيسر « الغربى » وهم فى غالبيتهم  
 يقيمون تحت الخيام ويستزرعون أرضهم بواسطة الفلاحين أى أبناء مصر،  
 ولهؤلاء وأولئك بقر ثابت ويخضعون للضرائب .

# الفصل الأول

## المرب المزارعون

### ١ - القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد :

هناك عائلات عربية بدأت الزراعة في مصر منذ دخول الاسلام ، وهناك اخرى اقبلت على احتراف الزراعة فقط منذ دخول الاتراك ، وقد زاد تعداد هذه العائلات بشكل كبير . ولقد طور هؤلاء الزراعة والصناعات الزراعية بأكثر بكثير مما صنع الفلاحون ، الا تدار ارضهم بعناية اكبر ، وهى كذلك افضل ربا ، كما ان تراهم اكثر ازدهاما بالسكان وبشكل عام فانه يكاد يعود الى العرب فضل زراعة وصناعة السكر في مصر الوسطى . وحيث انهم يكادون يسكنون جميعا شاطئ النيل الايمن « الشرقى » وهو ضيق الاتساع بعض الشيء حيث يحقق به الجبل ، فانهم لم يدعوا نقطة واحدة لم يزرعوها بدءا من مجرى النيل وانتهاء بسفح الصخور . ولهذا نجد لهذه القرى ملمحا خاصا يميزها بسهولة على القرى الأخرى ، ويمتلك السكان الخيل والجمال بأعداد كبيرة ، كما كان يفعل آبائهم من قبل ان يقبلوا القيام بأعمال الزراعة وقبل امتلاكهم بالتالى لمراع وفيرة ، ومع ذلك فعند اول اشارة للحرب يرى المرء هؤلاء المزارعين وقد تحولوا على الفور الى فرسان يتسلحون بالحراب شأن البدو ، بل ويعسكرون في السهول الى جوار مساكنهم الخاصة .

ومن السهل ان نميز هؤلاء عن الفلاحين عن طريق تقاطيع وجهم وطباعهم وكل خصالهم ، فلقد استمر الدم العربى يتدفق في عروقهم دون اى اختلاط حتى انك لا تستطيع ان تميز ملاحهم عن ملاح المصريين

المحاربين ، مما ان يمتطوا الخيول ويتلفعوا بالبرنس (٢) حتى تعمد كل وسيلة للتعرف عليهم . فقد احتفظوا بخطوط الوجه ، وبخاصة بالعينين الصغيرتين اللامعتين اللتين تميزان هذا الجنس ، وان كانوا قد احتفظوا فوق كل شيء بروح الجشع والضاورة والشجار والمحاكة .

وجيرة كهذه لا يمكن ان تكون بالنسبة للفلاحين سوى كارثة ، فهم يجورون باستمرار على اراضى الآخرين ، مرة تحت الادعاء بأن النيل قد اكل جزءا من اراضيهم وان عليهم ان يستعوضوا عنها من اراضى الشط الآخر من النهر ، ومرة اخرى بادعاء حقوق قديمة مزعومة قد تعود حسب اقوالهم الى عشرة اجيال ، واخيرا فانهم عندما لا يجدون ذريعة يمكن ان تستعملهم فى جورهم هذا ، فانهم يركبون خيولهم ويستولون بقوة السلاح على الاراضى التى تناسبهم . وليس ثمة مثال واحد على ان محاولة من هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، واذا حدث ان استنفرت بعض القرى ابناءها لمقاومتهم بالقوة فانها تدفع ثمن ذلك باهظا ، ويجد العربان افضل دعم لادعاءاتهم فى قوة سلاحهم وكثرة تعدادهم عن الآخرين . . وهكذا يعيش الناس فى مجاورتهم فى خوف لا يقطع وعلى مر الايام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم حتى تهجر تماما .

وتبنى الاخلاص الذى يسكنونها بشكل ردىء . واذا ما اردنا الدقة فائنا نقول بأن هذه ليست فى غالب الأحيان سوى أكواخ ، فى حين يجد المرء فى قرى الفلاحين على الدوام بيوتا مناسبة وجيدة البناء (٣) . ولا يرى فى قرى العربان بيوت للممالك ؛ فهؤلاء لا يذهبون مطلقا للاقامة بين العرب وهم لا يحصلون الضرائب من هناك الا بمشقة بالغة مع ترك تقديرها على الدوام لادعاءات مشايخ هذه القرى ، لذلك يمكن القول بثقة بأن الممالك لم يكونوا يحصلون على ضريبة عن كل مصر ، ولنفس هذه

---

(٢) رداء أبيض اللون ، مزود بغطاء للرأس ، ومصنوع من صوف تتفاوت درجة نعومته يغطى به العربان كل جسمهم فيما عدا الوجه والاطراف .

(٣) ومع ذلك فهناك قرى عربية مثل بنن حسن وبرشة وقرى أخرى مبنية على نحو طيب .

الأسباب لآتى الفرنسيون كبير عناء فى تحصيل الضريبة من كثير من هذه القرى ، التى لم تكن تدفع ضرائب على الإطلاق لآى شخص .

ويكاد يكون سكان كل قرى الشط الأيمن للنيل فى ولايات أطنيج واشمونين ومنفلوط من العرب القدامى الذين ينتمون الى قبيلة تسمى المعطيات : وكثير من هؤلاء لم ينخرطوا فى الزراعة الا منذ عهد على بك ، كما انهم لم يستقروا فى وادى الطير وطهينة الا منذ عشر سنوات . وتستمد القرى المعروفة باسم العمارنة اسمها من اسم جدها ، وهو عربى قديم يسمى عمران ، تقدم من بلاد الحجاز الى مصر ، فخرّب تلك المدينة الكبيرة الواقعة بين الحواطة والقل وبنى من حولها بعض المساكن . ولقد تصارع ابنائهم لسنوات طويلة على امتلاك الأراضى الواقعة على شاطئ النهر ، ولا يزال أحقاد هؤلاء حتى اليوم متنازعين حول الأمر نفسه . وقد شاهدت بنفسى شجارا قام بين سكان بنى عمران وسكان نزلة سعيد بسبب اختطاف احدى السيدات على يد واحد من أفراد أحد الفريقين : وقد قتل مدبر هذا الشجار ، ووضع موته حدا للمعركة ، فقليل من الدم المسفوح يهدىء فى العادة كل هذه الحروب العائلية لفترة من الزمن على الأقل .

وليس ثمة قرية عربية الا وبها عديد من المشايخ ، ويميش هؤلاء الشيوخ عادة فى شقاق فيما بينهم ، وبذلك تبدو قراهم منقسمة الى اجزاء عديدة متميزة وسرعان ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم الى الاقتتال ، وينساق الى خوض هذه المعارك الأهل والأصقفاء ، ويحدث ان يموت احدهم بعد وقت يطول او يقصر ، وتضطر أسرة القتيل الى الفرار مع جزء كبير من السكان ، ولكن الى اين وقد انتزعت عنهم كل اراضيهم ومنشأتهم وعقاراتهم ؟ لكن لا تظن بهم الحيرة ، فلسوف يتجهون الى مسافة فرسخين من ارض المعركة ، ويقبضون فوق اراضى الفلاحين اما باستخدام القوة الصريحة عندما يكون المهزومون بعد أكثر قوة مما يلزم لصددهم عن هذه الأراضى ، وإما عن طريق المختلة عندما يعدون بهزيمة خصومهم وتعويض الفلاحين عن اراضيهم ، بتلك التى سيستولون عليها . وهكذا رأينا مصر ، عاما بعد عام ، تفص بهذه القرى الصغيرة التى ليست سوى أكداس من الأكواخ ليس بها نخلة واحدة ، وتحمل كل منها

اسم الشيخ العربي الذى أسسها ، ومن اللافت للنظر انها تسمى نزلة أو نزل وهى كلمة تعنى النزول . انها اذن نوع من المستوطنات تدين بنشأتها لكثير غيرها الى الغزو واستخدام العنف ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد اسماء نزل أبو جانب فى ولاية أشمونين أو المنيا ونزل المطاهرة فى اطفح ونزل بنى حسن (٤) وثلاثين نزلا آخر ، وهكذا تستمر مشاحنات القرى العربية خلال الأجيال حيث هناك ماينبغى الحصول عليه ، سواء كان ذلك لصالح الحزب المنتصر ، أو كان ذلك لصالح الحزب المهزوم .

ومعظم الجزر ذات الاهمية مملوكة للعرب . ولكن اذا ماعدنا الى اصل هذه الملكية فسنجدها قد قامت على الاستبداد والظلم ، اى انه تحت الادعاء بأن النهر قد اكل اراضيهم وأن من حقهم الحصول على شواطئ الجزر المقابلة متزعين بذلك المثل المصرى القائل بأن النهر يرد من جهة ما اخذه من جهة أخرى ، ثم بعد ذلك يتوغلون باطراد فى داخل هذه الجزر ثم ينتهى بهم الامر بطرد سكانها القدامى ، واعرف على ذلك امثلة عديدة، ولكن اكثرها اهمية بلا جدال هو مثال جزيرة الزعفرانة الكبرى التى كانت ملكا لقرية منشية دعبس (٥) والتى انتزعها سكان قرية الشيخ تى وسكان قرية بنى حسن ، وهما قريتان عربيتان تقعان فى مواجهتها ، وانتزعوها حديثا من فلاحيهها دون مراعاة لأبسط قواعد الشككية ، وحيث كان الأمر سوف يستغرق كثيرا فى تبين الحدود القديمة التى نهاها الفيضان وتنظم حقوق كل طرف بالتالى ، فقد سلك العربان الطريق الاتصر وهو طريق العنف ، فقطعوا النخل المزروع بالجزيرة وخرّبوا بيوت القرية وقتلوا شيخ المنشية وجرحوا ابنه ومعه كثير من الفلاحين ؛ ويعيش فيها العرب اليوم ملاكا آمنين بينما هى تعد واحدة من أجمل جزر النهر .

وتضع القرى العربية أيضا يدها على الاراضى التى تتاخم الشاطئ الأيسر للنهر ، وقد حصلت على هذه الاراضى بنفس الطريقة التى حصلت

(٤) عقب المعارك التى نشبت فجأة فى بنى حسن ، والتى جعلت اهاليها يتركونها منذ خمسين عاما ، كون الأهالى اثنين من هذه النزل أو القرى التابعة تحت قيادة أبو عمر . وقد انفرط عقد هذين النزلين من تلقاء نفسيهما اذ اتجه سكانهما الى الشط الأيسر ليكونوا هناك قرية تسمى كرم أبو عمر .

(٥) تقع على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الجنوب من مدينة المنيا.

بها على اراضى الجزر بلا جدال ، وتمتد هذه الملكيات الى ربيع الفرسخ داخل الأرض ، وهناك فوق هذه الأراضى الرملية ، التى يفرقتها النيل ثم ينحسر عنها على التوالى يزرع العرب التبغ والبطيخ وصبغة النيل كما يزرعون قصب السكر ، كل ذلك بقصد تدعيم حقوقهم فى هذه الأراضى . هكذا يرى المرء اطراد زيادة ممتلكاتهم فى مصر ، ولست أشك فى أنهم سوف يستولون بطريقة غير محسوسة على اكبر مساحة من الأرض اذا لم تضع الحكومة (٦) حدا لغزواتهم ، واذا لم تسن قوانين محددة بالنسبة لحدود الأراضى ، وفى الواقع فأننا نرى أن هذا السلوك الاستبدادى للعرب المزارعين سيؤدى بهم أن يصبحوا سادة لجرى النيل ، أى لتلك القطعة الأكثر أهمية من أرض مصر بالنسبة للتجارة ولشئون الدفاع عن البلاد ، بل لقد أصبحوا كذلك بالفعل مع بعض التحفظ حيث يوجد فى قراهم أكبر عدد من النوتية « المراكبية » والمعدد الأكبر من المغاندل والقوارب من كل نوع ، ومع ذلك فنحن لم نر الا فى عدد قليل من هذه القرى قوارب مبنية ، وقد يكون علينا أن نضيف بهذا الصدد بأن بقية أنواع القوارب التى لديهم تأتيمهم عن طريق السلب .

وفى بعض الأحيان يستولى سكان الشاطئ الأيمن على قطعة من الأرض تقع على الشاطئ الآخر ويزرعونها دون أن تكون لهم هناك قرى ، وفى أحيان أخرى يبيتون هناك لأنفسهم دون أن يكون ثمة أرض لهم ، وفى هذه الأحوال يزرعون أراضى القرى المجاورة ، لكنهم على الدوام لا يحصلون لأنفسهم على هذه المساكن الا باستخدام العنف ، ويحدث هذا عندما تجرد أسرة أو أكثر من أسرة من أرضها وفى هذه الحالة يعبر هؤلاء النهر بلا تردد وبيتون لأنفسهم فى عجلة اكواخا تتحول شيئا فشيئا الى قرى ، ويستاجرون من جيرانهم بالقوة بعض أراضيمهم مع احتفاظهم بحق املاء الشروط .. وهكذا .. وفى الوقت الذى يدفع فيه الناس فى بلاد أخرى ثمن اقامتهم ، فإن العرب هنا يبتزون أولئك الذين يستضيفونهم .

---

(٦) اقصد بكلمة حكومة هنا حكام مصر الذين يحكمونها حسب أنظمة أو مؤسسات البلاد كما سلك الفرنسيون أثناء حملتهم ، وكملكك الممالك أنفسهم ، ويستطيع القارئ الذى قد يرغب فى الحصول على معلومات خاصة حول حكومة مصر أن يعود الى الدراسات الخاصة بهذه المادة .

وقد قابلت من شيوخ القرى العربية بعض الرجال لا يشاركون قومهم هذا الميل نحو السرقة والعنف ، على سبيل المثال فى قرى وادى الطير وزاوية الميتين بالقرب من المنيا ونزلة نوير وأماكن أخرى . وقد قدمت بعض هذه القرى خدمات للجيش الفرنسى حيث يمتلك سكانها وسائل أوفر مما يملك الفلاحون سواء فى الخيول والجمال أو سواء فى العلف ، وفى نفس الوقت فىالعناد الآخرين واصرارهم على رفض اداء الضريبة ، وكم قتل هؤلاء من جنودنا !

وحيث اننا لا نعرف جيدا السكيفية التى تغيرت بها ملكية اراضى مصر عند دخول العرب ، فقد يجوز لنا أن نستنتج أن الجزء الأكبر من الجيش العربى بعد الاحتلال الكامل للبلاد قد عاد الى آسيا وان جزءا منه بعد أن سرح — قد انتشر كثير من أفراده فى مصر وعاشوا على السلب والسطو ، ولأن هؤلاء كانوا أضعف من أن يسيطروا على الوادى الكبير فقد استقر بهم المقام على الشاطئ الأيمن حيث تحدد الصخور فى غالب الأحيان بالنهر ، وهناك أخذوا يتقدمون خطوة بعد خطوة من الرمال حتى بلغوا الأراضى المزروعة ، وبعد ذلك أصبحوا مزارعين ، ثم بشكل غير محسوس ، ملاكا لقرى هذا الشاطئ بعد أن طردوا سكانها بفعل الخوف والرغبة من العدو والسلاح .

قلت ان هؤلاء المزارعين « العرب » هم الأحسن تسليحا . وفى الواقع فإن قراهم تهييء وفرة كبيرة فى البنادق والطبنجات والمسدسات والسيوف . الخ . . لكن مهارتهم كبيرة فى اخفائها ، وهناك سلاح نادرا مايتروكه ، وهو ماينتص فلاحيههم — أقصد بذلك تلك الحربة القصيرة ، يضعها على الدوام الى جانبهم الفلاحون البسطاء بل وأكثرهم فقرا ، وهم الذين يعملون فى رى الأراضى ، وعندما يتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة للقيام بعملهم ، الأمر الذى يحدث غالبا فى الشتاء ، يرى المرء على رأس الترع غابات من الحراب المرشوقة بالأرض ولا يمكن تصور أن هذا السلوك يقصد من ورائه الذود عن املاكهم ، إذ أن هؤلاء لا يكادون يملكون شيئا ، بل ولا يمكن تصور أن ذلك يتم بقصد حماية ملابسهم لأنهم يذهبون الى عملهم شبه عراة ؛ لكن عادة أن تكون مسلحا هى عادة مطبوعة عند العرب .

وعندما تكون لك مصالح ينبغي أن تسويها معهم ، سواء كان ذلك مع كبارهم أو مع أبناء الطبقات الدنيا منهم فستلمس في استقبالهم في البداية شيئاً من الفتور والاستخفاف والصمت المتصنع — أما إذا حدث أن اهتموا لك ، فلا بد أنهم بذلك يقصّبون خداعك ، فالكذب عادة متأصلة فيهم ، وبخاصة في علاقتهم مع الفلاحين والأوربيين ، ومهما يكن كذبهم هذا مطبوعاً ، فاتهم لا يبارسونه طواعية ، وبهذا القدر من الطبيعية والنجاح ، إلا إذا كانوا يصدد التعامل مع هؤلاء الآخرين . ويتحدث الناس كثيراً عن فضائل العرب ، وعن صراحتهم ، وعن العقيدة الدينية التي تدعم كلمتهم ، وعن ميلهم إلى إكرام الضيف .. لكن أيا يكن الأمر من هذه المزايا ، فإن عليك أن تبحث عنها في مكان آخر ، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر ، فهذه الفضائل ، عند هؤلاء لا تكون مطلقاً على حساب مصالحهم الخاصة ؛ فالزيف والرياء والكذب ، هي أسلحتهم المعتادة ، وليس ثمة ما يفوق مآلذهم من تصنع وعنف ، حين يريدون تنفيذ مآربهم ، وبصفة خاصة عندما يتعاملون مع آخرين ، من غير العرب .

ووقت تصنيع السكر ، يتعرف المرء من بعيد على القرى التي تحدث عنها عن طريق صوت الطواحين ورائحة ثفل القصب وبخاخ المداخن ، أما عن قرب فأنك تستطيع تمييزها على الدوام وفي كل الفصول . وكأمر مؤكد ، عن طريق ملامح السكان وتقاطيعهم . ففي الواقع ، فأنك ستجد في أول رجل تقابله هذه العيون البقطة التي ليست إلا للعرب . وعندما يبرز في قراهم رجال لا يعرفونهم فإن تماسكهم يضطرب كما يحدث للصمصاء أخفوا على غرة ، ومع ذلك فإن حيبتهم تبلغ درجة لا يمكن تصديقها ، وعندما يبلغهم نبأ اعتزام بعض الفرق « العسكرية » المرور بقربتهم فإنهم يخبثون دوابهم وخبولهم أو يرسلون بها إلى الصحراء ، وعندما تصل الفرق بينهم ، يحتفظون بهدوئهم ويظلون بلا حراك ، فيما عدا نأيات ملامحهم ، وتلك النظرات الكثيرة والحزينة التي تقذف بها أعينهم ، ولكن ينبغي أن يكون مفهوماً أن هذا السلوك يحدث فقط من أبناء الطبقات الدنيا وأن كنت قد شاهدت شيوخاً يمكن أن ينطبق هذا الوصف عليهم . وختاماً ، فأننا إذا نحينا جانباً هذا المظهر الخارجى وهذا الاستقبال



المحب ، فلابد أن نتفق على أننا كنا فى معظم الأحيان نجد فى هذه القرى  
 مئونة أكثر بل وتعاوننا افضل مما كنا نجده فى قرى الفلاحين ، وان كان الأمر  
 فى ذلك يعود الى اسباب كثيرة منها انه يوجد فى القرية العربية مشايخ  
 عديدون لابد ان يكون من بينهم ولو واحد على الأقل ، يتقدم الصنف ويتعهد  
 بتقديم المئونة المطلوبة شريطة ان يحصل على ثمنها ، ومنها كذلك انه مع  
 تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين ، الا ان ما لدى العرب  
 من ثروات غذائية ودواب يفوق ما لدى الأولين ، كما ان ما لديهم من وسائل  
 فى كل ضرب اكبر بكثير مما لدى أولئك ، ومنها أخيراً ان الشيوخ فى القرى  
 العربية يبدون أكثر سطوة على مزارعيهم ، من ذلك النفوذ الذى يحوزه  
 الشيوخ فى القرى الأخرى .

والحصولان الرئيسيان عند العرب هما قصب السكر ومحاصيل  
 الأعلاف مثل الحلبة والبرسيم . . لأن ما لديهم من جمال وخيل وماشية  
 أكثر مما لدى الآخرين ، ويأتى بعد ذلك الذرة والشعير والقمح والخضروات ،  
 وحيث تلقى الزراعة عندهم عناية أكبر ، فاننا نجد لديهم من الشرايف  
 أكثر مما نجد فى أى مكان آخر ، ويبسود الرجال الذين يديرونها وكأنها  
 يستمعون على القصب ، وهم يقتنون هذه الآلات من أجل زراعات القصب  
 والقمح والشعير الشتوى ، وكما يولون بالمثل عناية فائقة بخيولهم .

وكثيراً ما يستخدم العرب فى زراعات الذرة وكذا القمح نوعاً من  
 السماد يعرف بالسبخ ، وهو عبارة عن الرماد والأتربة التى تستخرج  
 من انقاض المساكن القديمة ، وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من  
 نترات الصوديوم . وهم ينخلون هذا السبخ لاستخراج قطع العملة  
 والمعاديات والانتيكات من كل نوع والتى تحتويها عادة ، وحيث ان القرى  
 العربية أكثر سكاناً من غيرها فان من يعملون بها بهذا العمل ، أكثر من  
 يفعلون نفس الشيء فى قرى الفلاحين الذين يستخدمون بالمثل هذا السماد .

ويزرع سكان القرى العربية بوفرة اشجار النخيل كما راينا فى بنى  
 حسن وكذلك بالقرب من انتنوى ويزرعون كذلك الكثير من اشجار الأكاسيا  
 والنبق . لكنى لم ار مطلقاً حدائق فى القرى ، فالعرب لا يفعلون  
 مالا ضرورة له حتى ولو كان يقصد المتعة ، وهم يبتنون مساكنهم على

الدوام تقريبا على حافة الاراضى الزراعية ، او فوق ارض لا تزال تغطيها الرمال رغبة فى الاقتصاد فى الأرض القابلة للزراعة .

وفى تلك المساحة الضيقة من الأرض الواقعة على الشط الايمن ، حفر العرب المزارعون كثيرا من الترع والقنوات التى تأخذ مياهاها من النيل ، ولقد حفروها بعناية كبيرة ؛ ولا تروى اى من هذه الترع الا اراضى القرية التى حفرتها ، وهذا امر ضرورى بالنظر الى قلة عرض الأرض هناك ، لكننى لم اشاهد جسورا بين ارض واخرى واقصد بذلك جسورا كبيرة لانه توجد جسور لا مفر منها فى حقول الذرة ، واظن ان غيبة هذه الجسور كانت امرا لا بد منه حتى يكون من الميسور تماما انشاء ترعة او ترعين بكل قرية ، دون ان يتكلف الأمر مصاريف باهظة ، ولرى الاراضى دون انتظار للمياه التى يمكن ان تجيء من القرى العليا « الجنوبية » ، وهناك سبب ثان لذلك ، وهو ان صيانة هذه الجسور — حالة وجودها — وقطعها واعادتها سوف تكون موضوعات مستمرة للشجار .

والصناعات الرئيسية لعرب هذه القرى هى تلك التى ترتبط بمحاصيلهم اى صناعة السكر (٧) وصناعة صبغة النيلة . وتغزل نساؤهم الصوف ، ويصنعون منه فى قراهم عن طريق بعض المسيحيين ، او بعض الفلاحين الذين يرى اولئك ان يسمحوا لهم بذلك ، اثوابا خشنة تسمى بثت ، وهو قمائش غامق اللون يستخدمه الفلاحون رجالا ونساء فى صنع ملابسهم ، اما الأكثر ثراء من بين هؤلاء فيشترون اثوابهم وطربوشهم (٨) من المدن .

واكبر تجارة لدى العرب هى تجارة السكر والبلح . . وهم يذهبون لبيعها فى مصر العتيقة ، لكنهم يحتفظون بالقمح والشعير لاستهلاكهم او من اجل استهلاك خيولهم . اما فى الاسواق فيبيعون الماشية ودواب الحمل كما يبيعون الصوف وكميات قليلة من فحم السنط .

(٧) يصنع العرب السكر بكميات كافية بحيث قلما يتجاوز ثمن القنطار ٤ ريالات ( بوطاقات ) وبذلك يكون ثمن الرطل زنة مارك ( marc ) ٥ - ٦ سو ( sous )

(٨) نوع من غطاء الرأس . أحمر اللون . ومصنوع من الصوف ، تلف من حوله العمامة .

ولدى الشيوخ معلومات دقيقة عن اعماق الوديان فى الصحراء ، ولكنهم يدينون بمعرفتهم تلك للبدو الذين يتصلون بهم على الدوام للتزود بالاشياء الضرورية لحياتهم ، وعن طريق هؤلاء يعرفون مخارج الوديان واتجاهات الاخوار او مياه الأمطار وبذلك يعرفون كل المناطق التى يمكن لهم ان يجدوا بها الماء ، وهم يستطيعون تمييز الطرق القابلة للاستعمال من تلك التى لا تصلح لهذا الغرض ، وهكذا يستطيعون حسب مشيئتهم ان يقدموا خدماتهم او يمنعوها عن الفرق « العسكرية » التى تحتاج الى التوغل فى الجبال ، وبذلك يكون لدى مقدورهم ان يسلموهم الى العطش، وان يضللوهم وان يجعلوهم يهلكون فى الصحراء . ولقد انحاز كثير من هؤلاء الشيوخ الى الممالك ثم الى الفرنسيين ، كل بدوره ، فى تلك الحرب الأخيرة ، ودائما ابدا من اجل الحصول على المال . وفى معظم الاحيان كانوا يرشدون الفرق الفرنسية الى طرق عكسية لتلك التى كان عليهم ان يسلكوها للحاق بالممالك ، لذلك غنادرا ما استطاع الفرنسيون ان يأخذوا هؤلاء على غرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكثير من العربان ناعمين لنا ، وكم ارشدونا الى الطرق التى تصلح لمرور المدافع وتلك التى يستطيع فيها سقاية القوافل .

وليس هناك ما يمكن قوله حول طعام العربان دون ان يكون الامر منطبقا على طعام الفلاحين ، فطعامهم يضم بالدرجة الاولى خبز الذرة والبن والبيلاف « طعام شرقى يتكون من أرز ولحم وتوابل » . اما طبقهم الكبير المشتمل على الخروف والدجاج المسلوقين معا فشهى ولذيذ الطعم ، وبصفة عامة فانهم يتفخذون على نحو ما بشكل افضل من بقية السكان ، ويفعل اولئك مثلما يفعل هؤلاء حين يقيمون الكثير من ابراج الحمام .

وهناك فرق ملحوظ بين هؤلاء العرب وبين غيرهم من العرب الآخرين ، ذلك هو انهم لا ينطقون اللغة مثلهم لكنهم ينطقونها مثل الفلاحين ، فهم على سبيل المثال لا يعطشون الجيم فيقولون جسر وجامع بدون تعطيش للجيم كما يفعل الفلاحون وليس بتعطيشها كما يفعل العرب المحاربون « البدو » . وبالمثل فهم لا يقولون ثلاثة « بالشاء » وانما ثلاثة « بالناء » . وهذه الملحوظة تشمل اكبر عدد منهم ، ومع ذلك فكثيرون منهم ينطقون اللغة على طريقة البدو .

ولسكان هذه القرى ملامح أخرى مشتركة مع الفلاحين ، فهم يشاركون هؤلاء في تلك اللامبالاة بل في ذلك النوع من الازدراء الذى ينظرون به نحو الآثار القديمة المصرية والرومانية ، وهم لا يتقنونها الا من أجل ما يعود عليهم منها من نفع عندما يحصلون منها على مواد تصلح لاحتياجاتهم اليومية .. فضلا عن ذلك فهؤلاء ليسوا اقل من اولئك جهلا وخرافة بخصوص الأصل الذى ينسبون لهذه المباني ، فهم يعتقدون ان الجن هم الذين حفروا المحاجر والمغارات وشيدوا القصور والمعابد ، بل ويدعون انهم يعرفون أسماء وتاريخ هؤلاء الجان .

وهناك شكوى لا تنقطع من هؤلاء اللصوص المرعبين الذين يسكنون شواطئ النيل في الصعيد ، وانه لن الخطأ ان نتهم أبناء البلاد ، فليس هؤلاء اللصوص سوى سكان هذه القرى العربية ، ومهارتهم في ذلك تفوق التصور ، وهى شائعة ومعروفة لحد سيكون مضیعة للوقت ان نضرب هنا الكثير من الأمثلة . ولقد كانت فرقنا في الصعيد شهودا على الوف الأساليب الجسورة والوقحة ، والتي تبعث على الدهشة دائما ، ويجد المرء صعوبة في تصديقها على الرغم من كونها وقائع . فكم من مرة اخفوا الخيول وهى على مقربة من فرسانها ، او اخذوا الأسلحة من موقع او داورية استطلاع او من الحراس انفسهم ! ولقد كنا نرى هؤلاء الرجال يختبئون في النهار بين اكاداس المليق « العلف » ، ويخرجون بالليل ليمارسوا السرقة ، وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هذه الاكوام ، ومعهم الأسلحة التي اخذوها .. بل لقد انتزعوا حقائب وينادق من تحت رعوس الجنود ، وسرقوا السيوف وهى الى جانب حقائب الضباط !.

وهناك من هذه القرى ، من يمارس كل سكانها — بما فيهم شيوخها انفسهم — مهنة اللصوصية . فهم يقطعون الطريق ويسلبون الصنادل مهما تكن حمولتها ، كما ينهبون الأسواق والمسافرين ، ولدى البعض منهم قوارب يستخدمونها في الهجوم على الصنادل الملاحية ، وبعض هؤلاء يأتى سابحا لينتزع بمهارة كل ما يستطيع الإمساك به . ويمكن أن نذكر نزلة النوايل ، وهى قرية تقع على الشط الايمن الى الشمال قليلا من منفلوط ، كمثال لقرية كل سكانها لصوص محترفون ، ولقد قيل لى ان المالك قد

قتلوا من سكان هذه القرية ستين رجلا دفعة واحدة منذ عدة سنوات . لابد أن تكون بلاد كهذه بأئسة لحد كبير ، لا حماية فيها ولا أمن ، حتى تحدث فيها كل هذه الممرقات وأعمال قطع الطريق دون أن تتمتع ، وفي الواقع فإن هؤلاء يرتكبون هذه الجرائم دون أن يلقوا أدنى عقاب ثم يعودون بعد ذلك إلى أعمالهم . بل أنهم يدفعون الضرائب . وهناك سكان قرية أخرى مثل بنى حسن لا يجروون على الإقامة في بيوتهم المنيية بشكل جيد ، ويفضلون الإقامة في أكواخ من البوص وسط أشجار النخيل حتى ينفذوا مشروعاتهم بشكل أفضل ولكي لا يكونوا في متناول يد البحث « عن اللصوص » وما أن تصل قراهم حتى يستولى عليهم الفزع ، وذلك الشعور الملازم للجريمة ، مما يجعلهم يجرون أملاكهم فيمتد المنازل مهجورة ، وتكاد لا تعثر فيها على عجوز تعطيك جرعة ماء .

والجانب الأكبر من القرى السبع التي يطلق عليها في مجموعها اسم الممارنة وأهمها قرية بنى عمران قد احترق هذه المهنة المزرية ، وقد شاهدت عرب هذه القرى يوقفون بلا حياة ، وفي وضوح النهار قريبا كان يتجه إلى الجنوب لينتزعوا منه النساء على الرغم من صيحاتهن ومن مقاومة الملاحين . وثمة واحد من أكثر المشاهد التي رايتها في حياتي تهورا ووثاقة ، قد رايتها عند ركوبى النهر . كان ريس أو ملاح صنفلى وأتفا ممسكا بالجفاف في يد ، ومجأة خرج واحد من سكان الممارنة ، وصعد الدفة ، وانتزع من فوق رأس الريس العمامة والطربوش وسارع بالقاء نفسه في النيل ، واختفى تحت الماء ، وظل غاطسا لوقت طويل ليخرج بعد ذلك على بعد ٤٠٠ قامة من هناك ، على الشاطئ المقابل للنيل .

## ٢ - القبائل التي استقرت حديثا :

لقد جاءت كثير من القبائل العربية القادمة من شمال أفريقيا لتستقر في مصر منذ حوالي قرن . وقد حصل هؤلاء العرب على أراضي عدة قرى وزرعوها أو استزرعوها في غالب الأحيان : وهم يزرعونها عادة بمحاصيل الحلف ، ويرعون فيها خيولهم ودوابهم لمدة تسعة أشهر في العام ، ومن بين هؤلاء ، تلك القبائل التي تعرف بأسماء : بنى وافي ، أبو كرايم ، محارب ، الطحيوى ، وهناك قبائل أخرى قد تفرعت عن هذه القبائل الأساسية . . ولا تزال القبيلتان الأوليان وتلك القبائل التي تفرعت عنهما

مثل الجهمة والطراھونة يسكنون تحت الخيام ، لكنهم لا ينصبون هذه الخيام الا فوق ارضهم او فوق الأرض التى يستأجرونها ويدفعون عنها الضرائب . ومع ذلك فانهم لا يستسلمون مطلقا للهزيمة اذا ما هاجمهم عربان الخيش ، فلديهم هم ايضا خيامهم ورمائحهم ، وجمالهم وخيولهم معدة على الدوام للجوء الى الصحراء اذا ما حدث ان جردوا من الاراضى التى تملكوها . والمعارك والمشاحنات كثيرة بين هذين الفريقين من العرب . وقد شهدت كثيرا من المعارك الدامية ورايت عند هذا الفريق وعند ذاك شجاعة حقة او بالأحرى سلوكا ملينا بالشراسة والبفض والاحتقاد .

ويشكل العرب « المزارعون » الذين لا يزالون يستخدمون الخيام حدا فاصلا بين العرب المزارعين الذين تحدثت عنهم فيما سبق وبين العرب المقاتلين او الرعاة . فهم يتميزون عن الاولين بانهم لا يشكلون جزءا من سكان القرى وبأنهم لا يزرعون مطلقا بأيديهم ، ويتميزون على الآخرين « البدو » بانهم لا يقيمون من اماكن اقامتهم او على الأقل المنطقة التى يقيمون فيها . وهناك شيخ معين من بينهم يمتلك اراضى ثلاث او اربع ترى بحكم كونه ملتزما « ملتزم » ، وهو أغنى شيخ فى كل الولاية . لذلك فهؤلاء العرب مرهوبون من جانب الفلاحين ، ويحرص هؤلاء على ارضائهم اذ يرون على ابواب قراهم ما يصل الى ستمائة فارس مستعدين لاتزال المقاب عند ظهور أدنى مقاومة ( من جانبهم ضد العرب ) .

بل يمكن القول بان الفلاحين يحترمونهم كسادة لهم . ويستقبل اقل واحد من هؤلاء العربان شائنا ، سواء كان مسافرا على ظهر جملة ، او سائرا على قدميه ، باحتفال فى الريف فيهرع اليه الناس حاملين الماء ان كان عطشاننا ، والبلح والخبز ان كان جائعا ، او على الأقل ، فان اى فلاح هناك يستجيب لتقديم هذه الاشياء عند اول طلب . ويسمر العرب على الدوام مسلحين ببندقية ذات حمالة ، وعندما يركبون الخيول ، فانهم يتسلحون بالاضافة الى ذلك ، بحربة ورمح قصير فى اليد . اية مقاومة يمكن ان تبديها هذه القرى ، ضد جماعات الفرسان هذه ، والتى تتهاون معهم الحكومة ، فى حين ان رؤساءهم انفسهم من كبار الملاك ؟ انك لاتستطيع ان تحصر عدد الجرائم والمظالم والأعمال الجائرة التى يرتكبها هؤلاء الفرسان ، ففى

أسواق القرى على سبيل المثال حيث يتجمع الناس في شكل جمهور لبيعوا الماشية والبلح والذرة والدخان . . الخ ، يكون كل الغنم في جانب العرب ، اذ هم يفرضون بسهولة سطوتهم على الحشد ، فليس هناك من ملاح واحد يكون بمقدوره أن يجادلهم في ثمن أى شيء يعرضونه ، والا يعطيهم سلمته بالثمن الذي يحددونه هم ، ويبدو الحرية التي يفرسها العربي ، في صلف وقحة ، الى جانبيه ، في عرض السوق وكأنها تقول « اننى هنا ، صائغة القاتون » ونستطيع أن نميز هؤلاء عن بعد في تجمعاتهم الكثيفة ، ومن ملابسهم البيضاء ، وصوتهم الحاد ، وهم يستولون — بمعنى كلمة يستولون — على السوق ، وينتهى بهم الأمر أن يبيعوا وأن يشتروا لصالحهم كل ما يريدون ، وفي واقع الأمر ، فانهم يعملون في خدمتهم سلاحا ليس بأقل أثرا من رماحهم وحرابهم ، ذلك هو دهاقهم الشديد ، والذي لا يمكن مقارنته الا بجسارتهم .

واليكم الملابس التي يرتديها العربان وهم في السوق ؛ على الرأس طربوش احمر ، بلا عمامة في معظم الاحيان . وعلى الجسم برنس او معطف ابيض من صوف تنفصاوت درجة نعومته يغطون به عادة أعلى الوجه وتحت الذقن ، وهو يغطيهم من الرأس حتى القدمين . ويلبسون تحت هذا المعطف قميصا من الصوف وحزاما ، ويرتدى الميسنورون منهم صديريا فوق القميص ، وفي القدمين ينتعلون خفا احمر اللون ، وبرايم المرء في هذه الأسواق حاملين مسدساتهم ، وسيوفهم ، ومطارقهم ، وحرابهم ، وبنادقهم ذات السنوكى (٩) ، ويعرضون بضائعهم وهم مسلحون على هذا النحو على الفلاحين ، كما أنهم متعودون على حمل قرايبنهم خلف ظهورهم ولا يخلعونها مطلقا حتى عندما يلقي القبض عليهم . ولشيوخ القبائل والاثرياء الفرسان مهاميز جميلة ، مذهبة ، واسرجة فخمة لا تختلف عما لدى الممالك الا في أن ظهر السرج مقوس واكثر انخفاضا مما يجعله بالنسبة لهم بمثابة كرسى مريح . فهل مع اناس يحتشدون على هذا

(٩) توضع المظاريف بعناية في جيب من الجلد ، ويوضع صندوق البارود الى جانب البندقية

النهر ، ويتسلحون الى هذا الحد ، يستطيع الفلاح الاعزل ان يفتزع  
فى شىء ؟ (١٠) .

وعلى الرغم من القوانين التى تحرم استخدام العنف ضد الفلاحين ،  
فانه من المعتاد ان ترى فى المساء ، عند عودة النباش من سوق من  
الاسواق ، اثنين او ثلاثة من الفرسان « العرب » ينتفضون فجأة على  
الفلاحين (✱) وهم عائدون بمواشيهم ، لينتزعوها منهم ، فان ابدى هؤلاء  
شكلا من اشكال المقاومة ، فان الفرسان يجرحونهم او يقتلونهم ، واذا  
ماذهب الناس لشكواهم الى رئيس القبيلة ، فهو — كما يقول — لايدرى  
شئنا عن الامر ، او هو ينكر ان هؤلاء الفرسان ينتمون الى قبيلته . .  
وهكذا تظل الجريمة بلا عقاب . ولقد رايت كثيرا من هذه المشاهد فى  
صنبو والقوصية . بل ان شيوخ القرى انفسهم لم يكونوا اقل من هؤلاء  
الفلاحين البسطاء تعرضا للعرب من جانب هؤلاء العربان ، وسيكون حادث  
العنف الذى سأتصه الآن دليلا كافيا على ذلك ، وهو امر يتكرر بلا انقطاع  
فى الوب من الاشكال المختلفة .

ذهب بعض العربان من قبيلة ابي كرايم لينصبوا خيامهم فى اراقى  
قرب « بيلو » واتفقوا مع شيخها على مبلغ محدد بالغ الاعتدال فى مقابل  
ان ترمى ماشيتهم فى حقل « حلبة » . وذات ليلة وجدت بندقيتان وزوج  
من المسدسات ضائعة من خيامهم . وعندما حل النهار ، ذهب العرب على  
خيولهم الى القرية مطالبين باستعادة سلاحهم ، وهم ينعنون الفلاحين  
بأنهم لصوم وقطاع طريق لكن الشيخ الذى لم يكن لديه ادنى علم بهذه  
السرقة الصحيحة او المزعومة ، لم يستطع ان يجيبهم بشىء مقنع . فهددوا

(١٠) كنت عدة مرات شاهدا على الجراة المنفعة التى يبذلونها فى  
اسواق القرى . ولم يكن هؤلاء العرب باقل من ذلك زهوا واعتدادا بازاء  
جنودنا الفرنسيين ؛ بل لقد واثت احدثهم جراة وتحة لحد انه عرض على  
أحد جنودنا شراء نجوم ضابط فرنسى كان قد قتله . وهم لايبعدون  
مطلقا بالتحية كما لا يردونها مطلقا . واكثر مايجذب انتباههم فى الشخص  
الذى يلوح لهم هو السلاح الذى معه او الملابس الذى يرتديها او الحصان  
الذى يمتطيه . وعندئذ يبدؤون فى تصور الطريقة التى تمكهم من  
الاستيلاء عليها .

(✱) الترجمة هنا بتصرف تليف . ( المترجم ) .



باطلاق النار على الاهالى اذا لم ترد اليهم اسلحتهم ، فلم يجد هؤلاء  
 مفرا من ان يركبوا هم ايضا الخيول الى جانب شيوخهم . وحيث كان  
 عدد العرب فى ذلك الوقت قليلا فان الحظ لم يحالفهم وقتل من بينهم رجل  
 كان ينتمى الى قبيلة الفوايد وهى قبيلة قدمت الى مصر حديثا كما قتل  
 فى نفس الوقت سيدة وفارس . واضطر هؤلاء الى الانسحاب وفى اليوم  
 التالى غادر شيخ القبيلة بنفسه ، الشيخ على ابو كرايم ، مقر اقامته فى  
 ساو وجاء على رأس سبعمائة فارس وحاصر ببلاو وطالب بقاتل العربى ،  
 وكان هذا مختبئا ولم يستطع احد اكتشاف مخبئه . عندئذ امر الشيخ على  
 بالقبض على أربعة من اكبر شيوخ القرية سنا ، واصطحبهم الى خيمته ،  
 وهناك فرض مبلغا كبيرا من المال على سبيل «الدية» ، أى ثمن الدم . وهى  
 عادة يعاد بمقتضاها شراء دم كل قتل بمبلغ محدد من المال ثم امر بضرب هؤلاء  
 الشيوخ التمساء بالعصى ويكاد يكون الأمر قد تم كله أمام ناظرى ،  
 ولقد تركت « ببلاو » دون أن أعرف ما ان كان الشيخ على قد أطلق سراح  
 الشيوخ ، وما هو المبلغ الذى تقاضاه ثمننا لذلك (١١) .

تلك هى المساوىء والمظالم التى يرتكبها العرب الملاك كل يوم .  
 وهؤلاء الرجال بالغو الثراء ، ولهم نفوذ كبير فى البلاد ، وان كانوا يستمدون  
 مكانتهم تلك من الفزع الذى يحدثونه فى النفوس . ليكن العربى محقا او  
 مخطئا ، ليكن معتديا او عكس ذلك . فشيوخ قبيلته فى كل الأحوال يدافع  
 عن شجاره على الدوام بنفس الحرارة التى يدافع بها الناس عن أعدل  
 القضايا ، ويكرس كل الوسائل للانتقام او للانتصار له .

وثمة ضرب من العنف من جانب هؤلاء ، لا يستطيع الفلاحون ان  
 يضعوا له حدا ، وذلك هو ما تركته قبيلة عندما تأتى لتستأجر اراضى بينهم .  
 فى البداية يأتى فريق من القبيلة ليضرب خيامه فى منطقة كثيفة المرعى ،  
 وما ان يحس هؤلاء ان الأرض مناسبة لهم وما ان يستقروا هناك حتى  
 يبدأوا يساومون الفلاحين على ثمن المكان . ولكن ماذا ؟ فلقد  
 أكلت الخيول والجمال بالفعل جزءا كبيرا من المرعى وانتشرت الخيام

(١١) ارتكب عبد الله بن وافى مثل هذا العنف حين احتجز شيوخ  
 القصر وبنى عمران لأنهم لم يقرؤا على حصوله ، او بالأحرى على استيلائه  
 بالقوة على الأراضى التى تقع على الشط العربى وهى تعد مواتية  
 بالنسبة له .

فى كل مكان . ما العمل اذن ؟ عندئذ يقترح شيخ العرب ثمننا للارض لا يبلغ فى معظم الاحيان سوى جزء واحد من عشرة اجزاء من القيمة الحقيقية ولا يكون امام الفلاح من تصرف آخر سوى ان يقبل . ولقد رايت فى كل مكان حوادث مماثلة ، وشهدت السهل يفنى بهذه المخيمات المتناثرة . الا يعطينا ذلك ابلغ دليل على بؤس الفلاحين وعبوديتهم الخائفة؟ انهم يننون فى متاعبهم ويتصبب منهم العرق لكى يطمعوا هؤلاء السادة المتعاليين . وينقصهم الملبس والخبز ليتوفر كل شيء عند العرب الذين يهوبونهم . ونادرا مايسمح اولئك المساكين لانفسهم بأن يهيموا بالشكوى ، واذا ماحدث الأمر فانه يتم بصوت خفيض خفيض . انه لأمر بيعت على الاسى حقا ان ترى اطفالهم بأكملها تكاد تكون قد ضربت فيها من أقصاها لأقصاها مخيمات العربان . وفى الواقع فان عدد هذه المخيمات يماثل عدد القرى ، ويفد اليها على الدوام فرسان جدد ، ليسوا من افراد القبيلة ، وانما وفدوا الى هناك ليحصلوا على اذن بالسطو لأن شيوخ هذه القبيلة هم هنا اصحاب الأمر . لذلك فكم هناك من أواض مهجورة وغير مزروعة فى « ميدان » الخيام والمناطق المجاورة له . وكم من مناطق اختفت فيها الحبوب وقت البذار : اما حين يستزرع العرب ارضا تروق لهم فانهم على الدوام واجدون كل الوسائل لاغراتها بالمياه على حساب جيرانهم ، ومخالفين لكل العادات والأصول المرعية . فهم يتوجهون والسلاح معلق بأيديهم الى احد السدود ودون ان ينتظروا حتى تحصل الأرض العالية على مايكفيها من المياه ، يقطعون السد بانفسهم فتجرى المياه لتسقى اراضيهم هم ، ثم يحتفظون بالمياه بالقدر وبالمدى اللذين يروقان لهم ، دون ان يشغل بالهم مطلقا ان تروى او لا تروى الاراضى التى تقع الى شمالهم . واذا مااحتاجوا لمياه احدى الترع فانهم يحدثون فيها قطوعات بالعدد الذى يروونه مناسبا دون أدنى تفويض او استئذان . وباختصار فهم يسدون ويفتحون ، ويطلقون مدى الترع كما يترامى لهم ، ويقيمون السدود ان يهدمونها بحسب مصالحهم هم ، ويتم الأمر دون أدنى معارضة ، لانهم اقوى من القانون ، ومن اجل خاطرهم وحدهم تقيب الشرطة ، وليس من الضروري ان اضيف هنا انهم لا يساهمون مطلقا فى مصاريف تطهير الترع او بناء الجسور ، بل ولا فى أية مصروفات مشابهة على الرغم

من ان هذه الاعمال تعود بجل نفعها عليهم هم وبأكثر بكثير مما تعود على الآخرين .

ان المرء ليمتلكه غضب شديد وهو يرى قطاع الطرق النبلاء هؤلاء يجوسون بوقاحة خلال الديار التى خربوها او يعسكرون من حول القرى التى افرغوها من سكانها . وعندما يراهم المرء يجتازون الوادى من كل اتجاه وهم راكبون خيولهم فانه سيوقن بأنهم سادة البلاد . واى بلاء سببوه للصناعة عندما طردوا شيئا فشيئا من القرى المعلمين «والأسطوات» من ابناء البلاد (✱) والمثال على ذلك واضح فى ساو والعربن وعلى وجه التقريب فى كل القرى التى يروبوها بحر يوسف ، فبسبب ظهور هؤلاء الطفاة ، فان ترى بأكملها حيث يسيطرون ، قد هجرها اهلها بل تكاد تكون قد خربت لأن هؤلاء العربان لا يزرعون ولا يبنون ، واذا كانت اراضى بعض هذه القرى لاتزال تزرع فالسبب فى ذلك أن مياه النهر تفيض فتروبوها تلقائيا كل عام ، وبذلك لا يلزم اى عمل سوى البذار والحصاد . وعلى الرغم من كل ذلك ، فالفلاحون مرغمون على العودة من بعيد ،ومن جميع الجهات ليزرعوا اراضيهم التى أصبحت ملكا للعرب .. وتلك هى اللوحة الحزينة التى يقدمها لنا هذا الجزء من مصر العليا . أما فى مصر السفلى فان العرب هناك أثقل سطوة ونفوذاً .

ويمكن للمرء أن يسأل : ماذا تفعل كل هذه القبائل العديدة؟ وللإجابة على ذلك ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن الجزء الأكبر من كل قبيلة يشكل مخيما كبيرا يقطن فيه الشيخ : لكن كثيرا من العائلات تنتشر فى الوقت نفسه بشكل منعزل فى مناطق مختلفة ، وتشكل مخيمات تتكون من خمس الى ست خيمات . وهناك ترعى هذه العائلات جمالها وحميرها وخيولها ودوابها . وأكثر من نصف رجال هذه العائلات لم يركبوا الخيل « أى ليسوا فرسانا » ويشغلون كما قلنا للتو باصطحاب القطعان الى المراعى، اما الفرسان فيقضون وقتهم فى القيام بجولات فى السهل وهم يبحثون على الدوام عن شئ يسلبونه . وفى أيام الأسواق العامة يتوجهون الى هناك مسلحين ويصحبون معهم جمالهم وماشيئهم ليستبدلوا بها الذرة

والشعير والبلح والدخان وأشياء أخرى من مواد الاستهلاك اليومي .  
 أما عن البلح (١٢) ، فانهم يبيعونه بأنفسهم عندما يأتون من الواحات حيث  
 يجلبون منه كميات كبيرة (١٣) كما يجلبون معه في قوافلهم المشمش الجاف  
 والأرز الذي يعد من مرتبة أدنى من أرز الحلثا ، كما يحضرون معهم مؤننا  
 متنوعة . وتشغلهم هذه القوافل لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر في العلم ،  
 وهم يبدأون رحلتهم عادة من الواحة الصغيرة التي تقع على مسيرة ثلاثة  
 أيام من دلجا ، كما يلجأون على الدوام إلى هذه الواحة عندما يطاردون في  
 مصر ، وكذلك في أوقات الفيضان في أغلب الأحيان ، لكنهم في هذه  
 الحالة يكتفون بأن يضربوا خيامهم على حافة الصحراء . وعندما يصبح  
 القش « التبن » نادرا في مصر ، فانهم يذهبون إلى الواحات لتفذي  
 خيولهم على قش الأرز ، ويقوم عرب الفيوم كذلك بهذه الرحلة ، وهم  
 يجلبون بخلاف البضائع التي تحدثنا عنها ملح المناجم الذي يستخرجونه من  
 الجبال المجاورة لهذا الاقليم (١٤) .

ويربى العربان في مخيمات كثيرا من الخيول والجمال ، وهذا مالا  
 ينفقه الفلاحون مطلقا ، وسيظل هذا الأمر دافعا على الدوام لعدم دفع  
 العرب إلى خارج البلاد ، إذ ليس ثمة سواهم الآن من يستطيعون أن  
 يبدوا البلاد بالخيول والجمال ، ولابد أن عدد هذه الدواب سيكون بالغ  
 الضالة الآن في البلاد لو أن كل الحيوانات التي استخدمها الجيش الفرنسي  
 قد أخذت كلها من الريف ومعروف ذلك التقدير الذي يكره الفرسان  
 العرب للفرسات . وقد سألت البدو الذين كنت أسافر معهم عن السبب  
 لكنهم لم يخبروني ، وعادة ما يظن المرء أن الأمر يعود إلى أن الفرسان

---

(١٢) هذا البلح جاف ولكنه طيب المذاق لحد كبير ، ويساوى  
 القنطار ثمنه ٣-٤ بوظاقات (ريالات) .

(١٣) يبدأ طريق الواحات من خلف نزلة الشيخ عبلس إلى الشمال  
 من سرقنا . وينبغي التزود بمياه تكفي ثلاثة أيام . وتوجد في البلدة  
 نفسها مصادر للمياه ، وهي تقدم الشعير والبلح بالاضافة إلى الأرز  
 والبلح ، ويواصل الطريق ارتفاعه حتى يبلغ جبل بهاية . وهناك طرق  
 عدة أخرى تؤدي إلى الواحات ، أحدها في مواجهة التونة ، وثمة طريق  
 آخر أمام بني خالد ، ومن هذين الطريقين تخرج غرور تؤدي إلى البهنسا  
 وإلى الفيوم .

(١٤) انظر دراسات عن العصور القديمة ، المجلد السادس .

يتجنبون سهيل الجياد التى تعلن عن وجودهم ، وبذلك لا يمكنهم أخذ فرستهم على غرة ، لكن الحقيقة فى الأمر هى أن الفرس تتحمل العطش بشكل أفضل من الحصان ، كما أن احتياجاتها أقل بالإضافة الى أنها أقل طيشا وأكثر ملامسة لرجال يظلون فى غالب الأحيان عدة أيام متتالية ، راكبين خيولهم دون أن يكادوا ينزلون عنها .

والفرس العربية نحيفة عجفاء لكن ذلك لا يقلل من سرعتها فهى لا تقل فى ذلك عن أفضل خيولنا تغذية . ويكاد يكون لكل فرس شرابة بيضاء أو زرقاء أو حمراء تحت الرقبة وأحيانا فوق الأذنين . ولا تقل عاطفة العربى نحو فرسه عن العاطفة التى يكنها عاشق لعشيقته . وعلى الرغم من أن العربى يظل قلقتا تجاه فرسته ، حريصا على ألا ينقصها من الرفاهية شيء ، إلا أنه لا يكلف نفسه عناء القيام بأى جهد لتوفير طعام جيد لها إلا إذا تم الأمر على حساب الغير . وكم من مرة رأيت فرسان العرب ، بينما كنت أسافر الى جانبهم يترجلون على السدوم — يكاد يتم ذلك كل خطوة — ويتمهلون بها فى حقول البرسيم والشعير بل حتى لو كان القمح أخضر أو ذا سنابل ! كانوا يجعلونها تاكل على السدوم حتى ظننت أن السبب لايعود الى الرغبة فى اشباع جوعها بقدر ما هو اللذة فى اطعامها من حقول الآخرين ، فليس هناك عند العرب لحظة أحلى من تلك اللحظة التى يلوح له فيها شيء يمكن له أن يسلبه !

والقبيلة العربية التى لا تمتلك أو تستأجر إلا بعض الأراضى ، تمارس مع ذلك نفوذا ونوعا من السيطرة فى دائرة هى أكبر بكثير من هذه الأراضى نفسها . وهذه الدائرة محددة ومميزة عن دوائر القبائل الأخرى المجاورة ، فالقبيلة لا تخرج مطلقا ، أو لا تخرج فى معظم الأحيان عن حدودها لى تجور على دوائر القبائل الأخرى . أنه نوع من الاتفاق الضمنى وضعت قواعده نتيجة للمشاحنات والمعارك والحروب التى دارت بسبب هذا الموضوع .

ودوائر النفوذ هذه متلاصقة وتشتمل فى مجموعها على أراضى هذه البلاد ؛ وليس ثمة ما هو أكثر غرابة من رؤية هؤلاء السادة المزعومين لمصر وهم يمسحون أراضيها على هذا النحو ، ويحددون الحدود التى تضمن

حقوق كل فريق منهم . وهم لا ينظرون الى الاراضى التى تقع داخل كل دائرة الا على انها ارضهم وبلدهم ، ويعنى هذا بالنسبة لحماية دائرة ما ان ليس من حق أحد من العرب الآخرين ان يسلبوا او يرتكبوا احداث عنف داخل دائرة تقع فى حمايتهم ، وقد بلغ الأمر الى حد اننى لم أستطع مطلقا ان اصطحب معى الى ما وراء دائرة عرب وافى الفرسان العرب الذين كانوا معى كحراس ، ولا ان اصحب الى ما وراء ملوى الفرسان الذين ارسلهم الى الشيخ على ابو كريم ، ونفس الأمر بالنسبة لعرب محارب ، والسبب من وراء ذلك ان العرب ، الى جانب انه لا يسمح لهم بالمرور فى اراضى قبيلة أخرى ، لا يحبون ان يسروا على ضفاف النيل او يبروا بالقرب من المدن الكبرى مثل ملوى والمنيا عندما يكون عددهم صغيرا ، فعندما يكون العربى بمفرده ، فى مكان منعزل فانه يستشعر الرهبة من المشاعر التى يكتها نحو العرب شيوخ القرى ، لذلك فهو بالغ الحذر لا يريد ان يعلن عن وجوده ، وفى واقع الأمر فان الناس يهابون فى بعض الأحيان أول عربى يلتقونه على شر ارتكبه عربى آخر . فكل راكب حصان ، يرتدى الزى الأبيض ويتسلح بالبندقية انما هو فى نظر الفلاحين نهاب قاطع طريق ، وهم فى ذلك ليسوا مخطئين على الإطلاق .

واليكم كيف قسمت الاراضى بين مختلف القبائل التى ذكرتها :

تعسكر قبيلة بنى وافى — وهى قبيلة بالغة الغراء بخيولها منمنتصف ترعة تسمى ترعة العسل وحتى صنبو فى الشمال . ومكان اقامتها الرئيسى فى تتالية وهى قرية تقع الى شمال منفلوط ، يوجد بالقرب منها دير بالغ الاهمية ، وهذه القرية هى مقر الشيخ عبد الله بن محمود بن وافى ويمتد زمام الدائرة حتى ضواحي الأصفر ، المير ، القوصية ، صنبو .

اما دائرة قبيلة ابى كرايم التابعة للشيخ على فتشمل المسافة بين صنبو وملوى . اما مقر اقامة الشيخ فيوجد فى قرية ساو . وقد عسكر هؤلاء العرب بالقرب من ببلاو ، ودشلو ، وساو ، وديروط الشريف ، وبلجا ، ودير مواس ، والبدرمان ، وبلويط ، وامشول ، وابو الهدر ، واسمو ، بنى حرام ، وسرقنا ، بل وكفلك تفتدة وطوخ .

وينتمى عرب التراهونة الى هذه القبيلة ، وهؤلاء قد اقاموا خيامهم

فى تئدة اما الجهمة فمرايطون على الشط الأيسر « الغربى » لبحر يوسف بين دجلة ، وديروط أم نخلة حتى صفظ خمار أمام مدينة المنيا . ولهؤلاء خيام متناثرة فى أماكن شديدة التباعد فيما بينها ، بل ويوجد بعض منها وسط قبيلتى ابن وائى وأبى كرايم .

أما عرب محارب فيقيمون كلهم على وجه التقريب فى بيوت ، وقد كفوا عن حياة الخيام منذ حوالى خمسة عشر عاما . . ودأثرتهم بالفة الاهمية فهى تمتد على الشط الأيمن من بحر يوسف ابتداء من النقطة الواقعة تجاه التونة حتى جبل البهنسا على بعد عشرين فرسخا من ملوى . وأهم مواطن هذه القبيلة هو قرية العرين حيث يقيم الشيخ أبو زيد « شيخ القبيلة » ، أما الشيخ زيد فيقيم فى ديروط أم نخلة ويقيم الحاج عبد الله فى أبشادة ، ويشغل عرب هذه القبيلة قرى المحرص ، ديروط ، أبشادة ، أشمنت . . وقرى كثيرة أخرى .

ويتفرع من قبيلة محارب عرب جبار أو الجبابة ، وعرب غزالة ، والدرابسة والشواذى ، وهم ينتهون إليها كما أنهم جميعا مزارعون ويقيمون فى قرى . . ويشغل الأولون طوخ الخيل ، أما عرب غزالة فيقيمون فى ديروط أم نخلة وكذلك إلى الشمال ، فى العزبة فى إقليم بنى سويف ، أما الدرابسة والشواذى فيشغلون ضواحي بنى سمرج وطهطا ويوجة ، ولا يزال للدرابسة بعض الخيام .

أما العرب المسمون بالخوين والغريب فيشغلون ضواحي شمالوط أما عرب الطحوى أو المصراتى أو بالأحرى عرب طه فسنتناولهم فيما بعد . وتمتلك قبيلة أبى كرايم ألف حصان وعددا كبيرا جدا من الجبال ، وأهم شيوخها هما الشيخان على وسليمان ، أما الجهمة فيمتلكون أكثر من خمسمائة حصان . وتذهب القبائل الأربع : ابن وائى ، أبو كرايم ، الجهمة ، محارب إلى الواحة الصغيرة ويعودون من هناك لبيعوا بضائعهم فى الأسواق الكبرى فى دشلوط ودلجا وصنبو والقوصية .

وتعمل النسوة فى المخيمات العربية فى غزل الصوف الذى يصنع فى القرى ، ويتخذ أكثر الناس بؤسا ملابسهم من هذه الاتمشة الخشنة ، أما الآخرون فيشترون من المدن البرنس المصنوع من اقمشة فاخرة .

ويؤكل الى النساء أيضا طحن الذرة وصنع الخبز وتجبيز البيلاب « طعم شرقي من لحم و أرز وتوابل » وكذلك كل أعمال المنزل ، والخبز عندهم عبارة عن قرص مسطح يجففونه في الخيمة ثم ينفجونه على وقود من روث الجمال يخرج من خلال « بوز » وهو فتحة صغيرة مصنوعة من الطين على هيئة ثمن ، وهكذا يجد العربي في تناول ايديهم الخبز والوقود . وما ان تحصل اسرة ما على ثلوثها من الذرة حتى يصبح بإمكانها ان تستغنى عن كل ما تقدمه مصر لها من عون ، ولا يمود بعينها الا ان تضرب خيامها بالقرب من مكان توجد به مياه ، وهذا امر يعرف العربي اكثر من اى قوم آخرين كيف يحققونه . وتحتوى خيام العربي على مخزون من البلح والأرز والذرة وعلى قليل من الشعير والقمح والفلول ، ويودع كل شيء بحذاء جدران الخيمة وبطريقة تدع المكان يبالغ الاتساع ، وفي منتصف الخيمة يوجد النساء والأطفال ويكاد لا يكون هناك فرق يذكر بين ملابس السيدات وملابس الرجال ، فمن يرتدين مثل الرجال حذاء نصفيا « خفا » ويتفطين بقطعة من تماش صوفى أبيض اللون من القدمين حتى الراس ، ولم أرهن يتحجبن كما تفعل المصريات ، وهن في نفس الوقت ، ولحد ما ، أكثر بياضا من زوجات الفلاحين ، وعند بقائهن هكذا سافرات الوجه أمام الأوربيين ، فقد كن يظهرن لى على شيء من القحة والمجون اللذين هما طابع العربي ، والذي يميزهم عن المصريين . ولا يحتم الرجال على نسائهم — اما لأنهم أقل غيرة أو لأنهم أكثر ثقة بهن — ارتداء الحجاب الذى قد لا يكون له من غلبة الا فتادى نظرات الفضول عن طريق هذا القناع الشائى الذى لا يبعث على البهجة ، لكنه وسيلة أقل شاعلية من غيابه هو نفسه ، فأى شيء يمكنه أن يصد الفضول ويقتل الرغبة أكثر من وجه شوهته هذه الرسوم السوداء والزرقاء « الوشم والكحل » (١٥) .

ويبدو الرجال في خيامهم ، أو على الأقل راكبو الخيل منهم ، وكل من ليس لديهم ما يشغلهم ، فتراهم ، وطربوشهم فوق آذانهم ، يتجولون من

---

(١٥) من المعروف ان النسوة في مصر يرسمن بشكل حاد رموشهن وجفونهن باللون الأسود ( الكحل ) وأنهن يضمن بقما زرقاء على الذقن وبقيّة أجزاء الوجه ( الوشم ) .



خيمة لأخرى ، يتطوحن فى مشيتهم وايديهم خلف ظهورهم ، يرتسم المرح على وجوههم ، وهم فى عمومهم ذوو مظهر طيب ، ويبدو البيض منهم ، بتقاطيع وجوههم ، وسننتهم ، ومشيتهم المتعاطية وملابسهم الفضفاضة والممتلئة ، يبدون بمظهر الأثرياء العاطلين أكثر مما يبدون بمظهر الفرسان المحاربين ، وهذا المظهر من الرضا والسعادة هو أكثر مآدهشنى عند العرب .

ومع ذلك ، فان الأمر الذى لا يقل عن ذلك جدارة بالملاحظة هو اهمالهم لطقوس الدين ، فلم أرهم مطلقا يتوضأون أو يصلون مثل بقية المسلمين ، كما أنهم يشربون الخمر فى بعض المناسبات ولا يولون كبير اهتمام بشهر رمضان ، وحين يقومون بأداء الحج الى مكة فاتما يفعلون ذلك لفائدة سيجنونها من هناك .

وتبعاً لما سبق ، فاننا نجد مخيماتهم شبيهة بالقرى الكبرى وسكان تلك المخيمات أكثر بلا جدال من سكان بقية القرى فى مصر ، ناهيك عن الذهب والفضة اللذين تكتنزهما هذه البيوت المتنقلة . وفى هذه الخيام يجد المرء كل ما هو ضرورى للحياة ، ويحصل العريان من بيع المواشى والجمال وبعض المواد الغذائية على دخول أكبر بكثير مما ينفقون على شراء الأسلحة والسروج والملابس ، فضلاً عن ذلك ، فان من الممكن لنا أن نؤكد أن الغالبية منهم يتسلحون بأسلحة مهربة أو مختطفة تحت آلاف الادعاءات ، بل أن الكثير منهم يرتدون ملابس سرقوها من الفلاحين .

أما الفضة والأموال التى يكسبها العرب بين أيديهم بهذه الطريقة، فيمكنها أن تسهم فى تثبيت سيطرتهم على مصر بأكثر مما يمكن أن تفعل أعدادهم وغروسييتهم . الست ترى أن هذا النفوذ لابد له — بحكم طبائع الأشياء — أن يتضاعف أكثر فأكثر لحد يضع مصر ذات يوم فى قبضة العرب .

ولا يحتاج هؤلاء الرجال فى مخيماتهم الا للقليل ، فهم بالغو القناعة، لكنهم يصبحون بالفى النهم وشحيدى الالاح اذا ما لجأ اليهم مسافرون يحتاجون لحراستهم ، فهم فى هذه الحالة يصرون على طعام منتقى لابد أن يحتوى على اللحم المشوى والبن والدخان بوفرة ، بحيث يتكلف طعام

كل واحد منهم فى اليوم مالا يقل عن **بوطافه** (١٦) ويدعى هؤلاء ان هذا هو طعامهم المعتاد . وفى نفس الوقت هؤلاء العرب ليسوا بدمى الخلق ولا بالجمالين اللطفين . هذا ما شمرت به وانا بين عرب بنى وافى وعرب ابى كرايم وعرب محارب الذين اتخذت من بينهم حراسا اثناء جولاتى . ولقد كان الاولون يبدون اثناء وجودى بينهم اقل تسوة على الفلاحين ، اما عرب محارب فكتوا ينتهزون فرصة قدومى ليجتازوا القرى ، راكبين خيولهم ، ليحصلوا لانفسهم على آلاف الاشياء بدعوى انها للفرنسيين . . وهكذا نتاح لهم فرصة جديدة لكى ينتهبوا ويسلبوا دون ان يلقوا عقابا ، وتحت اسم الغير (١٧) .

وتشغل قبيلة محارب هذه جزءا كبيرا من اقليم النيا كما سبق ان قلت ، وتمتد امتيازاتها الى بعيد ، وتنقسم هذه القبيلة الى بطون كثيرة تسكن فى قرى عديدة . ومنذ وقت طويل ، لم يعد هؤلاء يقيمون تحت الخيام كما كنوا عن ارتداء الثوب الابيض « البرنس » ، ولا يمكن لك ان تميزهم للوهلة الاولى عن طريق ملابسهم عن شيوخ الفلاحين ، واقل هؤلاء العرب شأننا يرتدى ملابس جيدة ، وترى واحدا بهذه الصفة منهم فى وضع افضل من وضع شيخ قرية ذلك انه يرتدى فوق جده اسلاب اربعة شيوخ . . وتساهم هذه الابهة فى الزى فى زيادة زهومهم ، واذا ملاهبوا للسلب وسلوكوا الطرق العامة او خفاف النيل فاتهم لا يرتدون ملابس اقل من هذه ابهة ، وليس بمقدور احد ان يحصل على اى عون ضدهم لانه يستحيل عليه ان يجد شخصا يشكو اليه . وفى هذه الحالة الراهنة ، لا يستطيع المرء ان يجد الكيفية التى ينظر اليهم من خلالها ، فهم معروفون فى السر لصوصا ، ومع ذلك فليس فى مقدورنا ان نطاردهم ، لان شيوخهم يسلكون

---

(١٦) قطعة نقدية تساوى ٩٠ بارة (حوالى ٣ جنيهات و٨ سو) .

(١٧) تدل الصفائر المهيئة التى يقترنونها بقلب بهيج على تساوتهم بقدر ما تدل على ضعف الفلاحين ؛ وقد شاهدتهم بعينى راسى يستولون عنوة من امرأة بائسة اضنتها الشيوخة على حمولة كبيرة من اغصان اشجار التمرهندي ، كانت تحملها بمشقة كبيرة فى الصحراء ، دون ان يكون لديهم حتى ذريعة ان الخشب ينقصهم ، وحيث كانوا يهللون لسرقتهم هذه ، فقد وجدت مشقة بالغة فى حملهم على رد هذه الاعشاب الجافة مع قيامى بدفع ثمنها لهم .

ظاهريا سلوكا طيبا في قراهم وارضيتهم ، حتى انه ليخفوا عليهم انهم لم يشركوا في السلب على الرغم من انهم يكونون قد انقسموا الاسلاب . . .  
وعندما وصلت اثناء جولتي الى دائرة عرب محارب فون ان ادرك ذلك ، سمعت احاديث كثيرة من الاغتيالات التي كان هؤلاء العرب يقتربونها كل يوم ، ورأيت انه قد حان الوقت لأن ادمم حراستي الضعيفة بعدد من العرب ، فاستأجرت في بيروت اثني عشر فارسا مسلحين تسليحا جيدا .  
وفي الطريق كنت اكثر من سؤالي اياهم حول السرقات وحوادث العنف التي يمارسها العرب في الوادي وفوق شاطئ النبل والقرب من ملوى ، لكنني لم اظهر مطلقا بلجلة . وعرفت فيما بعد انني كنت اتحدث الى نفس الذين يقتربون هذه الفعاليات ، وتأكدت من ذلك بوسائل مختلفة . كم كان قلقي كبيرا منذئذ ! لقد اسلمت نفسي بنفسى الى قطاع طريق ، وكثيرا ما ذهبت معهم لمسافات طويلة داخل الصحراء . . . ولكم اثر طمعمهم اكثر من مرة ادواتي وخيولي والمال الذي كتوا يظنونهم معي . . . ومع ذلك فقد اكتفى هؤلاء اللصوص الثرياء بالاجر الذي كتوا يحصلون عليه منا وبما كتوا يستطيعون ان يسلبوه من القرى . ولكنهم كتوا سعداء عندما يجدون بقدرهم ان يتركوا لمرسانهم ترمى مجتا في مراعي وفيرة ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الشجعان يرتجلون فرقا عندما استوجب الامر دخول مدينة المتيا اذ كتوا يخشون الجند الفرنسيين ، لكن ارتباطهم كان يلزمهم بذلك . فمشوا اليها وكانا هم يستجدون ، كما لم يخطوها الا اثناء الليل وقد رحلوا على حين نجاة ودون ان يلحظهم احد .

وكل القرى التي استقر بها عرب محارب فقيرة ومهجورة ونصف مهتمة وتخلو من الاشجار (١٨) ويكاد لا يوجد بها سوى بعض الفلاحين يقومون بزراعة الاراضي الملوكة لعرب محارب — وليس بزراعة اراضيهم الخاصة ، ذلك ان هؤلاء العرب لا يزرعون بأيديهم على الاطلاق ، فليس ثمة من مهنة اكثر نبلا من وجهة نظرهم من ان تعيش من خيرات الغير دون مشقة ودون عمل ، وليس ثمة اكثر مهنة عندهم من عمل المحراث ، وكلمة فلاح عندهم مرادفة لالفاظ السلب فهي تعني : رجل الطين ، الذي خلق من اجل الشقاء

---

(١٨) القرى التي تن تحت وطأة نفوذ العرب محرومة من النخيل ؛ ولها مظهر عار يميزها من بعد .

والذى ولد خصيصا لانتاج طعام العربان . ويذهب هؤلاء القوم الى بعيد فى تحقير مهنة الفلاح حتى أنهم يأتفون من أن يحطوا من قدر البدو فيرفضون أن يطلقوا اسم البدو على هؤلاء الذين شاعوا من بنى قومهم أن يحترفوا مهنة الزراعة مثل عرب طه والريرمون فيقولون عنهم : أنهم فلاحون حقراء وأخساء لم تعد تجرى فى عروقهم الدماء العربية . .

أما عرب المصراتة أو **الطسيوى** ، أو بمعنى آخر عرب طه ، فلم ترقى باللغة الفخامة ، تقع على بعد اربعة فراسخ الى الشمال من المنيا ، وهم قد استقروا هناك منذ عدة اجيال ، ولقد قدم هؤلاء العرب الى الزراعة ، على النقيض من العرب الآخرين ، خدمات جليلة ، وبذلك حصلت الأرض على مزية مزدوجة . أن تزرع بشكل ممتاز ، وأن يدافع عنها فرسان شجعان ضد أعمال العنف التى تصدر عن العرب المجاورين . وهم فى حالة سوء تفاهم على الدوام مع الآخرين لكن اليد العليا تكون لهم على الدوام فى كل المعارك التى تدور بين الفريقين .

ولم أشاهد فى مصر فلاحين أكثر سمادة من عرب طه ، فهناك تسيطر الحرية ويسود الرخاء تحت سيادة قوانين خيرة وتحت حكم أسرة محبوبة ، ولذلك ازدهرت هناك الصناعة والزراعة ، وليست ثمة قرى أكثر ثراء من قرى عرب طه فى المواشى وبخاصة فى البقر ، ولجس هناك أرض توزع عليها المياه على نحو افضل . والسود فيها معتنى بها بشكل احسن . من أراضيه . . هكذا جعل الشيخ على الطحوى من هذه القرية واحدة من أغنى قرى الاقليم ، وهكذا على الدوام يكون تأثير الشيخ الطيب وعلى هذا النحو يكون اثر المقاومة المدعومة التى تقف ضد الابتزازات والمظالم . وقد كان هؤلاء مصدرا لآلاف المعونات ، ولسد مالا يحصى من احتياجات الفرنسيين وبشكل أكثر يسرا بكثير مما هو فى مقدور عشرين قرية فى جهة أخرى . . منذ وقت طويل كف هؤلاء العرب عن الإقامة تحت الخيام ، وعن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » . . وارتدوا نفس رداء الفلاحين ، أى ثوبا من الصوف الغامق ، وتجد بينهم ، مثلما تجد بين بقية العرب رجالا سود البشرة ، وهؤلاء على الدوام فرسان ممتازون . ولقد شاهدت معركة دارت بينهم وبين عرب الشوادى ، تبين لى خلالها أنهم — أى عرب طه — لم يفقدوا مطلقا

المزاج المتقاتل حين أصبحوا فلاحين ، ولربما كنت أخذت على عاتقي أمر تدريبهم لو لم أكن قد توصلت الى إيقاف نزيف الدم بين القريتين ... وانك لو اجد مشقة كبيرة حين تحاول تصور السرعة التى ينتهى بها عرب الطحوى للمعركة . . . ففى لمح البصر ، يخلع الواحد منهم اكمامه الطويلة ، ويصطنع من عمامته حزاما يملؤه بالخرطوشات ، ويصرع على الفور غريمه ، بينما هذا الطحوى يقاتل وحده ضد عشرة رجال .

وكل هؤلاء العرب الذين تناولتهم فى هذه الدراسة ، اذا ما استثنينا عرب الطحوى الذين تحدثت للتو عنهم ، يظهرون نحو الفلاحين عجرفة متزايدة يبدو وكأنهم رضعوها مع لبن امهاتهم . وحيث أن هؤلاء لا يتصاهرون الا فيما بينهم فانهم يزعمون أنهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلًا نقيًا ، خلق خصيصا لحكم مصر . وليس ثمة من بينهم من يشاركون فى هذه العجرفة .

ولابد أن نتخيل أن من خاصية هذه العجرفة أن تمنحهم شعورا بالقوة والسمو فوق المصريين ، وتجعلهم يقدمون بنجاح على أمور بالغة الجرأة والجراسة ، فادعاءات كهذه لن تكون وبالا على اناس بهذه الدرجة من القوة سواء بفعل عددهم أو بتأثير تقاليدهم واسلحتهم . دخلت ذات يوم فى احد مخيمات عرب أبى كرايم ، وجاء عديد من العرب الفضوليين ليجلسوا الى جوارى وتحدثوا باللفة مع حراسى ، لكن سرعان ما اصطط بهم واحد من رؤساء القبيلة موجها اليهم التعنيف الحاد . لقد الفيتهم اطفالا صدمتى ملابسهم وكان بين هؤلاء ابن الشيخ ، كان يرتدى ثوبا ابيض بالغ النعومة وطربوشا جميلا احمر اللون وخفين ، وما أن اقتربت منه حتى قال على الفور وبلهجة تزدرى سامعه « انا بدوى ! » ولكنى لقيت عند عرب الجبهة استقبالا افضل ، فقد هرعوا الى ، واستملعوا بفصول عن أخبار القاهرة ، ومع ذلك فلا بد أن ننسب ذلك الاستقبال لدوافع الخوف والقلق .

ويمكن التعرف على قرى الفلاحين التى تسيطر عليها هذه القبائل ، فى أن سكان هذه القرى يبدون أقل خضوعا للسلطة ولقوانين البلاد ، كما لو أن حماية العرب تكفى لحمايتهم من العقاب الذى يستوجبه التمرد . ولقد كانت هذه القرى على الدوام هى آخر من يسدد الضرائب واول من

يبدأ العصيان . وهناك تستقبل قوات الحكومة استقبالا مسيئا . وفى الوقت الذى يفرط هؤلاء البؤساء فى ثرواتهم للقبائل العربية بدرجة كبيرة من عدم التبصر ، فانهم يتجاسرون على رفض تقديم ما هو ضرورى للفرق التى تمر ببلادهم ، ذلك انهم يأملون فى الاغلات من سطوة سادة بعيسدين عنهم ، فى حين يرضخون لطفاة يماثلون نسر برومثيروس \* فهؤلاء الطفاة لا يتركون غريبتهم لحظة . وفى اقليم المنيا تخضع قرى كبيرة مثل ديروط الشريف ، ودلجا ، ودشروط لنفوذ العريان الذين يأتون ليقبوا خيامهم على الابواب . وحين لايجزئ شيوخ هذه القرى على مقاومة الاوامر التى يلقونها من القاهرة مقاومة صريحة ، فانهم على الاقل يبدون شيئا من المعجزة وسوء النية والعذوانية يحثهم عليها العرب ، مما يجعل مثل هذه المشاعر دائمة بينهم . صحيح ان الناس فى اماكن اخرى ثرية فى مواشيها ، ومسلحة تسليحا جيدا يسهل الدفاع عنها مثل قرية المير ، لا يخشون من اقامة العرب فى السهل ، اذ هم يستطيعون على الاقل ان يماثلوا هؤلاء على جسارتهم اذا ما تجرأوا على محاولة تجريبيها ، وسعداء هؤلاء الفلاحون الاثوياء لحد يسود بينهم هذا الطبع ! فهم يعيشون هادئين ملاكا احرارا لعقاراتهم وثوراتهم التى لا تلهث ان تتضاعف على حساب ضعف الآخرين وخرابهم .

اما القرى التى تحاول بالرغم من ضعف قوتها ان تدافع عن استقلالها، فان العرب يقومون بغزوها بشكل مفاجئ ، فيقتلون المشايخ ، ويستبدلون بهم غيرهم بشكل استبدادى، ويهدمون بيوت هؤلاء الذين يسمونهم اعداءهم، ويستولون على اراضيهم ويتصرفون بهماراة حتى ان الامر ينتهى بهم ان يحصلوا على محبة الآخرين .

اما تلك القرى التى تخضع كامر حتمى للعرب بسبب ضعفها وموقعها القريب من الصحراء ، فانها تقدم لهم صداقتها كامر طبيعى ، ولكل شئ حسابه فهذه الصداقة تكلف الفلاحين اقل مما كان سيكبدهم الحقد المكشوف .

---

\* من المعروف ان العقاب الذى انزله جوبتر ببرومثيروس عقابا له على سرقة النار هو ان يصلب فوق جبل القوتاز وان يأتى النسر ليلتهم كبده الى ان خلمه هرقل . ( المترجم ) .

ومن جهة أخرى فإن المائلات العربية ، قليلة العدد ، والتي تمتلك ترى صغيرة شديدة القرب من بعضها البعض ، تظل على الدوام فى حالة نزاع على الحدود وعلى إقامة أو قطع السدود ، وعلى مسير قواتها المياه ، وحيث لا توجد محاكم تحسم قضايا من هذا النوع فإن سكان هذه القرى يحسمون هذه الأمور بأيديهم فهم يقتتلون ويلاحقون بعضهم البعض بلا هوادة وبشراسة لا تصدق ، وحتى تغنى فى معظم الأحيان واحدة من المائلات المتشاحنة عن بكرة أبيها ، وعندئذ يستولى المنتصر دون مبالاة بأبسط الشكليات، ودون رسميات أخرى على أراضي المهزومين، ويثبت فيها عائلته أو من يلوذون به . وفى نفس الوقت ، فإن الحكومة لا تقوم بأى معارضة لأى من هذه الحروب الأهلية الصغيرة كما لو كان لايهمها فى كثير شخص من سيدفع الضريبة ، بل أنها تغيبط نفسها على النوام ، فالضريبة ستؤدى برغم كل شيء مع أنها — أى الحكومة — فى كثير من الأحيان لا تحصل منها أى شيء ، ويكون السبب إن قادمين جدد قد هاجموا وخربوا بدورهم ، أولئك الذين سبق لهم أن انتصروا .

وشكل خيام العرب معروف . فهذه مصنوعة من قماش يسمى : خيش . يصنع بشكل أساسى فى ولاية الفيوم . ويشكل العرب منه قطعة يبلغ طولها ٢٠ — ٣٠ قدما وعرضها ١٥ قدما ، ويدعمونها من أركانها الأربعة بأوتاد يبلغ ارتفاع كل منها ٤ أقدام كما يدعمونها من الوسط بوتردين يبلغ ارتفاعهما ستة أقدام مما يعطى للخيمة من أعلى هيكل السقف المسطح ، وهذه الخيام مسيحة مريحة . وحيث أنها شديدة الانخفاض ومثبتة بالحبال فهي لاتخشى مطلقا هبوب الرياح . وعندما يسقط المطر فانه لا يمكن الدخول اليها الا من الأمام فهي الجهة الوحيدة المفتوحة .

وقد لاحظت فى هذه الخيام نوعا من المهد « الهودج » المصنوع من اغصان القرائية « شجر زينة » بالغة الجفاف يبلغ سمكها بوصة ، ومصنوعة بشكل تتداخل معه فيما بينها وعلى نحو مقبض ، وقاع هذا الهودج يبيضاوى الشكل أو مقعر ، ولونه داكن ، وهو منتظم من أعلى . ويوضع هذا الهودج فوق جمل ، ويستخدم فى نقل سيدة وطفلها . وخشب الهودج من جهة أخرى أسود اللون بفعل الدخان ويبطن قاعه بالجلد أو يكون كله فى بعض الأحيان من الجلد . فاخترطاف النساء هو أخشى ما يخشاه العرب من أعدائهم . وبمعنى آخر فإن هذه الهودج المرتفعة تم صنع لحمايتهن .

وتستخدم هذه الأسرة الصغيرة كذلك فى التنقل كما فى حالة القوافل .  
وفى أثناء قيامى بجولة بلغت ثلاثين فرسخا فى عرض الصحراء كانت  
الفرصة مواتية لى ارى على الدوام جمالا محملة بالنساء على هذا  
النحو ، ولابد انكم تتخيلون هذا القدر من الانتباه والفتنة الذى يوليه  
ازواج هؤلاء النساء أو اهلوهن فى حراستهن ، حيث يبعثون على الدوام  
بفرسان يسبقونهم بمسافة فرسخ كامل ليستكشفوا الطريق لهم .

ومما تجدر ملاحظته كذلك فى مخيمات العرب هو السلوق أو كلاب  
الميد ، وتلقى هذه بالأرانب والثعالب ، وتقدم خدمات جليلة عند صيد  
الغزلان التى يلذ العريان من اكل لحومها كثيرا ، وهم يطلقون على كلاب  
السلوق كنية « عدو الغزالة » ، وهذه الكلاب صهباء اللون ، وهى أصغر  
حجما من كلابنا وأكثر منها سرعة ، ويلبسها العربى قطعة من الجوخ  
ويضع فى رقابها عقدا ويمسكها على الدوام من مقودها ، وهم يجلبونها  
من سيوة حيث توجد منها أعداد هائلة ، ويدفع فيها لأصحابها ثمننا كبيرا  
يبلغ حوالى ٣٠ - ٤٠ بوطاقة ومن المسمى أن تحصل لنفسك على واحد  
منها . ومع ذلك فقد توصل كثير من الفرنسيين الى الحصول على هذه  
الكلاب وبعض منها فى الوقت الحالى فى حوزة بعض الجنرالات (١٩) .

---

(١٩) شاهدت فى مغارات وكهوف مصر الوسطى رسوما مصرية تشير  
إلى الفضول الى حد كبير ، وتبطل بدقة طريقة صيد الغزال هذه ، ومن  
البسير أن نتعرف فيها على كلب السلوق نفسه ، وتشكل رسوم هذه  
المخدرات وشروحها جزءا من إجلاد الرابع للمصور القديمة، اللوحة ٦٦ .



# الفصل الثاني

## العرب المحاربون او العربان الرعاة او الرحل

أما الطبقة الثانية من العرب فتشمل أولئك الذين يضربون خيامهم في أعماق الصحراء أو على مشارف مصر ، والذين هم في حرب مع الحكومة في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى في سلم معها ، ولا تمتلك هذه الطبقة أرضا ولا تدفع ضريبة على الإطلاق ، وهي الطبقة الأكثر عددا والأكثر قوة سواء فيما تملك من خيول وأسلحة أو فيما لديها من جمال وماشية . وهي التي تمد القوافل بالجمال التي تحتاج إليها لأغراض التجارة .

ولا يسمح لنا تغيير هذه القبائل المستقر لمكان إقامتها ، وإن كان يتم في معظم الأحيان في إطار نفس المنطقة ، لا يسمح لنا ذلك بمعرفة أسمائها . وفي الفترة التي كنت أتجول فيها في مصر الوسطى ، كانت قبائل أولاد على هي أكثر هذه القبائل قوة ، وكانت مخيماتها تقع في أدمو بالقرب من المنيا . وكانت تضم ألف حصان . أما قبيلة الفوايد فكان يبلغ عدد أفرادها الألف من بينهم ثلاثمائة فارس ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ثمة قبائل أخرى في أبي الهدر والبدرمان وديروط وبالقرب من سمالوط في إقليم بني سويف وفي ضواحي الفيوم .

ويغير هؤلاء البدو من منطقة إقامتهم إذا ما بدت لهم منطقة أخرى أكثر وفرة في مراعيها أو في مياهها أو أكثر مواتة لمشروعاتهم ولأغراضهم في السلب وأعمال العنف ، فهؤلاء في الواقع سواء في حالة حرب أو في حالة سلم يمارسون نفس القدر من أعمال السلب والعنف ، مع فارق واحد ، هو أنهم يمارسونها في حالة السلم بعيدا عن مقر إقامتهم المعروفة وبحيطة أكبر ، فالبدو في حالة السلم لا يرتكبون السرقات ولا

أعمال القتل مطلقا بالقرب من مخيمهم ، وإنما في أماكن تبعد عن ذلك  
بفراخ كثيرة .

وحيث أنه ليست لكثير من هذه القبائل الجوابة من مصالح في  
داخل البلاد فإنها ترتكب جرائمها دون أن تلقى عقابا ، مادامت تحرص على  
أن تظل على بعد كاف داخل الصحراء حيث يطمعون ماشيتهم على قدر  
ما يستطيعون . لكنهم في غالب الأحيان يعسكرون على حافة مصر ،  
وهناك توجد كثير من الأراضي التي كانت تزرع في الماضي ، كما تستدل  
على ذلك من الآثار التي يحفرها العرب هناك والتي تردها الرمال كل  
يوم أكثر فأكثر . وفي غالب الأحيان ، تصل مياه الفيضان لتفمر هذه  
الأراضي ، وعندئذ ينمو نوع من البرسيم بالغ القصر له أوراق بالغة  
النعومة تفتتح في شواشييه ورود صفراء ويسمونه كنة . وهو علف جيد  
بالنسبة للمواشي ، في جودة البرسيم نفسه بل ويتفوق عليه حسبما يذكر  
أهل البلاد الذين كثيرا ما رايتهم يذهبون إلى هناك ليحصوه لخيولهم ،  
وهو قصير لكنه بالغ الكثافة . وبعد الفيضانات الكبرى « كفيضان  
سنة ١٨٠٠ » ينمو هذا النبات بوفرة شديدة حتى أن العرب يرعون  
هناك ماشيتهم وخيولهم وجمالهم على نحو واسع . ويتراخون في  
الذهاب لالتلاف محاصيل علف الفلاحين ، وعام كهذا هو عام مبارك بالنسبة  
للقبائل العربية التي تأتي لتغطي بخيامها كل حواف الصحراء . لذلك  
شاهدنا في عام ١٨٠١ مجيء كثير من القبائل العربية من أفريقيا بعد  
أن جذبتها أنباء الفيضان الكبير . وينمو في هذه المناطق بالإضافة  
إلى محصول العلف هذا ، نباتات عطرية صغيرة الحجم تشكل مرعى  
ممتازا للخراف والماعز . ونتيجة لذلك تقوم الماشية بتسييد هذه الأراضي،  
وبهذه الطريقة يكون من السهل إعادة زراعتها لولا فقر وكسل الفلاحين أو  
بالأحرى لا مبالاة الحكام . والأرض التي تنتج هذه النباتات هي في  
واقع الأمر صلبة لحد تستعصى معه على المحراث المصري أن يشقها ، ومع  
ذلك فلماذا الإصرار على استخدام المحاريث لهذا النوع من الأراضي ؟ إنها  
سوداء كالأرض المزروعة لكنها أكثر تماسكا ، ويبدو لي أنها تدين بذلك  
لوجود طمي بالغ النعومة قد تكس على مر السنين وازداد جفافه أكثر  
فأكثر ، لأن الجزء الأكثر نعومة من الطمي هو الذي يقوم النهر بترسيبه  
جد بعيد من مجرى النيل ، وتشكل الأراضي من هذا النوع في بعض

الاحيان مراعى شاسعة تمتد حتى الريف ، وتجعل الحدود الحقيقية للأرض المزروعة غير مؤكدة ، ولهذه المراعى المليئة بالورود الحمراء والبنفسجية ، شكل ورائحة جذابة ، لذلك فان حواف الصحراء على بعض المناطق مثل المير والأصهار وأماكن أخرى ، تبعث على البهجة أكثر مما يبعث عليها أى مكان آخر فى مصر التى تعرف بأنها لاتتمو بها الأعشاب .

هكذا يضطر العرب الذين يطردون من الأراضى المزروعة اذن على الهروب الى مشارف الصحراء او الى أبعد من ذلك بتليل ، وبينما يظنهم الناس قد ذهبوا الى بعيد فانهم يكونون شديدي القرب من مصر ، ومن أولئك الذين يطاردونهم ، مختفين وراء تل من الرمال . . وهم يعرفون الأبار وكافة البحيرات والبرك التى يكونها الفيضان فيلجأون اليها عندما يتوغلون داخل الرمال . واذا ماتتبع آثار جمالهم فستقودك هذه الآثار بالتأكيد الى أماكن توجد بها مياه صالحة . فلا يتخيلن احد انه يسبب اذى للعربان اذا ماثن عليهم الحرب كما حدث ، فلسوف يعرفون مقدما أن هناك مسفا من الجنود المشاة يجدون فى اثرهم ، عندئذ يحملون حبوبهم وخيالهم ويبعثون بها الى الأمام ثم يتجمعون كلهم فوق خيولهم ليتبعوا اشيائهم وبذلك يصبحون بعيدا عن متناولك قبل أن تدرك أنت ما صاروا هم اليه ، واذا مالحت بهم فسيذافعون بسهولة عن انفسهم ضد اناس منهكين قليلى العدد ، وهم يسببون لعدوهم من الأذى أكثر بكثير مما يسببه هو لهم ، وسرعان ما يرهقون مشاة نصف مهزومين بفعل العطش ، وأخيرا فاذا كان عدوهم فى حالة تمكنه من دفعهم ، فانهم يهربون ويلحقون بجمالهم فى أعماق أعماق الصحراء لدرجة يستحيل مطاردتهم هناك . . وليس هذا هو كل شيء ، فعندما يعرفون أن صف الجنود قد مضى ، فانهم يستعيدون موقعهم بكل ثقة ، عارفين جيدا أن العدو لن يهاجمهم مرة ثانية ، اما اذا حدث ذلك ، فانهم على اتم استعداد للقيام بنفس التناكيت ، الذى لا يسبب لهم على الإطلاق أى تعب ، ويهربون من المطاردة الثانية ، بسهولة أكبر .

وقد شاهدت كثيرا من القبائل تتصرف على هذا النحو فى مصر العليا ومصر السفلى ، ولم يستطع لا الفرسان ولا المشاة أن يسببوا لهم أدنى اذى ، وليس فى مقدور عدوهم أن يحطم لهم أى شيء اللهم الا هدم بعض

الأكواخ واشغال النار فى بعض اكوام القش . وللمعرب مزية لا تقدر بثمن ، هى ان لهم داخل القرى نفسها مستودعات مضمونة للجيوب وللمؤن الأخرى التى قد تسبب لهم الارتباك عند هروبهم ، وهم يحصلون بلا مشقة على هذه الخدمة الجليلة من جانب شيوخ القرى وليس لاحد من سبيل للتعرف على هذه المستودعات .

وعندما طردت قبيلة اولاد على من ضواحي الاسكندرية فى صيف عام ١٨٠٠ فقد انسحبت هذه القبيلة الى الصعيد دون ان يخامر احد الشك فى ( امكانية ) حدوث ذلك ، اذ بينما كنا نظنها مقبلة فى ليبيا ، قدم اكثر من الف فارس ليقبوا فى ادمو مع عدد هائل من الجمال ، واردنا ذات يوم ان نفاجيء فريقا معاديا كبيرا منهم عند مدينة سمالوط ، لكن النبا بلغهم فى الوقت المناسب فانقذوا كل شئ على وجه التقريب دون ان يضرروا رجلا واحدا .

#### هل يستحيل اذن اللحاق بقبيلة معادية ؟

لو حدث ان كان لدينا العديد من فرق الجنود ، موزعة توزيعا جيدا ومسلحة بسلاح جيد ، يركبون الجمال ويحملون معهم مؤنا تموينية ومياها بحيث تهون من عملية مطاردة الفارين منهم لمدة خمسة او ستة ايام فى الصحراء اذا اقتضى الأمر ، واذا امكنا زيادة على ذلك ان نعتمد على جواسيس مخلصين ، فليس هناك من شك فى أننا فى النهاية سنلحق بالجمال المحملة ، فأسلاب كهذه هى بالتأكيد أكثر الامور اغراء للجنود كى يواصلوا هذه الجولات المرهقة . . اذا حدث وتم لنا ذلك فلا يمكن ان تكون ثمة قبيلة عربية على الاطلاق ، ومهما كانت قوتها ، لا يمكنها الا ان تتحطم فى ظرف عدة ايام ، أو على الأقل ، تتبعثر وتحرم من نسائها واطفالها وخيامها وجمالها ومؤونتها بعد مطاردة كهذه تتم على يد خمسمائة فارس - جمال « هجانة » تتوفر لهم قيادة جيدة ، ومعلومات موثوقة بها ومعرفة بالطرق الصحيحة التى ينبغى ان يسلكوها (٢٠) .

---

(٢٠) ينبغى ان نحكم على هذا الزعم عن طريق النتائج الأولية التى حصل عليها الفرنسيون عن طريق تنظيم مشابه اقاموه أثناء حملتهم على مصر .

هنا يثور سؤال آخر . هل يمكن عقد السلم مع قبيلة جواله ؟ أم  
انه ينبغي علينا ان نعامل كل القبائل من هذا النوع باعتبارها معادية ؟  
دون ان نستثنى من ذلك حتى العرب المزارعين الذين يقيمون داخل  
مصر .

اذا ما وضعنا في اعتبارنا اننا لن نحصل على اى نفع من وجود  
العرب ، بل وجدنا انهم بالعكس قادرون على الاضرار بنا في كل لحظة  
بدعم حركات التمرد والاسهام فيها ، وبتقوية صفوف جانب مناوئ لنا  
قد يظهر في الاق ، فسوف يكون لزاما علينا الا نفرك قبيلة واحدة في  
حالة سلم ما لم ينعنا من ذلك خوفا من ان تنقصنا الجمال والخيول  
على الفور في اسواق مصر . وفي الحقيقة ، فانه من الممكن ان نشجع  
تربية هذه الحيوانات في الأرياف وأن ننتج منها في فترة محددة كمية  
كافية ، لكن هذه الفترة لن تأتي الا بعد وقت جد طويل ، وهكذا  
سنجازف — لو فعلنا ذلك — بأن تنقصنا هذه الحيوانات فجأة وعلى  
الفور . ومع ذلك فان ثمة اسبابا هامة تدعونا بالا نسمح لاية واحدة من  
هذه القبائل الجديدة التي تأتي كل عام الى مصر بأن تثبت اقدامها فوق  
ارض البلاد ، فان اغرابا يمسكرون على ابواب بلد لا يمكنهم في الواقع  
الا ان يكونوا اعداء مزعجين ، فاية كارثة يكونها امثال هؤلاء القوم في  
واد ببث ضيق مصر ! وهل هي سياسة سليمة على الاطلاق ان نقاسى  
داخل البلاد من فرق معادية على هذا النحو وأن تظل « البلاد » راضخة  
لتجار الخيول هؤلاء ؟ وهل من الحكمة ان ندعهم ينتزعون الجزء الأكبر من  
اموال البلاد؟ بماذا تنبئ كل هذه الهجرات القادمة من بلاد البربر حتى ولو  
لم يكن بينهم العائلات التي تخرج من هذه البلاد ولديها هذه الرغبة المتأججة  
في الاثراء على حساب مصر ، وهو الأمر الذي لم يعد بالنسبة لهؤلاء  
الا امرا بالغ السهولة بفضل تراخي الحكومات ؟ واذا ما حسبنا حساب  
كل شيء لوجدنا ان من الواجب الا نتفاوض مع هذه القبائل الجديدة، حيث  
انه لا توجد معاهدة على الاطلاق لا تحتوى على منافع متبادلة .

اما عن العرب الملتزمين « اى الذين يقومون بوظيفة ملتزم » ، فاذا  
ما اعترفنا بأن ممتلكاتهم تعود كلها الى حوادث غزو ، وأن حوادث الغزو  
هذه تعود الى عهد جد قريب حتى ان الملاك الحقيقيين يستطيعون المطالبة

باستعدادتها أو استرجاعها بأنفسهم فقد يكون من المحتم بلا جدال أن يطرد من مصر ، وبلا أى استثناء كل العرب الذين أقاموا فيها أو على الأقل أن تقلص من مكانتهم ليصبحوا مجرد مزارعين بسطاء ، وأن نجعلهم يعملون عن حمل السلاح وركوب الخيل وأن ينفضوا من حول رؤسائهم وأن يتخلوا عن نظام القبيلة الذى يحكمهم وأخيرا أن ندجهم بالشعب .. ومع ذلك فإن الأمر ليس على هذا النحو ببساطة ، فكثير من القرى إنما هى ملك خاص للعرب إذ يوجد فى صعيد مصر منذ وقت لا تعيه الذاكرة عرب ملاك بل ومستقلون ، كانوا على الدوام حكاما خلصا فى مقاطعاتهم حتى فى زمن المماليك ، بل أن الكثيرين منهم هناك قد نالوا تقدير الناس لمسا لهم على الزراعة من فضل وما بذلوه فى سبيلها من عناية .

أذن فليس بالإمكان سوى أن نلقى الإبتزازات القديمة والحديثة وأن ندع للعرب الأراضى التى فى حوزتهم بفعل حق الملكية القديمة ، ومع ذلك فإن الأمر يقتضى منا فى كل الحالات أن نمنع وأن نستبعد بكل شدة عادات وطباع الخيام ، فما أن يتفرق هؤلاء الفرسان فى القرى، حتى يجدوا لزاما عليهم بالضرورة أن يهبوا أنفسهم للزراعة، وعندئذ سنرى انقطاع أحداث السلب كما سينتهى بخاصة ذلك التمايز المحزن بين العرب والفلاحين ، وقد لا يكون من الظلم أن نمنع هؤلاء الرجال من أن يقيموا خيامهم ، أو أن نبعدهم كلية عن البلاد إذا ما أقاموا ، ذلك أن بلدا متحضرا ، من اليسير على راكبي الخيل أن ينهبوه ، لا ينبغى له مطلقا أن يتسامح فى وجود هذا العدد الكبير من العاطلين ، الذين ليس لهم من مقر ثابت والذين لا يتحملون مسئولية فعالهم ويضمون أنفسهم فوق القانون .

ومهما يكن من أمر فإن المرء لا يستطيع أن ينظر باستخفاف الى التزايد المطرد فى أعداد هؤلاء الفرسان الطموحين ، الذين لا يخضعون لشيء ، والذين يهددون بغزو غير منظور لكل الأراضى بل والسيطرة على البلاد . ولربما نصحو ذات يوم فإذا بالوقت قد فات ، فلا نستطيع أن نقاوم مائة قبيلة ، تضم كل منها خمسمائة فارس .. ألن يكون جيش كهذا ، إذا ما حدث أن تجمع ، قويا لحد يمكنه من السيطرة على مصر !!

لنضف الى هذه القوة العسكرية قوة المال الذى يتكدس دونما انقطاع فى أيديهم بنفس القدر الذى قلناه عن العرب المزارعين . وفى

الواقع فان حصيلة بيع ماشيتهم ، والاجور التى يحصلونها من القوافل، ومنتجات خيولهم وجمالهم وعائد تجارتهم . . كل ذلك يؤدى لذهاب كميات كبيرة من النقود الى خيامهم ، وهذه تبلغ رقما لا يعود ١/١٠ منه الى مصر ثلثا لضرورات حياتهم ، لان العرب يكادون لا يحتاجون لشيء .

ان النهم للمال والفضة عند العرب هو اولى غرائزهم ، فمجرد رؤية قطعة من الذهب تجعل اسارىهم تنفرج ، وتجعل الابتسامة ترتسم على شفاههم ، وهم لا يتدبرون رجلا الا لما يمتلك من المال او الا بقدر ما يأملون فى الحصول عليه منه ، واذا ما نقص مال هذا الرجل ، فسوف يجد فيه اناسا لا يمكن الوصول اليهم او الحصول على شفقتهم . ولكم شاهدت ابناء الاسكندرية البؤساء الذين عانوا من مجاعة مفرقة وهم يستجرون هؤلاء العرب شبه جائين على ركبته والنقد فى ايديهم ان يبيعوهم بعض مكاييل من القمح لاطعام اسرهم التى ظلت على الطوى مدة يومين ، لكن العربان كانوا يرفضون البيع بالدينى ، فقلب البدوى قطعة من صخر لا يمكن ان تلين الا على رنين الذهب ، والذهب وحده (٢١)

ويحتفظ العرب الرجل على الدوام ، سواء كانوا فى حالة حرب او فى حالة سلم مع حكام البلاد ، بعلاقات متينة مع بعض شيوخ القرى تؤمن لهم المواد والمعونات الخفية ، بمعنى ان هؤلاء الشيوخ يكونون على استعداد لاختفاء امتعة هؤلاء البدو وجيوبهم واشيائهم . وربما اخفى شيخ عنده ذات نهار ما سرقه العرب منه هو شخصا ليلة البارحة . ومع ذلك ، فهكذا قدر على الفلاحين ان يقبلوا يد قاتلهم ، فلقد سمعت

---

(٢١) كثيرة هى النقود التى كسبها العرب من الاسكندرية اثناء شهور الحصار الستة ، فبعد ان ضيق الانجليز عليها الخناق ، لم يعد بإمكانها ان تحصل على اية مؤونات من رشيد لاعن طريق البر ولا عن طريق البحر . وفى النهاية امكن للعرب ان يدخلوا اليها بالحبوب بالطواف حول بحيرة مريوط ، وحيث لم يكن الناس يستهلكون هناك الا المواد الحيوية، وكان العرب وحدهم هم الذين يقدمونها بأسعار متزايدة ، فمن الواضح انهم قد نزحوا من هذا المكان اكثر من مليونى قطعة ذهبية اذ كان يوجد هناك اكثر من الف شخص ينفق كل منهم سكبنا « عملة ذهبية قديمة » كل يوم ، بالاضافة الى انهم كانوا يسلمون الينا كل يوم ١٣ الف جراية ، ( حصنة طعام الجندي فى اليوم ) .

الفلاحين يصنون بالطيبة والشرف هذا الفريق من العرب الذين لا يقتلونهم وانما يكتفون فقط بنهبهم .

وهذا الخطأ الذي يقرره الشيوخ في تقبلهم هذه المخازن السرية هو واحد من اهم الاخطاء التي تقود الى الدمار والهلاك . وقد رايت من هؤلاء الشيوخ ، الذين اصيبوا بمعنى البصيرة لحد يجعل منهم شهداء ثمنا لكلمة صدرت منهم ، يحتفظون بثروة العربان على حساب ثرواتهم الخاصة ، بل وعلى حساب حريتهم . بل لقد رايت من بينهم من يتحملون عقابا مشينا . ويتلقون لوقت طويل عذاب الضرب بالعصى قبل ان يرغموا على الاعتراف على المخازن التي اوكلت اليهم . لكن هذا ليس من البطولة في شيء فلست احب هذا الوفاء للوعود التي انتزعت بفعل الرعب . لكنني اليوم هؤلاء « الشيوخ » لرعبهم وضعفهم ، واعيب عليهم ان يجدوا انفسهم بفعل وضعهم المزرى قد انساقوا الى العمل ضد الحكومة والى حياة اعدائها . وكم يتألم المرء وهو يرى العقوبات القاسية الى هذا الحد والمهينة الى هذا الحد وهي تطبق على مسنين يحظون بالتقديس بين ذويهم ، على رجال هم قضاة ورجال دين وسادة في وقت معا وفي نفس المكان الذي يحكمونه . ولما كنت قد وجدت نفسي شاهدا على حوادث مماثلة ، فقد كنت آمل على الاقل ان امثلة هذه القسوة سوف تخلص الشيوخ من عيوبهم هذه وان سيكون بمقدورها ان تقود خطاهم نحو مصالحهم الحقيقية ، ولن تكون هذه المصالح مطلقا في معاونة شذاذ آفاق يتعاقبون عليهم ، ويأتون لينهبوهم كل بدوره . . لكن هذه المصالح ستكون في الارتباط بالحكومة التي تظل على الدوام هي هي ، ثم يطلب هؤلاء الشيوخ بعد ذلك دعمهم ضد قطاع الطرق هؤلاء فالضرائب التي يدعمونها للحكومة تعطيم الحق في هذه الحماية .

ومع ذلك فهكذا تمضي الأمور ، فشيخ البلد يقوم مرة باستقبال طيب للفريق « العسكرية » التي تمر بقريته لطاردة العربان ، ومرة أخرى لهؤلاء العربان انفسهم الذين يهاودون المرور بقريته بعد ذلك ، وسوف تكون سعادة هذا البسائس مفرطة لو انه لم يلق المهانة على يد احد الفريقين عقابا له على استقباله الفريق الآخر وتقديم عونه للفريقين . .



ذات مرة وجدت في اشمنت حوالى العشرين من العربان الذين اشتهروا بالسلب ، وعندما شاهدوا مجيء مقدمة جنودنا خرجوا من القرية ، وامطوا خيولهم . . كان الطرفان « جنودنا والعربان » جد قريبين من بعضهما البعض لحد لا يمكن معه ان يستعد ايهما للمعركة ، فتلاصق العربان فيما بينهم وأطلقوا بنادقهم من خلف ظهورهم ثم وضعوها مستقيمة فوق الركبة علامة على الحرب ، ثم مضوا في تحد وفي شكل استعراضى ، وحيث كان عدد من تجمع من جنودنا لم يبلغ بعد ، سبعة او ثمانية ، وحيث كان هؤلاء مرتبكين بامتعتهم ، فقد اضطروا ان يتركوا هؤلاء يفلتون دون ان يجسّدوا في اثرهم ، وان ينتهزوا فرصة اخرى لعقاب هؤلاء اللصوص النهائيين . وعلى الفور هرع اليها شيوخ القرية واستقبلونا بحفاوة . . وكان هذا الاستقبال الحافل هو نفس الاستقبال الذى قدموه منذ زمن قصير للعربان ، ولقد قالوا لنا عنهم الكثير من السوء ، بنفس القدر الذى قالوه عنا لهم ، دون شك .

راينا من قبل ان العرب الجوابين يطعمون خيولهم ومواشيهم في اغلب الاحيان على مشارف الصحراء ، من تلك الأعشاب التى تنمو هناك، لكن ذلك لا يحدث الا عندما لا يستطيعون ان يذهبوا العلف من الفلاحين، حين لا يكون اولئك البدو كثيرين للحد الذى يكفى للاقامة هناك وعندما يخشون بعض المقاومة . اما في الحالة الأخرى فلن ينقصهم العلف مطلقا ، ولن يحترموا من جانبهم شيئا على الإطلاق ، فهم يمررون خيولهم على المحاصيل سواء كانت ناضجة نمت ثمارها أو مازالت بعد عشبها اخضر ، ويجعلونها تأكل القمح أو الشعير وهو لا يزال بعد نباتا صغيرا ، وانه لتناقض فريد ان ترى التلف الذى تحدثه الفرسات الطليقة بين القمح والبرسيم ثم ترى بعد قليل جواد شيخ القرية « وصاحب الحقل » مقيدا الى وتد يرعى الكلا ونبات الحلفا ، ويحدث في بعض الاحيان ان يشعر السكان بالمهانة من هذا السلوك ، وعندئذ — اذا ما توفر لديهم بعض الفرسان — يطبقون على العربان ولا يتردد هؤلاء مطلقا في الهروب ، ولكن اذا ما فقد العرب رجلا في المعركة ، فسوف تكون معركة لا تلوح لها نهاية ، اذ يأتى أهل القتل في اعداد كبيرة يطلبون بالقصاص ، فلا ينالون بغيتهم ، وعندئذ يأتون ليحصلوا على ذلك بأيديهم ، وهنا تتبادل حوادث القتل والاغتيل الفردى بين

الفريقين ، فقتل عربى واحد فى قرية يمكن أن يعرض هذه القرية لاضطهاد قبيلة بأكملها لسنوات طوال ، ولابد من ارضاء هذه القبيلة على وجه السرعة ، اذا شامت هذه القرية الا ترى نفسها وقد خربت ، وكم شاهدت من قرى لم تعد فى الوقت الحاضر ، وبعد ان مرت بحالة كهذه ، سوى اطلال هجرها سكانها لأنها تجرات على خوض معركة ، كان العرب فيها هم المعتدين .

وعندما يأتى الفيضان ، ينسحب البدو نهائيا من العمل لمدة ثلاثة اشهر ، وتكون هذه الفترة بالنسبة اليهم هى ابأس شهور السنة واكثرها مدعاة للأسى ، فليس هناك ما يطفئ قىظ الصحراء الرهيب ، تلك التى لا يجدون مناصا من البقاء فى اسارها ، ويحتم الأمر ان تقرض خيولهم اغصان التمرهندي ، لكن ذلك ليس بهتوافر على الدوام . عندئذ يضطرون خلال هذه الفترة ان يقدموا الشعير لخيولهم ، وان كان ثمة ما يزيد على ثمانية اشهر من شهور السنة الاثنى عشر لا يحدث فيها ذلك على الإطلاق .

وينتهى الفيضان، ولا يلبث محصول الذرة ان ينضج . وعندئذ تبدأ جولات الغزو والسلب . وبالسوء حظ تلك القرى التى يبلغ ضعفها حدا لا تستطيع معه ان تذود عن محاصيلها ! ذلك ان الذرة هى خبز العربان ، وهى نفس الوقت خبز الفلاحين لكن الأمر ينتهى بأن **تقهر** الذرة — ولو فى جزء منها على الأقل الى الأولين . . الى هؤلاء الأكثر قوة .

ويكون طعام العربان الرحل عادة أكثر سوءا من طعام الآخرين، واغلب هؤلاء غير حسنى الهندام ، ولون ملابسهم حائل كما انهم أكثر استعصاء على التمسب ، لذلك فملاحمهم أكثر جمودا ، وهى صارمة على الدوام وقاسية . وزى الفرسان على الدوام ابيض اللون ، اما ملابس السيدات وملابس الراجلين منهم فذات لون قاتم . ويرى فى مخيماتهم كثير من الرجال يضعون عصايات على أعينهم كما يحدث فى مدن مصر، ذلك انه من الخطأ الاعتقاد بأن هؤلاء البدو لا يصابون بالرمد ، وهم لا يبذلون اى جهد ليحصلوا على الشفاء ، بل يظلون يلزمون خيامهم وينامون فى الظل كما تعودوا . وليس لهؤلاء العربان من عمل ثابت . وان كانوا على الدوام فى حالة حركة وفى حالة زحف ، وهم يذهبون كما

الضواري الشهباء يبحثون عن فريستهم ، ولا يتوقفون الا حيث تستبقيهم  
الاسلاب .

وفضلا عن ذلك فان تقاليدهم وعاداتهم هي نفس عادات وتقاليدهم  
العرب الآخرين . فهم راضون سعداء بحظهم في الحياة وبما يملكون ،  
وكما ينال الشيخ التقديس من قبل قبيلته فان رب الاسرة يلقي احترامه  
من قبل أسرته ، واذا ما امتلك الرجل منهم حصاتين وجملين واربعه  
خراف وبنديقية وخيمة ، فلقد نال كل ما يبغي وتحققت كل رغباته وحيث  
لا توجد لهم في الغالب من قوانين الا القوانين الاسرية . . وحيث لا يدغمون  
اية ضرائب ولا يلتزمون بأى التزامات اخرى فان مخيماتهم تبدو صورة  
مجسمة حقة لحرية لا يتمتع بمثلها مجتمع آخر على الاطلاق . ولا يهتم  
بدوى ما الا بنفسه ومكاسبه وشئون حياته هو وبفعله ، وعندما يتم  
تجهيز قافلة فانه يؤجر جماله ويتقدر هو الثمن الذي يرتضيه دون ان  
يكون عليه ان يوضح امره لا لشيخه ولا لاحد آخر ، وهو يضخم من ماله  
الخاص عن طريق بيع الجمال الصغيرة والفرسان الصغيرة والبان  
ضأنه وعن طريق عائد التجارة التي يمكنه ان يمارسها . وبهذه الطريقة  
يلبغ سن الشيخوخة وهو مبدل عزيز على اولاده ويموت بعد ان يكون  
قد استمتع طيلة حياته بأثمن ثروات الرجل : الصحة والحرية .  
وعند موته يترك أبناءه وهم متزوجون ، بل وآباء ، أغنياء بثروته هو ،  
وبما يكونون قد كسبوه .

واكثر العرب بؤسا هم أولئك الذين لا يمتلكون على الاطلاق خيولا  
ولا جمالا لأنفسهم ، بل ولا خياما وان كانوا يمتلكون بعض الحمير التي  
يربونها ويبيعونها في الاسواق ، لكن هؤلاء الرجال لا يبدون تعساء،  
فتمودهم على ضروب الحرمان يجنبهم عدم التوافق مع الحياة ، وهم  
لا يرغبون في ثروات يجهلون بها او ينظرون اليها على انها ابعد منالا مما  
قسم لهم ، لكنهم سرعان ما يفلتون من هذا القدر ، فحيث ان طموحهم  
الرئيسي ينحصر في ان يكونوا ملاكا لفرس فانهم لا يلبثون ان يحصلوا على  
ثمنها عن طريق بيع بعض الخراف وبعض الحمير . وبعد اقتناء الفرس  
يتزوجون في اقرب وقت ممكن ببنديقية وسيف . وفي النهاية يرى المرء  
هؤلاء الناس ، في اشد حالاتهم بؤسا ، لكنهم يشاركون شيوخ

انضم الصائلات في التباهي بأنهم بدو ، يكون الاحتفال للأوروبيين ،  
ولكل ما هو غير عربي . .

وعلى العموم ، لماتنا لا نجد لدى البدو البسطاء الا الأشياء التي  
تعد من ضرورات الضروريات (٢٢) .

ولكن ينبغي الا نحكم بما نرى عند هؤلاء على رؤساء القبائل ،  
مصادر دخل هؤلاء لا تجعلهم في منزلة اقل من العرب الملاك ، وكبار  
شيوخهم وعائلاتهم وكذلك شيوخهم الشرعيون هم اغنياء بالنسبة  
للمصريين ، لهم يحصلون على دخول كبيرة من القوافل ، ويتخذون العديد  
من الزوجات والكثير من الخدم ، وطعامهم بسيط لكنه صحي  
ووفير ، والأسلحة الجميلة والخيول الجميلة ليست امورا نادرة هناك ،  
ويشتري هؤلاء في بعض الأحيان عبيدا سودا لينتخوها منهم فرسانا .

وقلما تنقص البدو الذخيرة التي يطلقونها ، وهم يتزودون بها من  
قرى تصنع فيها بشكل سرى ، ومع ذلك فهذه الذخيرة من نوع رديء ،  
وتمدهم قرية الأشمونين الكبيرة بالكثير منها ، اذ يوجد هناك من  
البارود اكثر مما يوجد في اى مكان ، بفضل اتساع اطلال هرموبوليس  
الكبرى ، التي بنيت فوقها المدينة (٢٣) .

وعلى الرغم من ان العرب الرحل قلقون متوجسون فانه يحدث مع  
ذلك ان يؤخذوا على غرة وعندئذ يكتفون — ما ان يلحقوا الفرق  
المسكية — بترحيل خيولهم وجمالهم على وجه السرعة ، هذا ان لم  
يسعفهم الوقت باقتلاع خيامهم ، وعندئذ لا يبقى في الخيام سوى  
النساء والشيوخ والأطفال ، ويستقبلك هؤلاء استقبالا طيبا ، فتظن  
نفسك في معسكر صديق ولست في معسكر اعداء تجد في البحث عنهم .

(٢٢) من هذه الضرورات التبغ، وان يكن ينقص الكثيرين منهم ، وهم  
يجدون في البحث عنه ليتخذوا منه نشوقا وسعوطا ؛ وقد رايت عربا  
يدوثون على كبرياتهم للحصول عليه ، لدرجة انهم كانوا يتحدثون بمودة  
مع جنودنا .

(٢٣) تهيب هذه الخرائب ترابا تحدثنا عنه من قبل ، يحتوى على  
الكثير من ملح البارود . .

ومع ذلك فقد يكون من الميسور في بعض الأحيان أن تفتزع قطعان ضخمة من الجمال ، لأن هذه القبائل لا تقيم لأنفسها حرسا على الإطلاق إذا لم تكن تعرف أنها ملاحقة وإن ثمة من يجد في أثرها . فهم في العادة يعمدون بيئات من هذه الجمال إلى ثلاثة رجال أو أربعة ليقودوها إلى الرعى ، وفي بعض الأحيان تذهب كل جمال القافلة التي يبلغ عددها ألفين لترعى على بعد فرسخ من المخيم دونما حراسة من أى نوع ..

ولقد استقرت بعض هذه القبائل الجواله منذ وقت طويل في مصر ، وظلت على الدوام في حالة سلم مع الحكومات ، بل تقدم إليها المساعدات ، ولا يمكن لأحد أن يوجه إلى سلوكها لوما ، فهو في مجموعه سلوك طيب لا يتعارض مع مصالحهم ويمكن أن نورد أمثلة على ذلك في قبائل : طرابين ، الدويطات ، بلى .. وهؤلاء يقومون بكل قوافل السويس ، وسوريا ، ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس باللغة المشتقة .

ويختلف نطق اللغة العربية على لسان البدو تماما عنه على لسان الفلاحين .

ولا يمكن لنا أن نعد لهجة البدو جافة ، كما أنها لا تخلو من زخارف . ففيها بعض الرقة ، ويعتريها تناغم في الصوت أكثر رخاوة ، وتتناكل على لسانهم بعض المقاطع ولكن يعيها أنها مبتورة وأكثر صعوبة . وهم يتحدثون على الدوام تقريبا بصوت خفيض ، وتكون أسنانهم حينذاك مطبقة ، ونبراتهم متنوعة ، وصوتهم منغما وغنائيا في أحاديث البسيطة ، وفي المناقشة الاعتيادية ، ويرفع أغلبهم صوته حتى يصبح ثاقبا ، ولم أسمع مطلقا حرفا يلفظونه أكثر نقاء من حرف الزاى ، وبشكل أكثر جاذبية حرف الزاى اللانعة « الذال » ويفعلون ذلك دون أن يختلط هذان الحرفان على الإطلاق ، وأخيرا فإن كل مخارج الألفاظ الخاصة باللغة العربية ، بل وحرف الخاء والنغمات الحلقية تأخذ في أقوالهم رقة خاصة تقترب من اللغات الأوربية وتثير الدهشة في مصر ، ويتضح هذا بشكل خاص في نطق الجيم التي يلفظها الكثيرون ليس غير

معطشه كما يفعل أبناء القاهرة وانما معطشة كما يفعل العرب بشكل عام ، ولكن يشوبها نوع من نطق الزاى على طريقة الاطفال أو الرجال المخنثين . وتسمع من اقوالهم حرف الثاء بشكل قاطع الرقة فى الكلمات التى يدخل فى تكوينها هذا الحرف . وقد سمعته مرات كثيرة يغنون اثناء تجوالهم على الخيول فى لحن رتيب يخرج من الالف ، وليس لكلماته معنى مفهوم ، ويكاد يتم الأمر بدون أن تفتقر شفاهم ويلاحظ المرء فى هذا اللحن تكرار المقطع « ديا » على الدوام . ويتميز البدو عموما بهذه الطريقة فى الغناء من بين أسنانهم . وفى النهاية فلهم يظهر الكبر من الاحتقار للطريقة التى يتحدث بها المصريون ، وينطقون بها اللغة العربية .



ولقد تبدو الملاحظات التى كانت موضوعا لهذه المذكرة ، والتى تمت بشكل مبدئى فى مسرح الأحداث بهدف وحيد هو دراسة العرب وتقاليدهم ، قد تبدو بلا هدف مالم تكن ترتبط باطلال عام ، أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التى تطلق روح القارىء المنصف .

ولكى نكتفى فى هذه المجالة بأكثر هذه الملاحظات اهمية ، فان من الميسور ان نضيف الى ما سبق أن العرب المستقرين فى مصر يتزايدون أكثر فأكثر سنوا فى أعدادهم أو فى قوتهم وأنهم سيستولون يوما على السلطة اذا لم يوضع حد لوقف غزواتهم . وفى الواقع ، فهما تكن اصول واقدار هؤلاء العرب سواء هؤلاء الذين يسكنون الخيام منهم أو أولئك الذين يقطنون القرى ، وسواء كانوا يزرعون أو يستزرعون الاراضى أو كانوا لا يشتغلون الا بالتوافل وتجارة المشايبة ودواب الحمل ، وسواء كانوا ينتمون الى القبائل العربية القادمة من آسيا أو تلك التى قدمت من شمال افريقيا ، وسواء تلك التى تعيش فى حرب أو سلم مع حكام البلاد ، فأتينا نرى أنه تتوقد فيهم جميعا نفس الروح ، وأنهم يرون أنفسهم اعلى قدرا من ابناء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل ، وأنهم ينظرون الى مصر باعتبارها عقارا خاصا بهم . ان خلاص هذه البلاد يكمن

فى الانقسام الحالى بين هذه القبائل ، الأمر الذى يعود بشكل خاص الى غيبة زعيم يتولى قيادتهم ويكون فى ذلك قويا وقادرا للحد الكافى ، واذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشنت اهتمام حكام مصر ، فقد تكون الإشارة الاولى كافية لاطلاق الشرارة ، واذا كان يحق لنا ان نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل ، فلا بد ان ينظر المرء الى هذا التطور باعتباره واحدا من اكثر التطورات التى تتهدد الشرق احتمالا

اما عن طباع العرب كما صورتها ، فسوف يرى القارىء ان هذه الصورة ، لا تتفق فى كثير مع ما اشتهر عن هذه الأمة من النزاهة والصراحة ، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة . ومع ذلك فقد اردت ان انقل الى القارىء باخلاص ، نفس الانطباع الذى تكون لدى وانا بينهم ، فى مخيماتهم .

لقد كان على ان اتحم العرب كما قد رايتهم فى مصر ، وليس كما هم فى اماكن أخرى . اما الأفكار التى راودتنى وانا اراهم يسلكون ، والانطباعات التى استولت على اثناء تدوينى هذه الأفكار ، فقد احتفظت بها لنفسى ، مقتنعا بان للرحالة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ ، وان عليه قبل كل شيء ، ان يولى اعتباره للمشاعر البسيطة التى شعر بها .

ومما لا شك فيه ان بدو الصحراء ، الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ، وبخاصة أبناء شبه الجزيرة العربية ، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشيء عما قيل ، واننى اميل الى الاقتناع ، بأنهم ليسوا فقط اقل جشعا ، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقة ، ولكن ، فوق ذلك ، بأنهم يمارسون كرم الضيافة ، وبأنهم يصدقون فى ارتباطاتهم ، وفى بقية الأمور ؛ بل ان هؤلاء الذين رايتهم فى مصر ، انفسهم ، لا تنقصهم مطلقا الفضائل الاسرية ، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين ، فثراء البلاد التى يترددون عليها ، فى مقابل تحولة الصحراء ، يثير فيهم أكثر فأكثر ، الجشع والنهم والبخل ، امهات الغدر والخيانة وكل الجرائم .

ومن جهة أخرى ، فإن مثال المصريين والملوك ، لم ينل سوى  
 أن اضاف الى عيوبهم ؛ فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلون بها في  
 محرواتهم ، واذا ما غريبة على تقليدهم البسيطة والابوية ، والتي تشكل  
 الطابع المميز للمرب ، وهو طابع ملحوظ لحد ظل معهم على نفس حاله  
 منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، دون أن تعتريه سوى تحورات بالغة الرهافة،  
 على الرغم من أن دين محمد ، قد بوا هذه الأمة عروشا كثيرة ، في  
 آسيا ، وإفريقيا ، وأوربا .





الدراسة السابعة :

# القصير والعكايدة

دي بوا - ريميه

العنوان الأصلي للدراسة : مقالة عن مدينة  
القصير وضواحيها ، وعن الأقوام التي  
تسكن هذه المنطقة ، التي كانت ، في  
الزمنة القديمة ، مقرا لسكان الكهوف ..



تقع مدينة القصير على شواطئ البحر الاحمر ، عند خط عرض ٥١ ٥٦ شمالا ، وخط طول ١٢ ٤٤ ٣١ ، وهي تنهض بالقرب من الشاطئ ، فوق ساحل رملى ، يبلغ مائتين وخمسين مترا ، أما عرضها فلا يزيد على مائة وخمسين من الأمتار .

وبيوت هذه المدينة منخفضة ، وهى مبنية عادة من الطوب النىء . واليكم هذا الوصف الموجز للتقسيم المعتاد لهذه البيوت : ثمة فناء كبير ، وفوق الباب مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى هذا الطابق العلوى بشرفة ، أما الطابق الأرضى ، فيضم حجرة او حجرتين بالفتى الضيق ، يلتصق بهما من الخلف جدار السور . ويستخدم الفناء مخزنا ، وان كان هذا امرا لا يخلو من عيب ، فى بلد لا يندر به سقوط الأمطار .

وليس ثمة بيت غدير مزود بخزان للمياه . وتأتى المياه التى يستخدمها الأثرياء من عين تسمى درفاوة التى تقع على بعد ثمانية او تسعة فراسخ من المدينة ، ومياه هذه العين طيبة لحد ما ، وتباع فى القصير بسعر ٢٠-٣٠ بارة للقرية الواحدة (١) ، وتزن هذه حوالى تسعة كيلوجرامات . وعلى بعد أربعة او خمسة فراسخ ، توجد عين مياه أخرى وان كانت مياهها اقل جودة ، وأخيرا ، فقد حفر الفرنسيون على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المدينة بئرا يبلغ عمقها مترا واحدا فى مجرى جاف لأحد الأخوار ، ومياه هذه البئر ليست مالحة على الإطلاق ، وان كانت ماسخة الطعم بقدر ما هى ثقيلة ، الأمر الذى ينبغى ان ننسبه الى سلفات الجير التى تحتفظ بها المياه بعد تطلها . ويمكن لهذه البئر ان تمد بالمياه ما يقرب من ستمائة رجل كل يوم .

وماذن المساجد هناك اقل ارتفاعا بكثير عن مثيلاتها فى مصر ، مما يعطى ملمحا للقصير مختلفا عن بقية مدن هذه البلاد .

---

(١) بارة او مدينى وهى عملة صغيرة تساوى حوالى ٩ drachmes أى درهم ، وهو نقد رومانى ثم فرنسى ضئيل القيمة .

أما القصر ، فيقع خلف المدينة ، ويتحكم فيها بشكل تام ، فهو مشيد فوق هضبة مرتفعة من الجير الجبرى ، مغطاة بزلط مستدير الشكل ، يتجمع فى سلسلة من تلال تتكون كلها من هذا الزلط المستدير من مختلف الصخور ، وتعد هذه التلال التى تنحدر نحو البحر، بمثابة نهاية لسلسلة الجبال العالية التى تحد الأفق من جهة الغرب .

وكان هذا القصر عند مجىء الفرنسيين ، عبارة عن معين تعلوه أربعة أبراج ، ويبلغ سمك جدرانها من ٢٦ الى ٣٠ سم . وهى مبنية بالحجر الجبرى ، ولا يحتوى القصر الا على عدد صغير من الغرف . كما يضم بئرا محفورة بأكملها فى الجص ، مياهها بالغة الثقل ومائلة للبلوحة وتكاد لاستخدم الا فى سقاية الماشية . وعلى بعد مائة خطوة من الواجهة الجنوبية الغربية خارج القصر ، يوجد خزان مياه قديم ، مكسو بالطوب يمكنه ان يحتوى على ٤٥ مترا مكعبا من المياه ، وتنتهى الى قاع الخزان مسارب عديدة ، تهبط من التلال المحيطة والجاورة ، بحيث يمتلئ الخزان بشكل طبيعى بالمياه فى فصل الأمطار .

وفى الجهة الأخرى من الحصن ( القصر ) كان يوجد مسجد وعديد من الأضرحة أو المقابر هدمها الفرنسيون .

ولا يقطن هذه المدينة الا تجار قادمون من مصر ومن الجزيرة العربية، ويتوجه هؤلاء وأولئك اليها لاتمام أعمالهم ، ومع ذلك فليس لهذه المدينة سكان بمعنى الكلمة : بل ان شيوخ المدينة انفسهم هم تجار من ينبع ، اكتروا من الحكومة المصرية جزءا من الضرائب الجمركية ( اى حصلوا على التزام الجمارك هناك ) .

وضواحي القصر صحراوية تماما ، وفيها عدا بعض نباتات الحنظل، وهى مع ذلك نادرة ، لا يكاد المرء يرى اى نوع من الخضرة . والأرض هناك رملية ، وان كنا نجد عند الاقتراب من البحر طبقات من الصلصال، على عمق بضعة ديسيمترات تحت الرمال .

والميناء مفتوح تماما امام رياح الشرق ، أما من جهة الغرب فتحوى الشاطئ من الشمال هضبة من الشعاب المرجانية تمتد لمسافة مائتين وخمسين مترا داخل البحر ، وهذه الهضبة تنحدر بشكل راسى ، وتأتى

السفن لترسو عندها ، فهي على نحو ما مرفأ طبيعى بناه المديخ (❖) فى هذا المكان ، لكن المياه تنطياها فى حالات المد العالى بحوالى ثلاثه ديسيمترات ، اما فى حالات المد المنخفض ، فيبدو سطحها خشا وعرا لحد لا يستطيع المرء معه ان يسير فوقه الا بمشقة بالغة . ومن المدهش حقا ان السكان لم يفكروا فى رفع هذه الهضبة قليلا ( عن طريق الردم فوقها ) لكى يقيموا فوقها مدينتهم ، ولو ان ذلك قد تم لكان بالامكان تحميل وتنزيل البضائع بسهولة بالغة ، اما فى حالتنا الراهنة، فان الناس مضطرون لنقل البضائع فى قوارب لا يمكنها ان تقترب من الشاطئ الا لمسافة ثمانية او عشرة امتار ، حيث يصبح البحر ضحل العمق كلما اقتربنا من المدينة ثم يكون عليهم بعد ذلك ان يخوضوا فى المياه ، حاملين البضائع فوق اكتافهم .

اما قاع الميناء فهو من الرمال ، وهو مستو بعض الشيء ، ومع ذلك فحيث ان قلصات ( جبال ) غالبية السفن العربية رديئة — اذ تصنع من القيل او حتى من سعف النخيل (٢) ، مما يجعلها ضعيفة لحد كبير بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب — فانها ( اى السفن العربية ) تتعرض فى بعض الأحيان لحوادث قد لا تصيب مطلقا غيرها من السفن الافضل تجهيزا .

ويشكل الميناء عند الغرب منحنى مقعرا ، تحيط به سلسلة من احجار مرجانية ، وينتهى بصخرة من نفس النوع ، تتوغل داخل البحر بحوالى خمسمائة متر جهة الشرق ، وعلى بعد حوالى الف متر من هذه الصخرة، وبحذاء الساحل ، يقابل المرء صخرة اخرى يبلغ طولها ١٢٠٠ متر ، وهى بالمثل من المرجان ، وتغطيها المياه عندما يكون المد عاليا ويبدأ الشاطئ ( البلاج ) ، الذى يظل شديد الانخفاض حتى هذه النقطة ، فى الارتفاع ، وسرعان مايشكل تلالا من الزلط المستدير .

ويقع ميناء القصير عند مداخل وديان تؤدي كلها الى مصر ، وقد

(❖) جنس حيوانات بحرية من المجوفات .

(٢) تصنع هذه الجبال من السعف الذى يغطى اغصان النخيل .

أدى ذلك الى حتمية اختياره على الدوام مستودعا لتجارة مصر العليا مع الجزيرة العربية . وترسل مصر الى هناك فى الوقت الحاضر ، القمح والدقيق والفول والشعير والزيت ومواد غذائية أخرى ، وترسل الجزيرة العربية البن والفلفل والصمغ والموسيلين وبعض الأقمشة من صناعة الهند (٢) .

وأثناء اقامتى فى القصير ، ابتداء من الأول من بريريل من العام السابع حتى منتصف ترميدور ( من منتصف مايو ١٧٩٩ حتى بداية اغسطس ) كانت الرياح التى تهب على الميناء قادمة من شمال الشرق ، وقد دخلت الى الميناء خلال هذه المدة خمسون سفينة ، يبلغ عدد اضعها تسع أو عشر سفن ، كانت قادمة من جدة ، وكان خمس أو ست من هذه السفن مملوكة لعرب الساحل ، وكانت السفن الأخرى قادمة من ينبع . ولم تكن هذه السفن ذات سطوح على الاطلاق ، وهى تتبع الساحل على الدوام فى رحلاتها ، وعندما تكون الرياح بالغة الشدة فانها تحتوى فى خلجان الساحل الصغيرة ، فهى لا تمخر عرض البحر الا اذا كانت تريد عبوره

هنا يسمون البحر الأحمر بالبحر المالح ، أما فى السويس فيسمونه بحر القلزم ، ويبلغ أقوى مد للبحر رأيته فى القصير حوالى ٨ ديسيمترات ، وأن كان فى العادة لا يتجاوز ٥ ديسيمترات ، بينما يبلغ مد البحر فى السويس حوالى المترين .

ويطول الساحل ، يجد الرء كميات كبيرة من الاسفنج والمرجان وثقواع تتنوع ألوانها بالغة الجمال ، ومن جهة أخرى فالساحل هنا غزير الأسماك ، وأستطيع أن أقدم فكرة عن ذلك ، اذا ماتحدثت عن الطريقة التى كان الجنود الفرنسيون يصيدون بها السمك ، فقد كانوا يأخذونه أخذا بأيديهم ، بعد أن يقتلوه بضربة من السيف أو العصا .

وتسكن هذا الساحل قبائل من صيادى الأسماك ، كان لها

---

(٢) لمزيد من التفاصيل ، انظر : دراسة موجزة عن تجاره الصعيد مع الجزيرة العربية ، وصف مصر .

مقيم على شاطئ البحر الى الشمال من القصير ، هجره سكته عند قدومنا ، وكان كل كوخ من اكواخ هذا المخيم مغطى بمظلم السلاحف . ولا تمشى هذه الشعوب الا على اكل الأسماك وهم يحصلون عليها بالشباك او على اسنة الرماح ، ويجففون منها كميات كبيرة ، ويأتون الى القصير ليتايضوا بها بعض الاشياء اللازمة لهم . ويستخدم هذا السمك المجفف فى تموين السفن . اليس مما يلفت النظر أننا قرأنا فى حكايات الأقدمين (٤) ان الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كانت سكته شعوب جوبة آكلة للأسماك ، كان من بينهم شعب من اكلى السلاحف (٥) ، وكان افرادهم يستخدمون مسدسات هذه السلاحف لتغطية اكواخهم ؟ هكذا ان كان لهذا القبائل الضعيفة ان تغلبت من حكم الزمن ، وان تعبر القرون تلو القرون ، محافظة على حريتها وعاداتها ، فى حين تقلبت أحوال ام كثيرة بالصفة القوة ، فتغيرت أنظمتها وحكوماتها بشكل تام ، وتغيرت مع ما تغير عاداتها ، وفى نفس الوقت الذى اندثرت فيه ام أخرى ، فلم يعد هناك ما يدل عليها الا ما نقرأه عنها فى حكايات المؤرخين . ولكن دهشنا ازاء ذلك لابد على الفور ان نتوقف ، فالبؤس فى واقع الأمر لا يثير اطمع الآخرين وحققهم ، وهكذا سوف تظل البلاد الخصيبة ترى على الدوام سادة جدداً ، فى حين تبقى رمال الصحراء القاحلة ملكاً لآخر احفاد ملاكها الاول ،

ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة شعب يستحق — بسبب تشابهه مع سكان الكهوف القدامى — أن ندخل فى بعض التفاصيل حول عاداته وتقاليده ، هؤلاء هم المباددة ، وهم أبناء قبيلة جولبة تشغل الجبال الواقعة الى الشرق من نهر النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف قديماً بمضى باسم : Troglodytique « أى سكان الكهوف » ،

---

(٤) أنظر بطليموس Patlymouth ، الكتاب الرابع ، سترابون Strabon ، الكتاب السادس عشر ، بوزامياس Pozamias ، الكتاب الاول ، ديودور الصقلى ، الكتاب الثالث والفلائون ، بلين ، الكتاب السادس .

(٥) يضع ديودور الصقلى آكلة السلاحف فى جزر قريبة من سواحل اثيوبيا ، ويفكر بلين أن بعضاً منهم يوجدون بالقرب من الخليج الفارسى .



وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة ترى على الشط الأيمن ( الشرقى ) للنيل  
أهمها دراو ، الشيخ عامر ، الرديسية .

ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العباددة ٢٣  
مدينى عن الجمل المحمل ومكيالا صفرا (٦) من القمح أو الفول أو الدقيق  
أو الشعير حسبها يحمل الجمل ، كما يأخذ العباددة عينا ٢٠/١ من  
الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى ، من تلك الأنواع التى  
تصل الى القصير . وقد اقام هؤلاء مخبئهم الذى نصبوه فى ضواحي  
هذه المدينة بقصد منع أى نوع من التهرب ( من الاتاوة ) من جانب  
التجار ، ومن جهة أخرى فقد كان العباددة ملزمين — فى مقابل هذه  
الاتاوة — بالسهر على تأمين الطريق وحراسة القوافل ، لكنهم لا يتمهدون  
مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب  
عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى قلزم  
السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين ( العباددة والحويطات ) حرب  
مستمرة منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وفى وقت معين ، عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى  
التي يقدمها التجار اكواما هائلة وسط المخيم ، يتزايد عدد العباددة ،  
ويبدأون يمارسون تقسيم هذه الحصيلة فيما بينهم . ولم اتمكن من الحصول  
على أية معلومات حول الطريقة التى يتم بها هذا التقسيم ، ومع ذلك فمن  
الممكن الافتراض أن الأمر لا يتم على الدوام وفتقس « للذمة والأمانة » إذ  
ينتهى بمشاجرات فى معظم الأحيان .

وعدد الخيول لدى العباددة بالغ القسلة ، فهؤلاء لا يركبون سوى  
الهجين (٧) ولا يختلف هذا الهجين عن الجمل الا فى ان قامة الأول أكثر  
رشاقة بكثير ، كما انه أكثر خفة وسرعة اثناء الجرى ، ولا تشبه  
السروج التى يستخدمها العباددة لجمالهم على الإطلاق تلك التى تستخدم  
فى مصر ، اذ هى تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة الى بعضها  
البعض بسيور من الجلد ، كما أنها ليست ضخمة الحجم ، ومع ذلك يجد

(٦) ١/٢٤ من الأرب .

(٧) Dromadaire des Naturalistes.

الإنسان نفسه فيها مستريحا بشكل تام لأن الخشب محفور بطريقة تجعل السطح متعرا مما يمنع الجسم من أن « يحمل » على جانب واحد ، وفى العادة ييسط فوق هذا السطح المتعر جلد خروف ، ومن فوق هذه السروج ، لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتعطى حصانا، لكنه يكون جالسا ، وساقاه ممتدتان الى الامام ، تستقران او تتشابكان فوق رقبة الهجين .

ويربى العبادة عددا هائلا من الجمال ، يؤجرون او يبيعون جزءا منها للتوافل ، وهذا فيما اعتقد هو مصدر الجزء الأكبر من دخولهم ، وهم يجنون من جبالهم كمية كبيرة من السنامكى والصمغ العربى، كما يستغلون هناك النظرون والشبة وبعض المواد المعدنية الاخرى . لماذا ما أضفنا الى ذلك بعض العبيد الذين يجلبونهم من الحبشة ، فسوف نكون فكرة عن اهم السلع التى يأتى العبادة ليستبدلوا بها فى اسواق مصر العليا ، الحبوب والمنسوجات والانيّة من كل نوع ، وكل ما يحتاجون اليه .

والعبادة مسلمون ، لكن البلاد التى يقطنونها وكذا الحياة النشطة التى يحيونها على الدوام ، لا تمكنهم من اتباع كل مبادئ هذه الديانة باخلاص وورع .

ويتباهى العبادة بأنهم شعب محارب ، واذا ما بادرت احدهم بالسؤال : من انت ؟ فانه يجيبك على الفور فى زهو واعتداد : انا جندى . ولقد اجاب على هذا النحو كل الذين بادرتهم بهذا السؤال .

ويزعم العبادة بأن بإمكانهم أن يضعوا تحت السلاح الفى رجل، ولعل هذا تقدير مبالغ فيه ، وينبغى أن نتشكك فى صحته ، ولو على الأقل ، تبعا لذلك الميل الذى يغرى الناس عادة بالمبالغة فى قوة أمتهم .

وتتيح لهم طريقتهم فى الترحال أن يجتازوا بلادا صحراويا بالغ الاتساع ، فيقطعون ما يبلغ مائة فرسخ فى أربعة ايام ، ويحمل معه كل راكب هجين ، ثلاث قرب تتدلى يطول السرج : واحدة مليئة بالفول ،

واخرى بالمياه ، اما القرية الثالثة وهى اصغر فتتلىء بالحقيق . ولى بعض الأحيان ، وبعد أن يكونوا قد تجهزوا على هذا النحو ، يتجمع العبادة ويتوغلون لمسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخا فى الصحراء ، ليياغتوا بالهجوم قبيلة هم فى حالة حرب معها ، أو ليكنوا ، فى انتظار مرور قافلة ييغون انتهابها .

ويختلف العبادة اختلافا تاما فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم ، وبنيتهم الجسمانية عن القبائل العربية التى تشغل مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة يحلقون رؤوسهم ، ويرتدون المعسامة ، ويلبسون ملابسهم ، ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طولها من أربعة الى خمسة امتار ، وسيوف مقوسة للغاية . الخ . اما العبادة فسود البشرة ، لكن ملامحهم تتشابه فى كثير مع ملامح الأوربيين ، وشعرهم جعد بشكل طبيعى ، لكنه ليس كوبر الصوف ، وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم ، اذ هم لا يحلقون رؤوسهم مطلقا . وتنحصر ملابسهم فى قطعة من القماش يعتقدونها أعلى الكليتين ، ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين .

وحيث أنهم يتعرضون شسبه عرا لهذه الشمس الحارقة فانهم - وذلك دون شك لى يخفوا من اثرها ولكى يحتفظوا ببشرتهم ناعمة - يدهنون كل جسمهم بالدهون . بل انهم يضعون كمية منه فوق رأسهم قبل أن يكون قد ذاب بشكل تام ، حتى ليظن المرء انهم يضعون المساحيق على طريقة الأوربيين . وشيوخهم ، هم وحدهم الذين يرتدون المعسامة فى بعض الأحيان ، بالاضافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب .

وليست لدى العبادة أسلحة نارية على الإطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ - ١٨٠ سم ، وسيف مستقيم ذى حدين ، ويسكن مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى ، ويحمل بمثابة سلاح دفاعى - ترسا مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ٦٠ - ٧٠ سم .

ويعرف العبادة اللغة العربية وان كانت لهم لغة أخرى خاصة بهم .

وربما كان هؤلاء ينحدرون من اصلاّب تلك الشعوب الجوابية التي كفت  
تمتلك هذه المناطق في الزمن القديم ، والتي حدثنا عنهم المؤلفون  
القدامى (٨) فالتر جلوديت Troglodytes ( اى سكان الكهوف ) كما  
يذكر هؤلاء المؤلفون ، كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد،  
ورماحا ، وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا  
يمارسون الختان ، واخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خلسة  
بهم ، فقد كانوا يلتقون بالحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام،  
وتمارس هذه الطريقة حتى اليوم عند العبادة ؛ وفي واقع الأمر ، فقد  
لفت البعض نظري في وادي القصير الى اكوام عديدة من الحجارة ،  
كانت هي مقابر لبعض العبادة الذين قتلوا في احدى المعارك ، وقد  
رايت كذلك في منتصف الطريق ٢ على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ،  
تلالا من الحجارة ، وقد قيل لى أن من المحتمل أن هذه الحجارة تغطي جثة  
أحد أثرياء التجار ، قد قتل على يد العربان .

ويبدو أن ديودور الصقلي كان يخشى ، وهو يدون منذ ثمانية عشر  
قرنا ، أن يحمل الناس ما يقصه عن سكان الكهوف ( الترجلوديت )  
على انه خرافات ، وها نحن نجد من جديد على نفس الأرض ، وبنفس  
الطريقة ، نفس الأسلحة والجزء الأكبر من استخداماتها الكثيرة —  
وانه لأمر يبعث على الدهشة حقا أن يكون بمقدورنا على هذا النحو ،  
وبعد انصرام كل هذه القرون ، أن نكون شهودا على صدق مؤرخ .

ولم نشاهد اية خيمة في ذلك المعسكر الذي كان للعبادة بالقرب من  
القصير . وفي اثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس ، يضع الرجل من  
هؤلاء على الأرض سرج جملة ، ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا  
يمائله في الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ، ثم  
ييسط فوق ذلك كله جلد خروف ، وهكذا ينهض بيت ، قلما يبلغ ارتفاعه  
في الواقع اكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات . ولا يستطيع الرجل  
بداخله الا أن يكون راقتا ، ويحتفى آخرون من الشمس في كهوف صغيرة

(٨) سترابون ، الكتاب السادس عشر ، ديودور الصقلي .  
الكتاب الثالث .

كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم اشاهد فى هذا المعسكر نساء على الاطلاق ، ومن المحتمل الى حد كبير ان تكون الاكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها نساء ، اكثر من تلك اتساعا لحد طفيف .

ولقد دفعنى الفضول مرات كثيرة للذهاب الى العبادة ، وكنت على الدوام القى استقبالا طيبا ، كنت الفرنسى الوحيد الذى كانوا يرونه بشكل اعتيادى ، وسرعان ما نظروا الى كواحد من اصديقاتهم ، وكنت شاهدا لمرات كثيرة على مبايحتهم وضروب لهوهم .

وليس للرقص عندهم اية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع الذى للمصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة الممارك والمبارزات ، فيتسلح الراقصون بالرمح او السيف وبالدرع . ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة . وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ، وفى كثير من الاحيان ، يندفع احد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ، ويضع طرف سينه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى ان يجيب عليها بكلمة : عبادة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .

وليس فى موسيقتهم ذلك الشجن وتلك الرتابة اللتان لموسيقى المصريين : والمعارف هو الشاعر نفسه فى ذات الوقت ، وتدور اغانيه حول امتداح امجاد قبيلته والشجعان من ابنائها . وفى بعض الاحيان كذلك تتخذ من العشق موضوعا لها . ويجلس القوم من حوله يستمعون فى صمت وهو يغنى فى مصاحبة نوع من الماندولين ، وفى هذه الحالة تستطيع ان ترى المرح او الخوف ، الشفقة او الغضب يرسم كل بدوره على وجوه السامعين .

ويبلغ عدد الوديان التى يمكن لنا ان نسلوها الى نحو ستة وستة وديان او سبعة ، ويبلغ طول ذلك الوادى الذى عبرته مرتين حوالى الاربعين فرسحا ، تنبسط ابتداء من القصير حتى بير الانبار .

وفى البداية يجد المرء على بعد فرسخين من القصير ، ذلك الخور

المسمى لباجة (٩) ، ومياهه صافية شفافة ، لكنها ثقيلة ومذاقها غير مستساغ ، ويزعم العرب أنها ضارة بالصحة الى حد كبير ، ولذلك فهم لا يستخدمونها الا لجمالهم ، ومع ذلك فقد شربت منها ، وفعل نفس الشيء كثير من الفرنسيين دون ان يصيبنا منها اى اذى . وعلى شواطئ هذا الخور يرى المرء بعض اشجار النخيل ، وقليل من الخضرة والونا من الطيور ، وبخاصة الحمام البرى الذى اقام هناك امشاشه، وهو يسكن فى تجويفات الصخور ويعيش على الحبوب التى تتساقط من القوامل .

ولا يمكن ان يعد اللباجة شيئا فى بلاد خصيبة اما فى وسط العزلة وبين تحولة الجبال الجرداء فان خورا وبضعة اشجار بالاضافة الى بعض السكائنات الحية تكفى لتجعل من المنطقة مكانا بهيجا . ولعل هذا التعبير لن يبدو مبالغا فيه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم ان استراحوا فى هذا المكان وهم يعبرون هذه الصحراء . ولمسوء الحظ ، فان مياه هذا الخور تضيع فى الرمال على بعد مسافة قصيرة من منبعه . ومع ذلك فى فصل الأمطار يصبح هذا الخور فى بعض الأحيان نهرا بالغ الاهمية يصب فى البحر بالقرب من القصر .

وعلى بعد أربعة عشر فرسخا من هذه الواحة الصغيرة يجد المرء هيونا تسمى العذوة ، وهذه عبارة عن ثقب محسورة فى الرمال فى سفح هضاب منحدر من الشست ، وأبعد من ذلك بفرسخ وربع الفرسخ، يجد المرء عين مياه مشابهة تسمى الأحمر ، كما يلمح هنا وهناك بعض الأكاسيا ( الست المستحية ) ( ١٠ ) وقد عددها فوجدتها تبلغ العشرين فى كل مساحة الوادى .

وقد قطعنا المسافة من الأحمر الى الجبّة فى ثلاث عشرة ساعة

---

(٩) قبل الوصول الى اللباجة ، يلمح المرء على اليمين ، المحاجر التى استخرجت منها الاحجار والتى استخدمت فى بناء القصر .  
(10) *Mimosa nilitica*.

ونصف الساعة ، هناك تتجمع الوديان الأخرى ، وآبارها بالفة الاتساع ، يكسوها القرميد ، وثمة منحدر يسمح للحيوانات بالنزول حتى سطح الماء ، وعمق هذا المنحدر لا يزيد عن متر تحت سطح الأرض ؛ ويلجح المرء بالقرب من الآبار بعض بقايا الأبنية القديمة ، وخانا صغيرا يستخدم لايواء المسافرين .

وابتداء من القصر حتى ما قبل الجبّة بحوالى فرسخ كنا نسير على السدوم بين جبال عالية وعارية ، من الحجر الجيرى ، والشست ، والجرانيت ، والحجر الرملى ، والرخام ، تتباعد قليلا بعضها عن البعض الآخر ، بل ثمة بعض السلاسل التى لا يتجاوز عرضها ١٢ — ١٥ مترا ، وهناك تسد قطع الصخور الطريق لحد أن جملين محملين ، يسيران فى طابورين يجدان صعوبة فى أن يمرا فيها معا فى وقت واحد ، لكن الوادى عند الجبّة يبدأ فى الاتساع لحد كبير وسرعان ما يشكل سهلا واسعا من الرمال ، ينتهى فى اتجاه مصر بسلسلة من تلال صغيرة من الرمال والزلط المستدير .

بعد الجبّة ببضعة فراسخ لحنا على البعد أرضا مزروعة ، آه ! كم بدت مصر جميلة فى عيني فى هذا الوقت وهى التى تلمبا بدت لى مقبضة على النحو الذى مضى . وهذه الغابات من اشجار النخيل التى لا يكاد المرء يحس بأن لها ظلا .. كم جعلتنى أفنقد غابات وطنى ! وكما بدت لى مقرا للنضارة والانتعاش ! أما النيل .. ايمكننى حقا أن أصور ما شعرت به ما أن رأيته عند خروجى من تلك الصحراء التى قضيت بها مدة ثلاثة اشهر ؟ كانت الخماسين تهب عندئذ بلفحتها الملتهبة ، لكن هذه المياه العذبة ، موطن امانينا ، كانت تخفف من التأثير السيئ لتلك الرياح ، فكم يخفف الأمل فى خير قريب من الم الحاضر ، وعلى الرغم من أننا كنا متعجلين ، عطاشى وجائعين فقد منحنا الخيال الفاكرة وماء النيل ، وأسرعنا من عدو جمالنا ، فى حين كنا طوال الطريق منذ القصر نسير فى خطو وثيد .. ولقد استمر هذا العدو مدة ساعتين لكننا كنا رجالا وجمالا ، قد نسينا التعب وسرعان ما وصلنا الى بير الأتبار .

وبير الأتبار هذه قرية صغيرة تقع على تخوم الصحراء والأرض المنزرعة ، وهى تبعد بحوالى فرسخ وربع الفرسخ على مدينة قفط

القديمة ، الواقعة على بعد نصف الفرسخ من نهر النيل ، وعلى بعد ثمانية أو تسعة فراسخ من الجبنة . وتتبع هذه القرية قبيلة العزايزى العربية ، ويجد المرء بها آبار مياهها بالغة الجودة فى اوقات الفيضانات، اما فى اوقات المياه الواطئة فانها تكتسب مذاقا غير مستساغ ، هو طعم الأيدروجين المخلوط بالكبريت . ويمود هذا الطعم دون جدال الى قذارة الآبار .

استغرق وصولنا من بئر الآبار الى قنا — وهى مدينة صغيرة على ضفاف النيل — أربع ساعات ، وهذه المدينة هى ملتقى القوافل التى تضطلع بتجارة القصير ، وتلك كانت نهاية رحلتى .

والوادي الذى انتهيت من وصفه هو الوادى الذى يسلكه عادة حجاج مكة والتجار الذين يمارسون التجارة مع الجزيرة العربية .

وقد دلنا بروس Bruce وبراون Browne وهما رحالتان انجليزيان على واديين آخرين . لكن أكثر هذه الوديان أهمية هو الوادى الذى اتبعه الضابط المهندس باشلو Bachelu ، ويقع هذا الوادى الى الشمال من ذلك الوادى الذى تحدثت عنه . ويجد المرء فيه الكثير من الآثار القديمة ، وتبلغ المسافة بينهما حوالى أربعة فراسخ ، وهذه الآثار هى نوع من المحطات الحصينة والتى بنيت على نبط واحد ، فهى عبارة عن فناء كبير مربع الشكل ، تحيط به جدران ضخمة وتعلوه الأبراج ، وتجدر بداخله بعض الأطلال لمساكن كانت مبنية بداخله فيما مضى . وفى وسط الفناء توجد بئر بالغة الاتساع ، لها منحدر ، تستطيع الحيوانات بواسطته أن تنزل لتروى . وهذه الآبار مضموسة جزئيا ، ولكن من المحتمل أن نجد بها المياه اذا ما حفرناها قليلا .

وأول محطة تقابلها عند خروجك من مصر تقع بعد أربعة فراسخ الى ماوراء آبار الجبنة ، وقد كانت هذه بلا شك فيما مضى أول محطة حصينة على هذا الطريق . ويبلغ عدد هذه المحطات حتى القصير ستا أو سبعا ، وتبعد الأخيرة عن القصير بحوالى ستة فراسخ ، وفى النقاط التى ينقسم فيها الوادى الى عدة أفرع أقيم مكعب من المواد البنائية ، فى الفرع الذى ينبغى على المرء أن يسلكه . وعند حوالى منتصف الطريق ،



ياخذ الطريق في الارتفاع تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، وبعد بلوغه قمة الجبل ، يهبط ثانية الى الوادى الذي يمتد بعد ذلك دون اى انقطاع آخر ، حتى خور اللباجة ليتصل بالوادى الذى سبق ان وصفته .

وقد تحدث سترابون عن طريق يذهب من قفط Cophthos الى ميوس هرموس Myos - Hormos . وهى مدينة تقع على شواطئ البحر الأحمر ، وكانت ميناء بالغ الأهمية في ذلك الوقت ، ويضيف سترابون بأن هذا الطريق كان مطروقا بشكل اعتيادى ، وان الناس في الأزمنة الأولى كانوا يحملون معهم المياه اللازمة في أسفارهم ، وكانوا يتوجهون مسترشدين بالنجوم ، ولكن حفرت الآبار بعد ذلك وأنشئت خزانات المياه للاحتفاظ بمياه الأمطار ، ويبلغ طول هذا الطريق مسيرة ستة أو سبعة أيام سيرا على الأقدام .

ويستشهد كثير من المؤلفين بهذا النص لسترابون Strabon ويطبقونه على طريق قفط — بيرينيس Bérénice ، ومع ذلك فلو أننا قرأنا ماكتبه هذا الرحالة بانتباه لوجدناه يتحدث بالفعل عن طريق قفط — ميوس هرموس وبالموقع الذى حدده له .

وقد ظن دانفيل d'Anville ، الذى استوعب تماما كل ماأورده المؤرخون القدماء حول موقع ميوس هرموس ، أن عليه أن يعطى لهذه المدينة موقعا على بعد عشرين فرسخا الى الشمال من القصير ، حيث يبدو من المؤكد أن كان يوجد في هذه المنطقة ميناء بالغ الأهمية .

واذا تبيننا هذا الرأي ، فان الوادى الذى تقابل فيه هذه المحطات الحصينة يمكن أن يكون جزءا من الطريق القديم الذى تحدث سترابون عنه ، والذى كان يفضى بالقوافل الى منطقة تبعد خمسة أو ستة فراسخ من القصير ، حيث نجد المحطة الحصينة الأخيرة ، وهناك يتغير الاتجاه ويتخذ جهة الشمال حتى يبلغ ميوس هرموس .

ويهيئ لنا هذا الطريق ، الذى ظل مجهولا حتى وقت مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، خدمة جليلة ، ذلك انه سوف يستخدم بالضرورة ، في تحديد موانئ البحر الأحمر ، التى كان يتردد عليها القدماء ، بطريقة اكثر دقة ، وبشكل لم يكن هناك من استطاع حتى ذلك الوقت ، التوصل اليه .

الدراسة القائمة :

# القبائل العربية في صحراوات مصر

دي بوا - راييه

العنوان الأصلي للدراسة هو : دراسة  
موجزة عن القبائل العربية في صحراوات  
مصر ..



ليست مصر ، ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، سوى واد ضيق طويل (١) تحيط به الجبال الجرداء ، التي لا يكاد ينمو عليها حتى تلك الطحالب الدقيقة التي تغطي جبال أوربا وتلون أحجارها الممرضة للهواء . ولا يشق هذه الجبال نهر أو مجرى من أى نوع ، إذ أننا لانستطيع أن نطلق أيا من هذين الاسمين على تلك الأخوار العابرة التي تحدث نتيجة لسقوط الأمطار ، بالغة الندرة . ولا يمكن المرء أن يلتقى هناك بعض النباتات المتناثرة اللهم إلا فى قاع الوادى ، كما لا يمكنه أن يعثر ، إلا على مسافات بالغة التباعد ، على الآبار . وليست هذه الآبار فى غالب الأحيان سوى ثقوب ضحلة العمق حفرت وسط الرمال ، وتكاد مياهها على الدوام تميل الى الملوحة ، بالرغم من كونها صالحة للشرب ، لكنها فى كل الأحوال ليست غزيرة لحد يكفى أن تنشأ عليها بعض الزراعات . وتتقاطع هذه الوديان فى اتجاهات عديدة ، أما تلك التي تؤدي الى وادى النيل ، فتبدا فى الاتساع كلما اقتربنا من مصر لتشكل عندئذ سهولا من الرمال تتصل بالأرض المزروعة ، وبالنيل فى بعض الأحيان . وليس ثمة نشاط نباتى اذا صح القول الا فوق الأراضى التي يرويهها النهر بشكل طبيعى أو بشكل صناعى — وتتناقص الخصوبة الشديدة لهذه الأراضى وبشكل صارخ مع ذلك الاطار الخارجى الذى يحيط بها .

والى الشمال من القاهرة ، يتفرع النيل عدة أفرع ، وتتسع مصر ، وتأخذ الجبال فى الانخفاض لتنتهى بعد قليل الى سهول نسيحة من الرمال لتنتهى شمالا بالبحر المتوسط ولتنداح من جهة الشرق بصحراوات سوريا والجزيرة العربية ، أما من جهة الغرب فأنها تمتد لتصل مصر بأعماق أفريقيا .

هذه الجبال الجرداء ، وتلك الوديان القاحلة ، وكذلك تلك

---

(١) يبلغ متوسط عرضه حوالى ثلاثة فراسخ .

السهول الرملية التى تضغط على مصر من كل الجهات ، والتى تبدو وكأنها تتحفر للوثوب حتى لينتهى بها الأمر أن تغطى أرضها الخصبة ، هى برغم ذلك كله مناطق أهلة ، يسكنها رجال ضخام أشداء يسمون بالعربان البدو (٢) ، وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات — مع قطعانهم فى هذا الخلاء الموحش . والمدن عند هؤلاء هى المخيمات ، وبيوتهم هى الخيام ، أما المراعى الوحيدة لقطعانهم فهى نبات العليق وبعض النباتات الشوكية المبعثرة هنا وهناك ، وبإمكان هذه القطعان أن

تنى بكل احتياجات هؤلاء العربان ، لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر ووسائل أخرى للمعيشة ، ويشاهدكم المرء يحومون حول مصر ، كما لو كانوا ذئابا جائعة تحوم حول فريسة دسمة ، وإن كان العربان يسعون فى بعض الأحيان وعن طريق معاهدات يعقدونها مع حكام مصر أن يحصلوا على الاذن بالاتامة فى مناطق خصيبة ، وفى أحيان أخرى يقتحمون عنوة هذه المناطق ، والسلاح مشهر فى أيديهم لينتزعوا القطعان والحاصيل ، ثم ينسلون فجأة ليلوذوا بصحاريهم ، فإذا ما جاء من يلاحقهم فإن عادتهم فى تحمل العطش لوقت طويل ، والصبر على المتاعب بالغة الشدة ، تمنعهم عن عدو غير معتاد الا على حياة أقل خشونة ، فالصحراء بالنسبة لهم ، حصن منيع يعز اقتحامه ، يلوذون بها فى أوقات الاخطار الكبرى .

إننا نحن فى أوربا ، نستولى على حقول العدو ومدنه عندما يهرب ، ونثرى أنفسنا بأمواله وكنوزه وسائر مصادر دخله ، ذلك أنه يخلف وراءه أهلا وأصدقاء وممتلكات يأسى عليها ، أما البدوى فلا يخلف وراءه الا رمالا قاحلة . . أما اذا أرغمته الظروف على أن يترك أى شئ فسرعان ما سيعوضه بأسلاب جديدة ، فليسوف يعود هؤلاء البدو — بعد أن تكون قد ظننت أنك قد دفعتهم بعيدا عن مصر — ليشنوا هجمات مضادة . ولهؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح بل وعلف قطعانهم ، ويسهل عليهم الأفق الواسع المحيط بهم ، وكذا بياض الرمال التى يبدو الرجال والحيوانات عليها مجرد بقع سوداء ، أن يكتشفوا العدو على

(٢) تعنى هذه الكلمة « رجل الصحراء » .

نفس المسافة التى تمكن فيها الرؤية عندما يكون الانسان فوق سطح البحر . وليس ثمة ما على هؤلاء ان يخشوه سوى المفاجآت الليلية ، لكنهم ، فى كلمة ، « اساتذة » يعرفون متى يتقبلون المعركة ومتى يرفضونها ، فاذا راوا انفسهم فى المركز الاقوى فلابد ان ينتظرهم نصر مؤزر . اما اذا كانوا فى المركز الاضعف فسيغفرون ولن يجنى العدو شيئاً من فزارهم .. لذلك فكل الحروب التى يشنونها على مصر تنتهى فى العادة لصالحهم .. وينتهى الأمر بحكام هذا البلد فى معظم الأحيان بأن يتركوا لهم بعض الاراضى الخصبة على تخوم الصحراء ، ويتمهد البدو من جانبهم الا يذهبوا الريف بعد ذلك ، بل وفى معظم الأحيان بأن يدفعوا ضريبة عن الاراضى التى تركت لهم ، ومع ذلك فحيث ان السلاح فى ايديهم على الدوام ، وحيث انهم يحطون رحالهم على الدوام عند حافة الصحراء فانهم لا يحرصون على احترام معاهدة املاها عليهم التعب والخوف . وتظل تتحين الخيانة المطبوعة الفرصة لتنزيقها .

ومع ذلك فهناك بعض القبائل ، التى لانت طوائعها بفعل سلام طويل .. قد انتهت بها الامر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حالة البداوة الى حالة الزراعة ، وكان فقدانها لحريتها المطلقة هو على الدوام النتيجة التى ترتبت على ذلك ، ويقدم الصيد مثالا قريبا على ما نقول ، فقد كانت قبيلة الهوارة ، وهى التى جاءت الى مصر من المناطق المجاورة لمدينة تونس بعد وقت قصير من هزيمة مصر على يد السلطان سليم ، كانت هذه القبيلة قد استقرت فى الصعيد ، وفى البداية اقامت على مشارف الصحراء ، ثم استولت فيما بعد بواسطة القوة والمهارة الحربية على جزء كبير من مصر العليا، ودعمت وضعها هذا بدفع اتاوة الى حكومة القاهرة ، وحين اصبح الهوارة من ثروة الملاك ، كانوا قد فقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية فاستبدلت بالخيام بيوتا وتحول الحب الطاغى للحرية الى حب للوطن .. وظل هؤلاء العربان فى رخائهم يسعدون أسعد حالا من قومهم بالصحراء ، حتى أعلن عليهم على بك الحرب بعد أن أثارت خفيظته قوتهم وطبع هو فى ثرواتهم ، وكان أن هزمهم فى لقاءات عدة . هكذا لم يعد بإمكان هؤلاء العربان بعد أن فقدوا القدرة على احتمال الرمال الحارقة وعلى مكابدة

صنوف الحرمان التى كانوا يمانون منها فى صحرائهم - لم يعد بإمكانهم أن يفلتوا من سطوة المالك .

وعدد القبائل الطليقة فى صحراوات مصر كبير واليكم أسماء تلك القبائل التى تعرفت عليها أثناء إقامتى فى هذه البلاد :

طرابين الكبرى ، الطميلات ، النفاحات ، العبايدة ، بلى ، الهوارة ، طرابين الصغرى ، الجوابى ، الهنادى ، الزهرات ، محاز ، بنى واصل ، السمالو ، الفرجان ، الترافع ، العزيزى ، بن وائى (٢) .

ويفترض أن هذه القبائل تستطيع إذا ما تجمعت أن تضع تحت السلاح مايقرب من ٣٠ - ٤٠ ألف فارس .

ويرتبط بكل من هذه القبائل عادة ثلاث فئات من الرجال شديدي الاختلاف : الأسرى الذين حصلوا عليهم أثناء الحروب ، والمبيد المشترون ، والفلاحون ، والفئتان الأوليان قليلتا العدد لحد كبير ، أما الفئة الأخيرة فيتفاوت عددها قلة أو كثرة تبعاً لسكان الأراضى الخصيبة التى احتلوها وكذلك بحسب عدد البؤساء من الفلاحين الذين هربوا الى مخيماتهم بحثاً عن ملاذ من طفيان الأتراك والمالكي .

وعلى الرغم من الحروب العديدة ، والاحتداد المتوارثة التى تقسم هذه العصب ، فإن علينا أن ننظر اليهم باعتبارهم يشكلون أمة واحدة ، فاصلهم المشترك ولغتهم وعاداتهم توضح ذلك بجلاء .

ولن آخذ على عاتقى هنا أن أقدم حكايات حروبهم وهزائمهم ومهاداتهم ، ولن ادخل فى تفاصيل تاريخية عن الأحداث والشخصيات الشهيرة ، وإنما سأكتفى بأن أبين بعض الملامح التى قد تكون بذات نفع فى التعرف على تقاليدهم وحالتهم السياسية .

---

(٢) حيث أن للعبايدة وأكلة الأسماك فى سواحل البحر الأحمر امتلا وعادات مختلفة عن القبائل الرعوية الأخرى ، فأتنى لم أتناولهم بالحديث هنا - راجع مذكرته عنهم فى مقالتي عن مدينة القصير ( الفصل السابع من هذا الكتاب ) .

تنتفى كل القبائل الرجل التى استقرت فى مصر الى اصل عربى فيما عدا العبادة (٤) واذا كان ثمة قبائل قد جاءت من جهة الغرب لتبدو وكأنها قد حطمت هذه القاعدة فلابد ان نتذكر ان هذه القبائل عربية وانها ذهبت الى المغرب فى عهد الخلفاء الاول . واغلب مزارعى مصر الذين يشار اليهم باسم : فلاحين ينتمون لأصل مشابه ، وهم قد استقروا هناك كمنتصرين عندما أصبحت مصر جزءا من امبراطورية العرب وكونوا الجنس المسيطر ، حتى اليوم الذى انتقلت فيه مقاليد البلاد الى ايدى المالك الأتراك . وبينما استطاع العرب الذين ظلوا حتى هذه الحقبه يحتفظون بالمعادات الرعوية التى ورثوها عن آبائهم ، ان يتملصوا من قانون المنتصر ، فان أولئك الذين كانوا قد انغمسوا منهم فى زراعة الأرض او احتراف الحرف والفنون ، وسكنوا القرى والمدن قد كانوا مضطرين للخضوع للسلادة الجدد ، وتضاعفوا شيئا فشيئا حتى بلغوا اليوم حالة لا تختلف فى كثير عن حالة العبودية .

ولقد سبق للعرب البدو فى زمن سابق ان يهزموا مصر ، ذلك ان المرء لا يمكنه ان يشك فى أن ليس هؤلاء العرب سوى أولئك الذين اراد المؤلفون القدامى ان يسموا اليهم عند الحدث عن هذه الشعوب الرعوية التى أخضعت مصر واحتفظت بها تمسرونا طويلة ، ثم طردوا منها قبل عهد سيزوستريس بحوالى ثلاثمائة عام (٥)

(٤) انظر الهامش السابق .

(٥) حول هذا الموضوع اليكم هذه النبذة شديدة الاهمية نقلا عن مانيتون ولا بد ان يتذكر المرء ان هذا المؤرخ المولود فى مصر داخل الطبقة الدينية قد استطاع افضل من اى شخص آخر ان يستفيد من الحوليات والكتب المقدسة فى امته : فى عهد « تيمائوس » . احد ملوكنا ، سمح الرب وكان غاضبا علينا دون ان نفهم لذلك سببا ، بان يأتى من جهة الشرق جيش ينتمى للشعب ليست له اية شهرة وان يسيطر بسهولة على بلادنا وان يقتل بعضا من امرائنا ويضع السلاسل فى ايدى آخرين ، وبان يحرق مدننا ويدمر معابدنا وان يغامل السكان بغلظة شديدة ويقتل عددا كبيرا منهم وان يسبى النساء والأطفال وان ينصب ملكا علينا واحدا من امته يسمى سالاتيس .



وثمة اعتقاد راسخ لدى العرب ، ودعمه القرآن ، يجعل هؤلاء العرب ينحدرون من صلب اسماعيل ، ابن ابراهيم ( ابراهيم ) الذى قال عنه الرب « سيكون رجلا فخورا . وزعويا وحشيا ، سيرفع يده فى وجه الجميع وسيرفع الجميع ايديهم ضده ، وسيرفع أعلامه أمام كل اخوته ، سبازكه وامنحه ذرية كبيرة وعديدة » (١) وفى هذه اللوحة عن

== وقد جاء هذا الحاكم الجديد الى منفيس وفرض ضريبة على المقاطعات العليا والسفلى على السواء واتام فيها حاميات قوية ، وبخاصة فى جهة الشرق لأنه كان يرى ان الآشوريين ما ان يحسوا بانهم قد أصبحوا اتقواء، سيسعون لهزيمة هذه المملكة ، وعندما بدا له ان مدينة افاريس فى اقليم سابت الى الشرق من بوباسطة ذات موقع مناسب ، فقد قام بتحسينها تحصينا قويا ، ووضع فيها وفيما حولها كثيرا من المحاربين بلغ عددهم حوالى ٢٤٠ ألف جندى . وكان يأتى الى هناك فى اوقات الحصاد كي يباشر جمع الحاصل ولكى يستعرض قواته ليحافظ على مستوى تدريبهم وانضباطهم لحد لا يجرؤ معه الأجانب على بدء التحرش به بغية امتلاك دولته . وقد سيطر هذا الحاكم لمدة تسعة عشر عاما ، ثم اعتقه بيون وقد مكث فى الحكم ٤٤ سنة ثم اخناس وحكم ٣٦ عاما وسبعة اشهر ، اما ابونيس الذى اعتقه فقد حكم لمدة ٦١ عاما ، وحكم جانياس الذى اعتلى العرش بعده لمدة خمسين عاما وشهرا واحدا ثم اعتقه أسيس الذى حكم لمدة ٤٩ عاما وشهرين . . ولم توجد وسيلة للقضاء على الجنس المصرى الا ولجأ اليها هؤلاء الملوك الستة ، وكان هؤلاء جميعا يسمون الهكسوس أى الملوك الرعاة ، لأن كلمة هك فى اللغة المقدسة تعنى : ملك وسوس باللغة الدارجة تعنى : رعاة . ويقول البعض انهم كانوا عربا » .

يضيف فلانيوس جوزيف (Réponsa à Appidon, trad d'Arnauld d'Antilly, liv. I. Chap. 5) الذى نقل الينا هذا النص

من مانيتون بأن هذا المؤرخ يقرر أن ملوك الصعيد ، اذ لم يكن قد تم اخضاعهم كلية ، قد خاضوا حروبا طويلة ضد هؤلاء الرعاة وهزموهم وطردوهم فى النهاية من مصر التى كانوا قد احتلوها مدة ٥١١ سنة ، وأن هؤلاء الرعاة قد انسحبوا الى الصحراء وانقضوا على سوريا وانتهى بهم الأمر ان استولوا على اقليم يسمى يهوذا حيث أسسوا مدينة اورشليم . (٦) سفر التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٢ والاصحاح السابع عشر الآية ٢٠ . وما ورد فى المتن ترجمة للاقتباس كما جاء فى النص الفرنسى ، واليك نص هاتين الآيتين كما جاها فى التوراة :

« وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وامام جميع اخوته يسكن » « واما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها انا اباركه وانهره وانجحه كثيرا جدا . ابنى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة » . ( المترجم )

اسماعيل يتعرف المرء على البدو ، فلا يبناء لا يمكن لهم ان يشبهوا  
آباءهم بأكثر مما يشبه العرب اباهم اسماعيل .

ان المرء مدفوع على ان يقر بان هذا الاعتقاد ليس خادعا على  
الاطلاق ، ولكن الشيء الذى لا يمكن ان يتطرق اليه الشك ، هو ان  
للعرب والعبريين أصلا مشتركا ، فلقرا التوراة بانتباه ، وسوف يدهشنا  
هذا التشابه فى التقاليد بين قدماء البطارقة وبين تقاليد العرب البدو،  
وستكون هذه القراءة باللغة الفائدة اذا امكن احد ان يقرأها كما قرأتها  
انا فى أرض جاسان على شواطئ البحر الأحمر ، وفى عيون موسى أو  
فى الصحراوات التى يحدها عند الأفق جبال حوريب وسيناء (٧) .

كل هذا يؤدي بنا أن ننسب الى العرب أصلا من أقدم الأصول ،  
وربما لا يوجد شعب يستطيع ان يتباهى بأنه قد أمكنه ان يحتفظ

(٧) تستحق التوراة التى تنال من البعض ازدياء أكثر مما ينبغي،  
وتنال من الآخرين ، وهم الذين ينظرون اليها باعتبارها أساسا لمعتقداتنا  
الدينية ، تقديسا أكثر من اللازم، وتستحق ان تنال اهتمام الجميع من  
زاوية تاريخية محضة ، فلك لأنه اذا كانت صروف الطبيعة تبدو فيها غير  
قابلة للفهم ، واذا كان التاريخ فيها غير مؤكد واذا كانت الوقائع التى  
تروىها مشكوكا فى صحتها ، فسوف نتفق على الأقل بأنه كان من المستحيل  
أن ترسم لوحة للحياة الخاصة للعائلات الهامة فى الصحراء بمثل هذه  
الدرجة من الحقيقة : اذ نحن ما نزال نجد بينها نفس العادات ونفس  
الطريقة فى الحياة بل ونفس مبادئ القانون العام ونفس الفنون  
ونفس الآنية ، بل نكاد نقول نفس اللغة .

فقانون القصاص وحق الانتقام الذى يؤول للأهل الأقربين .  
وحتى شراء الدم ( الدية ) وسطوة الشيوخ وعقاب الجذفين ، والختان،  
وتقديم الأصحاب فوق أماكن مرتفعة ، والإصحاح فى طلب إمارة على  
بكرة الفتيات يوم زواجهن والعقم الذى ينظر اليه كلعنة من السماء ،  
والرغبة فى انجاب ذرية كبيرة العدد ، وحقوق الملكية والميراث ، واعداد  
الاطعمة ، والفزع من لحم الخنزير ، والمجوهرات والملابس ، وطريقة  
شن الحروب ، واقتسام الأسلاب المنزوعة من العدو ، وعادة السكنى  
تحت الخيام حتى فى البلاد الخصيبة والمليئة بالمسكن ، وعادة القاء  
التراب فى الهواء فى أوقات الاخطار الكبيرة ، وفى أيام الأحزان الفظيعة...  
كل هذه أمور مشتركة عند كلا الشعبين ، وفى زمن محمد كان  
يوجد عدد كبير من القبائل الطليعة فى الصحراوات تتبع ديانة موسى .

بعلامحه القديمة بأكثر مما أمكن لهؤلاء العرب أن يفعلوا (٨) منذ العصور

(٨) واليكم ما نقله الينا ديودور الصقلى عن العربان فى الصحراوات . وهو ما كتبه منذ ١٨ قرنا « أنهم يسكنون فى الخلاء ، دون أن يظلمهم أى سقف ، وهم يتخذون من العزلة علما عليهم ووطنا لهم ، وهم لا يختارون مطلقا لاقامتهم الأماكن القريبة من الأنهار وينابيع المياه خوفا من أن يجذب ذلك الأعداء الى مجاورتهم . ولا يسمح لهم قانونهم أو عرفهم أن يذروا الحب ولا أن يزرعوا أشجار الفاكهة ولا أن يشربوا الخمر ولا أن يعيشوا تحت سقف ، ومن يضبط من بينهم مخالفا لهذه العادات يعاقب بالموت لا محالة ، اعتقادا منهم بأن هؤلاء الذين يخضعون لمثل هذه العادات سيخضعون عما قريب لحكام يستعبدونهم . وبعض هؤلاء يرعون الجمال وبعضهم يرعى الماعز فى الخلاء . وليس ثمة أغنى من هؤلاء الآخرين بين العرب ، لأنهم . على الرغم من كونهم ليسوا الوحيدين الذين يمتلكون قطعانا فى الخلاء ، يقومون فى نفس الوقت — وعددهم لا يتجاوز ١٠ آلاف — ببيع البخور والمر وعقاقير أخرى ثمينة حصلوا عليها من سكان اليمن ليبيعوها على شواطئ البحر ، فضلا عن ذلك فهم شديدو الغيرة على حريتهم ، وعندما يبلغهم خبر مفاده أن جيشا يقترب منهم فانهم يلجأون الى أعماق الصحراء التى تعتبر حوافها بفعل امتدادها بمثابة متاريس لهم ، لأن الأعداء حيث لا يعرفون فيها موطن الماء ، لن يجروا على اجتيازها ، فى الوقت الذى يكون فيه العرب فى أمان من هذه الحاجة — الحاجة الى المياه — حيث قد سبق لهم أن أعدوا لأنفسهم أنيسة ضخمة خبأوها تحت الأرض ، ولا يعرف سواهم العلامات الدالة على هذه الأنية . وحيث أن الأرض كلها لا تتكون الا من أرض طفلية رخوة فانهم يجدون الوسيلة كى يحفروا فيها مغارات عميقة وواسعة على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع منها ذراعا ، وفتحتها بالغة الضيق ، وعندما يمتلئ هذا الكهف ( الجب ) بمياه المطر يفتلون مدخله ويسوونه بسطح الأرض التى تحيط به ويتركون عليه بعض علامات لا يمكن أن يتعرف عليها سواهم . وهم يعودون القطعان التى يخطفونها الا تشرب الا كل ثلاثة أيام وذلك حتى تعتاد فى تلك الحالة التى سيكون عليهم أن يحيوها عندما يهربون بعيدا بعض الشيء عبر سهول قاحلة على أن تقاوم العطش بعض الوقت ، وهم يعيشون على اللحوم واللبن والفواكه الشائعة والعمادية وتوجد فى أراضيهم أشجار الفلفل وكذلك كثير من ذلك العسل الذى يسمى العسل الوحشى وهم يشربونه مع المياه، وثمة اجناس أخرى من العرب يعملون فى فلاحه الأرض ، وهم يخضعون لحكومات مثل السوريين ، وهم يتشابهون فى أمور كثيرة فيما عدا أن السوريين يسكنون فى منازل .

ديودور الصقلى ، الكتاب التاسع عشر ، ترجمة الأب Terrason

الضاربة في القدم . وهؤلاء العرب - منقسمين الى قبائل ، وخاضعين  
 لشيخ القبيلة ، وساكنين تحت الخيام - يهيئون مع قطعانهم من  
 من ضفاف الفرات الى ضفاف النيل ومن شواطئ المتوسط حتى الخليج  
 الفارسي وبحر الهند . لم يغز أرضهم اجنبى ولم يغز من لغتهم او  
 تقاليدهم غاز ، ولكم ارادت امتان اكبر قوة واكثر شهرة بسبب فتوحاتهما  
 وهما الفرس والرومان ، ان تخضعا العرب لسيطرتهما ، بلا جدوى  
 ولكن ما ان اصبح هؤلاء العرب فاتحين في عهد الخلفاء ، حتى غطوا  
 بجيوشهم شمال افريقيا ، واسبانيا ، ووسط فرنسا ، وسوريا ،  
 وفارس ، وآسيا الصغرى ، وعندما حدث ان طردوا وقت هزيمة فقد  
 كانوا يعرفون على الأقل ، ودائما ، كيف يحتفظون بوطنهم القديم . وينظر  
 البدو ، وهم الفخورون بنقاء عنصرهم ، وبأنهم يستطيعون الدفاع دوما  
 عن حريتهم ، ينظرون باحتقار الى امم العبيد التي تحيط بهم .

وقد حدد الحب الأبوى والاحترام البنوى شكل حكومتهم ، كما ان  
 هاتين الرابطين هما اللتان تربطان بين مجتمعهم ، فكل أسرة تطيع من  
 بينها هذا الشخص من افرادها الذي جذب لنفسه اكبر قدر من الاهتمام  
 بفضل حكمته وقدراته وثروته ، ويكون هذا الشخص في العادة رجلا مسنا  
 ويتخذ لقب شيخ ومعنى هذه الكلمة : العجوز أو المسن (٩) .

وعندما لا تكون الأسرة كبيرة العدد لحد تستطيع معه حماية نفسها  
 بنفسها ، فانها تنضم الى أسرة اخرى ، ويعطى اكبر الشيوخ نفوذا اسمه  
 للقبيلة التي تشكلها هذه الأسر المتحدة ، ويمارس عليها جميعا السلطة  
 التي لم تكن له في البداية الا على اهله ، وسلطة هذا الشيخ جد محددة  
 فيما يختص بالأفراد ، لكن نفوذه كبير في الأمور المتصلة بالصالح العام:  
 فهو الذي يقرر السلام كما يقرر الحرب، وهو حق خطير مالم يمنعه صالحه  
 الخاص - وهو مرتبط بشكل حميمى بصالح قبيلته - من اساءة  
 استعماله . وهو لا يتقاضى اى راتب عن وظيفته ، ويتكون دخله - شأنه  
 شأن بقية العربان - من منتجات قطعانهم ، ومن الزراعة الوقتية لبعض

---

(٩) كلمة شيخ معناها عجوز ، ومع ذلك فيمكن اطلاقها على شاب  
 مثل كلمة Senior عند اللاتين التي جعلنا منها كلمة Seigneur

الأراضى ، ومن نصيبه من الأسلاب وضريبة المكوس التى تدفعها القوافل التى تمر من أرض قبيلته . وتنظم سلطته طبقا للعادة ، وليست ثمة قوانين تحددها بشكل قاطع ، ولكن اذا ما دفعته نزواته ، وكثرة اصدقائه وخدمه على اساءة استخدام هذه السلطة وجعلته فى نفس الوقت بنىائى عن الانتقام ، وهو الأمر الذى تجلعه حياة الصحراء ميسورا على الذين وقع الحيف عليهم ، فاننا نرى على الفور جمهرة من العائلات تنفصل عنه لتنضم الى قبائل أخرى . وبهذه الطريقة ، اندثرت فى بعض الأحيان قبائل كانت كبيرة العدد ، وانتهى بها الأمر ان اختفت بشكل نهائى ، بينما تضاعف عدد قبائل أخرى فى وقت سريع وهى التى لم تكن تحظى بأى نصيب من الشهرة .

وكلما اطلنا التفكير ، كلما تبينت لنا قلة وسائل القهر فى حكومة المشايخ ، حيث لا توجد فى مخيماتهم سجون يمكن أن يزج اليها بالبراءة الطليقة لتجاوز الجريمة البشعة ، كما انه ليست ثمة سراى يستطيع الحاكم فيها أن يخفى أفعاله عن كل الأنظار ، ويمضى الشيخ العربى حياته فى الهواء الطلق دون حرس ودون موكب ، ويشهد على كل أحاديثه ، وكل فعالة جميع رجال القبيلة ، فهو اذن لا يستطيع أن يخفى شيئا عن رقابة الراى العام ، كما لا يستطيع أن يغطى على سوءة من مساوئ سلطته تحت قناع الصالح العام . كما أن رعاياه ليسوا عديدين لحد يستطيع معه عن طريق لعبة اقتسام المصالح أن يضرب البعض بالبعض الآخر .

ولا تختلف الحياة الخاصة للشيخ عن حياة بقية العربان الا فى غذاء لوافر لحد ضئيل ، وفى ملابس افضل واسلحة أكثر انتقاء : ومهما يكن له من خدم فانك لتراه ينظف سلاحه ، ويقدم الطعام لخيله ويسرجها بنفسه ، وتعد له زوجاته وبناته وجبات طعامه ، وهن يغزلن ملابسهن ويفسلنها وسط المخيم ، ويذهبن حاملات الجرار ليجلبن المياه من العين المجاورة ، او ليجلبن لبن القطيع . تلك كانت تقاليدهم القديمة التى لم يهل هوميروس تصويرها باخلاص ، وتلك حتى اليوم هى حياتهم الأبوية التى لا يزال سفر التكوين يحتفظ لنا بلوحاتها البسيطة والشيقة.

قلنا ان كل قبيلة تحمل اسم شيخها ، لكن تسميتها بهذا الاسم تعود الى وقت تكوينها ، أو تعود الى احدى الفترات الهامة التي مرت بها . لان هذا الاسم لا يتغير مطلقا من جيل لآخر ، فالاسم يبقى هو نفس الاسم ، حتى يأتى شيخ يستطيع ان يمنع لنفسه ، بفضل حكمته ومواقفه العسكرية ، شهرة تنجو شهرة أسلافه ، ويصبح رعاياه تحت حكمه أكثر نراء وأكثر عددا وأكثر هيبة ، ويجعل منهم على نحو ما شحا جديدا .. هنا يأخذ أتباعه يتمودون شيئا فشيئا أن يفسروا الى أنفسهم باسم تلك الرجل الذى أخرجهم من الظلام ، وسرعان ما ينقضى الأمر بهذا الاسم ان يحل كلفة محل الاسم الذى كلن لهم ميمما سبق .

ويوضع عادة امام اسم كل قبيلة كلمة بنى وهى تعنى أبناء . وهكذا نبدا من ان نقول قبيلة واصل نقول قبيلة بنى واصل . واسم الابن هذا الذى يتخذ كل العرب بلا تمييز ، هو هى نفس الوقت سلسلة فى حكومة ابوية يخضعون لها : ياله من بون شلح بين هذا الاسم ، وبين اسم العبد الذى تستخدمه غالبية الشعوب !

وتقدم الخلافت من كل نوع الى محكمة الشيخ ، لكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة حكم أكثر منها سلطة قاض . ومهما كانت الجريمة خطيرة ، فقه نادرا ما يصدر حكما بالموت .

واليكم المصيفة المتبعة فى هذه الأحوال : يتوجه امرؤ الى الشيخ طالبا اليه التماس . ويجلس الشيخ على عقبه على طريقة أهل البلد ، وامامه يجلس المتقاضون على نفس طريقته ، ويطلب الشيخ اليهم نزع الخنجر الذى يحملونه عادة فى حزامهم ويضعه على الأرض ، ثم ينصت الى ادعاءات كل منهم ، فلذا مارفض التدبير الذى اثار به فقه يستدعى اليه شخصية أو شخصيتين تحظيان بالاحترام بحكم سنهما وأخلاقهما ، ويعرض القضية ثم يدعوها الى ابداء الراى ويستطيع الشيخ ان يستشير مسنين آخرين اذا اقتضى الأمر ، لكن من التلذر ان يتسع الأمر لهذا الحد ، وعادة ما يبرى العصور الذين جنبهم الفضول الى مكان المرافعات للطرف العنيد ويمحبونه معهم وهم يقولون : هيا ، انت مخطىء ، فقد جاتبك الصواب ، انصرف ، انصرف .. ويبدون وهم

يقولون له ذلك بمظهر الاصداقاء الملامنين الذين يريدون أن يحصلوا عن طريق اللباقة والرقعة على ما تدرته حكمة الشيخوخة ، ولكن اذا ما ظل هذا ساحرا في تمرده ، واذا مارفض الاستجابة للرأى العام ، وهو عندهم بمثابة الحكم الأعلى ، فانه يطرد من القبيلة وتصادر ممتلكاته .

هذا بخصوص القضايا ذات الصبغة المدنية البحتة . أما اذا اختص الأمر بالسرقعة أو بأية جنحة أخرى غير اراقة الدم ، أى من نوع تلك الجنح التى تعكر صفو الأمن العام فيما عدا القتل ، فان نفس الاجراءات سوف تتبع ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه ما ان يثبت الاتهام حتى ينفذ العقاب على الفور ، ويعاتب المدان عادة بدفع غرامة أو بطلق عدد معين من ضربات العصا . وهو أمر لا يأتف الشيخ من القيام به أحيانا بنفسه ، ويسارع كل المشاهدين الى معونته ، فيرددون الرجل المدان على بطنه ، ويطلقون قدميه فى حلقتين من الحديد مثبتتين عند منتصفهما بعصاة ، ويسك رجلان بطرفى هذه العصا ، ويرفعان سائى الخنثب ، وتلمس ركبته الأرض ، ويظهر باطن قدميه فى الهواء بشكل افقى وفى وضع ثابت . وعلى هذا الجزء يتم الضرب بعصا مرنة لحد ما ، أو بنوع من السياط يسمى كزياج مصنوع من جلد الفيل أو جلد فرس النهر .

وتعد المشروبات الكحولية والمواد المسكرة مصدرا لعدد كبير من الجرائم عند الشعوب التى اعتادت عليها ، لكنها عند العرب « حيث هم لا يشربونها » ليست مصدرا لآى جرم ، ويساهم هذا فى الحفاظ على الهدوء فى معسكراتهم .

واذا ما رأيت الحدة التى يتناقشون بها لأنفسه الأمور ، فانك ستدهش من ان الضربات لا تعقب هذه الكلمات الحادة ، وتكاد مناقشاتهم كلها تمضى فى تبادل الصرخات ، ولعل السبب فى ذلك هو ان رجلا كهؤلاء ، مسلحين على الدوام ، لا يمكنهم الاندفاع فى الشجار دون تقدير منهم لمواقبه ، فنتائج القتل على الدوام خطيرة اذ يكون لاهل القتل ان ينتقموا له ، وفى هذه الحالة يباح الاغتيال . وهكذا يصبح القصاص قانونا مقدسا لا يستطيع الشيخ نفسه أن يتلمص منه . لكن الأمر البشع

فى كل المسألة هو ان القتل هنا لا يلاحق وحده ، بل يلاحق معه أهله الأتريون . وعندما يكون لأسرة ما ثارات عليها القيلم بها تجاه أسرة أخرى ، فانه يقال حينئذ ان بين هاتين العائلتين دما ، ويكون عليهما ان تنفصلا وان تعيشا فى حالة حرب تستمر فى بعض الأحيان لعدة أجيال، ذلك ان الثار يوجب ثارات أخرى وهكذا ، بل ان موت القتل نفسه لايتأتى مطلقا بالهدوء ، واذا ماهلك أحد من آله بسببه فان الأحقاد تتزايد بدلا من ان تقل . وهذه الممارك الباطنية لا تنتهى ، خاصة اذا ما كتلت العائلات المتعادية تنتمى الى قبائل مختلفة لأن القبائل المعنية تتخذ عادة موقف الدفاع بالنسبة لأبنائها ، وتنتج عن ذلك حرب علنة . وثمة حروب من هذا النوع بدأت منذ زمان لا تعيه الذاكرة . ومع ذلك فيمكن — فى بعض الأحيان ، وقبل ان تتعقد الفتنة لأكثر مما يجب — تهدئة العائلة المكومة بواسطة تقديم هدايا اليها ، تتكون بدرجة أساسية من الماشية ، ويسمى الاتفاق الذى يتم على هذا النحو بالدية او إعادة شراء الدم . ونرى فى التوراة ان شراء الدم هذا كان معروفا منذ زمن موسى بين القبائل الرحل، التى كان هو مشرعا لها . أما عندما تكون العائلتان المتعاديتان تنتميان الى نفس القبيلة فان عقد اتفاق الدية يصبح اقرب منالا . وفى هذه الحالة يستخدم الشيخ وكل مسنى القبيلة كافة نفوذهم .

ويحدث القصاص والدية أيضا بالنسبة للجروح، وللأبناء على ابنائهم حق الموت ، ويطبق الرجال هذا العقاب على أى من زوجاتهم او بناتهم او اخواتهم تخرج عن سبيل الرشاد .

وليسيت المبارزة معروفة عند العرب ، وهم يستعيزون عن ذلك كما قلنا للتو بالاغتيالات ، ويلاحظ الأمر نفسه عند غالبية الشعوب ، تديها وحديثها على هذا السواء ، ذلك ان هذه العادة النبيلة ، عادة تحدى الخصم ومبارزته بسلاح مماثل ، وهى العادة التى تجعل من هذا الحقد الشائك والانتقام البشع نوعا من النزاهة والبشاعة لا تحدث الا عند أمم شمال أوربا . ومع ذلك ، فاننا نجد فى الواقع ونحن نتصفح التاريخ العربى مثل هذه المبارزات الفريدة التى حدثت عند كل الشعوب — سواء كانت هذه المبارزات بين عدد ضئيل من المحاربين



الذين أوكلت اليهم باتفاق مشترك ، مهمة أن يتولوا وحدهم الدفاع عن مصالح قريتهم ، أو سواء بين شخصين شجاعين عند استعراض الجيوش المتعادية لجرد تباه بالشجاعة . لكن مثل هذه الأمور من طبيعة السلاح لا ينبغي أن تختلط بالمبارزة بالشكل الذي نعرفه نحن في أوربا منذ زمان ضارب في القدم كرد على الاهانت الشخصية .

وتقتضى مصالح امن هؤلاء العرب أن يقوم شيوخهم بدراسة اخلاق وطباع حكام الدول المجاورة ، وكنا على الدوام ندهش من صوب احكامهم . وهم يتفاوضون بقدر من الشرف ، ويستطيعون ويعلمون كيف يدافعون عن حقوقهم بمهارة ورقة ودبلوماسية لا يمكن لدبلوماسيين ان ينكروها . ولكم اتهمناهم بسوء الطوية ولكن هل درينا ما أن كان قد حدث من جانبنا تصرف معاد نحو تلك القبائل الصديقة والتي كان يصعب علينا على الدوام ان نهزها عن تلك التباثل التي كانت ماتزال في حالة حرب معنا ، وما أن كان مثل هذا التصرف من جانبنا هو الذي هيأ لهم اسبابا عادلة لمعاودة حمل السلاح ضدنا ؟ ولقد كنت لمرات عدة شاهدا على مثل هذه الاساءات غير السارة ، واتذكر وسط ذكريات اخرى ، انه حدث عند عبورنا وادى الطميلات مع فصيلة مدفعية : ان تابلت مقتبتنا عند حوالى آخر النهار ، عربيا بدويا يجلس على الارض مع اثنتين من السيدات ، وبالقرب منه كان حصانه وسلاحه ، وغير بعيد من ذلك كانت تبدو بعض البقرات وبعض الخراف ، ولو ان العربى كان قد اخذته المفاجأة ، لكانت ما تزال لديه الفرصة كى يقفز فوق حصانه وينجو بنفسه ، لكنه لم يفعل ، وانما سارع برسم علامة الصداقة لجنودنا وهى عبارة عن تقريب ابهامى كلتا يديه وهو يلفظ : سوا ، سوا ، « معا ، معا » . ولكن هذا من جانبه كان بلا جدوى ، ذلك ان جنودنا — وقد حرصهم على ذلك انكشارى تركى كان يعمل مرشدا لنا — قد شتموه وشتموا نساءه وجروا خلف ماشيته . واضطرته طلقة بندقية صويت اليه ان يقرر الهرب ، فاندفع بهمة الى داخل الصحراء وهو يزود عن نفسه بسلاحه ضد أولئك الذين يحدقون به ، وأطلقت عليه طلقات عديدة من البنادق لكنه لم يصب بأذى . واسرع صوت البنادق هذا من خطو بقية الفرقة ، وكنت على حصانى وتقدمت

الجميع ، وسرعان ما وصلت الى المقعدة . وبينما انا استنظم عما حدث ، اثار خلاصى المصرى بيده الى المراتين ثم قال لهما :

« توجهوا الى هذا الرجل وهو كميل بحمايتكما » فهرعنا على الفور نحوى وقبلنا طرف رداى ، فطمانتهما وتوصلت مع بقية الضباط الذين وصلوا معى الى تسوية الامر ، وحيث ان الانتكشارى الذى تحدثت عنه قد أكد ان البدوى الذى فر ينتمى الى قبيلة معادية فقد استولينا على قطيعه . وصحبنا السبعين لتسليمهما الى شيخ اول قرية سنمبرها . وفى اثناء ماتبقى من طريقنا لاحظت ان انتكشارينا يحرض الجنود على عدم استخدام الرحمة مع اسيرتنا ، وكان يريد ان ينتزع من هاتين البائستين الاشياء القليلة التى كانت معهما . واضطرت ان اتوعده بمقاصب قاسى كى اجعله يكف عن اضطهاده الجبان لهما . وعندما حل الليل توقفنا ، وبينما نحن نوشك على ان نصادر خيامنا ، شاهدنا مشايخ الطيبلات قادمين ، وكانت هذه القبيلة فى ذلك الوقت فى سلم معنا . وكان معهم ذلك البدوى الذى هاجمناه البارحة ، وشكوا الينا فى لهجة معتدلة اعتدائنا الظالم على رجل لم يكن يحق لنا ان نعمدى عليه . واسرعنا نوجه اليهم كل الترضيات الواجبة واعيدت الى المراتين معظم مجوهراتهما التى كان الانتكشارى قد سلبهما اياها ، وتلقى هو على الفور ، وفى حضرة البدو عددا محددا من الضربات بالعصا ، واعيدت المساشية او دفع تعويض عنها ، وبعد ان تناول الشيوخ العرب بعض اقداح القهوة معنا عادوا بالفى السرور . لكننى هنا اتساءل: لو ان هؤلاء البدو كانوا قد ذبحوا افراد جنودنا الذين كان من الممكن ان يقابلوهم منعزلين ، بدلا من ان يأتوا الينا ليبتونا صراحة شكواهم . . . ألم تكن سفتهمهم عندئذ بالخيانة ، بينما هم لم يفعلوا سوى ان انتقموا منا؟

وعندما يتم السلام بين قبيلتين يتبادل الشيوخ الهدايا ، ولهذه الرسميات سطوتها . وعندما يتعامل حكام اجانب مع العرب فانهم يعنون بالامتثال لهذا الامر . ومن المعتاد كذلك فى مناسبة مماثلة ان يأكلوا معا وهو مايسى يتحالف او اتفاق الخبز والملح وهو اشارة على صداقة لن تهر . وايا كانت مكانة الشخص الذى تلقى من عربى اقل طعام فانه سيكون واثقا انه سينال احترام كل القبيلة .

ولدينا على ذلك الوف الأمثلة من الأسرى الذين أخفوهم هنا اذ كانت تتوقف اساءة معاملتهم اياهم منذ اللحظة التي يأكلون فيها معهم ، والقرار في هذا الخصوص واتمة سجلها المسيو دينون في مؤلفه ، وقد سمعت من يتحدثون عنها بعد قليل من حدوثها . منذ عدة اشهر طويلة كان لدى بعض العربان اسير هو ضابط فرنسى .. وفجأة ظهرت احدى وحداتنا على مقربة من مخيماتهم .. وتفرق العربان على الفور داخل الصحراء وقد اخذهم الفزع واصبح كل مايمثلكونه فريسة للمنتصر ، ووجد تسيخهم نفسه - بعد ان هام على وجهه - وحيدا مع اسيره وسط الصحراء ولم يعد معه سوى قطعة خبز هي كل طعامه ، ولابد ان قلبه كان مفعما بالنقمة على الفرنسيين ، الذين تسببوا في كل ما أصابه من آلام ، ومع ذلك فقد اقتسم مع ذلك الفرنسى الذى كان في حوزته ، قطعة الخبز الوحيدة التى بقيت له ، وقال له : ربما سأحتاج اليها غدا ، لكنى لا اتحمل لوم نفسى لنفسى لو تركتك تموت من الجوع لأضمن أنا وجودى .

آن مثل هذه الأخلاق والطباع لتشرف الانسانية بأسرها ، ولا ينبغي علينا بالمثل ان نسيء القول في حق امة تضم رجالا يمثل هذا الكرم بين ابنائها . لكن السوءات هي التى تسترعى انتباهنا بشدة بينما تنفوتنا الفضائل ! فضلا عن ذلك فان الفضائل لا يمكن ان تكون هي نفسها عند كل الشعوب ! فالحديث الفاضل هو ذلك الحدث الذى يكون مفيدا بشكل مباشر او غير مباشر للمجتمع الذى يطويه . وليس هناك من هذه الفضائل الا عدد ضئيل يمكنه ان ينال امتداح كل الناس بدون تمييز .

فنعندنا على سبيل المثال ، لا يتعرض المسافر المولود في بلد هو في حالة حرب معنا لأن يقتل او يسلب ، ذلك ان مصالحنا تجعلنا على استقبال الأجانب وحمايتهم وأن نسيطر علاقتنا معهم . لكن العكس من ذلك هو ما يصدق على الصحراء فان أى رجل ليس حليفا للقبيلة سوف يجرى من أمتعته ، بل ويقتل أحيانا على يد العربان الذين يقابلونه، والعربى الذى يحظى بتقدير اكبر هو الذى يستطيع ان يفتزع اكبر قدر من الأسلاب لان السلب يشكل واحدا من أهم دخول قومهم . ومع ذلك،

لحيث أنهم بدورهم يتعرضون لنفس المخاطر ، ويجدون أنفسهم فى بعض الأحيان فى حاجة الى مأوى عند أعدائهم أنفسهم ، فان البدو قد جعلوا من كرم الضيافة اول واجباتهم ، ولا بد أن نفر بأنهم يمارسونها بسخاء لا يعرف فى مكان آخر : فالأجنبى الذى استطاع أن يصل الى خيامهم أو حتى يلمس عتبة خيمتهم لن يناله فقط أى أذى — بل انه — وكما كان يحدث فى زمن ابراهيم — سيحصل دون أجر على طعامه بل أن القبيلة بأكملها قد تتحمل مخاطر حرب خطيرة دون أن تسلمه الى أعدائه . وقد حدث لى ، كما حدث لكثيرين غيرى من أعضاء الخلعة ، أن سافرننا وحدنا مع عربان وبقينا بينهم شهورا عدة دون أن يكون لدينا على الإطلاق ما ننعم منه على ثقتنا بهم .

وبخلاف التحالف الخاص بين قبيلة وأخرى ، توجد تلك العصب الكبيرة التى تعترف بواحد من مشايخ هذا التجمع على أنه شيخها الواحد ، وتأخذ هذه العصب اسما مميزا ، مثال ذلك ما يحدث فى مصر السفلى حيث توجد اثنتان : الأولى تسمى : سعد والثانية تسمى : حرام .

وقلما يقا تل العربى البدوى الا وهو يمتلئ حصانه ، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة كما يكون فى غالب الأمر مسلحا برمح وكبيرة من الأسلحة التى يعلقها فى قوس سرجه ، وفى بعض الأحيان يستعير عن رمحه ببندقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعدو به حصانه ، رائعا يده دون أن يترك عنان فرسه بطريقة يستطيع بها أن يثبت سلاحه وأن يصوبه كما لو كان راجلا ، وبالرغم من أنه مدرب على القاء حربته لأبعد مدى وبدقة شديدة فانه من النادر مع ذلك أن يتخلل عنها فى المعركة ، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمها ، ويرمى بها بقوة تاركا اياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية وبحركة معاكسة يستعيدها سريعا الى وضعها الاول وحيث أن كفايته كفارس أكبر منها عن درجة تهاويه بسلاحه ، فانه يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه ، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هاربا بحصانه الذى تخدمه مرونته المذهلة بشكل رائع فى تلك المعارك التى يلثم فيها المعاتلون .

ويمنع البدو بأنفسهم البارود الذى يستخدمونه وهو رديء ،  
وتزيد فيه على الدوام نسبة الفحم بدرجة أكبر مما ينبغى . وليست  
لديهم مدفعية ، فالمدفعية حسب أسلوبهم فى القتال ليست مفيدة  
بالنسبة لهم ، وإذا ما اضطروا للتجمع فانهم يهاجمون كرماة ، ويتم هذا  
دون أدنى نظام ، فكل منهم يتخذ مكانه حسب هواه . وليست معاركهم الا  
تلاحمات ، اذ يبادر اكثرهم شجاعة بالاندفاع نحو الخصم ، ويشير بذلك  
حمية رفاة . هذا هو واجب القائد عندهم ، وهو الوحيد الذى  
تسمع أوامره ، وسرعان ما يتم احراز النصر ، ويتفرق المهزومون فى  
الصحراء ، ويحييهم الليل من ملاحقة اعدائهم .

وإذا ما دارت معركة على مشهد من المخيم ، أو اذا كانت مع الفريقين  
اسرهم ، فانك ترى النساء والفتيات ، جماعات جماعات ، يدقطن طبولهن  
ويثرن بصرخاتهن واغنياتهن حمية المقاتلين : ووسط كل هذه الضجة ،  
لا يكون عليهن أن يخشين بأسا . فالجميع يحترمون ضعفهن .

ولا يهاجم العربان مطلقا اثناء الليل ، ويتلخص تكتيكهم فى مفاجأة  
العدو بانقضاضات سريعة وهجمات غير متوقعة ، وفى نصب الكمائن  
له ومناوشته لانهاكه عندما يكون هو الأقوى ، وهم فى هذه الحالة  
لا يخرجون من أن يفروا ، ليعيدوا حشد سلاحهم وهم يجرون بأقصى  
سرعة ثم يعودون الى المعركة حيث لا يكون ذلك متوقعا . والويل لأولئك  
الذين يبتعدون من اعدائهم عن فرقتهم ! لكم شاهدت فرنسيين  
يختطفون وهم على مدى مرمى بنادق زملائهم ، ثم جردوا وذبحوا أمام  
فرقتنا قبل أن يكون لدى زملائهم الوقت لنجدتهم .

وكم دهشنا ، ونحن نراهم يهربون اماننا على الرغم من تفوقهم  
العدوى علينا فى حين أننا شاهدناهم فى مرات أخرى وعلى العكس  
من ذلك يهاجموننا بشراسة برغم أنهم كانوا فى موقف أضعف بالنسبة  
لنا ، وتفسير ذلك انه لم يكن مع جنودنا فى الحالات الأولى أى امتعة  
يمكن لها أن تغرى عدوا لا يقاتل الا للحصول على مغنم ، بينما كنا فى  
الحالات الأخرى نصحب قوافل تثير لعاب شهيتهم التى لا تسبع ، ذلك  
انه لا ينبغى علينا أن ننظر للعربان مثلما ننظر للأمم الأوربية ! فالدول  
الأوربية تسمى منتصرا من ساد ميدان القتال ، بينما من الممكن عند

العرب أن يعد نصرا أن تلوذ بالفرار بشرط ألا تفقد من الرجال إلا أقل مما فقد العدو ، وبشرط أن تحصل على بعض الأسلاب . وكثيرا ماخذعنا فيهم ، فقد كنا نظن جبانا ذلك الذى يهرب منا بينما هم ينظرون اليه فى معسكرهم — ربما — على أنه بطل .

وحيث ليست لديهم لا مدفعية ولا مشاة فإن أقل سور كثيف يلقاه زحفهم ، لذلك فإن معظم المدن فى مصر ، قد أحاطت نفسها — حتى تحتوى من غاراتهم — بسور عال يبلغ سمكه طوبة واحدة ، ويكفى ذلك كى يجعل من الأمر فى نظر العربان حصنا لا يمكن الاستيلاء عليه إلا باستخدام القوة المسلحة ، عندئذ يضطرون للقيام بحصار المكان ، وهو نوع من المعارك لايتفق مع تلهنهم وعجلتهم ، لذلك فاتهم سرعان ما يوافقون على الابتعاد فى مقابل الحصول على بعض الهدايا .

ولنفس هذا الغرض يقيم الفلاحون فى هذه البلاد ، هنا وهناك ، وسط الحقول المزروعة أحواضا من الطين على شكل أبراج يطلوها سطح مزود بمتراس . ويزرع هؤلاء البؤساء وعيونهم يقطعة : وهم لا يتركون سلاحهم مطلقا ، ويزرعون وهم يرتجفون تلك الأرض التى عليها أن تطعمهم ، وما أن يلمحوا البدو قاصبين حتى يسوقوا — على وجه السرعة — حيواناتهم إلى أكثر الأبراج قربا ، ويتسلقونه على درجات صغيرة محفورة فى جسمه الخارجى ، ومن سطح هذا البرج يذودون عن ممتلكاتهم ويبعدون عدوهم بطلقات البنادق .

وعندما تقوم حرب بين قبيلة وأخرى فإن العرب لا يتخذون مطلقا من أسراهم عبيدا ، فهم يطلقون سراهم بعد أن يسلبوهم امتعتهم ، وإذا ما استيقوا بعضهم فإنما ليتخذوا منهم رهائن ، لكنهم لا يسلكون نفس المسالك مع الأجناس الأخرى وإنما هم فى هذه الحالة كذلك — يحتفظون بعدد قليل من الأسرى ، لكن هؤلاء الأسرى يكونون بمثابة عبيد ، يستخدمون فى أعمال البيت وبخاصة فى طحن الحبوب ، وهذا النوع من العمل يضعهم مباشرة تحت إمرة النساء فى القبيلة : ونستطيع أن نميزهم عن العبيد المشتريين ، وهم كذلك قليلو العدد — فهؤلاء الآخرون زنوج فى غالب الأحيان ، يشترون وهم صفار ، ويعاملون بقدر من الرأفة كما لو كانت تربطهم بالقبيلة روابط الدم . وعندما يصسحون

كبارا ، يتبعون سادتهم الى الحروب ويحصلون في الغالب على حريتهم مكافأة لهم على شجاعتهم ، ويحصلون كذلك على عطاء من الامتعة الضرورية لحالتهم الجديدة ، بل انهم في بعض الاحيان يقتسمون تركة سيدهم مع ابنائه ، وفي معظم الاحوال يعترف بهم كورثة وحيدون لسادتهم اذا لم يكن (١٠) لهؤلاء الآخرين ابناء ، حتى ولو كان لهم اهل عديدون وعندما يصبحون افرادا في القبيلة ، يكون بمقدورهم أن يتوصلوا هم واحفادهم الى مرتبة الشيخ . وبهذا يكون الأمر هنا اقرب الى التبنى منه الى العبودية .

وأخيرا فان البدو لا يرغبون الأسرى الذين يحصلون عليهم في الحروب على اعتناق الاسلام لكنهم يرغبون على ذلك العبيد الذين يشترونهم . ولا يعنى الأمر انهم شديداً التدقيق في مسألة الدين ، فقلما يكون هؤلاء مسلمين الا بالاسم ، وتنتظر اليهم بقية الشعوب التي تدين بهذه الديانة على أنهم غير مؤمنين . والختان ، هو الممارسة الدينية الوحيدة التي تحظى بالاحترام بينهم ، ومن المعروف انها كانت تمارس قبل مولد محمد « صلى الله عليه وسلم » بزمان طويل . اما الوضوء الذي أمر به هذا النبي فلا يمكن المواظبة عليه في الصحراوات حيث المياه نادرة وثمانية لحد كبير . وعلى الرغم من أن القرآن قد فرض الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد ، فان هؤلاء لا يؤدون الصلاة في معظم الاحيان الا مرة عند شروق الشمس ومرة أخرى عند الغروب . بل وربما كانوا يخلطون بين ذلك وبين التقديس الذي يولونه لكل النجوم ، ولعل ذلك شيء قد بقي من ديانتهم القديمة تلك التي كانت بسيطة بقدر ما كانت طبيعية . وهم يعبدون كائنا ساميا ، وينظرون الى الأجسام السماوية كوسطاء بينهم وبينه وهي التي تبدو وسط سماء بهذا الجمال وعلى هذه الدرجة من الصفاء وكأنها تدل على عظمة الله التي تتبدى هنا بقدر من الروعة اكبر مما تبدو به في بقية ظاهر الطبيعة (١١) .

(١٠) نجد في التوراة عادات مشابهة ، فقد كان ابراهيم ينظر الى ابن خادمه كوارثه الوحيد قبل ان تجعل منه هاجر ابا ( سفر التكوين ) ، الاصحاب الخمس ، الآية ٣٧ ) على الرغم من أن ابراهيم كان ينتهي الى اسرة كبيرة العدد .

ولا يرى مطلقاً في معسكرات العربان مكان مخصص للصلاة . فكل امرئ يؤديها حيث شاء . ويسلك في هذا الأمر على النحو الذي سمع به ، اذ ليس ثمة رجال دين او ثمة على الإطلاق ، ولكن ثمة قاضياً ، وان كان هذا الفقيه الذي ينبغي ان يحفظ القرآن ويعرف القوانين والتفاسير لا يعرف حتى القراءة . يقول شيخ القبيلة لأحد العربان : انت قاض ، فيكون كذلك . ولقد اخذوا بهذه الاجراءات بدافع سياسي ولارضاء جيرانهم ، لكن ما يميزهم على وجه الخصوص عن بقية المسلمين هو انهم لا يكونون لاحقداً ولا احتقاراً للاديان الأخرى ، بل ويقال انه لا تزال توجد داخل الجزيرة العربية قسائل يهودية ينظر اليها أبناء البدو المسلمين ، على أنهم اخوة لهم .

وفي بعض الأحيان ، ومن المستحسن ان يحدث ذلك فوق الاماكن المرتفعة ، يذبح العربان خروفاً او جلاً صغيراً ، ويذكر اسم الله ، ويوزعون على الفقراء جزءاً من لحم الضحية (١٢) .

وتوقر المسلمين للحيتهم امر شائع ، ولا يستطيع العبيد ان يطلقوا لحاهم . وحلاقة فتن رجل حر أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البدو بلحاهم وهم مسكون بها بأيديهم ، وفي أحيان أخرى يقسمون براسهم ، لكن أكثر الايمان تقديساً وأكثرها قوة ، هو القسم الذي لا يلجأون اليه الا في الحالات ذات الأهمية القصوى ، ويلفظ به مع رفع طرف الرداء والامساك ببعضو التذكير ، وعادة القسم بالأعضاء التناسلية يعود الى زمن جد بعيد فلقد قال ابراهيم لأخاه « ضع يدك تحت فخذى ، واقسم ان تذهب الى بلاد ما بين النهرين لتتخذ زوجة لاسحاق ابني » \*

(١٢) ذبح الأضحيات فوق الاماكن المرتفعة تقليد شائع عند العرب منذ الأزمنة الضاربة في القدم ، فعلى أحد الجبال قلد أحد شيوخهم ابنه ، لكي يذبحه قرباناً الى الله ( سفر التكوين ، الإصحاح ٢٢ ) وتقدم التوراة العديد من الأمثلة المشابهة .

\* هذه ترجمة للنص الفرنسي واليك النص كما جاء في للتوراة : « وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له ، ضع يدك تحت فخذى ، فاستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم ، بل الى ارضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق » — وهكذا تزوج اسحاق بن رفقة بنت بتوئيل ابن أخى ابراهيم — سفر التكوين — الإصحاح الرابع والعشرون .

( المترجم )



وللتعاويز والتماائم نفوذها الكبير على العقيلة الساذجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبته او تحت ابطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين او يهود وهم الذين ينظر اليهم البدو على انهم اكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتماائم والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لاينهمونها على الاطلاق بل وكذلك بعض التعاويز المصرية القديمة ، وفى النهاية فانهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التيمة التى عملت خصيصا لمرض اصابهم اكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب واسرارها . ويحرصون على وضعها فوق الجزء المصاب من الجسم ، وقد يثير الأمر ضحك البعض ، وانا مقر بذلك ، ولكن ، هل ينبغى لمثل هذه الأمور ان تثير سخريتنا بينما نحن برغم كل حضارتنا مازلنا اسرى لخرافات مشابهة .

وعندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، او فى اية ظروف قد تنسفى عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فانها قد تحمل البدو على الاعتقاد بان بها روح جنى ، وتصبح منذ ذلك الوقت امرا مقدسا ، بحيث لا يمكن انتهاك حرمتها بقطع فرع منها او حتى بقذفها بحجر . ويعلقون بها شعر الرأس وشعر الجسم ومزقا من القماش ، وقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية . ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل ان يسخروا القدر لصالحهم وان يوقعوا الضرر والأذى بأعدائهم . وقد شاهدت وسط الصحراء ، بين القاهرة والسويس ، شجرة ضخمة من اشجار الاكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعسكر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام الى مكة « للحج » ويقوم العرب بهذا الأمر فى تقديس كبير ، وقتلها يفوت الحجاج ان ينذروا هناك نفورهم اذا ما كتبت لهم النجاة من اخطار السفر ، وذلك بان يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم .

كنت اود لو استطيع ان اقدم هنا تفاصيل الحفلات الدينية التى تصاحب عند كل الشعوب بعض المناسبات الهامة فى حياة الناس ، لكنى لن اتحدث هنا - حيث ائى ساقصر فى هذه الدراسة على الوقائع

التي لمستها وتلك التي تحققت منها بنفسى — عن حفلات الزواج والميلاد،  
وتحت بند الأخلاقيات والعادات المدنية .

يتزوج العريان فى سن جد مبكرة ، وهم شديدا الضرة على نسلهم،  
بالخنجر مشرع عند اقل هفوة خيانة ، وهم لا يخفون على الاطلاق نيتهم  
فى استعادة اى من نسلهم يقعن سبيا فى الحرب لتضمهن احضان  
المتنصر ، وتستطيع الفتاة التى مرت بهذه الحنة ان تعثر على زوج وكأن  
شيئا لم يحدث لها ، ومع ذلك فان هذه الفتاة فى حالات أخرى ، اذا  
لم تبين بكارتها ليلة زفافها — ستطرد الى اهلها مجللة بالخزى ، وينتظر  
هؤلاء الاهل بفارغ الصبر فى خيمة الزوج قطعة القماش المخضبة  
بالدم والتي تشهد بتمتل ابنتهم واستقامتها ، بل ويعرفونها احيانا خارج  
الخيمة لانظار الجمهور ، ثم تطويها الزوجة الشابة بعناية وتحتفظ بها  
طيلة حياتها .

ولا يعرف شبلب العريان هذه لسوء شديدة الانتشار لسوء  
الحظ فى اوربا والتي تحطم قوى الاخصاب عند ابنتها، وتقضى على البهجة  
التي ينبى ان تقرب بين البشر وتحيل الحياة الى كآبة منفرة ، تصيب  
صاحبها بالانطواء ، وتقامة المزاج وتجعل منه انانيا فظا وتتسبب  
له فى امراض الوهن والعجز القاسية بل والى موت مؤس مالم يؤد حبه  
النساء الى علاج سريع له ، لكن هذه السوء تحل محلها هنا سوء  
اخرى عرفت فى الماضى عند اليونان ، وكانت شائعة فى كل الامم  
الرعية ، تلك هى عادة ان يتبادلوا الحب فيما بينهم ويحدث هذا على  
وجه الخصوص اثناء مسيراتهم الطويلة حيث ليس ثمة من مجتمع يحيط  
بهم سوى قطعانهم .. وهناك ، ينفسون فى امور تبعث على الفجل .

ويؤدى الزواج الى اختفاء أو على الأقل الى التخفيف من هذه الملاذ  
الاثمة . والعريان كما سبق القول يتزوجون فى سن جد مبكرة ، وليس  
ثمة ما يملونه اكثر من الحصول على الكثير من الاطفال فذلك هى  
الوسيلة الاكيدة للنموذ والثروة . ومولد طفل ، هو حدث يملوهم  
بالفرح الطاغى ، وسبب هذا الحب الابوى الكبير فانهم يضيفون  
الى اسمهم اسم مولودهم : فاذا كان الاب يسمى محمدا وابنه يسمى

عليها فان اسم الاول يصبح هكذا : محمد ابو على ، او ابو على فقط ، وهو ما يعنى والد على .

ويحبل الشبان من جانبهم اعظم احترام لواهبيهم الحياة ، كما يحترمون كل الشيوخ على وجه العموم ، فينهضون عند قدومهم ، وينصتون اليهم باحترام شديد ، بل ويكفون عن التدخين فى حضرتهم الا اذا طلب اليهم ان يواصلوا التدخين . وهكذا تتأسس حكومة القبيلة على هذا الخضوع التلقائى لحكمة السنين وخبرة الأيام ، وعلى حب الآباء لأبنائهم .. وهذا هو ما سبق ان لاحظنا من قبل حول هذا الموضوع .

والعربان رشيقو الأجسام ، خفيفوا الحركة أكثر من كونهم اشداء ، تتميز اجسامهم بالنحافة ، لكنها نحافة الصحة ، وثمة نوع من التشابه الكبير فى شكل قامتهم ، اذ قلما تشذ عن طول يتراوح من خمسة اقدام وبوصتين الى خمسة اقدام واربع بوصات ، ولا نرى بينهم مطلقا — كما نرى عندما — اتزاما الى جوار عمالقة ، او مقعدين الى جانب اشداء مفتولى العضل كما لا يرى بينهم على الإطلاق من هو كسيح منذ مولده .. فهناك تقارب القوى الفيزيائية ، كما تتقارب الصفات الاخلاقية والعادات الاجتماعية بقدر من المساواة لا مثيل له فى مكان آخر من العالم .

والعربان بيض الوجوه : لكن الشمس لوحت بشرتهم لحد كبير ، حيث يشقد اثرها اذ تنعكس اشعتها بفعل الرمال : ولون لحيتهم وشعرهم وعيونهم اسود ، اما اسنانهم فناعصة البياض متناسقة ، فى العادة ، وجبيلة وملحهم روحانى ورقابهم كثرة العضل ، واكتافهم وصدورهم عريضة ، لكن الركبة كبيرة بعض الشيء ، ولعل هذا قد نتج عن طريققتهم فى الجلوس على الأرض حيث تتشابك سيقانهم من تحتهم .

وعيون النساء أكثر اتساعا من عيون الرجال لكنها سوداء بالمثل ، كذلك فان اسنانهن بياضاء متناسقة ، وقامتتهن هيفاء مرنة ، اما اذرعهن وايديهن وسيقانهن واقداًمنهن فعلى درجة من الجمال تصلح معها اية واحدة فمنهن ان تعد أنموجا « موديل » ، لكن ملامحهن فيما عدا عيونهن قليلة التعبير ، تنقصها الحيوية ، وهو أمر ينبغى ان نعود به دون جدال

الى عادة اخفاء الوجه تحت النقاب بعناية لا يولینها لای جزء آخر من جسمهن ، واتفهن كبير ، ولمهن واسع ، وتصبح الكثيرات منهن قبيحات بالفعل عندها يغطين وجوههن بوشم يجعلهن قريبات الشبه بهنود أمريكا.

وسرعان ما تتهدل صدورهن ، وهو الذى كان ناضجا وجميلا عندها كانت المرأة ما تزال فتاة فى سن العاشرة او الثانية عشرة، وما ان تجب الواحدة منهن طفلا حتى يستطيل صدرها بدرجة كبيرة ، وما يساعد فى تشويبه اكثر فاكتر انهن لا يبذلن اية عناية لحمله او اخفائه ، لذلك فالجيلات من نسائهن فى حكم النادرات ، ومع ذلك فهناك بعض الجيلات يمكن لك ان تلمحهن وبخاصة بين صغيرات السن منهن .

وتتميز هؤلاء النسوة جميعا بخصوبة هائلة ، وعندها لا تنجب سيدة متزوجة فانها تلقى الاحتقار ولا يتردد زوجها فى تطليقها ، او على الاقل ، فى اتخاذ زوجة اخرى ، ذلك ان الطلاق وتعدد الزوجات امران مسوح بهما .

ومن اصعب الامور عليك ان تستطيع تمييز شيوخ العرب من شبانهم عن طريق ملابسهم ، فهم يرتدون بصفة اساسية اقل هذه الملابس خشونة وتنغرا ، اصف الى ذلك ان رداء العربيان لا يتغير ، على الاطلاق ، اذ يظل هو نفس ما كانه فى الأزمنة الخوالى ، وينبغى ان يقود هذا الى الاعتقاد بان الامر انما هو نوع من التقدير الذى تحظى به الشيخوخة ، اما عندنا ، فعلى العكس من ذلك ، فاهواء الموضة تتغير كل يوم . . ومن ثم تأتى سن معينة يجد المرء نفسه فيها لايسخ اهواء « موضات » جديدة ، فيثبت على بذلة لا تعود تتغير طيلة السنوات الاخيرة من عمره ، لذلك فسرعان ما تعد ملابس مضحكة حيث يكون الشباب وهو الذى يبعث البهجة فى كل شيء ، قد كف عن استخدامها. ومن جهة اخرى فان الموضة فى اوربا لا تؤدى فقط الى تنوع الملابس، بل انها تبسط سطوتها على كل ضروب الحياة ، وينتج عن ذلك فى غالب الاحيان تناقض قاس بين الشباب وبين الشيخوخة ! فملابس الآباء تبدو فى عين الأبناء مضحكة ، بينما لا يكف الآباء عن انتقاد الزمن الحاضر ولا يملون من الأسف على الزمن الذى فات ، ويتبادلون فيها

بينهم المرارة فيقولون : فيما مضى كنا نفعل كذا . . وهذه الكلمات التي قد يلفظها البعض يسخرية وقد يلفظها الآخرون بأسى ، تبدو كما لو كانت تعيد الى الأذهان ذكرى زمن سابق على الوقت الحاضر بقرون عدة ، بينما هي في اغلب الأحيان لا تتعلق الا بفترة مضت منذ حوالى العشرين عاما . لكن الأمر ليس نفس الأمر عند امم الشرق ، فالمعادن ثابتة لا تحول . يقول العرب هكذا كان يفعل آبائنا وعلينا ان نحذوا حذوهم . ومع ذلك فلا بد ان نثقف على انه اذا كان مثل هذا الأمر في معظم الأحيان ، افضل من ذلك التغير الذى يحدث بلا انقطاع فان له ايضا عيوبه ! ذلك ان شيئا لن يتطور بمرور الوقت .

ويرتدى العربان جلبابا بالغ الاتساع من القماش أو من الصوف ، وهم يشدونه حول وسطهم بواسطة حزام عريض . ويرتدون تحته كملايس داخلية سروالا من الثيل . وهم يخلقون رعوسهم بالموس ويغطونها بممامة ، ويطلقون لحيتهم ، وتظل عارية رقابهم واذرعهم وسيقانهم . وفي معظم الأحيان يرتدى العربان الذين يقطنون صحراء مصر الغربية فوق ملابسهم معطفا ابيض اللون « عباءة » من قماش صوفى شديد الرقة . وقد شاهدت عربانا آخرين في مناطق تحيط بمدينة السويس يلقون فوق ظهورهم اثناء الشتاء جلدا ثقيلا من جلود الخراف يعتقدون قدميه الاماميتين فوق الصدر ويتدلى الذيل الى الأرض وهو الأمر الذى يشبه تمام الشبه تلك الطريقة التى يبدو لنا هرقل بها وهو يرتدى جلد أسد ، ويبدو هذا المعطف البدائى على درجة من الجاذبية والروعة ، اما ملابس السيدات فتتكون عادة من رداء طويل يستخدم في نفس الوقت فستانا ، ومن سروال وعمامة وحجابين ، اولهما وهو الأوسع يوضع فوق الرأس أما الآخر وهو اقل اتساعا فيوضع فوق الوجه اسفل العينين مباشرة ، ويثبت بقصاصتى قماش تغدان خلف الرأس . وثمة اطواق من الفضة - وهي في اغلب الأحيان من الزجاج الأزرق - تحيط بالذراعين والساقين اما الحلى التى يترين بها ، فهي الخواتم والاقرط المصنوعة من النحاس أو الفضة ونادرا ما تكون من الذهب ، وبعضهن يثبتن احدى فتحتى الأثف لتتدلى منها حلقة فوق الفم .

وتظن النسوة من كثرة الفئات انهن يتزين عندما يصبغن بالأصفر باطن القدمين واليدين « بالحناء » وهو أمر بدأ لى على الدوام بالغ القبح ، لكننى سأقول عكس هذا الراى بخصوص عادتتى فى احاطة جفونهن بخط اسود يمتد قليلا عند ركن الجفنين فقد كان تأثير ذلك على الدوام طيبا بالنسبة لى ، فالعين تكتسب بذلك حيوية وتبدو نجلاء واكثر اتساعا ، ويمكن ان نستنتج من الخطوط التى نراها محفورة حول عيون التماثيل المصرية ان هذه كانت نفس عادة النسوة فى مصر القديمة .

ومنتولات البدوى كما لابد أن يتخيل المرء تتضائل الى حد الضرورة المباشرة : راحة ، رقيقة من الحديد لتحميم حبوب القمح أو لانتضاج الخبز ، اناء لصنع القهوة « كتكة » ، دلو من الجلد لصب المياه ، بعض القرب ، قصعات من الخشب فناجين صغيرة لشرب البن ، قدر ، حصيرة تستعمل سجادة وفراشا ، وفى بعض الأحيان نول لنسج الأقمشة الخشنة ، الأسلحة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ماسورة طولها من ٤ - ٥ اقدام ، قليل من الملابس ، نوع من الماندولين (١٣) طبله وهى عبارة عن اناء من الفخار المحروق لا قاع له ويفطى من احدى فتحتيه بجلد مشدود بقوة .. هذا هو كل ما تضعه على وجه التقريب خيمة البدوى ، وهذه الخيمة ترتفع الى ٥ - ٦ اقدام ، وهى مربعة الشكل ومصنوعة من قماش غامق خشن يصنعه العربان بأنفسهم من وبر الجمال . أما الجزء الخارجى من الخيمة ، وهو الذى يصنع سقنها ، فهو قليل الانحدار ويتخذ فى غالب الأحيان شكلا افقيا ، وثمة فاصل من نفس القماش يفصل داخل الخيمة حجرة الحريم عن حجرة الرجال .

---

(١٣) استخدمت كلمتا ماندولين وكمان ، على الرغم من أن هذه الالات تختلف كثيرا عن تلك التى تطلق عليها هذه الاسماء فى فرنسا . وقد اطلقت كلمة ماندولين على تلك الآلة التى تهتز اوتارها بواسطة قطعة صغيرة من قرن أو من خشب ، وكلمة كمان على تلك الآلة التى يعزف على اوتارها بواسطة قوس ، وبإمكان من يرغب فى معرفة هذه الأشياء ، بتفصيل أكثر دقة ، أن يعود الى الدراسات التى نشرها المسيو فيوتو Villoteau عن الموسيقى ، فى نفس هذا المجلد ( من الطبعة الأولى الفرنسية والسابع فى الترجمة العربية ) .

وتتناثر كل خيام العرب بلا نظام الواحدة بعد الأخرى ، ولكن فى نفس الوقت بطريقة تجعلها تحوى فيما بينها فراغا فسيحا يستخدم كعبدان عام وكمربط للقطعان ، وإذا ما شاعوا أن يرحلوا فإن كل عائلة تبعىء منقولاتها الخفيفة فى ماشى خيمتها وتحملها فوق جملها وتساق القطعان فى مقدمة الركب ، يتبعها النسوة والأطفال والشيوخ ، ويسير بعض هؤلاء على قدميه ويمتطى البعض الآخر الجمال أو الحمر ، وهناك بغض الرجال ، على صهوات جيادهم ، يرشدون ويقودون المسيرة ولا شىء يبقى فى المؤخرة ، وسرعان ما تاتى الرياح لتحو آخر اثر لهذه المدينة المؤقتة .

والعربان قوم بالغو القناعة اذ تكتفيهم بضع بلحات وحفنة من القمح أو الشعير المحمص غذاء ليوم كامل : بل لقد رايت البعض منهم فى أعماق الصحراء يكتفون ببعض من الفول النبىء كانوا يأخذونه من طعام جمالهم ، ويأكلونه دون اية تجهيزات سوى أن يكسروه الى قطع صغيرة بواسطة حجر حتى يتمكنوا من مضغه بسهولة أكبر ، وهكذا ، نمت أوتيات من الطعام أو سبع هى كل مايستهلكه البدوى من طعام طيلة اليوم فى الصحراء ، وهم يأكلون أكثر من ذلك بقليل عندما يحلون بأرض خصبة ، ومع ذلك فإن زهادنا ، وهم المعتادون على فترات الصيام الطويل ، لا يستطيعون بحال أن يقتربوا من بساطة هؤلاء وقناعتهم ، هؤلاء يشربون أقل من القليل ، ويتحملون العطش لأيام بأكملها ، وبلا جدال فإنه نتيجة لهذه القناعة المستمرة فإن افرازاتهم ، نتيجة لهذه القناعة الدائمة ، جد قليلة (١٤) .

---

(١٤) يمكن أن يعد انعدام العرق عندهم بشكل مطلق فيما اعتقد واحدا من الأسباب وفى نفس الوقت واحدا من النتائج لقناعتهم ، فإذا كانوا لا يمرضون مطلقا فإن الأمر لا يعود فقط لأنهم يأكلون قليلا وإنما لأن جلددهم يجف بسبب تعرضهم لشمس حارقة ، وهم لا يرتدون الا ملابس شديدة الخفة ، وبسبب جفاف جلودهم وخشونتها تضيق مساهم وتسد بشكل تام . وحيث أنهم يتعرضون لقدر قليل من الفقد من طريق العرق فإن حاجتهم للطعام لاستعادة قواهم تقل تبعاً لذلك ، لكننى أمسك عن الخوض فى الأمر أكثر من ذلك مفضلاً أن أترك الأمر ليحسمه الفسيولوجيون .

واليكم ما يأكله العربان عادة : فطائر صغيرة من الفرة أو القمح لم تنضج لحد كاف ، أرز ، بلح ، عدس ، فول ، لحم ولكن فى أضيق الحدود ، لبن طازج أو رائب ، زبد ، جبن شديد الجفاف ، ملح ولاذع الطعم يصنونه دوما من لبن الفرس والبقر والجاموس والحمير والماعز بلا تفرقة ، ولا يشربون سوى الماء والبن بدون سكر ، وهم يحولون القمح الى دقيق بواسطة رحى شقها من حجارة أو يسحقونه ببساطة فى حجر مقعر على شكل مققة ( هاون ) ، بنفس الطريقة التى يصنع بها الرسامون ألوانهم .

وبعد عجن الدقيق ، يبسط العجين على سطح من الحديد المحمى من قبل فوق النار داخل حفرة فى الرمال ويغطى الجميع بالرماد الساخن ، ويجذب الخبز قبل أن يبلغ بكثير درجة النضوج التى نعطيها له فى فرنسا . وهذه عادة استمرت فى الصحراء منذ زمن لا يمكن تذكره « لنضجوا الخبز تحت الرماد » هكذا كان يقول إبراهيم لسارة .

ويستخدم نفس هذا اللوح الحديدى الذى ينضج فوقه الخبز فى تحميص حبوب القمح والشعير التى يأكلها العرب عادة بدلا من الخبز .

أما روث الماشية المجفف فى الشمس ، فهو على وجه التقريب ، الوقود الوحيد الذى يستخدمونه ، ومن العسير عليهم فى الصحراء أن يتزودوا بوقود غيره .

وفى وجبة الاحتفالات يقدم عادة خروف بأكمله .

وقد تناولت العشاء ذات يوم مع بعض البدو ، ولقد استخدم هؤلاء لحى على الطعام وسائل قد لا تقع وقع الاستنكار من أكثرنا نادبا نحن الأوربيين وهانذا أقتص هذه الحكاية التى سوف تسهم فى تعريفنا بمضيفى من زوايا عدة :

كنت مكلفا أثناء شتاء العام السابع ( ١٧٩٩ ) بعبور وادى التيه ، الذى لم يكن قد سبق لأى من جنودنا أن اجتازوه من قبل . ورحلت من القاهرة مع سرية تتكون من خمسة وعشرين رجلا من المشاة ، وكان مع كل جندي من الخبز مايكفيه لمدة أربعة أيام ، وكان معنا جبلان يحملان



المياه التي قدرنا أننا سنحتاج اليها . وعندهما وصلنا عند غروب الشمس قرب مدخل الوادى ، على مشارف الأرض المنزرعة ، قررت أن نمضى الليل فى هذا المكان ، وتبعد الجنود على الرمال ، وبينما هم يأكلون خبزهم ، مغموسا فى قليل من الماء ، كان خيالههم الذى استثاره اسم الوادى ، قد جعلهم يتخيلون آلاف المخاطر الخرافية وأردت أن اتبين — يتوجهى الى قرية كنا غير بعيدين عنها ، ما ان كان بمقدورى أن أتزود من هناك بمرشد يدلنا على الطريق : أخذت بنديقتى وسرت وحيدا ، ولكن سرعان مادفعتنى الرغبة فى التعرف على مدخل الوادى الى القيام بدورة كبيرة ، ابتعدت معها دون ادراك منى عن سريقتى ، وما أن تسلفت بعض التلال التى حجبتنى كلية عن الانظار . حتى وجدت نفسى فجأة امام مخيم عربى : فكرت فى الانسحاب لكننى تبينت أن بعض البدو من راكبي الخيول قد قطعوا على كل خط رجعة ، فقررت أن أجعلهم يدفعون ثمن حياتى غاليا . كنت مسلحا بشكل جيد ، اذ كان معى بخلاف بنديقتى المحشوة وسونكيها ، مسدسان ممتازان ، ونادرا ما يحدث أن أخطئ هدفى عند التصويب . شهرت بنديقتى ، لكننى أردت فى نفس الوقت أن أجرب — وأنا رجل جريء صاحب حيلة — ما ان كنت بمستطيع أن اتفادى معركة غير متكافئة لحد كبير ، فأعطيت اشارة للعربان الذين كانوا يحدثون فى أن يقتربوا منى ، وتوجهت فى نفس الوقت اليهم ، بادى الثقة ، وما أن أصبحت على مسافة تكفى كى يسمعوها خلالها صوتى ، حتى طلبت اليهم أن يصحبونى الى شيخ قبيلتهم لاتحدث اليه . بدأ عليهم أنهم دهشوا لطلبى ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم ، فكررت اليهم بلهجة حازمة طلبى ، فأشاروا الى أن اتبعهم ، وسرعان ما أصبحنا فى داخل المخيم ، ونبحت الكلاب عند اقترابنا .

كنت أرى هنا وهناك عديدا من الخيول المرسجة ، مربوطة بالقرب من الخيام ، ولاحظت فى دهشة أن العديد من النسوة كن يلفطن وجوههن بعناية تماثل ما كان يمكن أن تصنعه زوجات الفلاحين فى موقف كهذا . توقفنا امام خيمة الشيخ التى لم تكن تختلف فى كثير عن بقية الخيام الا فى كونها اكثر اتساعا بعض الشيء . دخلت فى شئ من التوجس ، فوجدت الشيخ ومعه اثنان من العربان ، وهم منهمكون جميعا فى التدخين وشرب البن . كانوا جالسين على الأرض حول قليل

من النار استقر فوقها الغلاى ، وكان دحان هذا الموتد ، وكذلك دخان **التارجيلا** ، بالاضافة الى السحنة الجادة والمهيبة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، وكذا المسدسات والخناجر التى كانوا يتسلحون بها .. كان كل هذا يتطلب مع الفكرة التى كانت لدينا عن مغارات اللصوص .. القيت عليهم بتحية الاسلام : السلام عليكم ، فردوا السلام دون ان يخرجوا عما فى ايديهم ، ثم اضافوا وهم يقدمون الى قدحا من القهوة « اجلس واشرب » استجبت على الفور ، فقد كنت اعرف انه نوع من الحمية لك ان تشرب او تأكل معهم « وقتلت للشيخ : « عرفت انك تصكر هنا فتركت قافلتى على مسافة واتييت وحدى بثقة ، طالبا اليك دليلا ليقودنى حتى البحر الاحمر عن طريق وادى القيه ، ويمكنك ان تثق بأنه سينال اجرا طيبا » واضيفت : « ليست معى الآن نقود لكننى سادفع اليه مقدما نصف الاجر الذى سثقتق عليه ما ان اعود الى سريتى » ، فاجابنى « ستحصل على دليل فائنا فى سلم مع الفرنسيين » واخبرنى بعد ذلك ان الفرنسيين قد تركوا له اراضى وقرية البساتين التى كان يعسكر بالقرب منها وان قبيلته هى قبيلة طرابين .

وبينما نحن نتحدث ، لاحظت ان نساء الشيخ كن يزحن قليلا حتى يريننى فاصل القماش الذى يفصل حجرتهن عن حجرتنا ، ولابد انه كان امرا مثيرا لفضولهن ان يرين واحدا من الفرنسيين الذين قص عليهن بالضرورة محاربوهن مئات الحكايات الخرافية عنهم والذين كانت ملابسهم ولغتهم واسلحتهم تختلف اختلافا بينا عما تعودن .

استاذنت فى الانصراف - بعد ان تيقنت ان دليلا سيأتى فى الغد ليلحق بى فى المكان الذى اوضحته لهم ، وعدت الى معسكرى مقتبطا اثنى قد توصلت الى هذه النتيجة السارة .

وعندما عدت الى القاهرة ، بعد ذلك شهر . قصصت مغامرتى على كثير من زملائى ، واتفقنا معا على تنظيم رحلة لرؤية هذا المخيم ، وفى يوم الرحلة ، كنا اثنى عشر رجلا جيدي التسليح ، نركب جيادا ممتازة ، ويسبقنا سياسنا (سايس)<sup>(١٥)</sup> الذين كانوا حسب عادة أهل البلاد يجرون

---

(١٥) السياس ( سايس ) خدم مصريون . وهم فى الوقت نفسه معنيون بأمر التحيل ويجرون حوار سادتهم وهم لا يعرفون التعب ويحملون معهم فى معظم الاحيان وبخلاف عصاهم بنندقية مخدومهم .

على اتداهم ، وبأيديهم عمى طويلة . سرت وحدى فى المقدمة كى  
أنزع كل شك من الطرابيع حول مشروع زيارتنا .. وعلى الفور ، تعرفوا  
على ، وعندما وصل زملاى بعد ذلك بقليل ، لقوا ترحيبا طيبا .

وبعد أن استرحنا وتجولنا خلال مخيمهم ، وشرينا معهم بعض  
أقذاح البين ، شرعنا فى الرحيل على الرغم من الحاح كبار القبيلة الذين  
أرادوا استبقائنا كى نشاركهم الطعام من الخروف الذى ذبحوه عند  
وصولنا ، لكننا ، بتصنعنا الأوربى ، شكرناهم مدعين أن لدينا أعمالا  
لا تمكننا أن نبقى لأكثر من ذلك ، ولاحظت أنهم لم يستترجحوا لرفضنا ،  
ومع ذلك ، فبعد أن تبادلوا بعض الكلمات فيما بينهم بصوت خفيض ،  
استعادوا ملمحهم البشوش الذى كان لهم حتى ذلك الوقت ، وقال لنا  
الشيخ وهو يمتطى حصانه مع بعض العريان ، أنه ذاهب معنا ليدلنا  
على طريق أفضل من ذلك الذى نعرفه . وما أن خرجنا من المخيم حتى  
افتعل مناوشة ، وقضينا نحن بعض وقت فى ملاحظة المهارة التى يوجهون  
بها خيولهم ويتقاذفون بها الجريد (١٦) .. كنت قد شاهدت هذا الأمر  
مرات عديدة ، وحيث أننى شغوف بهذا النوع من الألعاب ، فأننى لم  
أستطع أن أمتنع نفسى من المشاركة فيها ، فدخلت بينهم ، واستمر اللعب  
طيلة مسيرتنا .. وفى النهاية وصلنا الى شواطئ النيل ، حيث غابة  
صغيرة من النخيل ، وهناك فوجئنا بوجود وجبة معدة ببذخ على حصر  
ببسوطة على الأرض ، فقال الشيخ :

(١٦) والجريد . عصا يبلغ طولها ٤ - ٥ أقدام وتستخدم كرمح ،  
ويفضل العرب عادة الفروع الخضراء من النخيل لأنها جد ثقيلة . ويستطيع  
الرجل وهو واقف أن يرمى الجريد على بعد أكثر من ٥٠ قدما ، أما  
إذا كان ممطيا حصانه ويعدد بأقصى سرعته فإنه يستطيع أن يلقي بها  
لأبعد من ذلك بكثير ، وهناك من بينهم من يستطيع أن يقذف بها بقوة  
لدرجة يمكن لهذه العصا معها أن تتسبب فى حدوث جرح خطير ، بل  
وفى قتل من لا يستطيع تفاديها . وقد حدث لى ذات مرة أن وقعت  
على الأرض دون أن أعرف واحدا ممن كنت لعب معهم ، وفى نفس اليوم  
تلقيت ضربة بالجريد منعتنى لشهر كامل من أن أستخدم ذراعى .

» ها نحن نجد وجبة فى طريقتنا .. بإمكاننا أن نقتلونها معا دون أن نضيع عليكم مزيداً من الوقت « فترجلنا ، وبدانا فرنسيين وعربا ، ونحن جالسين على الأرض نأكل بشهية طيبة .. كان ثمة لبن فى آنية كبيرة ، ودجاج ، وجبن أبيض . وعسل ، وبعض الفطائر وخبز ، ووسط كل ذلك خروف بأكمله فوق تل من الأرض لم يكدا ينفج ، وبدون شوك ولا ملاق ، وباستخدام أيدينا مثل العربان ، كنا ننزع قطع اللحم ، ونأكل كيفما اتفق من نفس الأطباق . وإذا كان قد سبق لنا أن تنفدنا على عدم مهارة العرب فى استخدام الشوكة فى طعامهم فقد كان بإمكانهم فى ذلك اليوم أن يتشددوا من الطريقة المباشرة التى كنا نقلدهم بها ، وكان بعضهم يغمس اللحم بالعسل فحاولنا أن نفعل نفس الشيء ولكننا وجدنا الطعم غير مستساغ لنا ، وشربنا مياه النيل الرائحة وقد برئوها بالقتل (١٧) .. كانت وجبة بالغة المرح على الرغم من أن نصف المدعويين كانوا يجدون مشقة فى فهم النصف الآخر .

ولقد انتهى مضيفونا من الطعام قبلنا ، وعندما كان يشبع أحدهم كان ينهض قائلاً : شبعنا والحمد لله .

وعندما نهضنا جميعا اتخذ خدمنا وكذلك خدم العرب أماكنهم ، وقال الشيخ بصوت عال حسب عادة العرب « يا أبناء البلاد ، تقدموا واكلوا » وعندئذ اتخذ بعض فقراء الفلاحين الذين جذبهم الجوع أو الفضول أماكنهم حول الحصار ، ولاحظت أن أقل شيء يشبعهم وأنهم يمسحون بسرعة أماكنهم الآخرين وسرعان ما اختفى كل شيء . ركبنا الجياد من جديد مع البدو وتفرقنا كأصدقاء قدامى بعد أن تبادلنا التحية العربية علامة على المودة : وهى عبارة عن التلامس عدة مرات باليد اليمنى ووضعها عدة مرات فوق الصدر مع قول . خذ بالك من نفسك ، حماك الله ؟ وهى مجاملة لا يمل المرء مطلقاً من ترديدها .

منذ ذلك اليوم وأنا أعود على الدوام لرؤية الطرابين ، ولقد أخذت عنهم معظم الأفكار التى أتونها اليوم . وعندما كلفت بعد ذلك بعمليات

---

(١٧) القتل آتية فخارية ، غير مطلية . تنسف المياه من خلال مسامها ، وتوضع فى الظل فى تيار الهواء . يؤدى البحر الذى يحدث فوق جسمها الخارجى الى تبريد المياه التى تحويها .

كثيرة جعلتني اجتاز صحراوات مصر السفلى او العليا واتتني الفرصة ان اتعرف على قبائل اخرى ولاحظت في كل مكان نفس الصادات ونفس السمات والموارد والاحتياجات المشابهة ، ومع أن هذه الجولات كانت مرهقة بالنسبة لى ، فإن زغبتي في التعرف جيدا على هذه الشعوب المنفردة — كانت تجعلنى أقوم بها بسرور ، وأضيف بأننى كنت على الدوام اتوغل في الصحراء رغم انه كان ينقصنى تقريبا كل شيء ، اذ لم اكن احمل معى الا قليلا من البسكويت وبعض البلح وقدرا من الماء يكفى لكى لا اهلك من العطش ، وكنت افضل ذلك على أن ابقى في مدن مصر وسط الوفرة والرخاء فجو الصحراء صحى لدرجة قضوى ، ونادرا ما يبلغها الطاعون ، اما امراض العيون فقليلة هناك ، ويكاد يكون الجدري هو المرض الوحيد الذى ينبغى على المرء ان يخشاه في الصحراء. وبالرغم من هذا الجو الصحى ، الذى لا يقدر بثمن بالنسبة لاحوال المناطق المجاورة فانه من العسير علينا أن نقتنع أن رمالا قاحلة كهذه يمكن ان تنقسم الى ملكيات مميزة ! ومع ذلك فلقد اقتسمت القبائل العربية هذه الرمال ، كما انها تكن لهذه المناطق الوحشة لحد الرعب نفس مايكنه المواطن الفرنسى من الحب للحقول اليانعة ، والظلال الوارفة في وطنه، وهم ينافحون ويذودون عنها ضد العدو بنفس القدر من الجدارة التى تدافع بها الامم الاخرى عن اراضيها شديدة الخصوبة . وامتلاك بئر هو على وجه الخصوص كما كان في زمن البطارقة العبريين امر بالغ الاهمية ولا بد أن ندرك بأن الحدود في بلد ليست مزروعة ولا تقطعها الأنهار أو مجارى المياه ، كما لا تغطيها المباني والمنشآت ستكون بالضرورة عسيرة التحديد . لذلك تتولد على الدوام الاحن ، بين القبائل من أجل المراعى ومن أجل المكوس التى تفرض على القوافل ..

وتبرق السماء اللازوردية بالضوء خلال النهار . كما انها شديدة الصفاء خلال هدأة الليل ، ومع ذلك فالأمطار تسقط على المناطق الجبلية بقدر اكبر قليلا من القدر الذى تسقط به في بقية انحاء مصر — وهو قدر ضئيل — كما أن رياح السموم تعكر في بعض الأحيان صفاء الجو .

وتهب السموم أو الرياح المسمة من الجنوب الغربى ، وسرعتها ليست ثابتة ، فهي تسرع وتبطىء من لحظة لأخرى ، وترفع معها الى

مسافة جد عالية دوامات الرمال التي تزدحم — كما حدث أكثر من مرة —  
توافل ، بل جيوشا بأكملها ، وينسب الى هذه العواصف الهوج سبب  
ضياح الجيش الذى أرسله قمبيز لتأديب سكان واحة آمون «سيوة»  
وهذه الدوامات الضخمة ، وهى نادرة لحسن الحظ ، أقل حدوثا فى  
صحراوات مصر الشرقية عنها فى صحراواتها الغربية حيث الرمال  
هنا أكثر حركة ولكن السوم ، حتى عندما لا تثير اية دوامات امامها  
تعد كارثة رهيبية ، اذ هى محملة على الدوام بالرمل الدقيق والمساخنة ،  
وهى تحجب ضوء الشمس ، وتعطى للجو لونا كلبيا ، وتصل بالحرارة  
الى درجة غير محتلة ، وتجفف النباتات بل وتقتل الانسان والحيوان  
مالم يتجنبوا فى لحظة هبوب الزوايح أن ينشقوها وهم يغطون وجوههم  
أو يستديرون عنها برعوسهم . . وهذه الخواص الضارة والشريرة لهذه  
الرياح هى التى جعلت الناس يطلقون فى الصحراء عليها اسم السوم ،  
وهى تسمى داخل مصر — حيث هى أقل خطورة — الخماسين ذلك أن  
الناس يشعرون بهبوبها لمدة الخمسين يوما التى تواكب الربيع .

وهناك ظاهرة أخرى تقدمها الصحراء ، وهى تلك التى وصفها  
وشرحها السيوطى بوضوح بذلك الوضوح الذى هو صفة مميزة لكل انتاج هذا  
العالم الشهير . فهناك يظن المرء أنه يرى على بعد حوالى الفرسخ  
مساحة هائلة من المياه . بل ان الأجسام التى ترى على هذا البعد ترى  
صورا معكوسة لها فى أسفلها ، انه السراب كاملا ، وكم من المرات هلك  
مسافرون بؤساء استدرجهم هذا المظهر الخادع ، فهلكوا فى مينة  
قاسية وهم يسمون الى الارتواء من عطشهم من هذه البحيرة — الوهم  
الذى تتراجع امامهم على الدوام ، فى حين يظن زملاؤهم فى مؤخرة الركب  
ان هؤلاء قد وصلوا الى تحقيق بغيتهم ، وينبسطونهم على ما يظنونهم قد  
وصلوا اليه . وتعود هذه الظاهرة الى انكسار الضوء عند اختراقه  
للطبقات السفلى من الهواء الذى تتخلل كثافته على سطح الأرض بفعل  
حرارة الرمال .

وتستخدم الغزالة الرشيقية ، ذات الخفر ، والحياء والعيون السود  
البيظة ، فى معظم الأحيان كصورة يرسمها العاشق العربى لحبيبته  
الجميلة ، أما النعامة السريضة ، والحرياء البطيئة ، فهما الحيوانان

الوحيدان اللذان رأيتهما في الصحراء (١٨) ، وفي معظم الأحيان ، كنا نرى حول الخيام كلابا قوية البنية ، كستنائية الشعر ، لا يملكها فرد بعينه ، وانما تعيش في حالة شبه وحشية وهذه لاتصاب مطلقا بالسعار ، على الرغم من الحرارة الشديدة والحرمان شبه التام من المياه ، وهي تعيش على جثث الحيوانات الميتة والقاذورات الدنسة .. الأمر الذي يساهم في الحفاظ على صحة الجو من حول المخيمات ، وبالإضافة الى ذلك فان هذه الكلاب التي تستطيع أن تميز الأغراب من أبناء القبيلة تعد حراسا اماميين تسارع عن طريق نباحها بتقديم الإنذار عندما يلوح أى خطر ، وتوجد كذلك عند بعض جماعات من العربان كلاب سلوتية « كلاب صيد » من سلالة جميلة .. لكنها لا تعيش طليقة مثل الأولين ، فلها سادة يسكنون بها مقيدة في معظم الأحيان ويستخدمونها في مطاردة النعام والغزلان .

وتضطر القوافل التي تعبر الصحراء الى دفع المكوس للقبائل المالكة للأراضي التي تمر بها خوفا من أن تهاجم وتسلب امتعتها ويؤخذ أفرادها عبيدا وسبائا أو يشتتونها في الصحراء ، ومع أننا كنا على الدوام نستنكر هذه العادة ، الا انها في حقيقة الأمر تتفق كثيرا مع نظام الضرائب عند بقية الأمم ، ليست لنا نحن أيضا قوانين صارمة بخصوص جوازات السفر وتحصيل الجمارك على البضائع الأجنبية التي تعبر أراضيها ؟ السنا نعاقب بالمصادرة والسجن والسلاسل بل وبالموت نفسه أولئك الذين يلجأون الى الخديعة أو الى القوة للتخلص منها ؟

وأرض القبيلة ملك مشاع لكل الأفراد الذين يكونونها . واذا كانت هذه الأرض جرداء ، فان كل واحد يقود قطعانه الى حيث يشاء ، اما اذا كانت خصيبة فانهم يستزرعونها بواسطة الفلاحين أو يستزرعونها في غيبة هؤلاء بواسطة أسراهم وعبيدهم وخدمهم ، ويقسم العائد بعدالة شديدة بين الأسر المختلفة .

---

(١٨) توجد في الصحراوات حيوانات مفترسة أخرى مثل ابن آوى والذئب الأمريقي والضبع ... الخ ، لكنني لا اتحدث هنا إلا عما شاهدته بعيني .

وبخلاف الصحراء التى هى ملك كامل لهم ، ينظر البدو لأنفسهم كحكام شرعيين لمصر ، وينظرون الى الأتراك والماليك باعتبارهم غاصبين ونتيجة لذلك فقد اقتسموا هذه المنطقة ، واخذت كل قبيلة تحصل فى المنطقة التى آلت اليها بعض الضرائب العينية ، وبذلك يتخذ الفلاحون التمساء لأنفسهم حماة يدافعون عنهم ضد القبائل الأخرى التى ترغب فى انتهابهم ، بل ويشترون كذلك فى معظم الأحيان ملاذا يلجأون اليه عند الحاجة للاحتماء من طغيان الحكومة ومن الجشع النهم لسادتهم .

أما الملكيات الخاصة عند العربان فهى الأثاث والانبية والقطعان ومنتجات بعض المهن ، مثل صناعة بعض الأنسجة الخشنة والزبد والجبن وبيع الجياد والجمال واكرء الجمال للقوافل — كما تتمثل هذه المهن ايضا حسب المكان فى تجارة بعض البضائع مثل الفحم ، والسنامكى ، والملح البحرى والأسباك المتعددة والنطرون والصودا والشبة والجداول المستخدمة فى صناعة الحصر .

ويقتنى العرب كثيرا من الجمال ، وهذا الحيوان ذو نفع كبير لهم ولولاه ما استطاعوا سكى الصحراوات ولاستسلموا « لحياة الخضوع » لذلك يقال فى معظم الأحيان أن الله — أو الطبيعة — قد خلقه خصيصا كى يجعل الصحراوات قابلة لسكنى البشر . وهو قول لا يعادل خطأه الا الغرور البلى فيه (١٩) .

(١٩) تعيش الجمال على نحو طيب فى الصحراء لأن تكوينها يجعلها لا تحس بحاجة لا تستطيع الوفاء بها ، لكن القول بأنها خلقت خصيصا من أجل الصحراء ، بل ولكى تجعل الصحراء أهلة بالانسان ، انما هى فكرة تصدر عن غرور كبير . ومع ذلك فهذه الطريقة فى التعبير والشروح قد تنفاها فلاسفة وعلماء طبيعة يتميزون عن أولئك الذين تركوا أنفسهم ينساقون بفعل مشاعرهم الى تجاوز الحقيقة الباردة . وعندما يتأملون فى تفاصيل تطابق مدهش لحيوان أو نبات فانهم يقولون لأنفسهم : ان الطبيعة الخيرة قد منحت هذا العنصر كى يؤدى هذه الوظيفة الأساسية للحياة أو لقد أعطته هذه الوسيلة للدفاع كى تمنعه من الانقراض على يد أعدائه ! الا يكون من الأبسط أن نقول : انه يعيش لأن له هذا العضو أو لأن له هذه الوسيلة للدفاع فقد استطاع أن يقاوم أعداءه ، ولولا ذلك لما ظهر مطلقا على ظهر الأرض أو لكان سرعان ما اختفى منها ، فإين كانت هذه الجودة الخيرة المزعومة للطبيعة بخصوص الأنواع التى انقرضت بشكل تام .



وعندما يجد العربي نفسه بلا ماء ولا حطب ولا غطاء ، طريداً في الصحراء ، وعندما يرى جيباده وأبقاره وخرافه تنفق من التعب أو الجوع فليسوف تبقى له جماله ولسوف تكفيه . فهو تحمله على ظهورها ، وتطممه من لبنها وتحمل الجوع والعطش وتواجه هذه العزلة الشاسعة لتحبيه شر أعدائه .

وتكاد الجمال لا تحتاج الى الراحة ، وهي تقرض في طريقها بعض النباتات الشوكية التي تدعى **يعافيه** أي حيوان آخر ، ويطعمها العربان عادة بالقش المزروس « التبن » والفول ونوى البلح . وفي أثناء رحلة قمت بها في عرض الصحراء لم تشرب الجمال التي كانت معي الا في اليوم السابع .

وليس للجمال الكبيرة سوى سنام واحد ، ومشيقتها المعتادة هي : الخطو ، ووقع عدوها ثقل ولا يمكنها ان تستمر فيه لوقت طويل ، ويقودها العربي بواسطة زمام « مقود » وعندما تسير الجمال في شكل قافلة فانهم يربطونها الواحد بالآخر من ذيولها ، ويستطيع شخص واحد في العادة ان يعنى بسبعة جمال ، وتحمل الجمال على ظهورها كل الاحمال ، لأن الانسان لا يعرف في الصحراء لا العربات ولا الزلاجات ، وينقسم الحمل على جنبى الجبل بواسطة برذعة مزودة بالحبال ، ومن النادر ان يبلغ وزن الحمولة اكثر من مائتي كيلوجرام الا اذا كانت المسافة التي على الجبل ان يقطعها بالغة القصر .

ومتوسط السرعة لقافلة تتكون من مائة جبل محملة على هذا النحو ، وتسير بخطو معتاد ، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر في الساعة ، وقد يقطع الجبل اذا سار بمفرده اكثر من ربع هذه المسافة زيادة على ذلك في هذه المدة نفسها .

وشمة نوع اكثر ضخما واكثر رشاقة واكثر خفة عند الجرى يسميه العرب ، **الهجين** ، ولا يستخدم هذا الحيوان الا للركوب ، ويقوده العرب بواسطة جبل مربوط في حلقة مدلاة من منخاره ، وليس له الا سنام واحد كالجمال ، يوضع عليه السرج ، وعدوه في العادة اكثر رقة ويكاد

يبلغ عدو الحصان ، ومهما كان عدو الحصان بالغ السرعة فان الهجين سيلحق به اذا ما طال الطريق .

وعندما يراد تحميل جبل او ركوبه فان الانسان يضطر بسبب ارتفاعه الى جعله ينيخ ، ومن اجل ذلك يعودونه على طاعة بعض الاوامر التي يبلغونها اليه عن طريق اطلاق اصوات خشنة من الحلق تكاد تشبه صوت الانسان عندما يتفرغر ، ويبدأ الحيوان اولا بأن يطوى الركبتين . ويثنى ساقيه الاماميتين تحته ثم يدع الساقين الخلفيتين تنزلقان الى الامام لتتخذ بعد ذلك مكانهما الى جانبيه : وتلامس بطنه الارض .

وعلى المرء عندما يركبه ان يتخذ مكانه بمهارة على المرج وان ينحنى الى الخلف والى الامام ، لان الجمل ينهض — ما أن تضع قدمك في الركاب — بشكل فجائي على قدميه الخلفيتين ثم على قدميه الاماميتين بطريقة تجعلك تميل اولا ناحية راسه ، الى الامام ، ثم تلقى بك بعد ذلك الى الخلف . وعلى المرء ان يعرف كيف يسيطر على هاتين الحركتين المتعارضتين ، وهما شديدتان . وتتتابعان بسرعة . ولحم الجمال طيب المذاق ، ويكاد يكون له نفس مذاق لحم البقر ، وهو مفضل بشكل خاص على لحم الحصان .

وتتمتع الخيول العربية الاصلية بسمعة طيبة ، وهي تنقسم الى جنسين متميزين : المبادية والنبيلة ، وتسمى الأخيرة : حبل ، وهي اكثر قدرة في صحراوات مصر منها في صحراوات الحجاز وسوريا . ولا يمكن لحصان ان يعرف بأنه نبيل الا اذا كان ابوه وامه كذلك في وقت مما ، وقول مثل هذا الراى في حصان ما سيكون له اثره الكبير في تقدير سعره فان الناس يحرصون عندما يراد اتصال فرس نبيلة بحصان من نفس النوع ان يسجلوا بذلك حجة في حضرة شهود ، وتصحب هذه الحجة على الدوام حركة بيع الخيول ، ويطلقها الناس في رقاب الخيل داخل جراب صفي من الجلد ، وهي تحتوى عادة على كتابة غامضة مخصصة لجلب السعادة للحصان وفارسه . والعرب غير معادين على الاطلاق ان يخصوا خيولهم ، او ان يقطعوا ذيلها او آذانها ، اذ لا يلجأ الناس الى تشويه هذا الحيوان النبيل على هذا النحو الا في اوربا ،

فبالأسلوب الذى سيطر بشكل مستبد فوق هذا الجزء من العالم قد أخضع الحيوانات نفسها لهفوات شاذة .

وابتداء من سن ال ١٨ شهرا ، يأخذ العرب فى تعويد خيولهم حمل الركاب ، وعندما تبلغ هذه سن العامين يدعون أطفالهم يركبونها ، ولا تستطيع الخيل فى هذه السن الا أن تخطو أو أن تعدو ، وهى تأكل فى النهار القش المهروس وعند غروب الشمس تأكل من ٦-٥ أرطال من الشعير ، ولا يقدم لها العشب مطلقا ، وهى لا تشرب فى اليوم الا مرة واحدة ، ويقل هذا بثلاث مرات عما يشربه الحصان الفرنسى .

وتضعف ساقا الخيول العربية الاماميتان وهى فى سن مبكرة . ويعود ذلك لسببين رئيسيين : الاول ، هو الوضع المتقدم للغاية للسرّج ، والثانى هو الطريقة التى يوقف بها العرب خيلهم وهى تجرى بأقصى سرعة، اذ يجذبون للجسام بقوة ، فيرفع الحصان ساقيه الاماميتين ، ويزحف على قدميه الخلفيتين فتصطدما بالاماميتين . وهكذا يتوقف فجأة وهو فى أقصى سرعته .

ويستخدم العربان شكائهم جافة لحد كبير ، ولذلك فانهم يضطرون عندما يدفعون خيولهم بأقصى سرعة ان يطلقوا ايديهم كلية ، وعندما يستحثونها على مواصلة السرعة فانهم يضايقونها لحد كبير .

ولسرّج العربان ، وهو نفس الحال فى السرج الذى يستخدمه المالك ، مسند يبلغ ارتفاعه من ٨ - ١٠ بوصات ، وهو يشبه ظهر الأريكة الى حد كبير ولهذا السرج فى مقدمته قربوس فى سمك الذراع ، يرتفع رأسيا من ٥ - ٦ بوصات ، اما الركاب فيكون من لوح من النحاس ، مقوس من الجانبين بطريقة تجعل منه متكأ للقدم . مسطح الشكل ، واكثر طولاً وعرضاً من القدم نفسها وهو محدب بعض الشيء وشكله رباعى ، وزواياه التى تجاور خصرى الحصان مقواه بالصلب ، وتغنى هذه عن استخدام المهايمز .

وهذا النوع من السروج مناسب للغاية . فعندما تكون ساقا الفارس فى ركابين قصيرين على هذا النحو ، فانه يستطيع ان ينهض واقفا عندما

يجرى بأقصى سرعة أو عندما يقاتل . وحيث أنه يستطيع أن يستند إلى مسند سرجه فإنه يجد نفسه مهما يكن مقاتلا غير كفاء ، تطبيق الحركة ، مسيطرا على كل حركاته (٢٠) .

وعندما ينتهى العربان من سباق عملوه فانهم يحرسون قبل ربط خيولهم على ان يسروا بها فى خطو بطيء لمدة نصف ساعة حتى ولو لم تكن هذه الخيول تشعر بالحر من جراء الجرى . ثم يدعونها مدة نصف ساعة بلا طعام .

ولا يرى المرء عند العربان لا جيادا كبيرة الحجم ولا جيادا صغيرة . اذ تكاد تبلغ قامة كل منها ٤ اقدام و٩ بوصات . ويقابل المرء بعضا منها — كما يحدث فى كل مكان — وقد نزع عنها السن والمرض كل حيوية ، لكنه لن يقابل مطلقا كما هو الحال عندنا حصانا شائها أو رخوا لا يستطيع برغم عافيته وقوته ان يعدو ، اذ هو ثقيل لا يفيد الا فى جر العربات أو حمل الأثقال . جرب وضع سرج على ظهر حصان عربى عجوز يدور بالطاحونة منذ سنوات عدة ، عندئذ ستراه ينهض ليعدو الى حلبة السباق ، ويضع نفسه فى خدمة سيد جديد . يمكنه ان يظل يستخدمه — مادام به رفق من حياة — كحصان عظيم .

والحصان العربى ، فى معظم الأحيان ، بالغ الرقة ، واعتقد ان وداعته تعود جزئيا الى القيود الكثيرة التى تحمل بها سباقاته منذ سنه الباكرة ، وقد كنت فى كثير من الأحيان ارى عربيا متعبا امام حصانه ممسكا اياه من راسفه ، ويدخن بهدوء **نارجيلته** : بينما يظل الحصان ، الذى اهاجه القرب من بعض الفرسان .. بلا حراك ، يعبر فقط بصهيله عن نفاد صبره .

وتعرف الخيول العربية بدقة سيقانها ، وصفر حوافرها وخفة

---

(٢٠) يدين المالك بجزء كبير من هذا التفوق الملحوظ ، الذى كان لفرسانهم على فرساننا فى بداية اقامتنا فى مصر ، لشكل سروجهم ، فقد كنا على نحو ما نقاتل ونحن جالسون، وكانوا هم يقاتلون وهم واقفون، فكانت المعركة بذلك غير متكافئة .

راسها وبقلة سرعتها عن سرعة خيولنا التى تستخدم فى السباق ، ومع ذلك فالخيول العربية اكثر مرونة بشكل لا يمكن المقارنة معه ، فهى تعدو فجأة وبأتصى سرعة اذ بإمكان المرء ان يضعها على مبعده ٦ - ٧ خطوات من حاجز ما ثم يجعلها تعبر عدوا هذا الحاجز بعد هذه المسافة الصغرى، كما ان بإمكانه ان يجعلها تدور حول نفسها وفى كافة الاتجاهات بأيسر من اليسر وان يضيق من الدوائر التى تدور فيها لحد يبعث على الدهشة دون ان يقلل ذلك من سرعتها، وهذه المرونة المذهلة وكذا السهولة القصوى التى يوقفونها بها فجأة عندما تندفع حتى ليلاىس بطنها الأرض، تجعلانها ثمينة لحد لا يقدر بثمن فى حالات القتال جسدا لجسد ، ولذلك فهى مرغوبة بشكل كبير من الأمم المجاورة ، وهكذا فتجارة الخيل واحدة من أهم تجارات العرب ، ولهذا السبب يفضلون الاحتفاظ بالفرسات، ويقال انهم يفضلون ركوبها عن ركوب الجياد لأنها اقل سهيلا ، كما ان اسفارها الليلية اقل صخبا . وهذه ميزة لا يمكن اهمالها عند شعب تعتمد حروبه على المفاجأة الشديدة لعدوه .

والبدو قليلو التعليم، ويكاد لايتقابل المرء من بينهم سوى بعض الشيوخ الذين قد يعرفون القراءة ، ومع ذلك فان لديهم الكثير من تلك المعارف التى يعطيها طول الملاحظة، فهم يعرفون على سبيل المثال كيف يسترشدون بالنجوم وهم يسيرون فى الليل وسط اراضيهم الجرداء والمتشابهة والتى لم يشق بها طريق واحد ، وهم يحددون الوقت الذى تبلغ فيه الشمس درجة الزوال ، ويقسمون النهار بواسطة قياسهم لطول الظل ، وتتطابق القاعدة التى يستخدمونها بحسب الفصول المختلفة لحد كبير مع خط طول البلد الذى يسكنونه ، ولهم بعض الممارسات فى مجال الطب ، كما لايمكن على الاطلاق الاستهانة بفن البيطار عندهم ، وهم يعرفون عادات حيوانات الصحراء والنباتات التى تمتاز ببعض الخاصيات **القائمة** ، وقبل ان يكتشف علماء النبات عندنا بوقت طويل اجناس النباتات ، كان العرب يستخدمون تسميات مذكرة ومؤنثة لتمييز اشجار النخيل التى لا تنتج سوى الزهور من تلك التى تنتج الزهور والثمار ، وكانوا يعرفون ان ذرات الأوليات **لازمة** لخصاب الاخرى ، وعندما يريدون اثناء حملاتهم السريعة ايقاع الأذى بأعدائهم فانهم يكتفون بقطع النخلات الذكور وهذه على الدوام قليلة العدد .

والعرب البدو ذوو خيال مطبوع ، متوهج وحلـاء ، وهم يتحدثون على الدوام بأسلوب ملء بالكليات والاستعارات ، فهذه اللغة هي لغة طفولة الشعوب ، كما انها لغة طفولة الرجال : قليل من التجريد وكثير من الصور . وعند الشعوب التي نسميها نحن شعوبا متوحشة غلب الاتساع لا تضايقه الا الاحداث ، اذ ليس هناك هذا الحشد من القوانين والقواعد والقيود من كل نوع ، تلك التي تعوقه على الاطلاق عن استخدام ملكته ، بل انه هناك ليس مضطرا للرضوخ للأغلبية ، فحيث ان احتياجه قليلة ، فانه يهرب اذا ما كره امره ، وبامكانه ان يجد لنفسه ملوى في اى مكان وفى كل مكان ، كما ان مشاعره لا يصيبها ذلك الانهك ، الذى يصيب مشاعرنا ، بفعل هذا التوافق والتطابق في الحياة التي ، وان كلفت لا تخلو من قلاقل ومضايقات ، فانها على الأقل خالية من تلك الاخطار الكبرى التي نجتازها دون اختيار منا لأفعالنا . اما عندنا نحن ، فلن البعض منا تشغلهم شئون الدفاع المشترك ، بينما يقوم الآخرون بالزراعة ، ويقوم فريق ثالث باعداد الخبز الذى يطعمنا والاثمشة التي تكسوننا ، فنحن باقتسامنا العمل على هذا النحو نزود أنفسنا دون شك بباهج اكثر ، لكننا في نفس الوقت نستعيد أنفسنا . وعلى العكس من ذلك فالإنسان في المجتمع البدائي قليلا ما يعتمد على رفاته . وحيث انه يشعر في كل لحظة باحتياجات كبيرة وبأخطار كثيرة ، فان روحه اكثر قلقا وعواطفه اشد جهوحا فلماذا اذن لاتعكس لغته أسلوبه في الحياة . انه نادرا ما يستخدم الكلمة بمعناها الأصلية ، الكلمة المجردة ، انها هـو يكـدس الصور والتشبيهات ، لأنه انما يعبر عن عواطفه هكذا .. وهكذا أيضا فهو غير معتاد على تمع عواطفه هو .. انه لن يقول « ان هذه السيدة جميلة » وهي تتصف بهذه الميزة او تلك ، وسأحبيها ضد أعدائها » لكنه سيقول لنفسه : « انها جميلة كأول ضوء نهار ، كالقمر عندما تنعكس صورته على سطح البحار ، لها رقة النسيم العليل في تيط الصيف ، يتدلى شعرها على كتفيها العاجيتين في موجات ماء رمراق ، ان هذا الشعر ليثبه اغصان نخلة غضة ، وتشبه عيناها عيون الغزلان ، اما صدرها فيشبه يحورين « نوع من الايائل » توأمين يرعيان بين الزنابق : سألل بجوارها كلبؤة غضوب تدافع عن صغارها ،

وسأرعاها بسيفى ، وسأجعل منه بناية حصن لها يعز اقتحامه .  
الخ . الخ .

وهذه اللغة ، التى ليست عند الشعوب المتحضرة سوى لغة عدد صغير من الأشخاص الموهوبين بخيال متقد ، هى لغة الغالبية عند العرب الذين لا يزالون برغم أصلهم الضارب فى القدم فى طور طفولة الحضارة ، والذين تشبه حياتهم حياة الشعوب الأولى

وقد يجادلنى البعض دون شك بأن الأسلوب المجازى لا يزال هو أسلوب كل أمم الشرق التى وصلت الى مرحلة انهارت فيها حضارتها وخضعت للاستبداد المطلق ، هذا صحيح ، لكن هذه ليست المرة الأولى التى تتشابه فيها الشيخوخة مع الطفولة مع الاختلافات اللازمة لكلا الطورين من الحياة ، فكلا الحالتين يسهل تحديدها ، انها نفس الموجة من الأفكار التى تتدافع فى الصدور لكنها فى الحالة الأولى «الطفولة» حية مبهجة ، بينما هى فى الحالة الثانية متهدجة وحزينة ، ونفس الشئ يمكن أن يقال بالنسبة للاندفاع غير المنتظم للخيال عند الانسان الحر والذى نلاحظه بسهولة بين تلك اللغة المليئة بالتكلف ، وتلك التى تمالئ المخاوف . ففى الحالة الأولى ، تعبر اللغة فى محسناتها عن تلك الرغبة التى يريد المرء أن يبلغها ، بينما تظل اللغة فى الحالة الثانية تحوم وتدور دون أن تجرؤ على الاقتراب مباشرة من أهدافها .

وحب البدو للشعر هو نتيجة طبيعية لكل ما انتهينا اليه الآن ، ويتمتع شعراؤهم بهذا الاحترام والتقدير الذى كنا نكنه فى الماضى لشعراء البطولة عندنا ، ذلك أن شعراء العرب اليوم هم ما كانه أولئك فى الماضى ، أى موزعو الأمجاد . . وأى امرئ هذا الذى لن يكون مولعا ببلوغ المجد ؟ وفى بعض الأحيان تخصص أشعارهم للحب ، وغالبا ما يجلس الواحد منهم أمام خيمته وقت الغسق ونسيم المساء ينعش النفوس ، يدعوها للمباهج السهلة ، ويفريها بالترويح بعد نهار شاق ، وعلى النفقات المنبعثة من أوتار ربابته يهرع العريان جماعات ويجلسون من حوله على الرمال ، متشابكى السيقان ، يعيرونه أذانا صاغية ، أما هو ، فبعد أن يجرب ببعض النفقات آلفه لبضع لحظات ، يبدأ ، وعينه

شاخصتان نحو السماء ، أو خفيفتان الى الأرض ، وفى هيئة من يحلول ان ينذكر وقائع الأزمنة الخوالى ، يبدأ يغنى انتصارات قبيلته ، وللنفاخر التى منعمها شجاع شهم ، أو لتلك المأسى التى حلت بعاشقين (٢١) ، وكم من مرة لم لاحظ فيها وأنا جالس بينهم أن الشمس قد اختفت وراء الأفق فى الصحراء ! كانت اشعة الغسق تضىء الوجه المتقد للشاعر المغنى وتضع فى دائرة الضوء حركته المعبرة ، بينما كان المستمعون يمدون اجسامهم الى الامام ، ويصفون فى صمت ، وبدأوا جميعا وقد استفرقتهم الرواية التى يقصها يتركون دون أن يدروا نارجيلتهم الطويلة ، واخذت ترتمى على وجوههم البرونزية امارات الرقة والاعجاب والفخار ، ولتختل كل هؤلاء الرجال المتدثرين فى خيلاء على افضل نحو يستطيعون تتخلى منهم لحيتهم السوداء وتفتت شفاههم عن اسنانهم العاجية البيضاء وتملأ عيونهم السوداء بحبوية دافقة ، يهز شالهم وعباتهم وأرديتهم الطويلة نسيم الليل ، وبالقرب منهم تريض اسلحتهم ، وتحيط بهم من كل جانب تلك الصحراء الصموت ، بينما لايقطع صمت الطبيعة الا صوت ذلك الرجل الملمم . . وبعبدا بعيدا ، يأتى صوت سهيل الخيول المرسجة استعدادا للمبارك ، وهى تضرب الأرض بقدمها ، معبرة عن ضجرتها بقيودها ، بينما تنفخ الجمال الصبورة على ركبتها وتمضغ فى وقار بعض النباتات الشوكية تحاول أن تصل الى الاسماع شكاياتها الحزينة . ولترسم وسط هذه اللوحة ، رجلا فرنسيا بملابس بلاده ، مقبولا بكل ثقة ، وعلى الرحب والسعة ، من كل رجال القبيلة . . عندئذ ستكون لدينا صورة لمشهد صحراوى كان على الدوام مثار فضولى . . وعندما كانت تتوقف الأغنيات ، كانوا يشعلون من جديد نارجيلاتهم من الموقد الموضوع وسط الدائرة ، وهناك فى غلاى كبير كانت تعد القهوة ، وتدور اقداح مليئة بهذا المشروب من يد ليد

---

(٢١) وهكذا فمن طريق أغنيات تنتقل من عصر لعصر، نقلت الشعوب تاريخها ، من قبل أن يخترع الانسان هذا الفن الدعوى ، من تجسيد الكلمات بالرسم ، ومخاطبة العين بالكتابة ، لذلك فقد كانت الكتابات الأولى شعرية ، لأنه كان على الانسان أن يبدأ بنقل ما كان يعرفه من الذاكرة ! ولأن الكلمات — التى كانت تغنى على الدوام — قياسا على ذلك كانت كلها منظومة .



لتعبد الى المرء قوته المنهكة ، وتزوده بخدر لذيق دون ان نغيب عن وعينا  
كما تعمل بنا مشروباتنا القوية .. وهكذا يعود النشاط ، وتتنبه الحواس ،  
ويلتهب الخيال ، وتمتد السهرة اوقاتا اخرى ، ثم يتفرق الناس وفي  
مخيلتهم تجول ذكريات المجد ، وذكريات الحب التى تبهج الأحلام ..

ولدى العرب عدد هائل من الحكايات على نمط ألف ليلة وليلة (٢٢)،  
يلعب فيها العمالقمة والجنيات دورا كبيرا ولا ينبغي على الإطلاق ان  
ندعش من ذلك لحياة المقاتلين مليئة بالمغامرات ، وهذا هو الأمر الذى  
يحدد ميلهم نحو الحكايات الرائعة ، ليست لدى الجنود الفرنسيين ،  
كذلك ، حكايات من هذا النوع ، لا يغيب فى واحدة منها ذكر الشيطان أو  
السحرة (٢٣) .

(٢٢) اذا كانت الحكايات التى جمعت تحت هذا العنوان تبهج القارئ  
العادى ، فانها مثار اهتمام أكبر ، لأولئك الذين زاروا الشرق ،  
فالتقاليد والعادات ، والأثاث ، بل والبلد نفسه ، كل ذلك قد وصف  
بأكبر قدر من الدقة والصدق .

(٢٣) فى معسكراتنا ، وبعد ان يختار كل امرئ المكان الذى  
سيجمع فيه وبعد ان تصف الحقائق والأمتعة على الأرض لتستخدم  
كمعدات ، يرقد الجميع ثم تصدر عن أحد الجنود صيحة عالية ، كما  
لو كان ليقول .. هل تريدون ان تصفوا الى ؟ فاذا ما سمع من كل  
الأركان الصيحات التى تعلن الموافقة يبدأ ، كان ياما كان فى سالف  
الأزمان .. وفى هذا النوع من الحكايات ، يدور الأمر حول أميرة شابة  
جميلة كانت تحتقر كل السادة الشبان المتأنقين فى بلاطها وكذلك كل  
رجال الطبقة الحاكمة ذوى النفوذ ، وتصبح عاشقة لجندى بسيط وتتزوجه  
وتفقد عليه الشرف والجاه والثروة ، ويتوسع الراوى فى امتداد  
الشجاعة والمميزات الأخرى ، فيجعله يصارع ويهزم الشيطان نفسه ،  
ويشرب براميل من الخمر دون ان يغيب وعيه ويصل به لمرتبة هيرقل  
فى غرامياته ، ويتفنن فى وصف مفاتن محبوبته بأسلوب جسى لاخفى  
منها شيئا ، ويصحب ذلك كله بايمان مغلظة . وهذا ما يعجب الجنود ،  
ذلك ان خيالهم سوف يمنهم للحظات بمصير مشابه لمصير رجل يشبههم ،  
ولكن النعاس سرعان ما يتغلب على ماهج الرواية بسبب تعبهم ، ولهذا  
السبب يعنى الراوى بان يتأكد انهم يصغرون اليه بان يطلق من لحظة  
لأخرى نفس صيحته الأولى ، وتطمئن صيحات المستمعين ، وعندما  
تصبح الصيحات التى ترد عليه قليلة أو عندما لا تعود تسمع فانه سرعان  
ما يستغرق فى النوم مظهره .

وقد يدهش المرء للوهلة الأولى من تلك اللوعة والرقعة اللتين ييثما الشعراء العرب في تعبيراتهم عندما يتفننون للحب ، ولكن لماذا ؟ هل نريد أن نقول بأن مثل هذه العاطفة المحمودة لا ينبغي أن تسود عند أبناء أمة لا تختلف فيها حياة النساء عن حياة العبيد ؟ أتساءل هل يمكن للرجل والمرأة هكذا خاضعة لمشيئته أن يجعل منها مالكة لمصره . ؟ قد يبدو أن مثل هذه الأسئلة تقوم على أسس قوية لكن انصلم الفكر سرعان ما يجعلها في حكم العدم ، حقا ان النساء عند أمم الشرق يحيين في عزلة تامة حيث يحرم عليهن مجتمع الرجال ، وعندما يخرجن فتمة حجاب صفيق يخفيهن عن كل النظرات . لهذا كان من المفترض أن تكون مفامرات الحب هنا شديدة الندرة ، لكن كثرة وزيادة التحفظ والاحتياطات القوية ضد اقوى العواطف وأبعدها عن الخضوع والسيطرة .. كل هذا يجعلها أكثر قوة وحدة ، فإذا ما لمح شلب اثناء لقاء عابر ملامح سيدة جميلة أو صورها له خياله على هذا النحو ، فلن الصعب ستؤجج رغباته وتبدأ التعبيرات الملتهبة ترسم كل مايشعر به .

وفي واقع الأمر ، فماذا يهم أن تكون النساء أكثر أو أقل ارتباطا بأزواجهن ، ينلن احتراما أكبر أو أقل في محيط الأسرة ، ذلك أن الأمر ليس أمر من يمتلك ، ولكن أمر من يفتبط بالتملك ، ويبلغ في قدرة الملوك ويتحدث عنه بحماسة مشبوبة .

أما عنفنا ، فحيث أننا نرى أكبر عدد من النساء ونعيش معهن في مجتمعهم فلا بد أننا قد تحصنا ضد مفاتهن ، أن لنا بالتطلع رغباتنا لكنها أكثر غموضا ، وإذا ما تسلطت هذه الرغبات على المرء فمنا لبعض الوقت وهو بمفرده فسادرا ما يطول به الأمر ، إذ سرعان ماتجذب عواطفنا مفاتن أخرى لمسيديات أخريات .. وهكذا فسوف نفنى لذاق الحب في فرنسا ، وللواوجه عند العرب : حيث أن لتطرفات الأئين والشكوى مباحجا ..

وزيادة على ذلك فالنساء عند عربان الصحراوات عادة أكثر اعتبارا منهن عند بقية أمم الشرق ، بل لقد راينا زوجات الشيخ يحكمن القبيلة بعد موت زوجهن ، وهناك حادثة كنا شهودا عليها تبرهن بشكل طيب

ان قدر النساء العربيات ليس مطلقا على هذه الدرجة من العسف التى  
كما نظنهن عادة عليها . فقد حدث أن فاجأ بعض البدو المنصورة وذبحوا  
حوالى المائة من جنود الخيالة الذين كانوا يحرسون هذا الموقع  
وامسححوا معهم سيدة ايطالية كانت زوجة العريف الذى لقي حتفه فى  
هذه المعركة . وعندما حل السلام ، اشترطنا ضرورة أن نستعيد هذه المرأة  
فوافق البدو على ذلك لكنها هى التى لم تشأ أن تفيد من هذه المادة من  
بنود المعاهدة وفضلت أن تبقى بينهم . وراودنا الشك فى أن الشيخ الذى  
تزوجها كان قد لمحها فى شوارع المنصورة عندما دخلها ذات يوم متخفيا  
فى زى فلاح فهاهم بها حبا حتى انه عندما عاد الى مخيمه جمع اعدائه ،  
واستثار حماسهم منيا اياهم بالمغانم والاسلاب .

واختتم مذكرتى هذه بأن آمل أن تكون الوقائع التى تحتويها بذات  
نفع ولو ضئيل ، وسيكون هذا هو الجزاء الاوحد الذى سيمود على بفضل  
سماحة قرائى .

# كيفَ غَرَجَ الْيَهُودُ مِنْ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ

تأليف : دى بوا - إيميه

« العنوان الأصلى للدراسة : مذكرة موجزة عن  
أقامة العبرانيين فى مصر ، وعن هروبهم الى  
الصحراء (١) ، تأليف دى بوا - إيميه مراسل  
المجمع العلمى الفرنسى ، وعضو شعبة العلوم  
والفنون بمصر ، وعضو اكاديمية العلوم فى  
تورينو ، والفارس الحائز على وسام الشرف »

---

(١) قدمت هذه الدراسة الى شعبة مصر فى أول أكتوبر عام ١٨١٠  
باعتبارها مكمله لدراسة أخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات  
مصر ، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات ، وأرسلها  
الى اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣



# القصيد الأول

## مقدمة

اشتهر المصريون ، فى عهد بعض ملوكهم ، بمهارتهم فى فنون القتال ؛ كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم ، واتساع معارفهم ، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم . ، وحين قاموا — هم — بتحضير اليونان ، فقد غدوا اساتذة لأوربا .

ولقد اختلفت هذه الأمة الشهيرة ، كما اختلفت مئات الأمم غيرها ، فى حين يظل يعيشى حتى اليوم شعب كان عبدا للفراغة ، ومع انه قد بات مشتتا فوق الكرة الأرضية كلها ، خاضعا لكل صنوف الحكومات ، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه ، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد اقوى الأمم فى أوربا نفسها غير واثقة من أصلها ، وفى حين يجهل الفرنسى الذى انتزع النصر من فونتنوى ونيينا وبرلين وموسكو وروما ان كتلت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق اعدائه ، وفى حين لايعرف اكان أجداده من الفرنج أو من الغاليين ، اكلقوا يقطنون ضفاف السين أو التبر أو الدانوب ، فان أبسط يهودى يحوز ذلك الشيء ، الذى قد يكون مدعاة فخر للمتحمكين فيه ، أى انه يمتلك أصلا ينتمى لجنس قديم ؛ ان بإمكانه ان يقول ، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى اسبانيا ، لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر فى وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا اسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباحج العصور القديمة وأمجادها .

وتعود هذه الظاهرة السياسية الى قوة تلك الشرائع والمؤسسات التى اقامها موسى فانه بعزله شعبه هكذا ، وبشكل تام ، عن بقية البشر ، قد جعل من تشبته أمرا سهلا ، لكنه فى الوقت نفسه جعل غناؤه كذلك

مستحيلا ؛ ان اليهود — منتصرين — لم يستطيعوا ( بفعل هذه الانظمة ) ان يجعلوا من قوتهم اقوى من قوى الامم التى اخضعوها ، اما عندما كانت تحقيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم ان يخططوا بالمنتصرين .

وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم الى حالة الازلال التى انتهوا اليها فى كل مكان ؛ وحيث انه لا دور لهم فى ادارة شئون الدولة ، كما انه ليس بمقدورهم ان يملكوا الاراضى ولا ان يتمتعوا بحرية العمل الحقلى ، تلك التى تربى الروح والوجدان ، بل ولانهم — فوق ذلك — يضطرون لان يقيموا فى احياء منفصلة فى داخل المدن ، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وان يعيشوا فيها مكسسين بعضهم فوق بعضهم الآخر ، والا ينخرطوا فى اى فن شريف ، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به الا ان يشتروا وان يبيعوا ؛ اما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم ، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة ، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم ، وليست هناك شهوة تستطيع ان تلفه الانسان فى جسده وروحه اكثر من هذه .

وقد يكون من غير المجدى ان نحاول ان نثبت ان عيوبهم هذه تعود الى شرائعهم وتنظيماتهم ؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك ؛ بنفس الأسباب قد سربت الى هؤلاء نفس المساوىء ؛ فالانسان ، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة ، ربما يصبح ، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه ، مختالا ورعيدا حين يصير عبدا مهانا .

وفى البلدان التى تحسن فيها الافكار والفلسفات ، والديانة السمحة من قدر اليهود ، ينهض من بينهم — هناك — رجال فضلاء وادباء متميزون ولقد راينا فى أيامنا هذه اسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا .

الآن فعلينا الا نخط من قدر امة لاحتجاج ، كى تصبح جديرة بالاحترام ، الا لان نحترم ؛ وديننا فضلا عن ذلك ، هو قاعدة لديننا ؛ وعلينا الا ننسى بصفة خاصة انها اظهرت وسط المحن والالام خاصية عظيمة ، وانه اذا كان العنف يعد شرعا للقوة فان المشاعر الرقيقة تكون شرعا للضعف ، ونسوق مثالا على ذلك لا ينسى ، لقد تجرات اورشليم على قتل روما التى كان يرتعد امامها امتى ملوك الأرض ؛ ثم اقام اليهود المهزومون ، فى روما ،

بأيديهم المسجلة بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس \* Titus  
الذى تخلد نقوشه البارزة فكري سقوط المدينة المقدسة ، حسن ، لقد  
انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا ، من تحت هذا  
القوس الذى يكرس هزيمتهم ، أحد من أحفادهم أولئك الذين ظلوا على  
الدوام يحفظون فكري هذه الالهة ؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم  
قريبا من هذا المبنى ، كان اليهود يخرجون من الفورم \* Forum  
قبل أن تؤدي عمليات الهدم والتنقيب التى تمت هناك الى فتح منافذ اتصال  
أخرى .

و ذات يوم ، كنت أتأمل فى هذه النقوش البارزة لهذا القوس ،  
شعنا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظاهرة للامبراطور ، ومر بالقرب  
منى رجل عبرانى ؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع أى ملتحس  
أن ينال منها ، واطننى قرات فى نظراته التى القى بها على هذا المبنى ،  
أبليت الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

أى صهيون ، يلمن يستحق الرثاء ؛

ماذا صنعت بجهدك ؟

للعالم كله مأخوذ بمظلمتك ؛

أما انت : فلم تعد سوى غبار ؛

ولم يعد يبقى لنا من هذا المجد ،

الا الفكريات الحزينة ،

« استمر ، الفصل الأول ، المشهد الثانى »

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن أن يلقيها هذا العبرانى على ،  
لو عرف اننى اقممت بمصر ، ولتنى اقممت خيمتى فى ارض جاسان ، ومبرت  
البحر الأحمر سمرا على قدمى ، وتجولت هنا وهناك ، وسرت على غير  
هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسيناء !

\* امبراطور روما من ٧٩ الى ٨١ ، وكان يطلق عليه اسم « ملاذ  
البشر » ، وكان واحدا من الحكام الذين يسمون باخلاص شديد لتخفيف  
آلام شعبيهم ، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الايام لتقديم الخير صاح  
لقد ضاع يوم من حياتى ، وفى مهده حدثت كارثة بركان فيزوف ( عام ٧٩ )  
( المترجم )

(\*) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقش المسائل  
المصامة . ( المترجم ) .



ومع ذلك فأى إنسان هو ، مهما تكن معتقداته ، ذلك الذى لن يهتم بأسئلته على رحالة وطئت أقدامه أرض المعجزات والأماجد هذه ؟ وهل هناك ملاحظة ، ولتكن اصطناعية لآى مدى ، يكون من شأنها أن تعود بنا الى التقلب فى تاريخ الاسرائيليين . . دون أن يستمع اليها الانسان بشغف ؟ وعلى هذا ، نفع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه ، فسأحكى ما أملت على عملية التنقيب فى المواقع ، حول اقامة العبرانيين فى أرض جاسان ، وحول هروبهم الى الصحراء ، وستوثب الفائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما أحكيه .

### عن الأسفار

أسفار موسى هى مجموعة الكتب الخمسة التى خطها موسى ، سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، وسفر التثنية .

وعلى الرغم من التناقضات التى يمتد بعض النقاد أنهم قد وجدوها فى هذه الأسفار (٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها ، فإن الجميع مضطرون للاعتراف بأنها أقدم أثر مكتوب قد وصل إلينا ، كما أنهم لا يستطيعون . مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضوا مانجده فى هذه الكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتأريخ لشعب كان رعويا جوابا ، ثم زراعيا ، ثم جماعة من العبيد ، ثم عاد مرة أخرى الى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا . أن تغيرات شبيهة تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه ، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه .

(٢) وفضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتعمر ؟ بعض أخطاء من الناسخين ، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهاد المترجمين ، ثم لا شئ أكثر ، اليس من الأسهل على سبيل المثال أن نقبل فكرة أن رجلا ينسخ فى سوريا ، فى غرب الأردن ، نصوص الأسفار ، قد أمكنه أن يضع عبارة فيها ألم هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه الى ماوراء ، وأن يشير الى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التى أنشئت فيها بعد ذلك ؟

ومى الوقت نفسه ، فاننا عند تصدينا لمادة من هذا النوع ، نحاذر ان نجرح اى راي : فليقرانا المسيحى واليهودى والمسلم والربانى دون ان ينشتمر اى حرج او اهانة ؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى ، ولكننا ننظر اليه كوقائع تاريخية ، وجغرافية ، ومبادئ اخلاقية وروحية .

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل اولئك الذين يرون انهم ليسوا فى حاجة الا لمعتقدهم الدينية حتى انهم يؤمنون ايماناً مطلقاً بكل ماجاء فى الاسفار ، لماذا لا يتقبلون عن طيب خاطر ان هناك بعض الوقائع ( التى تروىها هذه الكتب ) تعز على التصديق حين تستخدم طرق اخرى للتفكير ؟ اما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم الى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضاً من الخطأ ووضعه فى مرتبة الاساطير ، والى النظر الى وقائع باللغة البسطة باعتبارها امورا مبهمه تكتنفها الشكوك لمجرد انها تختلط — فى نظرهم — بطواهر تنتمى الى ماوراء الطبيعة — لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شئ من شكوكهم ؟ واما اولئك الذين يتعرفون على الله فى نظام الطبيعة الرائع فلماذا — هم بدورهم فى النهاية — يكبرون ، عن غير حق ، فيمتدحوا ان اسباباً روحية يمكنها ان تمارس تأثيرها على المادة ، وان الصلوات وان الدعوى تستطيع ان تغير شيئاً ما من نوااميس العالم الفيزيقي ؛ ولماذا يسمى هؤلاء الذين لا يمكنهم ان يتقبلوا ان يكون اله الكون شبيهاً بالاله هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل اشخاص زائلين او امور فانية ، لالقاء الملامة على ابحاثنا ، اذا مئسعت هذه الأبحاث الى ان تجلو املهم تاريخ شمس فريد . وذلك بان تقدم لهم بعضاً من المعجزات التى ترفضها وتتأبها عقولهم باعتبارها شيئاً من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟

### عن الرعاية الروح

لم يجد الانسان ، فى اكثر مناطق العالم بدائية يمكن ان تصل اليها قدماء ، اشباهه منزولين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت احجامها ؛ واذا لم يكن لدينا فى هذا المصدد من زعم اجماعى مثل ما لدى الرحالة فان فكرة التماثل قد تتودنا فى قضيتنا هذه اذا ما لاحظنا بعناية مايدور فى عالم الحيوان ، واذا ما نظرنا

التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا ، وعاداتنا الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بمثلاتها التى سوف نجدها عند الحيوان .

وتحمل هذه الاعتبارات نفسها ، اذا ما اضيفت الى الشهادات التاريخية ، على الظن بأن الانسان كان صيادا وراعيا قبل أن يكون مزارعا ، وانه قد ساح فى الأرض قبل أن يكون لنفسه فيها مقار ثابتة ، وان الناس فى كل مكان خصيب التربة ، رقيق الطقس ، صحى الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة ، بعد أن مروا ، من باب أولى ، من الحالتين الأوليين ( الصيد والرعى ) الى الثالثة ( الزراعة ) .

وفى هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه ، وقد أصبح اقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه ، احتياجات جديدة ؛ اصطناعية بلا جدال ، لكنه يلذ له أن يفى بها ، فارتقى بالفنون ، وزاد من عددها ، واخترع العلوم ؛ وعندما داخله الزهو من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين ( البدائيين ) ، ورد الأخير على الاحتقار باحتقار مماثل فاذاق الاول ، لأكثر من مرة ، ما تستطيعه القوة والشجاعة ، وليدنى الاستقلال والفقر .

ويسبب هاتين الحالتين بالفنى التعارض تولدت أحقاد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة . وفوق ذلك ، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه فى تناقص الأولين لأنهم فى حالة انتصارهم — يأخذون عادات المهزومين ، ويرغمون — فى حالة هزيمتهم — على هجر أنماط حياتهم ؛ وكان يمكن أن يندثر هؤلاء الرعاة — على المدى الطويل — كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض اقاليم تحول قحولتها ، أو عدم صحتها ، دون تقدم أحوال سكانها ، وحيث لا يستطيع الانسان أن يعيش الا بمعونة القطعان ، مع تغييره المستمر لمكانه ، ولو لم توجد فى النهاية أماكن يجد فيها هذا الانسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم باللغة القوة . أما هذه الأماكن ، فلقد كانت ، من بين مناطق أخرى ، صحراوات مصر والجزيرة العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين التى سكنتها فيما مضى قبائل العبرانيين ، والتى لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل .

ان الحالة الطبيعية لهذه البلاد لاتقدم جاذبية من أى نوع لقدم غزوات أجنبية ، كما انها لاتدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط

لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو العلاقات السياسية لسكانها ؛  
اذن فعلى المرء ان يعمّر هنا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القدم ؛  
ان هذا فى الواقع هو ما حدث ، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه  
تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه (٣) .

## ابراهيم

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت  
عشائر بأسرها الى تلك الفكرة السامية التى تتحدث عن وجود اله  
واحد (٤) . وهناك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى اكبر  
جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية أو الاسلام بحسب  
التعديلات التى تناولتها .

أما فى أقاليم اليونان الزاهية ، على ضفاف نهري رونيا وسيفيزا \*  
فقد استطاع الانسان ان يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا ،  
الطبيعة وقد جعلتها الورود والمحاصيل والثمار ، كما أمكنه ، متمتعاً ببهاج  
الفنون الجميلة ، أن يتضرع اليها باسم منيرفا أو أبوللو ، أما فى قبرص  
المعطرة وأيونيا الرخوة ، وسط أجواء تحمل النفس الى الدعة فقد يعبد

(٣) انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة  
الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٧ ( الدراسة السابقة من هذا المجلد ) ؟  
لكننى أكتفى بأن أضيف هنا الى القائمة التى ~~قصتها~~ عن بعض العادات  
الشائعة عند الشعبين ، عادة تمزيق هؤلاء وأولئك للابسهم واهالة  
التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد .

(٤) تقدم لنا القبائل العربية التى اخذت على عاتقها ، بعد أن  
تجمعت فى شكل دولة تحمل اسم الوهابيين ، أن تقوم وأن تنقى الدين  
الاسلامى ( من الشوائب التى شابهته ) ، برهاتنا جديدا لما نقوله الآن ؛  
فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون ، فى بسلطتهم هذه ، الى نفس نقطة  
المعتقد الدينى الذى توصل اليه غالبية الرجال المتحضرين فى أرقى أهم  
الأرض ، أى الألوهية الخالصة ؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكا قط ،  
ولا يبتهلون الا اليه ؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى  
حكماء ( انبياء ) ، أما الأجداد الدينية التى يردها النفس الى هؤلاء  
( وقد يعنى هنا التوسل بهم مثلا ، أو تعظيمهم — المترجم ) فليست  
فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية .

( المترجم )

\* فى البلوبونيز

فى قسمت وملاح اجمل النساء اللذة التى تجر الى جنس يسحر الالباب،  
وحيث كان يحصل على مباحجه بمئات الطرق فقد كان يجد فى كل بهجة  
الها محسنا مختلفا .

وتحت سماء اقل حظا امكن اهالى تراقيا ، كما استطاع الجرمانيون،  
الذين كانوا هؤلاء وأولئك قد تعودوا فى صيدهم وحروبهم الدلثة  
على سفح دماء فرائسهم أو نظرائهم ، كل يوم ، أن يجدوا مقر رب الحرب  
فى هذه الغابات المعتمة التى تبدو هبمة الريح فيها كما لو كانت صيحات  
شاكية تتوجع من الآلام .

لكن ، اكان شعب رعوى ، يضرب فى سهول فسيحة من الرمال ،  
بمستطيع أن يعبد الأرض مع خواصه العديدة واحداثه المتنوعة فى حين  
كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية واحادية الشكل ؟ اكان  
بوسعه ، وهو يجهل ترف الفنون أن يؤله خالقها ( أى مظاهر الطبيعة  
التي تؤدى الى نشأتها ) ؟ وفى الوقت نفسه الذى نجده فيه انسلتيا  
ورقيقا ، يعيش على لبن قطعانه ، اكان فى مقدوره أن يعبد اله الحرب  
شأنه شأن المتوحش الذى لا يلجأ الا لقوته عندما تجابهه مخاطر الأيام ،  
والذى يتفدى على لحم ينبض ( بالحياة ) ويروى غلته بالدماء ؟ كلا ، وانما  
النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحبى وتوقظ  
المخلوقات هى التى تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط افكارهم ؛ هكذا تاله  
القمر وتألثت النجوم التى تضىء ليلالى الصحراء ، تلك الليالى الممتعة للغاية  
بعد حرارة النهار الملتببة ؛ وديانة كهذه كانت اقرب بكثير من أية ديانة أخرى  
لكى تسمو بالانسان حتى يدرك الكائن الاسمى .

وفى واقع الأمر ، فكل شئ فى السماء لا نهائى ، يشمل نظام يدعو  
الى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى ؛ اما هنا على الأرض فكل  
شئ محدود ، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ، فها البحر ، والأرض ،  
والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها والتى لا يمكن للمرء أن يتنبأ بها؛ و  
ضروب الجمال فى الريف ، وفنون المدن ، والشهوات الانسانية فهذه كلها  
امور محددة ومتميزة لحد يكون من المسير معه عليها أن تولد فكرة السبب  
الأوحد ، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك ، فإن مراقبة النجوم تكشف

التشابه القائم بينها على أوسع نطاق ، وسرعان ما تبدو حركتها المنتظمة التي تخلع النقلاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا ، ودائمة .

اذن فقد كانت الالهة التي اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض اما طيبة واما شريرة ، تدعو الى المحبة او تبعث على الأسى، لكنها كابت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، اما حين رفع الانسان بصره نحو السماء ، فقد اهتدى الى اله واحد ، لا نهلية لقوته وحكمته : فكرة سلمية ، وهى حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكثرن الأسمى ، فانما تجعل من العبد المكبل بالأغلال حرا ، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية ، روحه حتى ليرى فى أولئك الذين يزعمون لانفسهم أنهم سادته ، صورة من الرب .

اما ابرام ، ابراهيم او ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه ، فيبدو انه هو الذى بشر ، بأكبر قدر من الحماسة عرفته العرب ، بوجود اله واحد ، ليجمل عبادته تحل محل عبادة النجوم (٥)؛ ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب ؛ ففى حين لاتكاد تعرف اليوم ، اللهم الا لأشخاص معدودين ، أسماء مثل اثيلا \* وجنكيز خان ، وكل أولئك الملوك الذين ظنوا أنهم قد ملثوا العالم بأسمائهم ، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القرون التى انقضت منذ تحول جسده الى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأثر بالفعل أسمه ، كما ان المسيح واليهودى والمسلم يطلقون على الاله الذى يعبدونه اسم رب ابراهيم ، صحيح ان بعض العلماء النابيين يعتقدون ان غالبية

---

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد « العلى » ومن بينها شعب شاليم ( سفر التكوين ، الأصحاح ١٤ ) ، وان كان ابراهيم قد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة ، عندما خلصها من كل ما كان من شأنه أن يشوه بساطتها .

\* اثيلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ٤١٥ على اباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال ( وهى المنطقة المحيطة بجبال الألب وتشمل شمال إيطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين . وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة ) ولكنه لقى الهزيمة فى سهول قطلونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣ ( المترجم )

الشخصيات الشهيرة في الأزمنة البطولية ؛ الألسيد والجازون \* وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون في تاريخها الا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحق فليس بمقدورنا ان نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الانساني ، ومع ماثلهم نحن كل يوم ، لقد كانت للانسان اساطيره قبل أن تكون له علاقة بعلم الفلك . بل ان ماحدث ، في معظم الأحيان ، هو أن النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال ، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض ، وفي النهاية ، فان الانسان حين يؤله كائنات بسيطة فائية ، ويغطي فعالها بقناع من الرمز ، حين ينسب اليها اعمالا لايمكنها أن تتحقق الا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصادفة الدينية ( ماؤدى اليه الدين من تأيلية خاصة للتصديق أو الايمان ) ، تلك التي تسهب أو تضخم من أعمال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو انبياء وتنسب الى مقدرتهم أو الى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو الحقيقية .

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ في كل مكان ، فلقد راقى الأعجوبة للبشر على الدوام ، ولسوف تظل تغريهم الى الأبد ، ولدينا كل يوم الوف الأمثلة على ذلك . فلنتعلم كيف ننحيها بحكمة عن كل رواية ، ولكن لنحذر في الوقت نفسه من أن تقع في تطرف آخر ، مقابل ، بأن ننكر في رعوثة باللغة الوقائع التي تختلط بأحداث خارقة ، وماذا نقول في هذا الذي يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت في الاجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكرايس \*\* ان هذين الحاكمين لم يوجدوا على

---

\* Les Alcides ، أحفاد هيرقل ، و Les Jasons هم أبناء جازون ابن ايزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الأغريق ( الأرجوتوت ) للحصول على جزات الذهب من كولشيد ، وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها ، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سيزيف ، وانتقلت ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها . ( المترجم )

\*\* ماكرايس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ الى ٣١٢ وقد غرق في نهر التير بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات قسطنطين الأول امبراطور روما من ٣٠٦ الى ٣٣٧ ؛ وأدى انتصار الأخير الى اقتناعه بضرورة جعل المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية ، ثم أصدر في عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التي تنص على حرية العقيدة الدينية ، ثم نقل عاصمته الى بيزنطة ( القسطنطينية ) . ( المترجم )

الإطلاق؟ أما عن إبراهيم، فإن ماحول بصفة خاصة دون أن ننظر إليها باعتباره مخلوقا رمزيا يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون إلى بعض خواص المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسى ، هو أنه لم يحدث أن اتخذ منه أحد في أى مكان على الإطلاق لها أو واحدا من سلالة اله، ورغم أن زهو كثير من الشعوب كان شفوفا بذلك ، ورغم أن عبادة الأوثان التي انغمسوا فيها كلفت تحبذ مثل هذه الفكرة ؛ وأخيرا فلن اسم إبراهيم قد جذب إلى مكة ، منذ زمان ضارب في القدم ، شعوب الجزيرة العربية ، فمقبر محمد نفسه في المدينة ليس بالنسبة للمسلمين أنفسهم سوى شيء ثانوى في طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة ، فهذا ( المعبد ) في رأى العرب ، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الإله الحق ، وهم ينسبون بناءه إلى إبراهيم وإسماعيل ، ويبدو أن ديودور الصقلى كان على معرفة به عندما يذكر أنه « يوجد على شاطئ البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب » (١) وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وأزال الأوثان (٢)

#### (6) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود ، وينتظمه اليوم جدار في إحدى زوايا الكعبة ، هو الوثن الوحيد ( كذا ! ) من أوثان الكعبة الذى حظى باحترام محمد ، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أى شكل إنسانى أو حيوانى ، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخلم أو غير المصقول كان مخصصا — قبل مجيء العقيدة الإسلامية — لعبادة الشمس ومن المعروف أن الشمس كانت تعبد في سوريا على هذه الصورة ، وأن روما قد شهدت في عصر هليوجابال حجرا أسود بسيطا يتصدر إليه إيطاليا واليونان التي كانت تتجسد في أعظم أعمال النحت ، فوق جبال بالاتان . وقد يكون من المثير أن تبحث عن الدافع الذى قد يكون وراء عبادة أروع النجوم وأكثرها برقا ولعانا في أكثر الأشكال خشونة وأكثر الألوان قتامة ؛ فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية ، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصبحها ضجة مغزعة لابد أن تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك أن تتال الاحترام والولاء من البشر الفانين ؛ وبالمثل فإنهم قد رمزوا بها في كثير من الأديان إلى الأشياء بالغة الحتارة والدناءة عندما يظنون أن هذه الأشياء تنتمى إلى اله أو قدس .



التي اقامها الناس لها بين جدران الكعبة المقدسة ، فقد احترم الاثر القديم الخاص بهذين الابوين ؛ كما كرس القرآن عملية الحج القديم الى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين ، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف الى ربط الامم التي ستدين للاسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم .

كذلك كان العبرانيون ينظرون لابراهيم باعتباره زعيما لجنسهم ، وهو مايتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل العبرانيون ، فى رايانا ، واحدة من اقدم قبائلهم (٨) . وتتباهى امم كثيرة فى الشرق ، فى الحقيقة،

= ولا يزال حجر الكعبة ( الأسود ) حتى اليوم موضع تقديس من جانب المتعدين المسلمين ، فعلى الحجاج ان يطوفوا به سبع مرات ؛ اما اولئك الذين لا يستطيعون ان يقبلوه فيجاهدون كي يلمسوه باليد على الأقل ؛ وهو من بين كل « الاحجار » المعروفة اكثرها قدما اكثرها حظا من التجليل والاحترام .

**تعقيب :** ينهار زعم المؤلف من اساسه اذا مااستعدنا قصة اعادة بناء الكعبة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة ، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبإمر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسبا للخلاف بين هذه القبائل .. الى آخر القصة المعروفة ، اما ازالة الاوثان فلم يتيسر للرسول (ص) الا فى العام الثامن من الهجرة . عند فتحه لمكة ، ولم يكن الحجر الاسود احد هذه الاوثان كما يزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه بالغة القصور . والقيمة الحقيقية للحجر الاسود ، كما فسر لى أحد العلماء الاجلاء، هو انه حجر اسود بين احجار بيضاء . وانه يحدد بدء الطواف بالكعبة وييسر بالتالى تعداد مرات الطواف بدقة ، وهذا شرط اساسى فى مناسك الحج .

٨- نجد فى التوراة ان غالبية العشائر الرحل التى كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى الى اسماعيل او الى عيسو ، كانت تشترك فى اصلها مع العبريين او كانت تتحد معهم برباط الدم ، ولا تزال تشهد شيطان الغرات ، كما شهدت شواطئ النيل والازدن ، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعى : العرب البدو ، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الاسباط او العشائر الاول ؛ ومع ولان العبرانيين قد سكنوا جزءا من ارض السكديانيين يعدون من السكديان كما ان البدو الذين اشرنا اليهم للتو ليسو فرسا ولا مصريين ولا سنوزيين ؛ فضلا عن ذلك ، فلا يهمننا كثيرا ان نعرف ما ان كان العبرانيين هم من نسل العرب او كان العرب هم الذين جاءوا من اصلاب اليهود ؛ ويكتفى ان نعرف ان لهم اصلا مشتركا ، وتقالييد وعادات متشابهة .

بان ابراهيم هو واحد من اجدادها ؛ واذا نحينا جانبا الراى القائل بأن هذه الشخصية ، لهذا السبب ، لم توجد قط ، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين ؛ فاننا نرى فيه ، على العكس من ذلك ، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من اساس واقعى ؛ فلقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بولده اليها ، فهل يمكن القول بان هذا الشاعر ، لهذا السبب ، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر ؟ والشعوب ، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة ، يهتلون بنهم واضح اقل الشواهد احتمالا لبلوغ اصل قديم ضارب فى القدم ، ويعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا انفسهم ؛ والخطا الذى يحظى بالاعجاب سرعان ما لا يعد بعد خطأ .

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين ، فى نقاطه الأساسية ، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس . ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وامينة عن حياة احد مشايخ الصحراء ، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجامى العتل ؛ وهكذا نجد ابراهيم ، طبقا لأقوالهم ، قد رفض حين جاء الى الدنيا صدر امه ووجد فى أصابعه هو غذاء ربانيا . فمن احد أصابعه كان يتدفق اللبن ومن أصبع آخر تدفق العسل ؛ وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما . وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفذ مخازن حبوه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله الى دقيق ؛ وقد أمره الله ان يأخذ أربعة من الطير وأن يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق أربعة جبال وأن يناديها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه ؛ وحينلقى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه \* .

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية ، الصبائية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين ، فهناك نص يتميز بنبل بساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : « وبينما كان ابراهيم يمشى مع أبيه اثناء الليل ، وهو بعد طفل ،

---

\* يلاحظ القارئ ولابد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة نهائيا ، وهو على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعهده نحن من المسلمات . (الترجم)

رأى فى السماء نجوما من بينها ، مع نجوم اخرى كوكب الزهرة الذى كان  
 يعبده كثيرون ، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم ، ولكن بعد  
 بعض من الوقت والروية قال لنفسه : ارى هذا النجم يغرب ويختفى ،  
 فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون ، ونظر كذلك للقمر فى تمامه ثم قال :  
 لعل هذا هو خالق كل شيء وهو نتيجة لذلك ربى ، ولكنه عندما رآه  
 ينزل عند الأفق مثل الكواكب الأخرى اصدر عليه الحكم نفسه . وبعد ان  
 عكف على التأمل والتفكير بقية الليل بطوله ، وجد نفسه بالقرب من بابل  
 عند شروق الشمس ، ووجد اعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون  
 هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولا يبد على  
 الاعجاب وسأخذ منه خالقا وسيدا لكل الكون ؛ ولكنى تبينت أنه  
 ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى ، ليست الشمس  
 اذن خالقتى ولا الهى ولا ربى . وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على  
 عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف ، وفقا لمراكزهم ، فرقة من العبيد  
 رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك ، وسأل ابراهيم على الفور : من  
 هذا الشخص الذى يعملو الآخرين على هذا النحو ، فأجابه والده : هذا  
 هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيه ربهم .  
 وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود ، وكان بالغ القبح وقال لهم : كيف يمكن أن  
 يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها ؟ وكانت  
 هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسمى كى يحرر أباه من اوهام  
 الوثنية ، ويدعوه الى وحدانية الله خالق كل شيء . ٨

## الفصل الثاني

### عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون في اقدم مراحل تاريخهم ، يشكلون جزءا من هذه الشعوب الجوبة التي - على الرغم من كونها ذات اسماء مختلفة ، ومع عادات وتقاليد متشابهة - لم تكن تكف عن الاستحواذ على بعض مناطق فيما بين الفرات والنيل .

وهم يستمدون اسمهم من عابر ، وهو اسم احد اجداد ابراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم احد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الابناء شائعة لدى العرب المحدثين .

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا ؛ شأنهم شأن البدو ، في الحياة الرعوية ، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة الدوام ، فقد تركوا أرض كلدان كي يمشوا الى منطقة من أرض ما بين النهرين تابعة لسوريا ؛ وكافوا في ذلك الوقت وثنيين ؛ وكان تارح ، والد ابراهيم ، من ناحور وآران ، على رأس قبائلهم . وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور ، وواصل الآخرون مسيرتهم الى ما وراء الفرات ، ابراهيم ولوط ، ولدا آران ، وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل ؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التي حتمت حدوث الانقسامات هناك تلك الديانة الجديدة التي كان قد بشر بها ابراهيم . وهي ديانة لم يتبناها في الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا في

(١٠) نرجو من الذين سيقراؤنا ألا يغيب عن ناظرهم مطلقا أننا لسنا هنا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قد وجد ، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع في حقيقة الأمر ، ولكننا نريد أن نقول فقط أنه من المحتمل ، أو على الأقل ، من الممكن أن تكون الأمور قد جاءت على هذا النحو الذي نسوقه نحن .

بلاد ما بين النهرين . وقد اثنى سفر التكوين الى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام ، اذ نرى فى هذا السفر ان ابراهيم قد انفصل عن اخيه (١١) حتى يستجيب لوحى مقدس . وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية ، وطبقا لذلك فقد حدث ان ابراهيم ، كى يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب الى جوف الصحراء . ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو ، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم ( اسحاق ) من ( رفقة ) بنت بتوئيل بن ناحور ، وزواج يعقوب من بنات لابان بن بتوئيل (١٢) .

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين ، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد الى سوريا . وهناك انفصل عن ( لوط ) ابن اخيه ، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من ايدى أعدائه ( أعداء لوط ) ، وينظر بعض الكتاب الى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح ، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر ما يمكن ان يعد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها . وفى واقع الأمر فان ما هو أكثر من ذلك طبيعة — أى انه أمر عادى للغاية — ان نرى رؤساء او ملوكا امثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار ( بشدة على اللام ) وجويم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبويم وبالع ( او صوغر ) . وهذه الأسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير الى بعض فصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الإمبراطورية ( الآشورية ) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان إمبراطورية الترك القوية ، ومع

---

(١١) « وقال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك ، ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة وأبارك مباركك ولاعنك لعنه » سفر التكوين الأصحاح الثانى عشر .

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها ، عادة تفضيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها .

ذلك ، فمهما تكن قوة الأمراء الذين اخضعوا البننابول الأردنى (١٣) ، فقد استطاع ابراهيم ، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عائر واشكول وميرا الأمورى أن يفاجيء وأن يلحق الهزيمة بالمنصرين . ويقدم لنا التاريخ عددا لا حصر له من أحداث مشابهة ؛ فقد استطاع خالد ، على رأس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشتت فى عصر هرقل وبعد معركة من اشد معارك التاريخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين الفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية ( الرومانية ) ؛ واستطاع على بك ضاهر فى عصر اقرب ، بخسمائة من البدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين الفا من الدروز ؛ وعلى ضفاف الأردن ، عند سفح تل طابور ، شنت ٥٠٠ را جندى فرنسى بقيادة كليبر Kleber ، امامهم جيشا « يفتى الى مائة شعب مختلف » كما يقول اهل البلاد « ويساوى فى عدده نجوم السماء ورمال البحر » ٥٠ .

وفى الحقيقة فان اسم ملك الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بفردها او شيخ قبيلة واحدة قد امكنه ان يتوج قصة انتصار ابراهيم بهالة مبهرة ، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة ( والملك الشاسع ) ، لكن الكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشياء نفسها ، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيوخ بضعة الوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم امير الأمراء ( او ملك الملوك ) ؛ وفى حين أن لقب ملك هو مانطلقه نحن على لويس الرابع عشر او بطل ترموفيل Thermophyles

(١٣) منطقة خماسية المدن ( اى بها خمس مدن ) ، ويطلق اسم البننابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة ، ويتكون البننابول الأردنى من مدن : سدوم ، عمورة ، ادمة ، صبوييم ، بالع ( التى هى صوغر كما تذكر التوراة ) .

(١٤) قدر هذا الجيش بنحو خمسين الف رجل أكثرهم من الفرسان .  
\* او الأبواب الحارة ، ممر شهير فى تساليا ، حاول عنده ليونيداس الاسبرطى ومعه ثلاثمائة من الاسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كركسيس ؛ وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعتمزم حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب الى ليونيداس رسالة لاتضم الا هاتين الكلمتين : « سلم أسلحتك » فكتب اليه الاسبرطى تحت كلماته « تعال خذها » ؛ ولكن أحد الخونة أرشد الفرس الى ممر وسط الأعراس يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيداس ؛ وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت ، دعا رفاقه الىوجبة طعام متقشفة ثم قال لهم « فى هذه الليلة سنتعشى عند بلوتون اله الموتى » .  
( المترجم )

فانه يخلع فى الساحل الأمريكى على رئيس بضع ضياع صغيرة من ضيعات الزوج ؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التى أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية ، ومع ذلك فليس هناك من يخلط بين سطوة هذا المواطن الفاضل وبين القوة الفاشمة لأولئك الطفافة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق انقاض جمهورية روما .

وبعد أن خلص ابراهام لوطا ، عاد الى بلوطات ممرا الأمورى ؛ وقد حدث بعد سنوات عديدة من الوقت الذى حددته التوراة لدمار سدوم وعمورة الذى ربما قد تسبب فى حدوثه صاعقة رعد أو ثورة بركان .

وتتطابق الرواية التى تحكى اقامة ابراهيم بعد ذلك فى ارض ابيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبرانى من ثيران وماعز ، مع ما يحدث فى أيامنا هذه عندما تريد قبائل جوبة أن تقيم فى ارض لا تملكها .

وقد خلف ابراهيم أبناء عديدين أشهرهم اسماعيل واسحق . وقد اصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنادوا باعتبارهم ابنائه (١٥) ، أما الثانى فقد اعتب والده ، وترجع جولاته وحروبه وتحالفاته وأخيرا سيرة حياته الى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البدو .

وبعد موت اسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التى اتبعت الأخير بعد ذلك ( أو نسله كما تذكر التوراة ) اسم الأدويين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من ميراث أبيه ، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به ، وبشكل نهائى، باسم العبرانيين أو الاسرائيليين . وتجىء التسمية الأخيرة من اسرائيل ، وهى الكنية التى كان يحملها يعقوب منذ عودته من بلاد ما بين النهرين .

---

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٨٠ ( وهى الدراسة السابقة من هذا المجلد ) .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، اشتهرهم يوسف ، ولن استعيد هنا قصته المؤثرة ، فكل الناس يعرفونها ، ويعرفون انها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق . وفيما بعد أصبحت اسماء ولديه واخوته تشير الى اسباط بنى اسرائيل .

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجاته المجاعة الى ترك ضواحي بير سبع والذهلب الى مصر حيث حصل من فرعون على اذن بان يستقر فى ارض جاسان .

وكانت اسرة ملوك الرعاة تشغل فى ذلك الوقت عرش مصر ؛ ونعتقد اننا نجد الدليل على تجامى الحنق والتطير للذين كان يمكن ان يستشمرها الحكام من العنصر المصرى بالنسبة لرعاة القطعان . فى الترحيب الذى لقيه ابراهيم من قبل ، وفى تنشئة يوسف . وبالسماح ليعقوب وابنائيه بالاقامة فى مصر . ١٦

(١٦) مانيتون ؛ يوسفوس ؛ رد على ابيون ، الكتاب الاول ، الفصل الخامس .

وقد كان مانيتون مصرياً من طبقة الكهان ، وكان يشغل منصب كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس ، عندما كتب تاريخ مصر ، ويبدو لنا مؤلف كهذا انه يستحق على اقل تقدير نفس القدر من النقطة التى تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور ، برغم قدمها ؛ فهما تكن المجاملة التى ابداهما الكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة ، فان المعلومات التى جمعها منهم عن تاريخ مصر لا يمكنها ان تتسارن بمؤلف مستمد مباشرة من المخطوطات الاصلية عن طريق رجل يستطيع ، حيث هو موكل بحفظها ، ان يقارن بينها وأن يرجع اليها وان يدرسها بعناية دون ان يكون فى عجلة من امره ، شأن مسافر متسرع يريد ان يعرف كل شئ عن البلد الذى يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعى . الخ .

ويتم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودوت ، مدفوعا بشجور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كترجم ، يتم مانيتون بالجهل فى كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت ؛ دون ان يسترعى انتباهه ان مانيتون كان يعرف مؤلفات هذا الاخير ، وانه اكتشف فيها اخطاء عديدة ، وانه بهذه الطريقة على الاقل لم يبتعد عما جاء بها بسبب جهله . واخيرا فان المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس ؛ ويعطى هذا الحق للأول لان هذا الرحالة يقرر ان الكهنة



وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف وحتى مولد موسى ؛ وان كان لابد لنا ان نحاول فى هذه اللحظة السريعة حول نشأة وسقوط اسرة الملوك الرعاة فى مصر ، ان نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين .

### عن فتح مصر على يد الرعاة ، وعن العبرانيين

#### منذ وفاة يوسف حتى هروبهم الى الصحراء

تتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القيود ، اكثر مما تتم سعيا وراء مناخ افضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك ، يقوم هؤلاء الفارون ، حين يصبحون غزاة بالضرورة ، بتأسيس امبراطوريات قوية .

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة ، وحده ، امة ما بان تحمل السلاح ، فانها قد تستطيع ان توسع املكها بشكل هائل ، لكنها لا تغادر وطنها ، فالارتباط بمسقط الرأس امر اكيد فى كل زمان ومكان ، وعندما تشكل الاقاليم المغلوبة والمستعمرات البعيدة دولا مستقلة فانها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم ، تستطيع المصالح ان تعكرها فى بعض الأحيان لكنها لا تقدر ان تنهيا بشكل تام الا بعد قرون طويلة .

---

المصريين قد قرعوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان ان يشرحوا له باليونانية النصوص بالغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها ، ثم ينكرها على مائيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ومعنى ذلك فان اثر رشيد ( حجر رشيد ) يبرهن على ان اللغة القديمة فى عصر البطالمة ، بل حتى السكتابة الهيروغليفية نفسها . كانت لاتزال معروفة من كهان مصر .

وأخيرا فان هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مائيتون لم يستطيع ان يرجع الى الحونيات المقدسة التى انتزعها ارتكسر كيسيى — أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولمبياد السابع والخمسين — يسقط من تلقاء نفسه اذا التفتنا الى أن ديودور ، الذى يقص علينا هذه الواقعة ، يضيف بأن باجوسس . المقرب من ارتكسر كيسيى قد رد الى الكهان المصريين وثائقهم ، فى مقابل مبلغ كبير من المال .

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق . فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هي روح الفزود او هي ضرورة دفع عدو قوى هي التي حملت هذا الشعب الرعوى على غزو الاراضى الخصيبة التى يرويه النيل ؛ وان كان المزمع يستطيع طبقا للمبادئ السابقة ان يستخلص ان فتوحات الاشوريين ، بامتدادها الى جنوب الفرات ، كان لابد لها ان تدفع الى مصر بالقبائل العربية البدوية ، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية . ويتطلب هذا الراى مع شهادة مانيتون ، حين يقرر ان اول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قد وضع الجزء الاكبر من جيشه على الجبهة السورية لانه كان يخشى قوة الاشوريين .

وقد تبنى الرعاة العرب ، دون جدوى ، خلال امتلاكهم الطويل لمصر ، غالبية طقوس الديانة المصرية ، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم ، وبصفة خاصة تحالفهم مع قبائل الصحراء الذين واصلوا التضحية لالهتهم بحيوانات يقدسها المصريون ، جعل المواطنين من اهل البلاد ينظرون اليهم بكرهية وازدراء .

وقد ادى انتشار احد الامراض ، هو البرص او الجذام ، الذى اصبح اكثر شيوعا فى مصر لان المنتصرين كانوا — ربما — يجهلون مبادئ الصحة التى تدعو اليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحى — ادى بالتداعى من اهل البلاد ان يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة ، وهو الشيء نفسه الذى فعله اهالى نابولى عندما اطلقوا اسم اميتا ، فى القرن الخامس عشر على مرض واند ، وذلك بفعل ماكانوا يكونونه لنا من احقاد . وقد اوتع اسما « المجذومون او الانجاس » اللذان كان المصريون يستخدمونها سرا للإشارة الى المنتصرين عليهم ، المؤرخين فى اخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء ان الامر هنا يشير بالفعل الى اناس اصابوا بالجذام ، كما لو كان باستطاعة ذوى العاهات والمرضى ان يكونوا هيكل امة وينشئوا جيوشا قوية !

اما ملوك مصر الشرعيين ، الذين لازوا بالصعيد ، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل احدهم ويدعى اليسفراجمو توفيس ، ولعل ذلك قد تم بمساعدة من الاثيوبيين وبدموية من الساخطين ، نزل نحو ممفيس ،

واحرز انتصارات هائلة على العرب واضطروهم الى ان يركزوا قواهم في افاريس ، وهى مدينة بالقوة تقع في أقصى الشرق من مصر السفلى \*

وباختصار ، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة في مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس اسرتهم وتربعها فوق عرش الفراعنة ، واذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس او طيبة قد لزموا الصمت بشكل تام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم الى هيرودوت فقد كان ذلك دون ريب لانهم كانوا يضعون في عداد ملوك مصر اولئك الأمراء من الجنس المصرى الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن ، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صتوا عنهم ملوكا غاصبين .

أما تحيوسيس ( احمس ) ، ابن وخليفة اليسفراجمو توميس ، فقد حاصر في افاريس بقايا جيش الرعاة ، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وافق ان تخرج الحامية من ارض مصر مع كل ماكانت تملكه .

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا ، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين — وكان هؤلاء بالفي القوة في آسيا — فقد استقروا في جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم ( او : اورشليم ) (١٧) ؛ وان كان هذا الفريق من الأمة التي ادى استحواذها على مصر لفترة طويلة ، الى تبعثرها بالضرورة في كل البلدان ، قد اضطر للخضوع وان يستسلم بدوره لما ي عليه عليه قاتون المنتصر .

---

\* يقول الأستاذ محمد رمزي في قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية، الجزء الأول الخاص بالمدن المنقرسة ، من مدينة افاريس : اواريس مدينة انشأها الهكسوس جنوبي بيلوز ( الفرما ) ، واسمها هات اورات Hat Awrat ، ومنها اسمها اواريس ، وقد اتخذها رمسيس الثاني سكنا ومعسكرا له ، وسمها برمسيس او مدينة زعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحمر أو الهر ؛ وظن بعض الباحثين انها هي مدينة تيكو التي اسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة ( المترجم )

(١٧) كانت هذه المدينة في واقع الامر موجودة حين دخل الاسرائيليون ، بعد وفاة موسى ، ارض كنعان ، لكنهم لم يستحوذوا عليها بشكل مطلق الا في عهد داود .

أما العبرانيون ، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر ، ماوى وحماية ، بسبب اصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليدهم ( العرب ) فقد واصلوا سكنى هذه المنطقة ، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين ، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من احتقاد نحو هؤلاء الرعاة ، واخذ الوطنيون يشيرون الى هؤلاء وأولئك ، دون موارد ، باسم الاتجاس أو المجنومين .

وقد ظل الاتجاس ، وهى تسمية كان يندرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينية ، يتمتعون فى مصر ، مع ذلك ، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس : والد سيزومستريس الشهير ؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة ، ضئيلة الأهمية ، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى ، وهو أمر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو . وقد آمن أمينوفيس . يدفعه فى ذلك الكهان . انه سوف يتقرب الى الآلهة ، باضطهاده للرعاة ، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم — فى رايه — خالصة نقية ، فجمع عددا كبيرا منهم ، استخدمهم فى تطع الأحجار من جبل المقطم .

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية ، والمتطيرة ، أمينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب الى ارض جاسان ؛ وهناك اختاروا رئيسا لهم ، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه أوزرسياف ، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك ؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته ، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها ، وقد أعطى أوزرسياف لهذه الألوف من المنشقين المصريين ، وللقوم من جنس الرعاة ، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطا من ديانتى هذين الشعبين ، وأمر هؤلاء الا يتصاهروا الا فيما بينهم ، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين ، أباح لأتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعد مقدسة عند هذا الشعب وأصدر تعليماته لهم يهدم تماثيل آلهة مصر .

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب أمينوفيس ، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأجنبى التى نبحت عنها ان اضطهر

عدد كبير من العائلات أن تبحث لأنفسها ، ومعها آلهتها عن وطن جديد . وعلى هذا ، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التي نشأت خلالها مستعمرات عديدة في بلاد الإغريق ؛ فان رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هي ، على وجه الدقة ، نفس الديانة المصرية القديمة فاننا نضطر الى الظن بأن مؤسسها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتنوا جميعا — وهذا مرجح — معتقدات أوزريسيف ، والذين كانت لهم ، بالضرورة ، في عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين (١٨) ، باعتبارهم

(١٨) في واقع الأمر فان الاحتمال ضئيل في أن يكون المصريون قد أسسوا المستعمرات العديدة التي تنسب اليهم عادة ، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية أبوابهم في وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية ، كما أنهم أخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم ، لأنهم أثرياء ، تجمعهم دولة وحكومة ، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة ، فامة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة ؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون ينزلون بأنفسهم ، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم ، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر ، لقد كانوا رحلا ومقاتلين ، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة ، على طريقة هؤلاء العرب — وهم من نفس جنسهم ، وقدموا من نفس صحراواتهم — الذين حملوا معهم الى اسبانيا ، في القرن الثامن ( الميلادي ) ، الفنون والعلوم التي أرادوا هم أنفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يحوا كل اثر لها ، حين حرقوا مكتبة البطالمة [ سبق لنا أن حفضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأى جاستون فيبييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم في دراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية ؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية — المترجم ] .

اذن فيبدو مما لا ريب فيه أن هؤلاء الذين نقلوا الى اليونان فنون مصر ، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحواذهم الطويل على مصر لان يمثلوا هذه الفنون . وهذا الرأي هو نفس رأى فريرييه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر العلية مجد انها امدت اليونان بالبثور الاولى لحضارتهم ، وهي بذور ثينة دون شك ، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان الناضرة ، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشري لاسمى درجات النبيل والحرية والسعادة .

ينتمون أصلا الى الشرق ، وتطبعوا بهذه الخصال على ضفاف النيل بفعل سلسلة طويلة من الاجيال ، واذا لم يكن كتاب آريوس ، ملك لاسيديمونيا الى اونيلاس كبير احبار اليهود ، مزيفا قط ، فانه يأتى ليدعم هذا الراى ، الذى يعطى العبرانيين وبعض امم الاغريق ، أصلا مشتركا (١٩) .

واخيرا فان علينا ان نجعل مولد موسى يتم فى عهد امينوفيس هذا ، وان نضع فيه ايضا اول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين ، والذى تشير اليه التوراة .

وقد دمع الخوف من سظوة فرعون ، وكذلك ، ودون جدال، الرغبة فى الانتقام ، اوزرسياف لأن يطلب من رعاة الجودية ان يلحقوا به ، ليذبحوا معا لفتح مصر ؛ وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، ويان قد لحقت بهم ( هناك ) اهانات ينبغى الاقتصاص فيها ، وهرع اهالى اورشليم الى افاريس استجابة لنداء اخوتهم ، وانضموا اليهم ، وحملوا على مصر « فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبه ، كما يقول مانيتون ، ولم يكتفوا بأحراق المدن والكفور وتحطيم صور الالهة ، وانما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة ، وارغموا الكهان المصريين والعرافين بأن يكونوا هم ذابحيها ، ثم اطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم امهاتهم » .

وانسحب امينوفيس الى ماوراء الشلالات على حدود مملكته ، وثبت هناك بدعم من الاثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما ينالوى الرعاة ؛ وفى

---

(١٩) واليكم ترجمة هذا الكتاب كما اورده المؤرخ يوسفوس « من ملك الاسبطيين ( اصل لاكيدايمونيا ) اريوس اويناي — تحيوسلاما . حدث ان وجدت فى بعض النقوش ان اليهود واهل لاكيدايمونيا ينتمون لجنس واحد وان الآخرين ليسوا بغرباء عن نسل ابراهيم . لذلك فمن الأوفق — نادمننا أخوة — ان نطلعونا على كل مترغبون فيه ، ونحن من جانبنا سنفعل الشيء ذاته ، وسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا سواء بسواء ، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ، وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا ، وهذه الرسالة مدونة فى صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتما هو عبارة عن نسر يصارع ثعبانا » .

نهاية هذه المسدة جمع قوات كبيرة ، ونزل الى مصر السفلى وهزم  
اوزر سيف ، وطارده ، ودفع نحو سوريا شتات جيشه .

واذا ما صدقنا زواية مانيتون ، فلا بد ان يكون اوزر سيف هو موسى  
نفسه ، ولابد ان يعترف المرء ان التشابه بينهما شديد ، بل قد يكفى  
الافتراض بان الجودية كانت قد تم غزوها على يد قبائل اخرى ، فى  
الوقت الذى كان سكانها ميسة يخربون مصر كى نفس اقامة الاسرائيليين  
الطويلة ( تيهيم ) فى الصحراء ، وكذا الحروب التى كان عليهم ان يخوضوها  
كى يعودوا الى سوريا بعد ان تم طردهم من ارض جاسان . ومع ذلك ،  
فاذا ما قبلنا ، فيها يتصل بالوقائع الاساسية ، ان يكون هذا الراى محددا  
للاطار العام لذلك الذى جاء فى اسفار موسى الخمسة ، فينبغى القول  
ايضا بانه سيظل يوجد فى قصة موسى ، اذا ما قبلنا هذا الراى ، عدد  
هائل من الاحداث لابد ان تلقى بها جنبا الى جنب مع الاساطير . وفضلا  
عن ذلك ، فمن السهل ان نوائم بشكل افضل بين ما جاء بكتب العبرانيين  
وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية ؛ وهكذا نستطيع ، على سبيل المثال ،  
القول ، مرتكرين على اساس كافية بان جزءا من الرعاة الذين هزمهم  
امينوفيس قد ظلوا اسرى فى مصر ، حيث فرضت عليهم اقصى درجات  
العبودية ، وان القبائل الاسرائيلية ، قد تلفت فاذا بها ضمن  
هؤلاء العبيد .

فلنقبل اذن الفكرة القائلة بان العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر  
حين اعتلى سيزوستريس العرش .

ومع ذلك فان المباحج التى تمتع بها المصريون فى عهد هذا الملك  
الشهير تحول دون ان ننسب لمعهده تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة  
وادت الى تخلص شعب الله . لقد كان سيزوستريس شديد البأس ،  
لحد لا يستطيع معه ان يخشى من هؤلاء العبيد البؤساء ، الذين عرف كيف  
يفيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ،  
وهى اعمال خلدهت باكثر مما خلدهت فتوحاته .

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودوت فيرون فى حين يسميه ديودور  
سيزوستريس الثانى ؛ لكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده ،

ويصوره التاريخ أميرا ضعيفا ، متطيرا ، يؤمن بالخرافات ، وقاسيا . ويبدو أن يد الرب ، على حد قول المؤرخين الجنوبيين أنفسهم ، قد ثقلت عليه ، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول ولفزعت المواصف والأعاصير والسيول الشعب ، وأصيب الأمير بمعنى البصيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تنذر بغضب السماء (٢٠) .

ونعتقد نحن من جانبنا أن فى عهد هذا الأمير — ولابد — تمت عملية هروب العبرانيين الى الصحراء .

### هروب العبرانيين الى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التى حاقّت بالرعاة ، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية ، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا الى فلاحين (٢١) وأرهقوا بالأعمال ، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يخلصوا من العبودية ، ومع ذلك ، فحين لقوا بعض المعاملة الانسانية بلا ريب ، تضاعفت أعدادهم وحيث قد بدأوا يستوعبون حالتهم الجديدة ، فقد كان كل يوم يمر ، يجعل من العسير عليهم أكثر من ذى قبل أن يخرجوا ( من مصر ) ، ثم ارتقى فيرون العرش واثقل كاهل العبرانيين بنير من حديد (٢٢) ، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا ينفون فى صمت اية نهاية لآلامهم الى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدون وكأنما قد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم ، وكان موسى عند طفولته قد جرّغه الماء ، وكان هذا فى عمر امينوفيس ، وانقذت ابنته حياة الطفل العبرانى ، لكنها لم تكف بما قدمته اليه من رعاية واحسان ، وانما امرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم ، ومن المعروف أن العلوم والفنون فى مصر كانت فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها ؛ واذا اضطر

---

(٢٠) هيرودوت ، الكتاب الثانى ؛ ديودور ، الكتاب الاول .  
 (٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيان فى مصر ، بين القبائل العربية التى استقرت فيها ، انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الاول ، ص ٥٧٩ . [ وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى ، من هذا المجلد — المترجم ] .  
 (٢٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الآية ٧ .



موسى بعد موت تلك التى احسنت اليه لان ينجو بنفسه لانقاذ بالصحرَاء  
لقتله أحد المصريين فقد فر الى البحر الاحمليقيم بين عرب مديان (مدين) ،  
ونكره نمط حياة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان ابراهيم فيه  
يتجول فى عزلة بقطماته ؛ وبدت له الحرية والاستقلال ، برغم ضروب  
المخاطر وصنوف الحرمان افضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة ؛  
وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين .

وعند قمة جبل حوريب ، وسط البروق والرعود ، وعلى مشهد  
البحر الهائج والصحرَاء الصنوت ، تأمل طويلا ، فى عزلته بعيدا عن  
البشر ، مشروعاته الواسعة (٢٣) ؛ وفى النهاية رجع الى اخوانه ودعاهم  
للهرب ، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون اضحية فى الصحرَاء :  
« ندعافرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذهبوا لالهكم فى هذه الأرض ، فقال  
موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا انما نذبح رجس المصريين للرب  
الهنا ، ان ذبحنا رجس المصريين امام عيونهم أفلا يرجعوننا ؟ » (٢٤) .

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه ام يرفضه ، هل يخفف  
من شتاوات العبرانيين ام يضاعف منها ، ويتأرجح الملك بين هذا الموقف  
وذاك تبعا لدرجة الفزع الذى ينتابه كلما توالى الكوارث التى كانت تفكك  
وتتدمر دولته \* وعلى الدوام فان افكار الانسان المسبقة وخرائفة تربط  
اقداره بنظام الكون .

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذه الفترة  
وقائع كثيرة ، لكنها برغم خروجها عن كل مألوف ، تتوافق مع روايات  
المؤرخين الدنيويين (٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد ؛ فلا يزال الحواة

---

(٢٣) نجد فى حياة محمد [ص] خصوصية مماثلة ، فقد كان ينشد  
العزلة فى غار فى جبل حراء ، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا!) فى  
حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته . وليست هذه وحدها فقط هى نقطة  
التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا!) .

(٢٤) سفر الخروج ، الاصحاح الثامن ، الايتان ٢٦ و ٢٧ .  
\* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل  
من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج . (المترجم) .  
(٢٥) هيرودوت ، ديودور .. الخ .

هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات ، فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها حتى تظن أنها قد ماتت ، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واتفه وتتبع سيدها على هذه الحال ، ثم يخبئونها فى ثنانيا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم بولمل جراح مصر التى لا تندمل تتمثل فى مياه النيل ، الصفراء والخضراء ، العكرة والضارة فى بعض الأوقات ، والتى يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتا ، وحين تتغير أحوالها بفترة عاما ما ، أن تروع الشعب ، كما تتمثل فى الحشرات من كل نوع \* تلك التى تكثر بوفرة فى بعض الأحيان فى مصر وبطريقة مفرغة فى كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة (٣) ؛

\* يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التى كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض .. الخ . ( المترجم )

(٢٦) يمكننى أن أذكر هنا ، نقلا عن المؤرخين العرب ، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء ، واكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقرئ نفسه شاهدا عليها ، وقد كتب فى هذا الخصوص : أنه فى العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذى كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل كبير فى المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس ؛ وقد أكد له رجل أهل للثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة أكثر من خمسة عشر جبلا ، وحين دهش المقرئ من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لعادته كل الاحتياطات اللازمة كي يتأكد من الختيقة . فشاهد بعينى رأسه أن الضرارة التى سببتها الديدان لم يكن ( تقديرها ) مبالغا فيه ، وإنما دمرت فى الجهات التى تحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة . وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديقة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها هذه « الحيوانات » الصغيرة . وفى نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة فى حى الحسينية الواقع خارج القاهرة ؛ فبعد أن انت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس الخ ، وهو ما سبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها ، هاجمت البيوت وقرضت العوارض التى تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما ، وأسرع الملك بهدم البيوت التى غزتها الديدان حتى كاد الحى أن يكون قد دمر دمارا تاما . ثم محت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التى تجاور بابى النصر والفتوح . ولم تكن تلفياتها هنا أقل عنها فى المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة — عن ترجمة ايتان كارتمير .

وفى الطاعون الذى يخرّب هذه البلاد من وقت لآخر ، ويبسّو فى معظم الاحيان وكأئها يصّر على افناء جنس دون آخر ، وفى الرعود والبرد ( بفتحة على الراء ) ، نأرى الحدوث حتى أنه لايسمع بحدوثها هناك ، وقد لا يحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله ، فهما اذا حدثا لن يسببا سوى الفزع الشديد ؛ وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين ، وفى هذه الرياح المؤذية نفسها والتى لا يحس بها الناس فى كل أنحاء مصر ، دفعة واحدة (٢٧) .

فلنجنب اذن من وصف النكبات التى حلت بمصر تلك المبالغات الشاعرية المسجوح بها ، لشخص يحلو له أن يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف نرى كل سطوة لها قد خبت ، ومع ذلك فإن تتابع أحداث كثيرة غير مألوفة ، برغم كونها مع ذلك ظواهر طبيعية ، مع مالها من نتائج على قلب فرعون القاسى ، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب .

فهذا الحاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها ، بعد أن أصابها طاعون فتاك ، الى رقيات « الأنجاس » المؤذية فاعتقدت الرعية أن ابعاد هؤلاء ، سيجعل الآلهة أكثر لطفا بها : « فدعا — أى فرعون — موسى وهارون ليلا ، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى انتما وبنو اسرائيل جميعا » (٢٨) .

(٢٧) عندما تهب الخماسين ، تصبح الشمس ذات صفرة كابية ، وتنحبس أشعتها ، وتزيد العتمة فى بعض الاحيان حتى يظن المرء أننا قد بقنا فى ليل شديد الحلكة ، على النحو الذى رأينا بأنفسنا عند منتصف النهار ، فى قنسا ، احدى مدن الصعيد . ويورد بعض المؤرخين العرب ، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر ، فإن السماء قد وهبتة نفس « الخدمة » التى قدمتها لموسى ، فقد حجبت سحبات كبيرة سوداء ، مسيرة جيشه ، عن عدوه طومان باى .

(٢٨) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٣١ .

## مسيرة العبرانيين في الصحراء حتى المنطقة التي عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان ، ولا يمكن ان تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع ابيار الممتدة الى الشرق من مصر نحو سوريا ، لأننا نقرأ في سفر التكوين ( الاصحاح السادس والاربعين ) انه عندما غادر يعقوب ضواحي غزة كي يذهب الى مصر ، ارسل يقول ليوسف الذي كان يقيم في ممفيس ان يأتى للقائه « فأرسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان ثم جاءوا الى أرض جاسان » ، وقد ترجم النص على هذا النحو في التوراة اللاتينية ❖ « وأرسل يعقوب يهوذا أمامه الى يوسف لينبئه بمجيئه لكي يأتى هو أمامه في أرض جاسان » ؛ فقد كانت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة ، وقد منحت للاسرائيليين بالطريقة نفسها ألتى منحناها بها ، اثناء اقامتنا في مصر ، لثلاث قبائل عربية<sup>(٢٩)</sup> ، جاءت ، كما جاء العبرانيون ، من سوريا .

أما وقد عرفنا نقطة البدء ، فسوف يكون من السهل علينا ان نتتبع مسيرة الابرائيليين ؛ كان موسى يريد ان يقودهم الى ضواحي جبل سيناء ، وكان واثقا انه سيقابل بالترحاب من غرب مدين ، لأنه عاش طويلا بينهم ، وتزوج من ( صفورة ) ابنة كاهنهم يثرون ، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر ، لسكنه خشى ان هو اقترب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين ان تنهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويمتزمون العودة اليها (٢٠) ؛ ولذلك فقد

---

❖ ال Vulgate هي الترجمة اللاتينية للتوراة ، وهى المستعملة في الكنيسة الكاثوليكية ؛ وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم ، وقد قرر مجمع الثلاثين في العام ١٥٤٦ أن يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة . ( المترجم )

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هي : ترابين ( أو طرابين ) الكبرى . عرب طحا ( أو عرب طه ؟ ) ، والأناجر ، وكان هؤلاء في ذلك الوقت في حرب مع باشا غزة الذي كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم .

(٣٠) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ ] وهذا هو نصها : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لثلاثي الشعب اذا رلوا حزبا ويرجموا الى مصر » [ .

أثر موسى أن يسير بحذاء الساحل الغربى للخليج العربى \* ، وتجنب بذلك ، فى الوقت نفسه ، أن يثير ، لأكثر من اللازم ، وفى وقت مبكر ، الريبة فى عزمه على الهروب ، لدى فرعون ، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الاضحيات ، ولهذا فإن موسى ، كما جاء فى سفر الخروج نفسه قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة ، وصحبهم ، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر (٣١) .

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون انفسهم على الفور على شواطئه عند خروجهم من أرض جيلسان ، ان لم يكن المرء على بينة من أن الخليج ، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصدددها ، كان يمتد الى مسافة قريبة من منطقة السبع ابصار : وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس ، مع ترسيبات القواقع البحرية ، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى ، تضاف اليها شهادات القدماء — لتمطى لهذا الراى ، على اقل تقدير ، أكبر قدر من الترجيح (٣٢) . وهكذا يمكننا أن نتصور كيف

#### \* البحر الأحمر .

(٣١) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٨ [ وهذا نصها : « فادار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف » ] .  
(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة راى عن العهد القديمة للبحر الأحمر . انظر دراستى حول هذا الموضوع ، الفولة الحديثة ، المجلد الاول ، ص ١٨٧ [ المجلد الثالث من الترجمة العربية ] ولكنى اكتفى هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبور Niebuhr ، والتى لم اكن أعرفها فى حينها ، والتى تتفق مع افكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطئ البحر قد تغير هنا كما حدث له فى أماكن أخرى ؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر ، فعلى سبيل المثال مخا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة ( اليمن ) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة ، ونرى اليوم بالقرب من الوحة وجدة تلالا كبيرة تطل على بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى ( البحر الأحمر ) ، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء . وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ ، نحو الغرب من هذه المدينة اكمة من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيتها المياه الا بفعل حركة المد والجزر . وهى عالية لحد لاتبلغها معه مياه هذه الحركة ، اذن فمنذ الوفاة من السنين كان الخليج العربى اكبر اتساعا ، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال ، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس ؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الاتخفاض » .

سار الاسرائيليون ، فى ذلك الوقت ثلاثة ايام بالقرب من البحر الأحمر لكى يصلوا الى النقطة التى يحدد عندها الاثر طريقهم الذى شقته لهم المعجزة بين الأمواج .

كان محطهم الاول يسمى سكوت ، وهى كلمة تعنى الخيمة ، ويمكنها ان تدفع الى الظن بان هذا الاسم لاينطبق أبداً على مدينة قديمة وانما على مجرد معسكر . وزيادة على ذلك ، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر ، وهذه أو تلك يمكنها ان تنقى الى سكوت وفى اليوم التالى عسكروا فى اينام عند طرف « البرية » (٣٣) .

وينفنى هذا الموقع لأن اجزم انه بير السويس (٣٤) ، الذى يقع فى الحقيقة ، وكما يبدو ، عند طرف الصحراء اذا كنت قلبا من جهة السبع ابيسار ، لأن البحر ، باخذه شكل مرفق يتجه الى الغرب ، يبدو ، عند اتصاله بسلسلة جبل عتقة العالية ، وكأنه يشكل النهاية الجنوبية للصحراء . فضلا عن ذلك ، فان المياه العذبة بالغة الندرة فى كل هذه المنطقة ، كما أن الآبار ، ولا بد ، هى التى تحدد النقاط التى تحط عندها القوافل .

وبعد ذلك تحدث الرب الى موسى قائلا : « كلم بنى اسرائيل ان يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » (٣٥)

(٣٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢٠ .

(٣٤) بير السويس تعنى البئر الموجودة بمدينة السويس ؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفرسخ الى الشمال الغربى من السويس . وهو يشتمل على سورين صغيرين متلاصقين ، ومهشمين جزئيا ، وينسب بناءهما الى السلطان سليم الأول . ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتى . ولا تستخدمها فى المصايدة الا الحيوانات ، ولكنى شربت منها دون أن أشعر بقرف ، وكذلك فعلت البرية التى صحبتها معى . فقد وصلنا الى هنا بالفى الظلم وبعد نهار شديد القيظ ومسيرة مرهقة على الأقدام ، وتضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون أن نشرب . ويلمح المرء خارج السور بقاء مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل مياه البئر الى السويس .

(٣٥) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢ .

ومن السهل ان نتبين سبب هذا الارتداد الى الخلف ، فطلعت في الحيروث ان يكون مكانا حصينا به حامية مصرية . وفي الواقع فان المرء يرى ان الاسرائيليين لم يدخلوه قط ، وانما عسكروا تجاهه على شاطئ البحر ، وهناك كان عليهم ان يعبروا ، وامكنت حاجتهم للماء العذب ان تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة في اليوم التالي ؛ وبمعنى آخر ، فطلعت بعد نحو ثلاثة فراسخ من بير السويس ، مع الارتداد نحو وادي السبع ابيار ، نجد تصرا قديما وحصينا يسمى الها جيروث ( المجرود ) ؛ وفي النص العبري نجد ان المقطع Phi ( في ) ينفصل بصفة دائمة عن كلمة الحيروث، بل لقد حذف تماما في الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد \* . ويعتقد ان كلمة Phi لو Pi ( في او بي ) كانت هي اداة التعريف في اللغة المصرية ثم ظلت كذلك في اللغة القبطية . اذن فقد كان المحط الثالث يسمى هاهيروث ؛ وهذا التشابه مع كلمة هاجيروث ( المجرود ) لابد في رأيي ان يسترعى الانتباه .

### عبور البحر الاحمر

تجاه الهاجيروث ، على وجه التقريب ، تكونت نحو الجنوب الشرقي، كتلة الرمال التي اقتطعت من البحر الاحمر هذا الحوض الواسع الذي نجده اليوم الى الشمال من هذا البحر . والذي لاتزال تربيته ، وهي ادنى بكثير من ادنى حركات المد والجزر ، تحمل كل الخواص الدالة على اثر المياه ، ومع ذلك فقد كان من الضروري ، قبل ان تكون هذه الكتلة من الرمال قد ارتفعت لحد يكفي لصنع بحيرة من الطرف الشمالي للخليج العربي ، ان يبقى في هذا المكان مستنقع ظل الحوض فيه مستحيلا ، لوقت طويل ، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة .

ومن المحتمل ان يكون الاسرائيليون قد اتبعوا موسى عند هذه المخاضة ؛ فهذا الرجل الشهير ، الذي تربى على حكمة وعلوم المصريين، والذي لاذ لوقت طويل بشواطئ البحر الاحمر ، كان يعرف امكانية عبورها

---

\* وتقول هذه الآية : « ثم ارتحلوا من امام الحيروث وعبروا وسط البحر الى البرية .. الخ » .

وهنا نلاحظ غياب كلمة ثم التي يشير اليها المؤلف بالمقطع في او بي الوارد في الآية الاولى من الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين (المترجم)

سيراً على الأقدام من عند هذه النقطة ، فى حين كان على عبيد بؤساء، غارقين فى أخط درجات الجهالة ، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل، أن يعتقدوا ، عند ظهور الجيش المعادى من جانب ، ووجود البحر من الجانب الآخر ، أن خط الرجعة قد قطع عليهم (٢٦) ؛ ويورد فلافيوس جوزيف (٢٧) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة ؛ ويتفق هذا الوصف تماماً مع الوضع الذى أنسب للجيش الاسرائيلى ، إذ أن سلسلة الجبال التى يلحقها المراء الى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط .

ولقد كان مع فرعون ، فى جيشه ، دون ريب ، أشخاص كثيرون، لم يكونوا ليجهلووا النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها ، ومع ذلك ، فإذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين ، فقد كان من الطبيعى للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التى ارهقتها مسيرة لابلد لأنها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى ، مجرد خشية ، أن يتمكن هؤلاء البؤساء الشاردون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، من الإفلات منه؛ إما موسى ، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميا « غبارا » ليخفى مسيرته عن العدو ، كما أمكنه أن يستغل نوبة المد الوطنية لكى يخوض البحر على رأس العبرانيين . وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيراً لحد لا يمكنهم من اجتياز البحر فى تلك المسافة من الزمن ، التى تفصل بين حركة مد وأخرى ؛ ومع ذلك فلا بد أن نتوخى الحذر عند وقوعنا على روايات المؤرخين ، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياء القومى (٢٨) . وفى هذا الصدد ، على سبيل المثال ، فإن ما تعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التى تسكنها ، يحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود ، من أولئك المتحمسين للغاية لجد امتهم، سوف يستطيعون لأنفسهم، فى الأصحاح الأول

(٢٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر ، تجاه السويس : مخاضة يتردد عليها البدو ، وتجهلها غالبية سكان مصر .

(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch. 6.

(٢٨) فلنستبدل ، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم فى معركة واحدة ٣١ ملكاً ( انظر سفر يشوع ) .



من سفر العدد واحدة من هذه التحريفات التي يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بإمكانية وجودها في الأسفار الخمسة. (٣٩) ؛ وتكفي ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك ؛ ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية ، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل ، لاسيما عندما يتعلق الأمر ، كما هو الحال هنا ، بدقة العدد ؛ فمن المعروف في واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة في أرض مواب « في عبر الأردن ، في أرض مواب ابتداء موسى يشرح هذه الشريعة » (٤٠) . أي بعد أربعين عاما من خروج العبرانيين من أرض مصر (٤١) ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة ، عندئذ ، في كل اسرائيل ، ممن شهدوا الوقائع التي وردت بالأسفار ( الخمسة ) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفتة (٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى (٤٣) الذي باركهما وجعل منهما وارثي سلطته ، لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتصرفوا الخير والشر ، حين كان آبائهم يمسكون في صحراء فاران ، كانوا — وحدهم — الذين نالوا من الرب الاذن بدخول

---

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لأحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة ، كان رجال الكنيسة ، من حائزي ثقة البابا والمقربين اليه يقولون بصوت عال : ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبني الكنيسة لها ؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاظمي الذكر ، بل ان قاصدا رسوليا في مجمع الثلاثين ، هو الكاردينال وارمي Warmie لم يخش من مغبة أن يعلن في مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسي لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبعا لنص كلماته : « ذلك أنه من المؤكد أن مؤلفنا ( الكتب المقدسة ) هذا كان سيفقد عملا ضئيل الأهمية ، لولا ان سلطة الكنيسة قد علمتنا ان هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة » ؛ وفي النهاية ، فان أكثر آباء الكنيسة علما من أمثال أوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفي للتوراة على إطلاقه ، ويرون فيما ورد فيها رموزا واستعارات .

(٤٠) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الأولى ، الاصحاح ٣١ ، الايتلن ٩ ، ٢٤ .

(٤١) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣ .

(٤٢) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .

(٤٣) سفر العدد ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦ .

الأرض الموعودة (٤٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء ، وقد أصبحوا رجالا ، أن يعرفوا حقيقة اعداد قبائلهم عندما غادرت مصر ، وأن ينحو جانباً شهادة رجل كان هو نبيهم ، وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (٤) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتحدين ، كما يفعل الرجل المتوحش ، أكثر المبالغات بعدا عن العقل إذا كان الأمر يتعلق بقوة أمته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيراً ، فإن شريعة موسى فى أورشليم كما فى السامرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة ، ولقد ضاعت الكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد ، واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب . لذلك فلا ينبغي أن يخالجنا الشك فى أن بعض تغييرات طييفة قد حدثت للأسفار ، وأن بعض الأخطاء فى الأرقام على وجه الخصوص تتسرب إليها حين يكون للكبرياء القومى بعض المنفعة من وراء الترويج لها (٥) .

وبمجرد أن علم الفرعون أن العبرانيين قد اجتازوا البحر ، أخذ فى ملاحظتهم ، واكتفت قواته ، مدفوعة بالحماسة التى توجبها خطواتهم دون أن تلقى بالآله البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل ، فأتخذ المد بعضاً منهم وابتلع آخرين . وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك

#### (٤٤) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣٩ .

(٥) حين تعبر الاعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقتصر اكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم ، وخصوصاً إذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها فى الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف . ويضاف الى أخطاء النسخ هذه خطأ من نوع آخر ؛ وإذا شئنا على سبيل المثال أن نبين الى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما ، أو سعيه وراء كل ما هو عجيب أو غير مألوف ، الى تحريف مؤلف ما ، فلنفتح التوراة اللاتينية ، سفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثين ، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاث وعشرين) ألفاً من الاسرائيليين ، فى حين نجد الأمر فى النص العبرى ، وفى الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وهو تقدير كبير مع ذلك ، وهناك خطأ آخر اكبر ، وهو الذى اقترعه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين ألفاً وسبعين ) عدد سكان بيشان المصروبين بالموت عند عودة التائبين فى حين كان عليه أن يقول أن من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون ، وقد نقلت هذه الأرقام ( ثلاثة وعشرين ألفاً ، وخمسين ألفاً وسبعين ) الى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية ، ولعلها قد تذكر ذات يوم ، قليلاً على بقعة الاعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره ، شكل الحقيقة .

الرياح القوية التي كانت تهب في ذلك الوقت (٤٦) . وبذلك لن تعترينا  
الدهشة أبدا لأن جزءا من المصريين قد ابتلعهم الأمواج (٤٧) .

يبلغ المد عند السويس نحو المترين ؛ وفي أوقات العواصف ، حين  
تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لدى يبلغ في بعض الأحيان ستة وعشرين  
ديسمترا ؛ وهذا أكثر من كاف لكي يغرق المد جيشا كبيرا ؛ فإذا كان  
جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه ، وهو ما يوضحه فيما يبدو صمت  
المؤرخين الدنيويين ، فيمكن افتراض أن هذا الجيش ، وقد أفرغه حجم  
الخصائر التي لحقت به ، ولأنه قد بدأ يخشى في ذات الوقت أن يكشف  
نفسه في صحراء لا يعزفها بالقدر الكافي ، لم يحاول قط أن يخوض البحر  
الأحمر عند نوبة المد المنخفض ( الجزر ) التالية .

وهكذا أمكن الاسرائيليين أن يترنموا بهذا النشيد :

- ١ — « أرنم للرب فقد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما في البحر ؛
- ٢ — « الرب قوتي ونشيدى ، وقد صار خلاصى ، هذا الهى فأمجده ،  
اله أبى فارغه ؛
- ٣ — « الرب رجل الحرب ، الرب اسمه ؛
- ٤ — « مركبات فرعون وجيشه ألغاهما في البحر ، ففرق أفضل جنوده  
المركية في بحر سوف ؛
- ٥ — « تغطيهم اللجج ، قد هبطوا في الأعماق كحجر ؛
- ٦ — « يمينك يا رب معزة بالقدرة ، يمينك يا رب تحطم العدو ؛
- ٧ — « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛

---

(٤٦) سفر الخروج ، الأصحاح ١٤ ، الآية ٢١ .

(٤٧) في العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية ، شاهدنا  
الجنرال بوناپرت ، وهو عائد من عيون موسى ، يريد أن يعبر البحر عند  
المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الكتتورية  
لقمة الخليج ؛ وهو الأمر الذي يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين ؛  
حدث هذا في أول الليل ، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبار المد  
لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا ؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأشد  
الأخطار ؛ في وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد .

٨ - « وبيع انك تراكت المياه ، انتصبت المجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛

٩ - « قال العدو اتبع ادرك أقسم غنية ، تمتلئ منهم نفسى ، أجرد سيفى ، تفنيهم يدى ؛

١٠ - « انفتحت بريحك فطاهم البحر ، غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة ؛

١١ - « من مثلك بين الالهة يا رب ، من مثلك معتزا فى القداسة ، مخوفا بالتساويح ، صانعا عجائب ،

١٢ - « تد يمينك فتبتلعهم الارض ؛

١٣ - ترشد برأفك الشعب الذى فديته . تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك ؛

١٤ - « يسمع الشعب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان فلسطين ؛

١٥ - « حينئذ يندهش أمراء ادوم ، اقوياء موآب تأخذهم الرجفة ، يذوب جميع سكان كنعان ؛

١٦ - « تقع عليهم الهيبة والرعب ، بعظمة ذراعك يستمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته ؛

١٧ - « تجيء بهم وتفرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى صنفته يا رب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يا رب ؛

١٨ - « الرب يملك الى الدهر والى الأبد ؛

١٩ - « فان خيل فرعون دخلت بمركبته وفرسانه الى البحر ، ورد الرب عليهم ماء البحر ، اما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر (٤٨)

هكذا كانوا يشكرون الله على خلاصهم ، كانت مريم النبية (أخت هارون) ، وكانت نساء اسرائيل ، وقد انقسمن الى جوقات ، يكررن على صوت دفوفهن :

« رنموا للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر » .

فلو شاعت بعض العتول المدققة أن تتبين معنى هذا التعبير الذى جاء فى التوراة : « فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة » والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم « (٤٩) لجاءها الرد بان الأمر لا يعدو ان يكون أسلوبا مجازيا للتعبير عن انهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة ، ولما لم يكن ينبغي لهم أن يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين . هكذا . ان ترانيم شاعر ما لا يصح أن تفسر بقدر اكبر من الصرامة ، كما ان الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتي أوردناها من قبل ، تبين لنا كيف ان المصريين قد سقطوا فى قاع البحر ، وليست المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم ( أو انطبأتها عليهم ) (٥٠) .

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحر الأحمر ، فنجد على شاطئه الشرقى - على بعد ثمانية عشر ألف متر الى الجنوب من النقطة التى افترض أن الاسرائيليين قد عبروها - عيون مياه تسمى حتى اليوم عيون موسى .

ويعتقد بوكوك Pococke أن العبرانيين قد خاضوا البحر تجاه هذه العيون ، ولا يعطى سنداً لقولته هذه الا ان هناك اثرا عن ذلك لا يزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصدد ما يقول سكان الصحراء .

لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسالهم عنه .

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه الى الجنوب بدرجة ابعد ، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه ، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحرا واسما وعيقا هو الذى تتجلى فيه أكثر من غيره قدرة الإله .

(٤٩) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢٢ .

(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعناها الحرفى

أن يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيدة عن كل عقل ؛ ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ما هو خطأ تفكيرنا ؛ فعبارات مثل : امفيون الذى بنى طيبة على انغام قيثارته ، وأريحا التى انهدمت على صوت قرع دفوف بنى اسرائيل ، انها هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ما هو سهل أن نشرح هذا البيت من الشعر للشاعر الفرنسى بوالو Boileau : كوندية ، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه ، لاستطاع الحصون .

وفى مقابل ذلك ، فهناك آخرون يظنون ان بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطئه الآخر ، وانما هم — بعد ان دخلوا سريره ( مجراه ) فى حالة المد المنخفض ، انسحبوا نحو الأرض مع بدء ارتفاع نوبة المد ، مواصلين مسيرتهم فوق منحى بىضاوى الشكل ، من جهة المياه بوهذا رأى لايتهض على اساس ، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله ، وفى جهل تام بالمواقع .

وهناك آخرون كثيرون كانوا أكثر توفيقا فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب (٥١) Eusèbe \* عن شخص يدعى ارتابانوس Artapanus قد أورد هذا الراى ناسبا إياه لكهان ممليس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسفوس ان تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة فقد قرر ان الشيء نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie \*\* تحت قيادة الاسكندر ، وأضاف « ومع ذلك فاننى اترك لكل امرئ ان يحكم على الأمر كما يشاء » . وهذا الاعتراف من جانب احد الأخبار ، وواحد من أكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رآى هذه الهيئة الدينية ؛ ولذلك مان لوما شديدا قد وجه الى يوسفوس بسبب صراحته هذه ، من جانب اناس ظنوا ، برغم كونهم مسيحيين ، ان عليهم ان يبدوا أكثر منه فى يهوديته ، وهو مايستحيل على المرء ان يأخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ ، ومن بين المحدثين ، نجد نيبور Niebuhr ولوكليك le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع امام هذه المدينة ، ولم يك بمقدور هذين الرجلين ان يعتقدوا ، ملى ، ان العبور قد تم لايعد من ذلك . قليلا ، نحو الشمال ، وعند نقطه لايشغلها البحر اليوم ، لان

(51) Proepar. evang. lib IV, Cap. 17.

\* أما أوزيب فهو مطران قيسارية . وله مؤلفه ضخيم عن التاريخ الكنسى . ( ٢٦٥ الى ٣٤٠ م ) ( المترجم )  
\*\* احدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة أضاليا ، وهو هنا يشير الى خليج يحمل نفس الاسم . ( المترجم )

الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما ، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تدفين فى هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرايان لا يختلفان فيما بينهما الا بقدر طفيف للغاية حتى ليتمكن للمرء ان يتبنى ، دون تفرقة، هذا الراى او ذلك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت او الحيروث الذى ضرب امامه الاسرائيليون خيامهم ، بالإضافة الى ان البحر فى الفترة المتأخرة كان فى الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم — كان هذا كله هو الذى قد حسن اختيارى (٥٢) .

وهكذا راينا ، ماهو ، فى نظرى، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر ، فاما أولئك الذين يضعون الحدث فى صف الخرافات فسوف يتفقون معنا، على اقل تقدير ، ان يحتمل ان يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، واما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم ، دون ريب ، ان لم يجدوا من الضروري ان ينقلب نظام الكون كى نتعرف على قدرة الله فى تخليص العبرانيين ، وفى الحاق الخسارة بالمصريين .

### المياه المرة تصبح مياه عذبة

« ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور ، فمساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء ، فجاءوا الى مارة ، ولم يقدروا ان يشربوا ماء من مارة لأنه مر ، لذلك دعى اسمها مارة ، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ، فصرخ الى الرب فأراه السرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا » (٥٣) .

لو ان موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر اثناء هربه الأول الى الصحراء لظل هذا السر محفوظا لديه ( او معروفا منه ) ، ولوجدناه

(٥٢) لابد ان البحر قد كان فى ذلك الوقت ، امام السويس ، أكثر عمقا مما هو عليه الآن . مادامت كتلة الرمال التى تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالى خمسين الف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذى يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية . انظر دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر ، الدولة الحديثة ، المجلد الاول ، ص ١٨٧ . ( المجلد الثالث من الترجمة العربية ) .

(٥٣) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ . الآيات ٢٢ الى ٢٥ .

عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة في جعل الماء صالحا لمصحرا  
تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة ؛ ان نطينا في هذا العصف  
ان ننقل مقالته المؤرخ يوسف<sup>٥٤</sup> واليك نص مقالته حول هذه القضية (٥٤) ؛  
وبعد ان مثنى الاسرائيليون طويلا ، وصلوا عند حلول المساء الى مكان  
يسمى مارا ، وسمى كذلك بسبب مرارة مياهه ، وحيث كلفوا منهكين  
للفاية لقد وقع اختيارهم على التوقف هناك في الوقت الذي كانت  
تنقصهم فيه المؤن ، ذلك لانهم وجدوا هناك بئرا جعلتهم يأملون ، برغم  
انها لم تكن لتستطيع ان تفي بحاجة مثل هذه الآلاف العديدة ، في بعض  
الانفراج في احتياجاتهم ، كما ان هذه البئر قد واستهم ، لاسيما وقد  
قيل لهم انه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة  
حتى انه لا البشر ولا الخيول ، ولا الحيوانات الأخرى ، أمكنها  
ان تشرب منها . يالها من مارقة تدعو للآسى ، قد جعلت الشعب كله  
في حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة اليمّة ومعجبة ، فالأعداء  
الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل  
بنذل سخى ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قد جعلوا ، وحدهما ، هذه  
الآلاف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛  
وفي الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر  
هو الآم الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة اذ كان الجميع يلتجئون  
اليه ، فالأمهات يستعطفنه ان يكون شفوتاً بأطفالهن ، والأزواج يلتصقون  
منه ان يحنو على زوجاتهم ، وكل امرئ يتضرع اليه كي يبحث عن بعض  
علاج لهذا الألم العظيم . وبينما هو في مثل هذه الحاجة الماسة اتجه  
الى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة  
الى مياه حلوة ، فأنساه الله انه قد منحه هذا الفضل ؛ عندئذ أخذ  
موسى قطعة من الخشب ، وشقها الى اثنتين ، وبعد أن القى بها في  
البئر قال للشعب ؛ ان الرب قد استجاب لدعواته ، وانه سيتزج عن  
هذه المياه كل ما فيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة أن ينفخوا  
ما يُمِرمهم به . ثم طلب اليهم ما ينبغي أن يعملوه فأمر أشدهم قوة وأمتنهم  
بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم ان الماء الذي

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1.

\* يوسف أو جوزيف أو يوسفوس ، وهي طرق ثلاث لكتابة اسم  
واحد يشير الى المؤرخ نفسه ( المترجم ) .



نسيبتقى سيكون صالحا للشرب . فاطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى اعطاه لهم » — عن ترجمة المسيو ارنو داندلى Amaud d Andilly

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف انه بالفراغ احدى الابار ، صبح المياه التى تقبى عادة افضل بكثير ؛ وتتطلب هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة ، وفضلا عن ذلك فقد واقتنا الفرصة ان نكررها مرات عدة فى مصر ؛ ففى المناطق الصحراوية التى اتينا فيها يعض التحصينات ، اصبحت المياه المائلة للملوحة ، والنقطة فى معظم الاحيان ، افضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها .

### عن السحاب وعمود القار

#### وعن بعض الظواهر الاخرى المثيرة للانتباه

هناك معجزة اخرى اخذت تقبى للعبرائيين منذ خروجهم من مصر ، وظلوا يحظون برؤيتها بعد عبورهم البحر الاحمر ؛ لقد بدا الرب لهم نهارا فى صورة سحاب و ليلا فى شكل عمود نار ؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدهم الى طريقهم . . ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون . اليس ثمة احتمال فى وجود بعض اخطاء ، او سوء فهم ، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن ان يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبانيين ، ليقدمها كمعجزة ؟ الامر المؤكد هنا هو ان القوافل تستخدم فى بعض الاحيان ، اثناء سيرها الليلية ، شعلات ضخمة يحملها الادلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع ، نصى ننقله عن المصدد ٢٤ من بريد مصر Courier de l'Egypte ، وهى الصحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة ( اثناء الحملة الفرنسية ) :

» فى العاشر من نيفوز ، رحلنا من السويس ، واتجه الجزء الاكبر من القافلة نحو المجرود ، ومضى القائد العام وفى صحبته الجنرالات برتبيه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتولليه Berthollet — الى الطرف الشمالى الاقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك التربة التى ترسمها الخرائط باعتبارها كانت تقيم اتصالا بين النيل والبحر الاحمر ، وفى الواقع ، فقد تم العثور على مثل هذه الآثار ، وكان اول

من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه . ثم سارت الفرقة لمسافة أربعة فراسخ فى مجرى التربة نفسها ؛ وفى الوقت نفسه ، فمع السير فى هذا الاتجاه ، ابتعدت هذه الفرقة كثيرا عن المعجود ، حيث كان عليها ان تعود لتلحق ببقية القافلة حيث الماء والمأوى والاطعمة ، كان الليل يقترب ، وكان موقع المعجود بالنسبة لها غير معروف ؛ وتعرض من فى الفرقة لخطر أن يضلوا الطريق .

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرثيه رجلا فوق حصانه ، وسارا فى المقدمة ، واتجها بأقصى سرعتيهما نحو النقطة التى كانت تغيب عندهما الشمس ، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ الى المعجود ، وأمر القائد العام باطلاق قذيفة مدفع ، وباشتعال النار فوق أبراج القصر ، وبن توضع فوق بعض النقاط العالية من الطريق الذى انتهى هو من اجتيازه مشاعل ( او فوانيس ) من تلك التى لتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق اثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة ، فاشعلة منها اسطوانية الشكل ، توضع بها نار قوية ولامعة ، اذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط ؛ وهذه المشاعل مثبتة فى الجزء العلوى منها بعضها يصل طولها خمسة الى ستة اقدام ، وتغرس فى الأرض حين يراد التوقف ؛ فاذا شاعت القافلة ان تسير خلال الليل ، يمشى فى مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة ، ويحرصون على بقاءها عالية ليلمح كل مسافر ناراها .

وعند المساء ، التأم شمل الجميع (٥٥) .

سيقال ، بلا جدال ، ان ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التى تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير اليهما التوراة ، ذلك اننا نقرا فى التوراة ، فى الآية ٢١ من الاصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير امام العبرانيين . ومع ذلك فهل يتحتم علينا ان نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفى فى حين يعرف المرء ان شعبا شديد التدخين

يجعل كل شيء من صنع الرب ، وأن الاسرائيليين ، بشكل خاص كانوا يتقبلون في الشنمر ، وفي النثر ذاته ، كل المبالغت التي تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن ، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والتعقل أو القيود ، السنا نجد اناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية؟ لنضع انفسنا لحظة في مكان العبرانيين ؛ اجنبي يسير على رأسنا ليهدينا السبيل في صحراء مجهولة منا ، الشعلة التي يحملها في الهواء تلتقي خلال النهار فختنا ، وخلال الليل لهيبا يهتدي على ضوئه رجالنا . الامر المؤكد أن لن يكون ثمة ماهو اسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية . ومع ذلك فعلينا ألا نواجه الامر في ذاته ، ولنتدبر نتائجها ، وعندها سوف نغير من لغتنا ، ولسوف نقول : كيف هبط علينا هذا الرجل في الوقت نفسه الذي نحتاج اليه فيه اشد الاحتياج؟ كم نحن محظوظون أن وهنا اياه ! انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه اله !

وحيث يتعامل كل شيء ، بالنسبة نفسها في لغة الحماسة ، تتحول الشعلة الى عمود من النار ، الى عمود من السحاب ، الى مجد الرب (٥١) .

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها امرا خارقا للطبيعة انه يخبرنا بأن حماه ، هذا العربي من مديان (مدين) هو الذي قاد الاسرائيليين ، واليكم ما نقرؤه حول هذا الموضوع في سفر العدد ، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : « وقال موسى لجويل بن رعوثيل المدياني ، حامي موسى ، انفسا راحلون الى المكان الذي قال الرب اعطيكم اياه ، اذهب معنا فنحن نحسن اليك ، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : « فقال له لا اذهب ، بل الى ارضي وإلى عشيرتي امضي ؛

آية ٣١ : « فقال لا تتركنا لانه بما انك تعرف منا اننا في الجربة تكون

**قنا كميون ؛**

(٥٦) اطلق القديس يوحنا على مطارنة الكلايس الاسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكلايس : « وقال ابن الرب اكتب الى ملاك كنيسة ايفيزوس » .  
\* وهي احدى المدن الآيونية على بحر ايجه ، (المترجم).

آية ٣٢ : « وان ذهبت معنا فبنفس الاحسان الذى يحسن الرب  
الينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : « فارتعلا من جبل الرب مسيرة ثلاثة ايام وتلبوت عهد  
الرب راحل امامهم مسيرة ثلاثة ايام ليلتمس لهم منزلا » .

وبالتأكيد ، غلو ان ملاك الرب كان حقيقة هو الذى يمشى امام  
المبرانيين لكان موسى فى غير حاجة الى حبه ليكون مرشدا لهم ولما  
كان وعده بالكثير من « الاحسان » - اى الثروات - ليحمله على البقاء  
بالقرب منه ،

اما هذه العبارات : ان الرب لو ملاكته كانوا يقودون جيش اسرائيل  
فى شكل دخان او لهيب فيقتصر معناها على ان تلبوت العهد كان محولا  
فى مقدمة المسيرة (٥٧) .

اما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق او الجيوش ، عن طريق اشارات  
ضارية توضع اثناء نوبت الراحة فوق خيمة القائد ، فامر لا يخص  
المبرانيين وحدهم . فمن المعروف انها كانت مستعملة عند الفرس ، كما  
اننا سنسوف نقرأ هنا باهتمام النص التالى عند كينت - كورس .  
Quinte - Curce بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين  
الفلسع والعاشر من سفر العدد . يقول كينت كورس عند حديثه عن

(٥٧) التلبوت عبارة من صندوق من خشب السنط تكتوه مسننات  
من ذهب ، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الفراخ ، وعرضه ذراعا واحدا  
ونصف الفراخ وارتفاعه يماثل عرضه ؛ وقد حفظت فيه الواح الشريعة؛  
ويسمى غطاء التلبوت المسندة ، ويعلوه اكليل من الذهب ، بشكل جناحاه  
المسوطتان مليشه بمصمدين يستعرض ان تجلس عليهما ذات الرب غير  
المرئية ، سفر العدد ، الاصحاح السابع ، الآية ٨٩ . ولكن جالبا التلبوت،  
من ناحية الطول ، مزودين بطقتين كانت تدخل فيهما العصوان اللتان  
تستخدمان فى حمله فوق الاكتاف ، ويمكننا ان نرى فى اطلال العصور  
القديمة ، اللوحة الثنية ، المجلد الاول ، الشكل ٤ ، رسما بارزا لى جزيرة  
قوله يماثل التلبوت لدرجة كبيرة ، وهو ما سبق ان لاحظته من قبل المسو  
لاتكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة قيله ، ص ٢٧ .

\* مؤرخ لاتينى عاش فى القرن الميلادى الاول وله مؤلف كبير عن  
تاريخ الاسكندر . ( المترجم ) .

الاسكندر : « وعنده خان يريد ان يقض معسكرا ، كانت الطبول تعطى الإشارة ، ومع ذلك ، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول ، فقد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمته عصا يستطيع ان يلحها الجميع وأن ترتفع فوقها شارة الرحيل : وكانت هذه نارا اثناء الليل ودخانا اثناء النهار » (٥٨) .

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : « وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح ؛

آية ١٦ : « هكذا كان دائما ، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : « ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو اسرائيل ينزلون » .

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : « وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : « اصنع لك بوقين من فضة ، مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : « فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع » .

ولا يمكن المرء بالتاكيد ان يجد تشابها اكبر بين عادات الامتين فيما يتصل بمسيرة مرقهما .

معجزات اخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعى مماثل لما تم مع المعجزات السابقة . كذلك فان السمان ، الذى يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الكثيرون منه فى الايدى عند شاطئ البحر ، فى الفصول

نفسها التى كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعاما لهم . ونقرأ عند ديودور الصقلى أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة فى عهد اكتيزانيس ، فى صحراء برزخ السويس ، كانوا يتغذون بالطريقة نفسها ، أما المن ، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت فى الماضى وفيرة العدد فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، أما النار اليونانية ، فهى مثال على أن الشرقيين قد عرفوا ، فى فترات سابقة ، كيف يشعلون النار ، وكيف يستخدمونها على هذا النحو المخيف .

ومع ذلك فان كل هذه التفسيرات لا تتعارض فى شىء مع الرأى القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه ؛ فهذا الاتفاق العارض أو الفجائى لأحداث مواتيية ، والتى ليس بمقدور احد أن يكررها ، يمكن أن ينظر اليه باعتباره ( فى حد ذاته ) معجزة ، وفضلا عن ذلك فلا ينبغى أن نتوقف عند هذا الأمر أكثر من ذلك ، ولنصل مباشرة الى تلك اللحظة التى اقام فيها الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء ، بعد أن هزموا العماليق فى راغيديم .

#### الشريعة تنزل على جبل سيناء (٥٩)

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحي جبل سيناء على يقين من أن الرب يقيم هناك ؛ ذلك أنه يكاد ينظر الى الجبال العالية فى كل مكان ، باعتبارها المقر الاعتيادى للالهة ؛ وهذا أمر طبيعى ، فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه الكتل الصخرية العظيمة ضعفه ، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لاتبعات روح الأمسكارية الدينية ، وفضلا عن ذلك فان الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المفزعة ، التى تبدو كما لو كانت جهازا هائلا فى أيدي آلهة جبارة ؛ ولقد ملح الخوف ، بأكثر مما فعلته المعرفة ، البشر اولى افكارهم عن الالهية ، فمن تممها تندفع السيول المدمرة ، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات التى تزلزل وتقلب باطن الأرض ، الأحجار الملتهبة ، والمعادن المنصهرة التى تبطل المعدن وتدمرها حين تخرج فى شكل شواظى من نار

وانهار من حمم ؛ كذلك ، على ذراها ، تزمجر الرياح العاتيات ، وتتراكم السحب التى تتخذ من الاشكال ماييمث على الرهبة ، وتتفجر الرعود الهائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها تستصعق الوديان (١٠) .

على مشهد عاصفة مماثلة ، أراد موسى ان يصدم خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقناعهم بصحة تلك العلاقة القائمة بينه وبين الرب ، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل ، شيئا شبيها بذلك ، فهى تتوهج بالضوء الباهر اثناء النهار ، وبأجل لون لازوردى اثناء الليالى الهادئة ، ولا تحجبها قط اية سحب معتمة ؛ ولما الربيع فقط نرى بعضا من سحب بالغة الارتفاع تدفعها بسرعة ريح الشمال ، ليمضى سريعا كى تتركهم فوق جبال الحبشة العالية ، حيث تتحول الى امطار ينشأ سقوطها عدد لا حصر له من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر . اما الخماسين أو الريح المسمة ( ربيع السهوم ) ، بدوامتها الترابية الملتببة وأعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو ، ومع ذلك ، وبخلاف انها لا تهب على مصر الا مرة أو مرتين على مدار العام فانها هناك ضارة أو مؤذية أكثر منها مفزعة ، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات آثارها الضارة ، وتسبب امراضها ، بل قد تقتلها أحيانا ، فان ذلك يحدث فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السهوم ، تلك التى تعمل دون جلبه ، دون عنف ظاهرى ؛ وبالإضافة الى ذلك ، فبإمكاننا ، ان نحكم عليها بدوامتها تلك بانها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء ، لذلك

---

(٦٠) عندما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة ، فى السادس عشر من برومير من العام التاسع ، مذكرتى هذه عن عبور الاسرائيليين للبحر الأحمر ، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء ، أعلنت ان هذا الجبل يمكن ان يكون بركلما خامدا ؛ فالأحجار البركانية الضخام التى كنت رايتها فى صابورات السفن ( الصابورة : ثقل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها ) عند مدينة الطور تلك التى كانت تصل الى السويس والقصر ؛ كما ان الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندى هذا الرأى ؛ وبعد وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنا هبسا السيدان كوتل Couzelle وروزيير Rozière الى كهف فى جبل سيناء ، وتبين لهما ان الجبل جرانيتى وليس به أى اثر لبركان ، ومع ذلك فان الأعاصير او العواصف ، تتفق بنفس القدر مع مايمكن أن تحدثه ثورة بركانية كذلك التى جاءت فى رواية موسى .

فنحن نعتقد أن قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقوة السيئة . وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذون بفعل رعب ديني عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب ، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية ، تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى عمقاته (٦١) . وفى الواقع فلن السحب تقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة ، كما أن حركتها ، وأشكال المسخ التى تقدمها قد أفزعت فى معظم الأحيان والهبث خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائمة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون ، وهما نحن نرى ، برغم تقدم العلوم والفنون الذى يهينه التعلم ، أن كثيرا من الناس يبرحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهية ، والسبب فى ذلك بالغ البساطة : أن من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الأخطار فى الوقت الذى لا تملك فيه وسيلة ما لدفع أخطار الرعد . وزيادة على ذلك ، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة ، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر من كائن عظيم وقادر فى حالة غضب وهياج .

لقد ظل موسى لوقت طويل يوعى قطعان حبيه فوق جبل سيناء . وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال سماوية شكلتها الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ : وبلا ريب فإن فكرى ما كان هذا الرجل المساهر قد استشعره منها هى التى دفعتة الى استغلالها فى تحقيق مآربه .

وننقل هنا نصا حرفيا من جزء من الأصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١ ، ٢ « فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من ارض

---

(٦١) أثناء قرابة نحو أربع سنوات قضيتها فى مصر ، لم اسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفا حتى أن كثيرا من الأشخاص ، ممن كانوا معى ، لم يلحظوه قط .



مصر ، فى ذلك اليوم جاعوا الى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاءوا الى برية سيناء فزلوا فى البرية . هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : « واما موسى فصعد الى الله ، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبني اسرائيل ؛

آية ٧ : « فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى اوصاه بها الرب ؛

الايات من ٨ الى ١٢ : « فاجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ماتكم به الرب نفعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها انا آت اليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما اتكلم معك فيؤمنوا بك ايضا الى الابد ، واخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم ؛ ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لانه فى اليوم الثالث ينزل الرب امام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من ان تصعدوا الى الجبل ان تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا . »

ومضى واقع الأمر ، فليس من العسير ان ينتبأ بحدوث الرعد قبل مواعده ببضع ساعات (٦٢) ؛ فالبحارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك اذ تحملهم غريزة البقاء على ان يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها ، وقد تطلب الأمر من موسى — وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء — ان يقوم هناك بتأملات

---

(٦٢) تتضح نذر الثورات البركانية كذلك ، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة ، عن طريق توهج المستنقعات والابخرة التى تحمل روائح كبريتية وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحر ، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار ، ونقص — وفى بعض الأحيان التوقف التام — للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة ، وكذلك عن طريق الفزع الذى يملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصراخاتها وسيرها المتخبط والقلق ، وتفعل الطيور نفس الشيء فتطير هنا وهناك — هذه كلها علامات على قرب حدوث المواصل أو الأعاصير أو الزوابع ، كما انها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة ( ثورة البراكين ) .

وملاحظات مماثلة . أما عن الفترة المحددة والتي تتعمد قليلا عن الأيام الثلاثة التي حددها موسى في الآيات من ١١ الى ١٥ فإن علينا أن نعتقد أن موسى ، عند حديثه الى العبرانيين ، كان يعطى لكلماته غموض الوحي القائم بالوساطة بين الناس وبين الرب ، والذي يكرر ذلك دون أن يصيبه الفشل ، وأن كان يدون نبوءاته ( الفاضة تلك ) — ما أن تمضي الحوادث ، بطريقة واضحة محددة (٦٢) .

ونواصل مرة أخرى النقل عن الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١٦ : « وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في المحلة ؛

آية ١٧ : « وأخرج موسى الشعب من المحلة للملاقاة الله ، فوقفوا في أسفل الجبل ؛

آية ١٨ : « وكان جبل سيناء كله يخض من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وارتجف كل الجبل جدا » .

الآيتان ٢٠ ، ٢١ : « ونزل الرب على جبل سيناء الى رأس الجبل ، ودعا الله موسى الى رأس الجبل فصعد موسى ؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون » .

السنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعء ؟ السنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتي أحد أبناء شعبه ليجده وسط السحب التي تغطي قمة الجبل ، لكنه لن يجد هناك الرب المقدس الذي اصطنع له ذكاء موسى وحكمته ، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هناك .  
**وأما موسى فقد اقترب الى الضباب حيث كان الله ، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج .**

(٦٣) انظر بالاضافة الى ذلك ما سبق أن ذكرناه في الجزء الخاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الأسفار .

ويتعرف المرء كذلك — ولا يزال — فى هذا الاصحاح نفسه على الدوافع التى حدث بموسى ان يقود الاسرائيليين الى جبل سيناء، اذ يقول لهم : « انه الله انما جاء لكى يتحنكم ولكى تكون مخافتة امام وجوهكم حتى لا تخطئوا » .

« انتم رايتم اننى — اى انا الرب — من السماء قد تكلمت معكم »\*

وبعد ذلك ، وبعد ان منع موسى ان يتبعه احد ، ذهب فوق الجبل ، وامضى هناك اربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحى الوصايا وقدمهما الى الشعب باعتبارهما حسب قوله « المكتوبين باصبع الرب »\*\*

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ؛ نوما Numa يستلهم حورية الماء والغاب ايجريا ، والملك جبريل يملئ القرآن على محمد ، ومانكو كاباكا Manco Capac يتحدث باسم الشمس ، وليكورج ، نفسه ، حتى ليكورج Lycrgue الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه فى وحى معبد دلفى ، ان هؤلاء الرجال العظام ، الاكبر مهارة والاكثر علما من عامة الناس\*\*\* يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم جيدا كى يحيطوا انفسهم بالمهابة والقداسة . السنا ترى كريستوف كولبوس ، فى زمن اكثر حداثة ، وحين كاد يهلك جوعا ، ينذر البسطاء ، سكان جهاياكا ، بانهم ، ان لم يجلبوا الاطعمة الى معسكر الاسبان ، فسوف تعاقبهم يد الله ، ثم حدث كسوف الشمس الذى كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب ، واطاعوه .

---

\* اقتباس من الآيتين ٢٠ ، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج . ( المترجم )

\*\* سفر التثنية ، الاصحاح التاسع ، الآية ١٠ ( المترجم ) .

\*\*\* ينظر المؤلف الى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقى والمشرع المفترض وجوده وكذلك الانبياء . وفكرته هنا تعميمية لافصى حد ، قد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد دليلا على صدق ماذهب اليه . وقد وضع من سياق مقاله تلة معرفته — ويكاد يكون جهله — بالاسلام ونبيه العظيم . اما السنين يشير اليهم هنا فهم :

حقا ! ان طفولة الشعوب تمتلئ على الدوام بالمعجزات (١٤) .

= نوما Numa : تلقى ملوك روما كبا تحكى الأساطير ( ٧١٤ - ٦٧١ ق.م ) وكانت السلطة في ذلك الوقت في يد الرؤساء أو السيناتوريين ، اما الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر . ولكي يلزم شعبه وقومه الهجى في ذلك الوقت بالأخلاق القويمة وجد ان من الضروري له ان يبدو في صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر نادعى انه يلتقى في الليل بليجريا ، الحورية المقدسة التى تلهمه الرشد والنصيحة ، وافلح بذلك في توحيد دين قبائل روما وتوحيث وحدة الدولة وزاد استقرارها .

مانكو كابلكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو واول ملوك الإنكا ؛ عاش في القرن العاشر الميلادى .

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودوت انه ابن عم الملك كاريلوس ملك اسبرطة ؛ تلقى من الوحي في دلفى بعض مراسيم يراها البعض قوانين ليكورج نفسها ويراها آخرون تصديقا ريفيا على قوانين ليكورج . وقد وجد باعتباره مشرعا ان افضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولاندخال عادات جديدة ان يقدم قوانينه باعتبارها اوامر من عند السماء . وفي حين يجزم بعض المؤرخين بأنه واضع قوانين اسبرطة يرى كثيرون انه شخصية خيالية ، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه ، ولكنها طائفة من العادات تحولت الى قوانين وسنيت باسم الشخص الذى قام بجمعها وتدوينها . ( المترجم ) .

(١٤) ليس هناك ما هو اسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة . الم يهرع القوم في ايطاليا ، في ايامنا هذه ، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسة التى كانوا « يرونها » وهى تحرك عينيها ؛ ولهذا السبب لم يكن التساوسة يكتفون انفسهم عناء تحريك اى جهاز لاتمام « المعجزة » ، كانوا يكتفون بالقول : هل ترون ؟ ويجب الجميع . نعم . نحن نرى .

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

## موت موسى

بعد أن سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى ، وعلى طريقة العربان ، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، حاولوا التوغل فى اراضى سوريا الى الغرب من البحر الميت .

كان موسى قد استنهض عزيبتهم مخبرا اياهم أن الرب قد اعطى لنسل ابراهيم ارض كنعان . ومع ذلك فقد رفضوا عند وصولهم الى حدود هذه الدولة أن يمضوا لأبعد من ذلك فقد أزعجتهم تقارير جواسيسهم ، ثم عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملامات موسى ، وحذس هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما أبدوه من فزع منذ وقت قصير أنهم سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك ؛ ولم يستمعوا اليه ، وحاققت بهم الهزيمة القامة (٦٥) . وادرك موسى من هزيمتهم تلك ، ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل ، أن الاسرائيليين ، لم يصبحوا بعد ، مزرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافى حتى يمكنهم أن يستقروا بالقوة القاهرة فى ارض السوريين ؛ فانتظر فى الصحراء ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر . ولقد سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم ، وشعر كم هو عسير أن يولد روحا قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة ، وولدوا فوق ذلك فى اغلال العبودية . واستغل من جانبه كل هذا الوقت فى تطويعهم لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو اليه . ولقد نجح فى ذلك .

وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة من جانب موسى ، فإنه يجد مايفريه على أن يضع هذا المشرع فى مقدمة كل المشرعين الآخرين ، ليس فقط لأنه انتزع عبيدا من ساداتهم وانما — كذلك — لأنه جعل منهم أمة شهيرة غير قابلة للفناء ، واذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنها من ناحية الاتساع والاهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه ، فى ظروف تكاد تكون متشابهة ، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه فى زمنه أمما قوية وشعوبا مزرسة بالقتال تشغل ارض سوريا وفارس

ومصر وبلاد العرب ، أما عند ظهور محمد ، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتتا من القدم بعد ان اقتسمتا العالم ، وكانت الشعوب التى اخضعها هؤلاء والتى سبمت اغلالها تظن انها تحطم اغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم الى ايدى سادة جدد \* وكذلك فان موسى كى يخلق من عبيد دولة متماسكة قد اضطر ان يوحى اليهم بالهلع من الاجانب وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى انهم يفضلون ان يستاصلوا شافة عدوهم عن ان يهزموه ، بل انهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذرايرهم ، فلا يعطون الا للجيل العاشر من هؤلاء الحق فى دخول جماعة الرب . فى حين ان محمدا ، بعد ان اخضع للانسلام كل العرب — وكان لدى هؤلاء شعور قويم بالغ الوضوح منذ زمان بعيد ، قد امكته ان يستخدم القوة والاقناع لحشد انصار جدد مائحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القدامى ، وبهذه الطريقة ضاعف قوائمه الظافرة بجنود من الامم التى فتحها \*\*

وقد عكف موسى ، كما سبق لنا القول ، لاكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصار الكنعانيين (٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه ، وفى النهاية حاول من جديد ان يستقر فى سوريا ، وزحف نحو الشرق من البحر الميت ، متخذا هذه المرة ، طريقا مختلفا عن الطريق الذى كان قد اتبعه عند حملته الاولى ، متجنبيا فى كل الاحوال ان يمر بأرض ملك ادوم الذى كان يخشى بأسه (٦٧) ، وضمن موسى لنفسه ، من هذه الناحية دعم او على الأقل حيدة كثير من العشائر حين اذاع ان العبرانيين يشتركون معهم فى اصل واحد ، وحين وعد باحترام املاكهم وبأن يدفع حتى ثمن الماء الذى سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم (٦٨) .

\* لا يمكن أى منصف ان يقبل هذه الأفكار على اطلاقها ، بالاضافة الى ان الكثير مما جاء فى كلامه مردود عليه ولا يمكن تفسيره الا بالتحامل او تجاهل معطيات التاريخ ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتسم بروح متحررة ، وباطلاع واسع . ( المترجم ) .

\*\* وهكذا تتحول الميزات والفضائل الى عيوب وماخذ عند من

يريدون التحامل على الاسلام بآية وسيلة ( المترجم ) .

(٦٦) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٤٦ ؛ والاصحاح الثانى ،

الآية ١٤ .

(٦٧) سفر العدد ، الاصحاح العشرون .

(٦٨) سفر التثنية ، الاصحاح الثانى .

وعندما شئت عليه معارك أثناء مسيرته ، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها ، واستولى على منطقة خصيبة تقع الى الشمال من نهر الأردن ؛ وهناك ، حيث شعر بتواء تخور ، شاء أن يجعل من موته أمرا منيدا في تحقيق مآربه ، فأعلن للشعب أن الرب قد رضى أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قد شك مرة واحدة ، واحدة فقط ، في قدرته \* وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبال عباريم ونبو اثار بيده للبرانيين الى الأرض التي سيكلفهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عتيدتهم الدينية .

\* \* \*

وهانذا استحضر صورة هذا الرجل المسن ، الجدير بمعدسه ، في ملامح موسى الذى رسمه ميكل انجلو في كنيسة القديس بطرس ، في روما ؛ جبهته التى جمعتها السنون لا تتم الا عن الهدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الأكبر من الرقة والحنو ؛ ولقد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أسنانه البيضاء كالصاج (٦٩) فتظلها الحياة كثيفة تتدلى فوق صدره ، هذا هو يشى ببطء ولكن في ثقة ، أما شحوب لونه ونظراته الشافضة الى السماء فتنبئ عودها انه ترك الأرض كي يذهب الى مقام أكثر قداسة ، يحيط به المقاطون والنساء والأطفال ؛ بل والعبيد ، كلهم قلقون ، لكنه بصوته الملمم يفتبأ لهم باقتدارهم التى يحملها لهم المستقبل ، ويباركهم ؛ ويجثو الشعب على ركبته ، وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتنجر النحيب وتنساب الدموع ؛ في كل مكان ، ويقول لهم كلمة الوداع الأخير ثم يبتعد ؛ يندفع الناس ليتبعوه ؛ لكنه بحركة واحدة من يده الخائرة يلزمهم ، أمكنهم ؛ من يجلس على عصيان

\* نقرأ في التوراة : « فقال الرب لموسى وهارون ، من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدساتى أمام أعين بنى اسرائيل ، لذلك لا تدخلان هذه الجماعة الى الأرض التى أعطيتها لياها » سفر العدد ، الأصحاح ١٢ ، الآية ١٢ .

وكذلك : « أنكما ختتماني في وسط بنى اسرائيل عند ماء مريبة قادش في بركة صهيون إذ لم تقدساتى في وسط بنى اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكك لا تدخل الى هناك ، الى الأرض التى أعطيتها لبنى اسرائيل » .

سفر التثنية ، الأصحاح ٣٢ ، الآية ٥٢ . ( المترجم )

(٦٩) « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نظارته » سفر التثنية . الأصحاح الرابع والثلاثون ، الآية ٧ .

هذا الرجل الذي اصطفته السماء في اللحظة نفسها التي يذهب فيها كي يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره احد بعد ذلك يعاود الظهور ، اما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه ، وكذلك بلا ريب لقراره الآخر ، فيقتود الاسرائيليين من جديد في عربات موآب حيث يظنون سيكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا ونبيا و ابا .

ومع ذلك فلن امضى لأبعد من ذلك في بحثي ، فلجبل الذي عبر الأردن كان غريبا عن مصر ، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطه هذا المؤلف \* لكنني اختتم بهذه الفكرة ؛ ان كل ما انتهينا الى استخلاصه من الأسفار الخمسة انما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة ، ويتطلب او يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها ان تكون هذه الأحداث اسطورة ، كما شاء بعض ان يزعم ذلك بقول خيال عزرا او حلقيا \* \* الذين كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية . ونضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا — مع ذلك — للعبرانيين اجدادا اثرياء واقوياء ، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخترع انسان ما تاريخ امة ، فان الكبرياء القومي هنا هو الذي يملى عليه كل جملة يقولها .

#### \* وصف مصر .

\* \* Esdras او Helcias ونلمس هنا خلطا في الأسماء وقع فيه المؤلف ، فنحن في الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ، أحد مصلحي وباعثي القومية اليهودية عند نهالية الاسر البابلي ، وهو كما تصنفه التوراة « كاتب ماهر في شريعة موسى » ، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذي كان نبوخذ نصر قد أمر بأعدامه بعيد استيلائه على اورشليم ، وبعد عودة اليهود من الاسر ، بعد ان سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية ، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه ، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن « من شعوب الرجاسات » وأن عليهم الا يتزوجوا لها بأجنبية كي لا يزدوا « على اثم اسرائيل » . ويرى بعض المؤرخين انه هو واضع « أخبار الأيمل الاول » و « أخبار الأيام الثاني » المتممين لسفر الملوك الذي قام هو كذلك بوضعه ، كما يقل انه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهي نفسها الحروف الكلدانية ( المترجم ) .





الدراسة العاشرة :

# حصار للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين أبيدريه جويبر

العنوان الأصلي للدراسة هو :

حصار شامل للقبائل العربية التي تقطن بين  
مصر وفلسطين ابتداء من خان يونس وغزة  
حتى نهر الماصي ، والجزء الشمالي من  
الصحراء التي تفصل مكة عن سوريا .

أصبحت اليوم تقاليد وعادات العرب الذين يهيمن منذ زمان لاتميه  
الذاكرة في صحراوات مصر وسوريا ، معروفة بشكل كاف ، ولقد نقل  
الينا مؤرخو وفلاسفة وجغرافيو المصور القديمة ، في هذا الخصوص ،  
تفاصيل لاتختلف في كثير عن تلك التي نقرأها في مؤلفات الرحالة المحدثين ،  
لكن الاسماء الحالية للقبائل وقوتها العسكرية المفترضة ، والأماكن التي  
تقطنها ، لا توجد في أى مؤلف من هذه المؤلفات ، بكل التحديد والدقة  
المرغوبين .

وإذا لم نول بالآلا للظلام الدامس الذى يبدو وكأنه مقدر على هذه  
العشائر نصف المتوحشة ، وانعدام اتصالاتنا بهم ، فقد يبدو أمرا ضئيل  
الأهمية في الواقع أن نتعرف على كل الخصوصيات الماسة بهم ، اللهم  
الا إذا كان من شأن هذه الخصوصيات أن تلقى بصيصا من الضوء على  
جغرافية صحراواتهم بحيث تصبح بذات فائدة للرحالة الذين يأتون من  
بمعدنا ، ذلك أن العرب ، وهم بطبيعتهم متجشرون ومتفطرسون ،  
لايرحبون الا بأولئك الذين يقدرونهم ويحترمونها ، خاصة ، أولئك الذين  
يعرفونهم ، لذلك فقد ظفنت أن حصرا لهذه القبائل العربية ، أى لهذه  
الجماعات الرحل التي تقطن البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر العاصي ،  
أن يكون أمرا عديم الجدوى . ولكى يكون لهذا العمل ، ذلك النوع الوحيد  
من التقدير الذى نرجو أن يناله ، فقد تارنا بعناية فائقة هذه المعلومات  
التي هيأها لنا رجال من أهل البلاد لاجئين الى فرنسا بظك المعلومات التي  
جمعت في نفس أماكن حدوثها أثناء الرحلتين المختلفتين ( اللتين تمنا  
بهما ) ، وقد دونا أسماء الأعلام بالحروف العربية والفرنسية ، وتنادينا  
بشكل خاص أن ندرج ، سواء في العمود الخاص بالاسماء ، أو بالعمود  
الخاص بالملاحظات كل ما قد يكون عرضة لعلم الدقة وكل ما قد يكون  
خدماة للتشكك .

**بيان بالقبائل العربية  
في مصر السفلى**

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الترايين أو ترايين	وادي التيه ، ضواحي غزة وبخاصة المنطقة المسماة دير التين	٥٠٠ فارس
عرب السواركة	نفس الصحراوات حتى جبل الطور	مجهول
عرب الطور	تسكن هذه القبيلة كما يوحى بذلك اسمها ضواحي جبل الطور	٤٠٠ فارس
عرب محارب أو نفعيات	ضواحي بلبيس والقرين	اكثر من ٤٠٠ فارس
عرب التهانية عرب الطرابنس عرب بن البرانق	تسكن هذه القبائل الثلاث الضواحي الرملية والقاحلة لخان يونس	من ٢٠٠ الى ٣٠٠ فارس
عرب الحناجرة	المحراء الى جنوب خان يونس	العدد مجهول

المصادر والمراجع	ملاحظات
استخلصت هذه المعلومات بمعرفتنا ومن نفس الأماكن التي توجد بها القبيلة .	كانت هذه القبيلة التي يعرفها كل من زاروا مصر في الأزمنة الأخيرة ، أكبر عددا فيما مضى عما هي عليه الآن . فهي واحدة من تلك القبائل التي عانت من غضبة على بك عندما عزم هذا الزعيم المملوكى على تخليص مصر من العريان .
هذه المعلومات مستخلصة من مذكرات في حوزتنا وصلت إلينا عن طريق المرحوم ميخائيل صباغ الناسخ العربى بالمكتبة الملكية .	هذه القبيلة في تحالف مع القبيلة السابقة ، وكان اسم شيخها في عام ١٧٩٩ يسمى ابن معوى .
من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها ومذكرات د. روفائيل أعدت حديثا ونشرها مايو Mayeux	ينقل عرب الطور الى القاهرة الفخم وفواكه هذا الجبل وكذلك بعض سلع الهند القادمة عن طريق السويس .
من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها ومن مذكرات ميخائيل صباغ .	لا ينبغي ان نخلط بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم وسنتناولها فيما بعد .
من مذكرات في حوزتنا نقلها إلينا السورى خليل مسعد .	على الرغم من ان هذه القبائل تابعة لحكومة غزة الا انها تعتبر قبائل مصرية بسبب رحلاتها العديدة الى القاهرة . وفي عام ١٧٩٩ لم يكن لها سوى شيخ واحد يسمى أبو شكال وحيدى . شرح

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القطاب	ضواحي القاهرة ، الى مسيرة يوم من شرق الجنوب من هذه المدينة	٦٠٠ فارس على الاقل
عرب البساطين	على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة	قليلو العدد
» الحويطات	تجاور القبيلة السابقة	٤٠٠ فارس
» الصوالحة	ضواحي العريش والى الشمال منها	٤٠٠ فارس
» نصف حرام	شواطئ بحيرة صغيرة تسمى بركة الحج بالقرب من القاهرة	٥٠٠ فارس
» البهسلر	ضواحي مصر المتيقة	٣٠٠ فارس
» العايدى	ضواحي القاهرة ، على مسيرة يوم الى الشرق من المدينة	١٠٠٠ فارس
» الحبايية	على مسيرة يوم ونصف من القاهرة فى الصحراء	٦٠٠ فارس
» نصف سعد	نفس المكان	٣٠٠ فارس
» بلى	شرحه	٣٠٠ فارس
» الزناتى	شرحه	٢٠٠ فارس
» الطميلات	واد يحمل نفس الاسم كانت تمر به فيما مضى ترعة السنويس المسماة خليج أمير المؤمنين	٥٠٠ فارس

المصادر والمراجع	ملاحظات
من مذكرات الرحوم ميخائيل صباغ .	. . . . .
شرحه ، وكذلك من مذكرات الدكتور رونائيل .	. . . . .
من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها . شرحه  شرحه	كانت لهذه القبيلة علاقات كثيرة قودية مع الفرنسيين المواطنة متحالفون مع القبيلة السابقة . وكان شيخها الذي تعرفنا به شخصيا في عام ١٧٩٩ يسمى الشيخ محمد بن صالح . . . . . .
شرحه ، ومن مؤلف المسيو مايو Mayeux من مذكرات ميخائيل صباغ شرحه، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .	يجد المرء بالمثل عربانا يحملون نفس الاسم بالقرب من اهرام الجيزة . تنقسم هذه القبيلة الكبيرة العدد الى فروع كثيرة اسمؤها مجهولة لنا . كانت هذه القبائل الأربع وبخاصة القبيلتين الأخيرتين في حالة حرب ضد الفرنسيين .
من مذكرات ميخائيل صباغ ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا .	. . . . .



## عرب

اسم القبيلة	أماكن إقامتها	العدد المفترض
عرب العايد » قلازين » الجبارات » العمارين	مناطق التل ، وعراق المنشية	مجهولة العدد
» بكير	بين غزة وجبل الخليل وهو مقر القبيلة القديمة يهوذا وتعد الخليل مدينة مقدسة منذ زمان طويل باعتبارها مكان قبر ابراهيم	. . .
» الوحيدات	بين العريش وغزة وفي الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقى من هذه المدينة الأخيرة	٣٠٠٠ فارس على الأقل
» الإمارة	ضواحي الرملة واللد ( ديوسبوليس القديمة )	٢٠٠-٣٠٠ فارس
» ابو كشك	شواطئ النهر الذى يجرى الى الشمال من يافا والمرتفعات التى تطل على هذه المدينة	٢٠٠ فارس

المصادر والمراجع	ملاحظات
<p>مستخلصة من مذكرات السورى خليل مسعد</p> <p>شرحه</p>	<p>كان شيخ القبائل فى عام ١٧٧٩ يسمى ابن حسين الدايمى وحيدى</p> <p>. . . . .</p>
<p>من معلومات استخلصناها من نفس أماكنها ، وكذلك من مذكرات د. رونائيل .</p>	<p>تسيطر هذه القبيلة القوية على كل البلاد الواقعة أسفل خط عرض ٣١ بين البحر المتوسط والبحر الميت وينتمى إليها على الدوام شيوخ القبائل المجاورة وتنقسم الى عدة فروع أشهرها عادة عرب عايشة او عايشية الذين يقطنون بالقرب من غزة .</p>
<p>من معلومات استخلصناها من نفس أماكنها وكذلك من مذكرات السورى خليل مسعد .</p>	<p>يقوم الامارة عادة بحراسة الأشخاص الذاهبين للحج الى بيت المقدس وفى عام ١٧٩٩ كان شيخهم يسمى سلامة الأمير .</p>
<p>مستخلصة من معلومات نقلها إلينا يعقوب حبيب شيخ الشيفا عمر فى سوريا .</p>	<p>كان شيخ هذه القبيلة فى عام ١٧٩٩ يسمى أحمد بكر .</p>

العدد المفترض	اماكن اقامتها	اسم القبيلة
قليلو العدد	نفس المناطق	عرب الملاح ( او باعة الملح ) عرب عدوان » المسعودى
» »	ضواحي القدس الشريف	
» »	تجاور القبيلة السابقة وتعيش كذلك على شواطئ نهر الأردن	
» »	يعيش هؤلاء العرب في القوافل التي تقابلها بالقرب من تيسارية فلسطين ويرون على الدوام يتجولون في اطلال هذا المقر القديم للملبيين	» النفعيات
قليلو العدد لحد كبير	نفس المناطق	» السعدية
» »	» »	» الحوارث
» »	المناطق الواقعة بين تيسارية وروحة وشواطئ البحر حتى طنطورة	» النعميات
٢٠٠ فارس	البلاد الواقعة بين المرج وروحة أى سهل جبرائيل القديم أو سهل ازدريلون المشهور بخصوبته ومراعيه	» براريش
٢٠٠ فارس	جبل الكرمل	» المساعيد
٢٠٠ فارس	المناطق الخلفية الجبلية من بلدة نابلس ، وهى شكيم القديمة في بلاد السامرة	» زبيدات
قليلو العدد	البلاد الواقعة بين يافا ونابلس التي كانت تسكنها قديما قبيلة أمراهم	» السنائرة

المصادر والمراجع	ملاحظات
من مؤلف المسيو مايو	. . . . .
من مذكرات الشيخ يعقوب حبيب	. . . . .
» » » »	. . . . .
شرح و كذلك من معلومات حصلنا عليها بأنفسنا .	كان شيخهم في عام ١٧٩٩ يسمى عبد الله السراب .
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	نستخلص أن هذه القبيلة هي نفس القبيلة التي يشير إليها روفائيل باسم باراريش في مذكراته .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الغابة	المناطق التي تشكل ممتلكات قبيلة منسى	شرحه
» الصقر	الصحراء الواسعة التي تمتد من شرق البحر الميت والتي كانت فيها مضي موطنًا للرعاة المؤابيين .	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس
» الحلف	ضواحي صفد	قليلو العدد
» العوج	مكان يسمى العوجة	شرحه
» التركمان	من قاتون حتى جسر ابن عامر	شرحه
» الصقر بادية	ابتداء من هذا الجسر حتى بيسان وهي مدينة بيتشان القديمة في نابلس	العدد مجهول
» السمكية	بين جسر بنات يعقوب والقنيطرة	كثرة العدد
» السميرات	نفس المناطق	شرحه
» الجمائين	شرحه	»
» تركمات الثلجية	ضواحي القنيطرة من جهة الشرق وهي بلدة كثيرة الاشجار .	العدد مجهول

المصادر والمراجع	ملاحظات
<p>شرحه ، وكذلك مفكرة الدكتور روغائيل .</p> <p>معلومات استخلصناها في نفس أماكنها ومن معلومات قديما يعقوب حبيب وكذلك من خريطة المسيو بولتر Poultre</p>	<p>وكما يدل عليها اسمها فان البلاد التي تقطنها كثيرة الأشجار .</p> <p>تقوم هذه القبيلة القوية الشكية بجولات متعددة في بلاد صندالتى كانت قديما جزءا من ممتلكات قبيلة نفتالى وحتى أسوار نابلس وعكا وصور .</p>
<p>من معلومات الشيخ يعقوب .</p> <p>شرحه ، وكذلك من معلومات السورى خليل مسعد</p>	<p>. . . . .</p> <p>كان شيخ هؤلاء العربان في عام ١٧٩٩ يسمى أبو كشك شأنها شان القبيلة التي تحمل نفس الاسم والتي ذكرناها آنفا :</p>
<p>شرحه</p> <p>يعقوب حبيب ومن معلومات استخلصناها في نفس أماكنها .</p> <p>ومن الجغرافى القديم دانفل d'Anville ج ٢ ، ص ١٧٧</p>	<p>لا يشترك هؤلاء التركمان الا في الاسم مع القبائل التي تسكن سهل انطاكية وضواحي الجنوب الغربي لميثق وبلدة عتية .</p> <p>يسكن هؤلاء العرب البلاد التي كانت فيما مضى تشكل جزءا من قبيلتى يساكر وزبولون ، وقد حاربوا وكذلك العرب الذين سنذكرهم بعد ذلك الفرنسيين فوق تل طابور .</p>
<p>يعقوب حبيب</p> <p>د. روغائيل</p> <p>د. روغائيل والشيخ يعقوب .</p> <p>شرحه</p>	<p>. . . . .</p> <p>. . . . .</p> <p>يتحدث هؤلاء العربية والتركية</p> <p>. . . . .</p>

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب نعيمات الشرقية	ابتداء من القنيطرة حتى منطقة تسمى الجيدور	كبيرة العدد
» خيط بواذى	جنوب بحيرة طبرية بين صفد وجسر بنات يعقوب	١٠٠٠ فارس
» مساعيد امارة وعرب الوهايب	ضواحي أريحا او جيركو القديمة	العدد مجهول
عرب كاظم امارة	الشواطىء الغربية للبحر الميت والجبال الواقعة الى شمال القدس الشريف	شرحه
» التمايية	من القدس الشريف حتى نهر الأردن	»
» الفهيدات	شواطىء نهر الأردن حتى بيسان	»
» الثمالبة	نفس الأماكن	العدد مجهول
» البشاتوه	الجبل الذى يشرف على بحيرة طبرية الى الشرق	قليلو العدد
» المشاليخة	نفس المناطق حتى نهر الأردن	»
» الغور	شواطىء البحيرة الصغيرة المسماة الحولة	٣٠٠ فارس
» صخور الغور	شواطىء بحيرة طبرية الى الشمال حتى البلاد التى يشغلها العرب السابقون (الغور) وهى بلاد منخرية	٣٠٠ فارس
» الغوارنة	نفس الأماكن	العدد مجهول
» الصبيح	ابتداء من شفا الغور حتى الجزء الاوسط من تلطابور	شرحه
» الذكاشرات	الى الغرب من القبيلة السابقة	

ملاحظات	المصادر والمراجع
هؤلاء العرب اثرياء فى مواشيهم	معلومات استخلصناها فى نفس اماكنها وكذلك الشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه ، وبخصوص العدد ، من مذكرة د. روفائيل .
المناطق التى تتجول فيها هذه القبائل العربية تشكل جزءا من املك قبيلة بنيامين	يعقوب حبيب
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
كان هذا السهل يشكل جزءا من ممتلكات قبيلة منسى .	»
. . . . .	شرحه وكذلك د. روفائيل .
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	الشيخ يعقوب
. . . . .	خليل مسعود
. . . . .	شرحه



## عرب

اسم القبيلة	اماكن اتامتها	العدد المقترض
عرب النمرات وعرب محمدات	ضواحي حاصبيا وظهر الهضبة السورية التي تتأخم بلاد المتاولة	العدد مجهول
» المباد	ضواحي البلقاء والسلط	كثيرو العدد
» اهتيم او » المدوان	صحراء بلقة وضواحي شفا الفور والسلط والزرقا	العدد مجهول
» الغنيمات	البلاد المعروفة باسم عمان وجرش الى الشرق من القبيلة السابقة	شرحه
» المهداوى	نفس المناطق	»
» بنى حسن	شرحه	»
» بنى كلاب	ضواحي ملكه	
» الموالى	البلاد الواقعة بين حمص وحماه وحلب	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارسي
» الحدايد	سهل يسمى الفوطه ويمتد بين لبنان والهضبة السورية	كثيرو العدد
» بنى سعيد	ابتداء من البقاع بالقرب من بعلبك حتى جبل الدروز	قليلو العدد
» الرشوان	يقضون الصيف في سوريا والشتاء في قونية	الف خيمة

المصادر والمراجع	ملاحظات
الشيخ يعقوب حبيب	. . . . .
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
شرحه وكذلك د. روفائيل .	. . . . .
شرحه ، أما بخصوص موضع الغوطة ، فمن المكتبة الشرقية Herbelot	. . . . .
شرحه	. . . . .
الشيخ يعقوب ، ومن مؤلف نشر حديثا وعنوانه : Itinéraire d'une partie de l'Asie Mineur	يتحدثون العربية والتركية لكن اسم قبيلتهم عربى بلا شك .

العدد المفترض	اماكن اقامتها	اسم القبيلة
العدد مجهول	شواطىء النهر المسمى النهر الكبير الذى يصب فى البحر بالقرب من اللاذقية	عرب القثلية
كثيرو العدد	ضواحي اللاذقية	عرب القدامسة
» »	شواطىء نهر العاصى	» قره حجلة
» »	الصحراء الواسعة الواقعة بين مكة والفرات واللجاة	» عترة
قليلة العدد	الصحراء الممتدة الى الجنوب من دمشق	» الهوارى
شرحه	الصحراء التى اشتهرت باسم اللجاة	» عرب السردية
»	الصحراء الواسعة التى تعرف اليوم كما كانت تعرف قديما باسم جبل حوران	» الدمالجة

المصادر والمراجع	ملاحظات
يعقوب حبيب ، د. روفائيل ، والمؤلف السابق ذكره	تتبع هاتان القبيلتان مذهب النزاريين
الشيخ يعقوب حبيب شرحه، د. روفائيل ، خريطة بولتر Poultre الخ الخ . الشيخ يعقوب ، خريطة بولتر .	. . . . . عنزة هو الاسم الأصلي لهذه القبيلة القوية التي تنقسم الى عدد لا حصر له من الفروع أشهرها فى سوريا بنى صخرة . هذه القبيلة ، البالغة الشهرة فى سوريا تشغل البلاد التى كان يقطنها فيما مضى العمونيون أو بنو عمون .
شرحه	. . . . . . . . . .

على الرغم من انه لا يدخل فى موضوعنا ان نعرف القارىء بالقبائل العربية التى تمسك فى مصر العليا والوسطى والسفلى ، وكذلك بتلك القبائل التى تتجول فى ضواحي الاسكندرية ، وعلى الرغم من ان المعلومات

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
مرب الهوارة	بين اسوان وجرجا	٢٠٠٠ فارس على الأقل
» العيسابدة واللببدة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
» زنتى	طهطا	٤٠٠ فارس
» هنادى او الهنادوة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
» المطايات	منفلوط	قليلو العدد
» ابن وافى والطحوى	الى الشمال من منفلوط	شرحه
» ابو كرايم ومنهم :	ملوى	»
» الجهمة	نواحي بحر يوسف حتى المنيا	»
» التراهونة	تلة	»
» الخوين	ضواحي سمالوط	»
» النوايد	ولاية بنى سويف	٣٠٠ فارس
» المعاديد	شرحه	العدد مجهول
» المسحرات		شرحه
» المحتر		»



اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب محارب	ولاية المنيا	شرحه
» بنى واصل	. . . .	»
ومنهم :		
» السمالو	. . . .	»
» الفرجان	. . . .	»
» الترامع	. . . .	»
» الغزايزى	. . . .	العدد مجهول
» بنى وائل	ضواحي المنيا	شرحه
» بنى حرام	ضواحي الأطفحية	٤٠٠ فارس
» الضعفا	ضواحي شمال بنى سويف	٢٠٠ فارس
» الخويلد	ولاية البهنسا	٤٠٠ فارس
» نجما	نفسى الأماكن	٢٠٠ فارس
» غزالة او خبيرى	ضواحي الجيزة والمناطق القاحلة بجوار الأهرام	العدد مجهول
» الزيدية	مكان يسمى أوسيم بالقرب من الجيزة	٣٠٠ فارس

المصادر والمراجع	ملاحظات
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
مستخلصة من ميخائيل صباغ	كان شيخها في عام ١٧٩٩ يسمى أبو بكر
شرحه	. . . . .
»	على الرغم من قلة عدد هذه القبيلة فهم مرهبون تماما في البهنسا.
»	. . . . .
»	. . . . .
»	كان شيخهم في سنة ١٧٩٩ يسمى أحمد
»	يقال انهم من نسل الماليك الذين طردهم السلطان نسليم من مصر عام ١٥١٧



اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الجويلى	ولاية البحيرة	٥٠٠ ، ٦٠٠ فارس
» ابن بغداد	ولاية المنوفية	٤٠٠ ، ٥٠٠ فارس
<b>ضواحي الاسكندرية</b>		
» الجوابى	نواحي بحيرات الفطرون	٦٠٠ فارس
» السمالو	نفس الاماكن	٢٠٠ فارس
» مسينيد	المكان المسمى الميمون	٥٠٠ فارس
» اولاد على او بنى على	ضواحي الجنوب العربى من الاسكندرية	١٠٠٠ الى ١٢٠٠ فارس
» مطيرد	وادي الميمون على مسيرة يومين الى الغرب من الاسكندرية	

المصادر والمراجع	ملاحظات
ميخائيل صباغ	. . . . .
شرحه	. . . . .
	<b>وبحيرات النظرون</b>
شرحه، ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها	يبدو ان عرب الجوابى من اصل افريقى ، وهم يقومون بنقل ملح النظرون من البحيرات حتى الاسكدرية والطرانة وينقل البضائع الخاصة بواحة آمون ( سيوه )
ميخائيل صباغ	. . . . .
شرحه	. . . . .
شرحه، ومن معلومات استخلصناها من نفس أماكنها	هذه القبيلة قوية بنفسها وبحلفائها ويسكن شيخها قرية تسمى القتلية بناها اجداده الى جوار الدير الحرق
شرحه	. . . . .

# الفهرس

المقدمة . . . . . ٧

الدراسة الأولى : جولة في إقليم المريوطية ، تأليف  
جراتيلان لوبير . . . . . ١٧ — ٤٠

الدراسة الثانية : رحلة الى وادي النظرون ، تأليف  
الجنرال أندريوسى . . . . . ٤١ — ٧٨

الفصل الأول : عن وادي النظرون . . . . . ٤٥

الفصل الثانى : طبوغرافية البحر الفارغ . . . . . ٥٥

الفصل الثالث : عن الأديرة القبطية . . . . . ٦٣

الفصل الرابع : عن عرب الجوابى وعن البدو . . . . . ٦٨

الدراسة الثالثة : دراسة موجزة عن عيون موسى ، تأليف  
ج. مونج . . . . . ٧٩ — ٨٦

الدراسة الرابعة : ثمانية وعشرون يوما في سيناء ، تأليف  
ج. كوتل . . . . . ٨٧ — ١٣٤

الدراسة الخامسة : رحلة الى بنى سويف والفيوم ، تأليف  
ب.م. مارتان . . . . . ١٣٥ — ١٩٢

القسم الأول : ولاية بنى سويف . . . . . ١٤١

القسم الثانى : ولاية الفيوم . . . . . ١٥٢

## الدراسة السادسة : العرب والعريان في مصر الوسطى

تأليف ا. جومار . . . . . ١٩٣ — ٢٤٤

**الفصل الأول : العرب المزارعون** . . . . . ١٩٧

١ — القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد . ١٩٧

٢ — القبائل التي استقرت حديثا . . . . . ٢٠٨

## الفصل الثاني : العرب المحاربون أو العريان الرعاة

أو الرحل . . . . . ٢٢٨

## الدراسة السابعة : القصر والمعبدة ، تأليف دى بوا —

أيميه . . . . . ٢٤٥ — ٢٦٠

## الدراسة الثامنة : القبائل العربية في صحراوات مصر ،

تأليف دى بوا — أيميه . . . . . ٢٦١ — ٣١٠

## الدراسة التاسعة : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ،

تأليف دى بوا — أيميه . . . . . ٣١١ — ٣٧٢

**الفصل الأول :** . . . . . ٣١٢

— مقدمة : . . . . . ٣١٣

— عن الأسفار . . . . . ٣١٦

— عن الرعاة الرحل . . . . . ٣١٧

— إبراهيم . . . . . ٣١٩

**الفصل الثاني :** . . . . .

— عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر . . . . . ٣٢٧

— عن فتح مصر على يد الزعامة وعن العبرانيين منذ وفاة

يوسف حتى هروبهم الى الصحراء . . . . . ٣٣٢

- هروب العبرانيين الى الصحراء . . . . . ٣٣٩
- مسيرة العبرانيين في الصحراء حتى المنطقة التي عبروا  
عندها البحر الأحمر . . . . . ٣٤٣
- عبور البحر الأحمر . . . . . ٣٤٦
- المياه المرة تصبح مياه عذبة . . . . . ٣٥٤
- عن السحاب وعمود النار وعن بعض الظواهر الأخرى  
المثيرة للانتباه . . . . . ٣٥٦
- الشريعة تنزل على جبل سيناء . . . . . ٣٦١
- موت موسى . . . . . ٣٦٨

**الدراسة العاشرة : حصر للقبائل العربية التي تقطن بين**

**مصر وفلسطين ، تأليف اميديه جوبير . . . . ٣٧٥ - ٣٩٧**

# كتب أخرى للمترجم

## أولاً : فى مجال الأدب :

- ١ - المطاردون (مجموعة قصص قصيرة).
- ٢ - حكايات من عالم الحيوان.
- ٣ - المصيدة (مجموعة قصص قصيرة).
- ٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف جان بول سارتر).
- ٥ - السماء تمطر ماء جافاً.
- (رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها).

## ثانياً : فى مجال التاريخ :

- ١ - تطور مصر من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٠، تأليف مارسيل كولمب.
- ٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية. تأليف أندريه ريمون.

## ثالثاً : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر :

### تأليف علماء الحملة الفرنسية .

- ١ - المصريون المحدثون.
- ٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها.
- ٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية.
- ٤ - الزراعة، الصناعات والحرف، التجارة.
- ٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية.
- ٦ - الموازين والنقود.
- ٧ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين.
- ٨ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين.
- ٩ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين.
- ١٠ - مدينة القاهرة - الخطوط العربية على عمائر القاهرة.

#### **رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :**

١ - المجلد الأول والثاني للوحات الدولة الحديثة.

٢ - المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة.

#### **خامساً : من موسوعة وصف مصر :**

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ - كيف خرج اليهود من مصر القديمة.

٢ - مدينة الإسكندرية.

٣ - مدينة رشيد.

رقم الإيداع / ١٤٩٠٢ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولي / I.S.B.N.977-01-8073-0





تمت الطباعة بالتعاون مع  
شركة نهضة مصر للطباعة والنشر